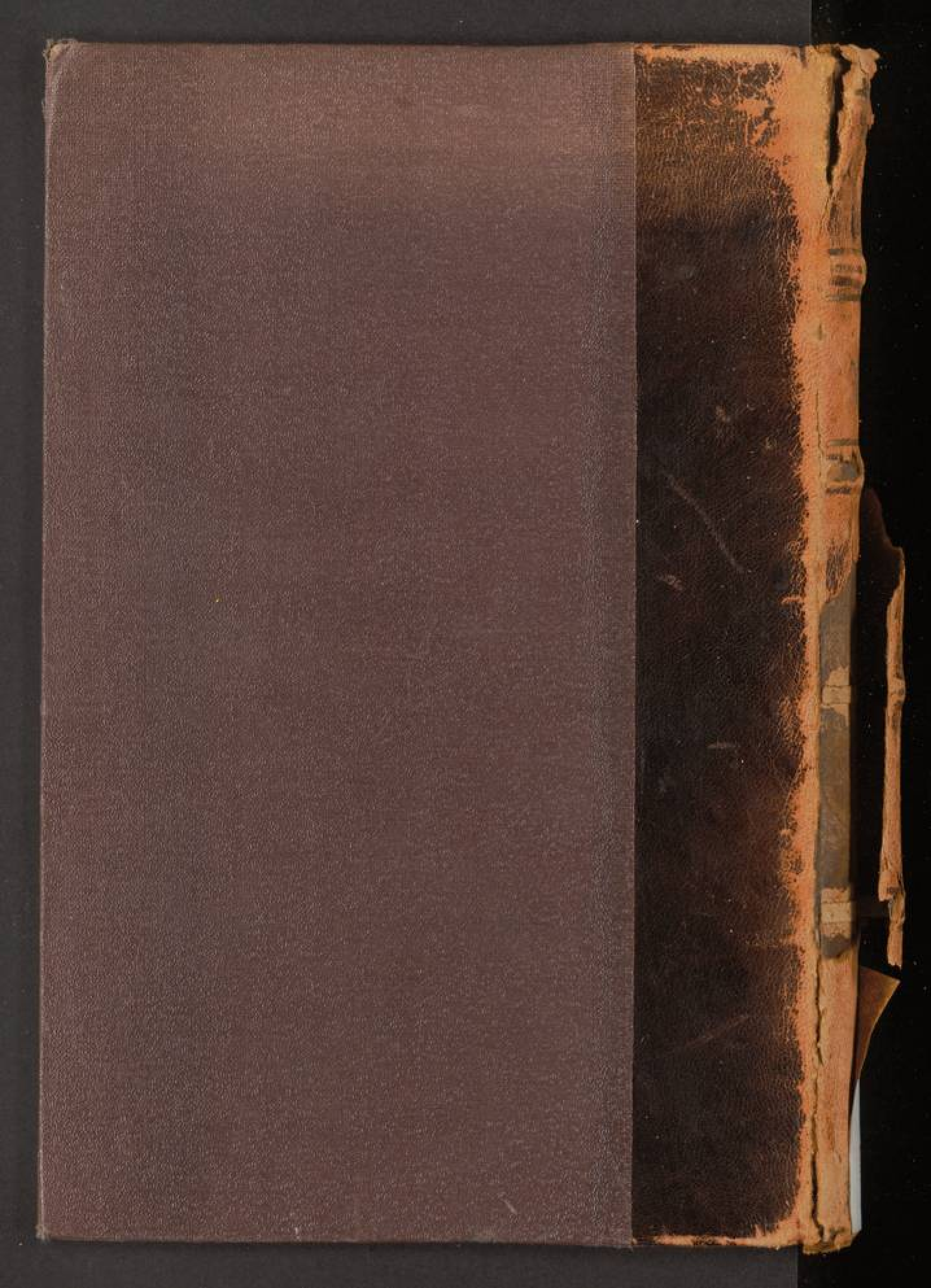
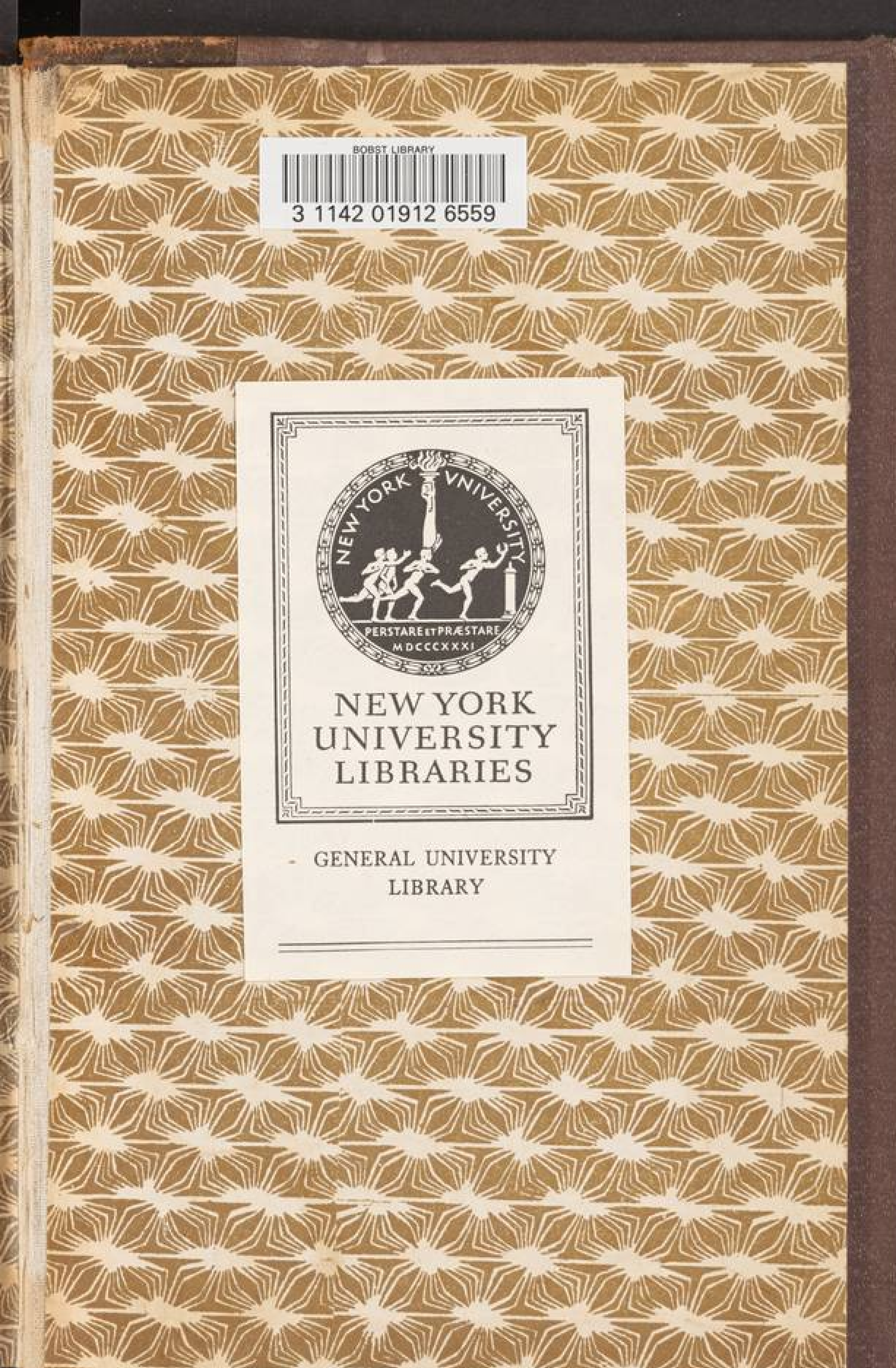
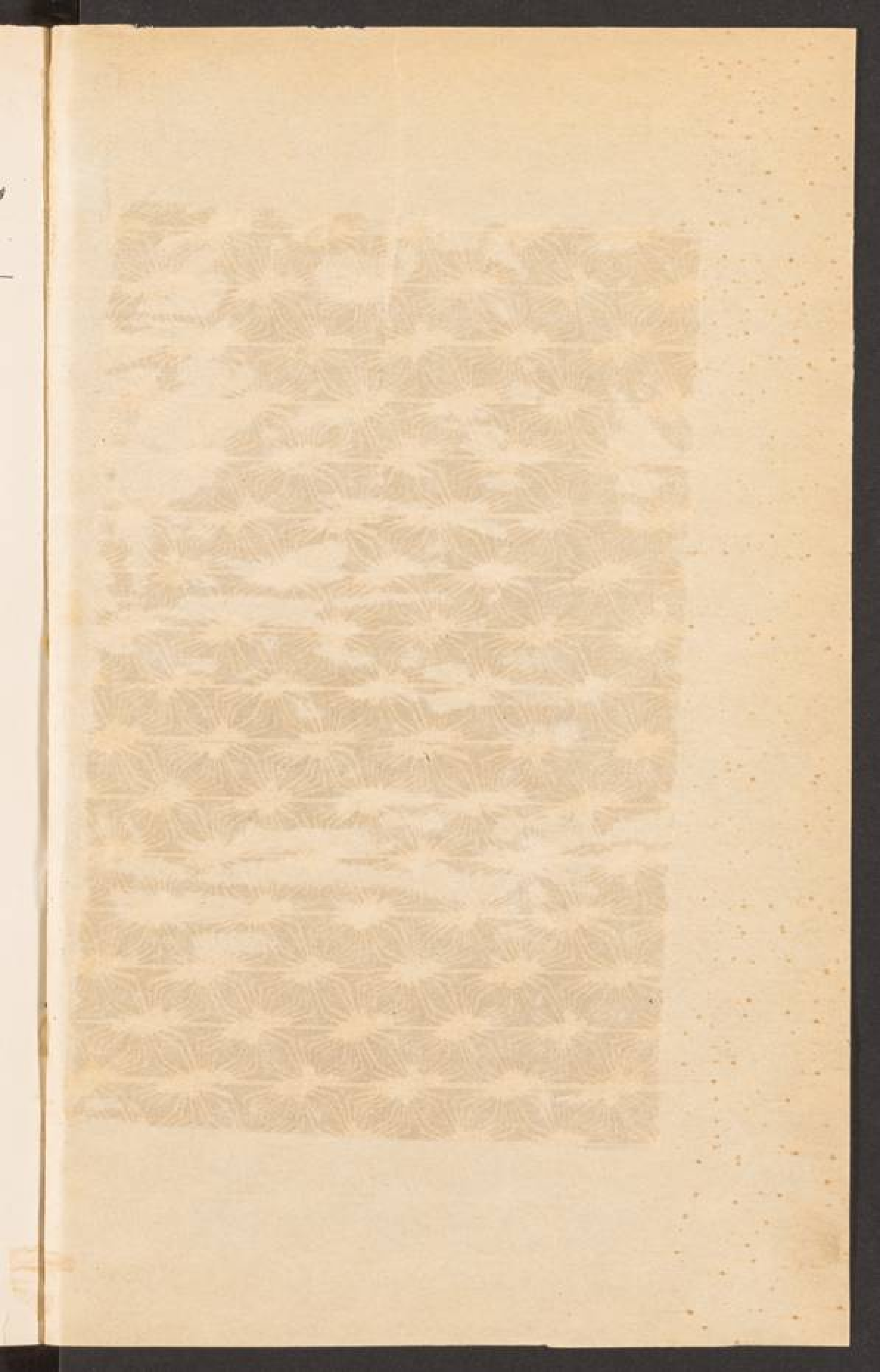



BOBST LIBRARY
3 1142 01912 6559
NEW YORK VNIVERSITY
PERSTARE ET PRÆSTARE
MDCCCXXXI
NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES
GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY





٢ تاريخ الاسلام السياسي ٢

حروب الاسلام والامبراطورية الرومية

فتح الشام – مصر – افريقية الشمالية

تأليف

أمين سعيد

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

للمؤلف :　　　　　　　　　　سنة

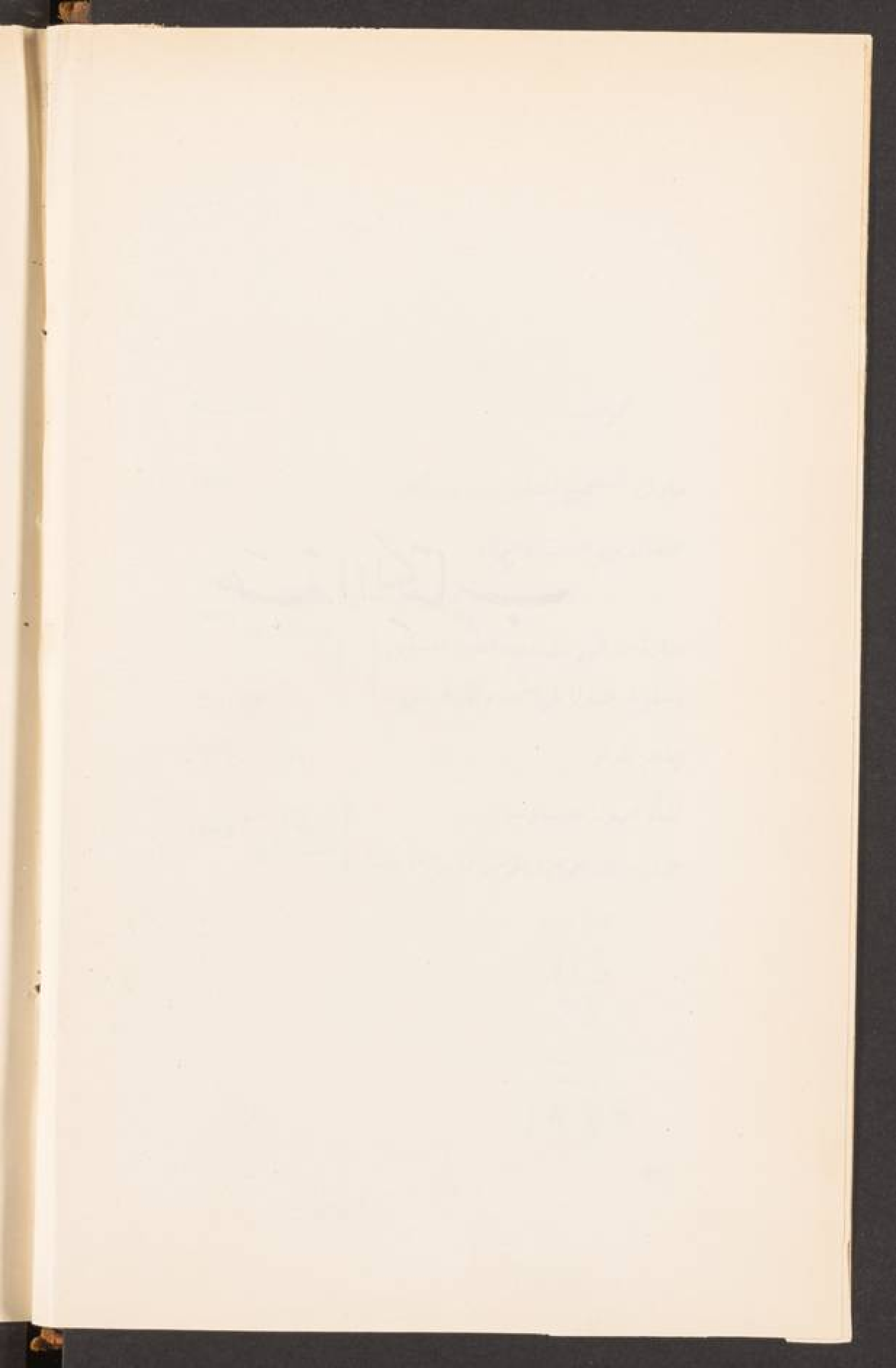
ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم　　١٩٣٣

النضال بين العرب والترك
» » » والفرنسويين والانكليز
امارة شرقي الاردن وقضية فلسطين
وسقوط الدولة الهاشمية وثورة سورية
(الثورة العربية الكبرى)　　١٩٣٤

ايام بغداد　　١٩٣٤

نشأة الدولة الاسلامية
حروب الاسلام والامبراطورية الرومية
(تاريخ الاسلام السياسي)　　١٩٣٥

هَذا الكِتابُ



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلاما على سيدنا محمد النبي العربي وعلى آله واصحابه والتابعين ، واخوانه من الانبياء والمرسلين ، ولا حول ولا قوة الا بالله منه نستمد العون وبه نستعين

اما بعد فهذا هو الكتاب الثانى من تاريخ الاسلام السياسى اقدمه للعالم الاسلامى وارجو ان ينال من الاقبال والرواج ما ناله صنوه الكتاب الاول

لقد وقفت هذا الكتاب على اخبار الحروب التى دارت بين الاسلام والامبراطورية الرومية [1] من السنة الخامسة للهجرة حتى سنة ٣٣ (٦٢٦م - ٦٥٤م) وقد بدأت بالغارات النبوية على مناطق الحدود الحجازية - الشامية ثم انتقلت الى المعارك التى حدثت فى عهد الخلفاء الثلاثة ابى بكر وعمر وعثمان وقد تم فى خلالها فتح الشام وكيليكية وفلسطين ومصر وبرقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر

والحقت بهذا الكتاب ست خرائط جغرافية تبين مواقع البلدان التى دارت فيها المعارك وخط سير الجيوش وهى :

١ - خريطة لبلاد الشام او سورية الكبرى وهى شرق الاردن وفلسطين وسورية ولبنان وكيليكية

٢ - خريطة لمعركة اليرموك الكبرى تمثل وادى اليرموك والقرى المجاورة له

٣ - خريطة للفتح العربى فى مصر تمثل خط سير الجيش العربى منذ دخوله العريش حتى بلوغه الاسكندرية وتبين المواقع التى مر بها

٤ - خريطة لحصن بابليون الشهير (مصر القديمة) تمثله بحالته الحاضرة

٥ - خريطة للفتح العربى فى افريقية الشمالية وتضم برقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر والمغرب الاقصى

٦ - خريطة للدولة الاسلامية فى سنة ٣٥ للهجرة اى فى اواخر عهد الخليفة

---

(١) اصطلح المسلمون على اطلاق اسم الروم على دولة بيزنطية Byzantium بالقسطنطينية وهى غير دولة الرومان فى رومه فقد قامت هذه وبادت قبل ظهور الاسلام

عثمان وهى ترسم صورة للاقطار التى بسط عليها الاسلام سلطانه فى خلال تلك الفترة القصيرة

واثبت الى جانب كل بلدة قديمة اسمها والاسم الجديد اذا كان لها

رسوم الكتاب

وفى الكتاب ايضا طائفة من الصور الأثرية الثمينة وهى :

١ ـ صورة المكان الذى يظن ان عمر بن الخطاب صلى فيه حين زيارته لكنيسة القيامة فى بيت المقدس

٢ ـ صورة مسجد خالد بن الوليد فى حمص وهو المكان الذى دفن فيه سنة ٢١ هـ

٣ ـ مدينة قيسارية القديمة

٤ ـ ميناء قيسارية

٥ ـ قلاع قيسارية

٦ ـ صورة لجامع عمرو بن العاص فى الفسطاط (مصر القديمة)

٧ ـ صورة الباب القبلى لحصن بابليون

٨ ـ صورة احد برجى حصن بابليون (مصر القديمة)

٩ ـ بقايا حصون الاسكندرية (قلعة قايتباى)

١٠ ـ بقايا حصون الاسكندرية (قلعة نابليون)

١١ ـ مدينة برقة

١٢ ـ مدينة طرابلس الغرب

١٣ ـ قرطاجنة (عاصمة تونس القديمة)

١٤ ـ مدينة صفاقس (تونس)

تلك هى الصور التى حلينا بها جيد هذا الجزء ومعظمها أثرى نفيس وقد قاسينا مشقات فى سبيل الحصول عليها

مصادر الكتاب

وقد اعتمدت فى سرد اخبار فتح الشام وفلسطين على رواية المصادر العربية وعلى ما كتبه بعض المستشرقين ، كما اعتمدت فى سرد اخبار فتح مصر على رواية المؤرخين العرب والاجانب وفى مقدمتهم حنا النقيوسى اسقف نقيوس وقد عاش فى النصف الثانى من القرن السابع للميلاد فهو من الذين عاصروا الفتح العربى لمصر تقريبا سنة (٦٤٠ - ٦٤٣) ويعد كتابه اقدم كتاب كتب عن هذا الفتح

لقد وضع النقيوسى كتابه فى الاصل ليكون تاريخا دينيا وكتبه بالقبطية ثم نقل الى الحبشية . وقد عثروا عليه فى النصف الثانى من القرن الماضى فى دير بالحبشة فنقلوه الى اللغة الفرنسوية ونشره المسيو زوتنبرغ Zotenberg باللغتين الفرنسوية والحبشية سنة ١٩٠٤ بباريس بمساعدة المعهد الوطنى الفرنسوى . وعثرت على نسخة منه فى المكتبة القبطية فى داخل حصن بابليون بمصر القديمة الى جانب المتحف القبطى فقرأتها بامعان ولا يختلف وصفه للفتح من حيث الجوهر عن وصف مؤرخى العرب بل يزيد عليهم فى تفصيل بعض الحوادث . ومما تفرد به النقيوسى وصف غزوة عمرو للفيوم بعد وصوله الى بابليون وشروط المدنة ثم الصلح بين عمرو وقيرس . وعلى كل فان كتابه هذا يعد من المستندات الثمينة التى لا يستغنى عنها كاتب تاريخ فتح العرب لمصر

وعثرت فى المكتبة القبطية على تاريخ البطارقة الاقباط لمؤلفه الاسقف ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونين وهو من رجال القرن العاشر المسيحى وقد وضعه باللغة العربية ونشر فى باريس باللغتين العربية والانكليزية سنة ١٩٠٤ نشره المسيو ب . ايفت B. Evett ويقول الاسقف ساويرس انه « استقى المعلومات التى ضمنها تاريخه من دير القديس ابى مقار ودير نهيا وغيرهما من الديارات

وما وجـده فى ايدى النصارى منها اجزاء متفرقة » وقد نقلت منه اقواله فى « فتح مصر والسودان » فقد وصف فتح العرب لمصر ، وهو يورد سيرة البطريرك بنيامين احـد بطاركة القبط الذين عاصروا الفتح للمقابلة بين اقواله و بين ما جاء فى الكتب العربية القديمة

واعتمدت فى كتابة الجزء الخاص بفتح افريقيـة الشماليـة على ما اورده ابن عذارى المراكشى صاحب كتاب البيان المغرب فى اخبار المغرب وهو من الكتب القديمة النادرة وقد نشره حديثـا احـد المستشرقين وعثرت على نسخة منه فى مكتبة الجامعة المصرية كما اعتمدت على مصادر اوربيـة اخرى و بالاجمـال فقد عملت جهد الطاقة للحصول عـلى المستندات الوثيقـة ولم اعتمد الا عـلى الصحيح من الروايات والمعقول من الاخبار

زيارة الاماكن

واغتنمت الفرص فزرت الاماكن التى مر بها جيش عمرو بهذا القطر فطفت القنطرة و بلبيس والفسطاط والفيوم والطرانة وابشادى والشهداء والاسكندرية باحثا عن آثار الفتح العربى و وصفت ماعثرت عليه فى متن الكتاب

ولم اعثر فى ابشادى ، وقد رجح معظم الذين كتبوا فى تاريخ فتح العرب لمصر ان تكون نقيوس ، ولا فى منوف ولا فى الشهداء وهى متجاورة لا على اثر عربى ولا على اثر رومى يستدل به على وجود الحصن وان كان اهل الشهداء يؤكدون ان المعركة الكبيرة بين عمرو ومانويل قائد الغارة الروميـة دارت فى مدينتهم وان الشهداء الذين استشهدوا فيها دفنوا فى ثراهم ، فاضيفت المدينـة اليهم وكان من جملتهم محمد بن شبل بن العباس وله مسجد يزار ويقصد مما لاتؤيده المصادر التاريخية الصحيحة وان كنا لا نشك ـ اعتمادا على رواية الثقات من المؤرخين بان نقيوس كانت فى المنطقة التى وصفناها من مديرية المنوفية وهى منوف ـ الشهداء ـ ابشادى دون غيرها

ثناء على افاضل

وقبل القاء القلم لا بد لى من اسداء كلة شكر الى حضرة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار العالم المصرى والاستاذ الشيخ عمر الطيبى الاديب الدمشق والاستاذ الشيخ طاهر احمد الزوى الاديب المغربى فقد اطلع كل منهم على الجزء الخاص بفتح قطره قبل مثوله للطبع فصحح فيه وابدى ملاحظات قيمة عليه

وكذلك تطوع الاستاذ عمر الطيبى الدمشق فزار وادى اليرموك مع مهندس ووضع له الخريطة المفصلة التى نشرناها واستند فى وضعها على اصح اقوال المؤرخين القدماء وعلى ماشاهده بنفسه فى خلال زيارته لذلك الوادى التاريخى

نظام الحكم فى دولة الخلفاء الراشدين

ولقد انجزت وضع الجزء الثالث من هذه السلسلة وهو (نظام الحكم فى دولة الخلفاء الراشدين) وهيأته للطبع وسيصدر قريبا ان شاء الله وهو خاص بالانظمة الادارية والسياسية والقضائية والمالية والتشريعية فى دولة الخلفاء الراشدين وقد درستها دراسة وافية مفصلة وبدأت بما وضعه الرسول الاعظم منذ قيامه بنشر الدعوة الاسلامية حتى وفاته . واتبعت هذه الخطة فى دراسة ادوار الخلفاء الاربعة الادارية والسياسية والقضائية واثبت خطبهم ورسائلهم السياسية و بلاغاتهم الادارية والقضائية ومعاهداتهم واتفاقاتهم على منوال حديث لم يسبق اليه

الدولة الاموية

اما الجزء الرابع فهو خاص بالدولة الاموية وتبتدىء بتنازل الحسن ومبايعته لمعاوية وانتقال العاصمة الى دمشق وقيام الدولة الجديدة وظهورها سياسيا

ومنه سبحانه وتعالى نستمد العون فى البدء والختام

القاهرة فى ١٨ ذى الحجة سنة ١٣٥٣ و ٢٣ مارس سنة ١٩٣٥

امين سعيد

مَصَادِرُ الكِتَابِ

الكتب القديمة

صحيح البخارى

سيرة ابن هشام

تاريخ ابن جرير الطبرى

« ابن خلدون

« ابن كثير

« ابن عساكر

« ابن الاثير

البيان المغرب فى اخبار المغرب لابن عذارى المراكشى

النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة

تاريخ طرابلس الغرب

الكتب الحديثة

اشهر مشاهير الاسلام

تاريخ الامة القبطية ليعقوب نخله روفيله

تاريخ سورية ليوسف الدبس

دائرة المعارف العربية للبستانى

الكتب الاجنبية

دائرة المعارف البريطانية

Encyclopidia Britanica

دائرة المعارف الاسلامية

Encyclcopédie de L'islam

فتح العرب لمصر ـ لبطلر

تاريخ البطاركة الاقباط لساويرس بن المقفع

تاريخ حنا النقيوس نشر بالفرنسوية سنة ١٩٠٤



تقويم

الخرائط الموجودة فى الكتاب

تقويم

الصور الموجودة فى الكتاب

امام صفحة

الغاراتُ في العهدِ النبّوي



١
الحجاز والشام

كانت هنا لك علاقات اقتصادية وتجارية واسعة النطاق بين الحجاز والشام ، فكان التجار المكيون يضربون اكباد الابل فى رحلات متتابعة يرحلونها بدون انقطاع الى بلاد الشام ، جارة الحجاز الشمالية ، حاملين نتاج بلادهم وما جاءت به قوافلهم من اليمن والهند والعراق فينزلون بصرى ودمشق وحمص والقدس وغزة وغيرها من المدن والبنادر التجارية الكبرى فيبيعون ويبتاعون

وكان تجار النبط من أبناء البتراء ـ وكانت من اراضى الدولة الرومية ـ يقصدون المدينة وشمالى الحجاز للتجارة حاملين الميرة والطعام ، وليستوردوا البلح وغيره من المحصولات الاخرى

وكانت قافلة قريش الكبرى ، وهى القافلة التى خرج المسلمون للقائها يوم بدر فدارت المعركة الكبرى بسببها ، تقصد بصرى كل سنة ويقال ان عدد جمالها ما كان يقل عن الالف ، تسافر موقرة وتعود مثقلة ، وكانت مكة كلها تشترك فى اعداد هذه القافلة ، بموجب نظام اقتصادى محكم ، فيستغل كل واحد من ابنائها ما ادخره من مال ، ويقال ان رأس مالها كان يرتفع فى بعض السنين حتى يبلغ ملايين من الدنانير ، كانت مكة تشترك فى دفعها وتجنى من ورائها الارباح الطائلة . ونمت تجارة قريش وازدهرت فى خلال الحروب الاخيرة التى دارت بين الفرس والروم فى السنوات التى تقدمت الفتح الاسلامى ، فازدادت قوافلها وكثرت ارباحها لانقطاع طريق الهند بسبب تلك الحروب وقد استمرت من سنة ٦١٤ حتى ٦٢٤ اى حتى جلاء الفرس عن الشام ومصر على يد هركليوس كما جاء فى الكتاب الاول

وكان عرب الحجاز ولاسيما قريش ، يعرفون اخبار الشام بالتفصيل و يتبعون سير الحوادث فى ربوعها ، لارتباط ذلك بمصلحتهم التجارية فما كان يخفى عليهم شىء مما يجرى هنالك ، وكانوا لا يفتأون غادين رائحين ، وليس هنالك حدود طبيعية تفصل بينهما ، وما عنى الروم بحدود الشام الجنوبية ، عنايتهم بحدودهم الشرقية (حدود ايران) لانهم ما كانوا يخشون عرب الجنوب ومالاح فى خاطرهم يوما من الايام بانهم يؤلفون خطرا على امبراطوريتهم وكانوا هم الذين قضوا عليها وألحدوها فى رمسها

وهكذا وجد المسلمون يوم ظهروا الطريق ممهدا لغزو الشام، كما وجدوا بينهم من يعرفها معرفة حقيقية لكثرة تردده عليها، وتجواله فى انحائها، فساعدهم ذلك مساعدة لاتنكر ، فكانوا يتنقلون فى داخلها بسهولة زائدة ويحسنون الكر والفر بين حصونها واسوارها لكثرة اختباراتهم و وفرة عدد الذين زاروها من رجالهم ، بعكس اعدائهم فما كانوا يعرفون الا القليل التافه من اخبارهم ، ومن حقيقة امرهم

٢

الاسلام والنصرانية

لم يقع بين الاسلام ونصارى الحجاز ـ وكان فيه عند ظهور الدعوة الاسلامية ولا سيما فى جنوبيه اى فى مكة جالية ـ ما وقع بينه و بين يهود الحجاز من خلاف ونضال

ولم يقاتل هؤلاء المسيحيون الاسلام ، وكان المسلمون ينظرون اليهم والى اليهود بعين الاحترام والعطف باعتبارهم من اهل الكتاب . ولما نشبت الحروب الكبرى بين القياصرة والا كاسرة تظاهر المسلمون بالعطف على الاولين لانهم من أهل الكتاب وتظاهرت قريش بالانحياز الى الفرس ، و ربما كان ذلك نكاية بالمسلمين اذ لم تكن هنالك علاقات وثيقة بينهم و بينها ، وقام سوق المناقشات والمجادلات فى مكة بين المسلمين وقريش حينما غلب الفرس الروم وانتصروا عليهم وانتزعوا منهم الشام ومصر وقالوا لهم لو كان اهل الكتاب من اتباع الحق والهدى كما تقولون ، لما كسروا ولما انهزموا ولما فاز عليهم عبدة الاوثان ؛ فرد عليهم المسلمون بانه لابد من انتصار الروم فى النهاية وتغلبهم ، و بلغ من امر ابى بكر انه راهن على انتصار الروم ، وقد نصروا فعلا بعد ذلك وفى القرآن الكريم اشارة الى هذا

ولا يعثر الباحث فى تاريخ الدعوة الاسلامية على حادث يستدل به على حصول جفاء بين الاسلام والنصرانية فى الادوار الاولى ، بعكس ما جرى بين الاسلام واليهودية . و يلوح لنا ان مصدر ذلك عدم وجود مطامع سياسية واقتصادية لهم ، بعكس اليهود ، وقد كانوا يسودون شمالى الحجاز كما اسلفنا ، يضاف الى ذلك ان عدد النصارى كان محدودا وكانوا ينزلون مكة و يزاولون المهن والصنائع المختلفة

من تعليم وطب وحدادة ونجارة وغيرها ، ولا يدخل فى هذا الاحصاء نصارى القبائل البعيدة عن مكة (نصارى نجران والعراق العربى) ولم تشترك فى النضال الذى دار بين الاسلام وخصومه

ولقى المسلمون الذين لجأوا الى بلاد الحبشة ـ وهى ارض مسيحية ـ رعاية وقرى ولما ارسلت مكة وفدها الى اكسوم يحمل هداياها الى صاحب العرش ، ويرجوه ان يسلم اليها المهاجرين من ابنائها لتنظر فى امرهم رفض باباه وشمم تسليمهم ، فظلوا فى امن ودعة حتى استقر المسلمون فى المدينة وتوطدت قواعد دولتهم الجديدة فعادوا اليها واشتركوا مع اخوانهم فى نشر الاسلام و بث دعوته

وجاء نصارى نجران الى المدينة بعد الفتح فاقرهم النبى على دينهم ، وقبل منهم الجزية ، لانهم من اهل الكتاب وما كان يقبلها من العرب الوثنيين ، ودارت مباحثات بين النبى والوفد حول العقائد فى الدين . وكثيرا ما اوصى الخلفاء باهل الكتاب من النصارى خيرا واشاروا باحترامهم ، وحسبنا ما جاء فى خطبة ابى بكر حينما ودع جيش اسامة (انظر ص ٢٠٥ من الكتاب الاول) ففيها الكفاية وفيها الغناء

٣

دول العرب فى عهد الامبراطورية الرومية (١)

دخل الروم الشام فى القرن الاخير قبل الميلاد وفيها دولتان للعرب : دولة البتراء او النبط فى الجنوب ، ودولة تدمر فى الشرق فادالوهما وقضوا عليهما

دولة الانباط

قامت مملكة البتراء قبل المسيح بين فلسطين وخليج العقبة وكانت عاصمتها وادى موسى واستولى ملوك هذه الدولة على دمشق والبقاع و وصلوا حتى حدود لبنان الشرقية فحاربهم الروم بعد ما استقرت اقدامهم فى دمشق وقضوا على استقلالهم وادمجوهم فى دائرة امبراطوريتهم ، فقد حمل عليهم الامبراطور تراجان فى سنة ١٠٦ بعد الميلاد وهزمهم و يقال ان عدد ملوكهم بلغ ١٤ ملكا

ويرى بعض الباحثين ان الانباط من ولد نابت بن اسماعيل ، جد العرب ، و يعدونهم فى العدنانيين ، رحلوا من مكة نحو الشمال ، فى قرون مجهولة فنزلوا فى ديار ثمود وهى واقعة بين محطتى العلا وتبوك من محطات سكة حديد الحجاز ، ثم استقروا فى وادى موسى وانشأوا هذه الحكومة ولا يذكر المؤرخون بالضبط زمن قيامها وان دونوا زمن سقوطها

---

(١) اصطلحنا على اطلاق لفظ الروم على الرومان عملا بما سماهم به القرآن الكريم فى قوله « الم غلبت الروم »

دولة تدمر

اما دولة الشرق تدمر ، فقد ضمت الى الروم فى سنة ٣٦ قبل الميلاد على يد القائد مرقص انطنيوس ثم نالت حقوق مستعمرة رومانية،وحارب بعض ملوكها الروم بعد ذلك وحاولوا نقض عهدهم فساق هؤلاء الجيوش عليهم وهزموهم . وآخر ملوك هذه الدولة هى زينب او الزباء او زنوبا وقد ظهرت فى اواخر القرن الثالث للميلاد ، فانتشر نفوذها فى معظم بلاد العرب الغربية نخافها الروم وسيروا الجند لقتالها فتم لهم النصر عليها ودخلوا عاصمتها فى اول سنة ٢٧٣ فقبضوا على زينب نفسها واخذوها الى روما بعد ما خربوا تدمر ودمروها ، وبذلك نصر الروم على هاتين الدولتين العربيتين وقد كان لهما شأن فى تلك العصور وكانت بلادهما ممرا للتجارة وواسطة الاتصال بين الشرق والغرب

دولة بنى غسان

وحلت دولة بنى غسان فى حكم جنوبى بلاد الشام محل الانباط فى وادى موسى ويميل معظم المؤرخين الى الاعتقاد بان اصل الغسانيين من قحطان ، هاجروا من اليمن على اثر حادث سد مأرب فهبطوا عسير والحجاز ثم قصدوا نجدا ثم انتقلوا الى البلقاء وتغلبوا على الضجاعمة من قضاعة وحلوا محلها فكثر عددهم واتسع نفوذهم ، فراى الروم ان من مصلحتهم ان يستعينوا بهم فى حفظ امن البادية وفى حروبهم مع الفرس فقربوهم منهم

و بين المؤرخين اختلاف فى عدد ملوك هذه الدولة وفى تاريخ ظهورها ، فيقول بعضهم ان عدد ملوكها ٣٢ ملكا حكموا من سنة ٢٢٠ للميلاد حتى سنة ٦٣٢ و يجعل غيرهم عدد ملوكها عشرة فقط هذه اسماؤهم :

جبلة ابو شمر
الحارث بن جبلة
المنذر ابو كرب بن الحارث
النعمان بن المنذر الغسانى
الحارث الاصغر بن الحارث الاكبر
الحارث الاعرج بن الحارث الاصغر
النعمان بن الحارث الاصغر
عمرو بن الحارث الاصغر
حجر بن عمرو

من سنة ٥٠٠ الى سنة ٦١٤

وختم ملكهم بجبلة بن الايهم وقد اسلم فى خلافة عمر بن الخطاب اى بعد اليرموك ثم ارتد ولحق بالروم فى القسطنطينية ومات عندهم

وهنالك رأى وسط بين رأيى الفريقين : راى الذين يقولون ان عدد ملوكهم ٣٢ ورأى الذين يجعلونهم عشرة وهو مقبول ومعقول وخلاصته ان امر الغسانيين لم يعظم الا على يد جبلة ابى شمر فى اول القرن الخامس، فاشتهروا بواسطته وطار اسمهم واتسع نفوذهم ولم يكن لهم قبله كبير شأن وكان ملوكهم من قبله عبارة عن شيوخ قبيلة فقط ولذلك اهملهم المؤرخون ولم يعنوا باستقصاء اخبارهم ، يؤيد هذا ما رواه مؤرخو الدولة الرومية وهو ان الامبراطور جوستنيان اعترف للحارث بن جبلة بزعامة جميع القبائل العربية فى الشام ومنحه لقب رئيس الاسباط و بطريقها وكان هذا اعظم لقب عندهم و يأتى صاحبه بعد الامبراطور

بصرى

وكانت بصرى عاصمة هذه الدولة وهى على ١٧١ كيلو مترا من دمشق الى جنوبها الشرقى ومع انه ليس هناك حدود معروفة لهذه الدولة الا ان

دلائل الحال تدل ان حدودها كانت تشمل حوران الحاضرة مع جبل الدروز واللجاه شرقا ومعان جنوبا وابواب دمشق شمالا والزوية غربا وكان نفوذهم يضعف ويشتد تبعا لهمة الجالس على العرش ونشاطه . وقد استولوا فى بعض الادوار على دمشق نفسها وحكموها

وكان ملوك بنى غسان يتمتعون باستقلال واسع النطاق فى ادارة بلادهم داخل الامبراطورية ، وكانوا يعينون كما تدل الدلائل ـ بامر القيصر وبموافقته ـ وكان نفوذهم يشمل القبائل العربية الضاربة فى داخل بلادهم فقط وكان الى جانب كل امير من امرائهم قائد عسكرى رومى يتولى شؤون الدفاع وينظر فى امر الجند ، ومعنى ذلك انهم كانوا يزاولون السلطة الادارية وحدها . اما السلطة العسكرية فكانت فى يد القواد الروم

وادى الغساسنة للروم خدمات جليلة فى حروبهم مع الفرس ، وكما استخدم هؤلاء الغساسنة فقد استخدم اولئك المناذرة ، وكثيرا ماقتتل هذان القبيلان العربيان وهم من ابناء العمومة فكلاهما من قحطان ، وكثيرا مادارت بينهما المعارك فى بادية الشام وعلى حدود العراق وفى داخل حوران ، واراقوا دماءهم ، لادفاعا عن حق مهضوم ، ولا ردا لغارة ، ولا طلبا لسيادة ، وانما تأييدا للاجنبى المستولى على بلادهما وتوطيدا لنفوذه ، وذلك شأن الامم المغلوبة على امرها فى كل زمان ومكان وشأن المحتل الاجنبى فهو يسوق الاخوة وابناء الاعمام ليذبح بعضهم بعضا فيكون له الغنم وايهما فاز وانتصر ففى مصلحته وحده

ويقال ان اعظم المعارك التى دارت بينهما، تلك التى دارت بين الحرث بن ابى شمر الغسانى والمنذر الثالث قرب قنسرين (حى من احياء حلب الشرقية) فقد زحف الاول بجنده من الحيرة حتى بلغ الفرات فعبره عند (قرقميش واسمها الآن جرابلس وتبعد عن حلب ١٠٤ كيلو مترات الى شرقيها) ثم تقدم حتى قنسرين فلاقاه الحرث بنفسه ودارت معركة عنيفة بينهما انتهت بقتل المنذر وفوز الغسانى وليس هنا مكان للافاضة فى هذا الموضوع

ويلوح لنا ان الغسانيين فى حروبهم مع المناذرة ما كانوا يرمون الى اكثر من اضعاف خصومهم والحصول على الاسلاب والغنائم طبقا للطريقة البدوية القديمة ، وما كان الفريق الغالب منهم يفكر فى الاستيلاء على اراضى الفريق الآخر أو بلاده ، ولذلك ظل كل منهما محتفظا فى خلال سنى العراك الطويلة بحدوده تقريبا ، ولاتزال القبائل حتى الآن تسير على هذه القاعدة ، فلا تفكر قبيلة منها فى اغتصاب اراضى القبيلة التى تحاربها ولا فى اجلائها عنها بل تكتفى بالغنائم والاسلاب فى الغالب ، وحوادث اجلاء القبائل وحلول غيرها فى منازلها قليلة (ولا تدخل فى ذلك الهجرات الاختيارية) وقضى على هذه المملكة عند الفتح الاسلامى كما قضى على دولة المناذرة.

تقسيم بلاد العرب

وكما اقتسم الفرس والروم بلاد العرب فى تلك الايام وانشأوا فيها دولا وحكومات لئلا تجتمع وتتحد فتحاربهم وتتخلص من نيرهم ، فقد اتبع الفرنسويون والانكليز نفس هذه الطريقة فى هذه الاقطار اليوم ، فجزؤها وقسموها الى دول وامارات يحكمون بعضها مباشرة و بعضها بالواسطة فلا تتحد على قتالهم ولا تتفق على اجلائهم ، و بذلك يعيد التاريخ نفسه فى هذه الاقطار والامر لله من قبل ومن بعد.

٤

حالة الروم عند ظهور الاسلام

لم تكن حال امبراطورية الروم عند ظهور الاسلام ، مما يسأل دوام مثله ، فقد كانت تتردى فى هوة من الاضمحلال الاجتماعى ، والانحطاط الاخلاقى ، والاضطراب الداخلى ، تبشر بسوء المصير وتنذر بوخامة العقبى

نعم ان الامبراطور هركليوس Héraclius وهو الذى يسميه مؤرخو العرب هرقل فاز فى حروبه مع الفرس وتم له اجلاؤهم حربا عن القطرين المصرى والشامى وكيليكية والاناضول واعادتهم الى حدودهم الاصلية ، بعد ما قضوا سنوات يحتلون هذه الاقطار الواسعة ويهددون امبراطوريته نفسها بالدمار والفناء ، ومع ان من شأن مثل هذا الانتصار الباهر ، ان يعزز مقام الامبراطورية ويؤيد نفوذها فقد اثبت سير الحوادث العكس فلم تستطع ثباتا فى وجه الغزاة الفاتحين ، يوم جاءوها من الجنوب — جنوب الشام — فاكتسحوا بلادها واستصفوا قطرين من اعظم اقطارها وهما الشام ومصر وما وراء مصر من مقاطعات افريقية ، ولم تنقطع الحروب بينهما حتى قضوا عليها نهائيا بعد ذلك والحقوها بشقيقتها امبراطورية الفرس ، ولم تقاوم ما قاومته لان بلادها اصغر رقعة ، واقل سكانا ولان المسلمين شغلوا فى ابتداء الدور الثانى من ادوار غزواتهم بافتتاح افريقية وواصل قوادهم الزحف فى الميدان الشرقى فاكتسحوا آسيا الوسطى كلها تقريبا وبلغوا اسوار الصين فى حملتهم تلك

والباحث فى تاريخ الامبراطورية الرومية حين ظهور الاسلام يرى انه كان للانقسامات الدينية والتحزبات المذهبية تأثير مذكور فى اضمحلالها فقد انقسم النصارى من سكانها ، وهم اهل عصبيتها ، وتعتز بهم وتقوم على سواعدهم ، الى

فريقين : فريق يقول بوجود طبيعة واحدة فى المسيح وهم اليعاقبة ، وفريق يقول بوجود ثلاث طبائع فيه وهم الملكيون ، وكان كل فريق يرمى الآخر بالزندقة والالحاد و يعمل على قهره واذلاله ، يضاف الى هذا الانقسامات السياسية والمؤامرات العديدة ، وآخرها المؤامرة التى نسج هركليوس (هرقل) نفسه وانصاره خيوطها ، وسداها ولحمتها السعى لانتزاع العرش من الامبراطور فوكاس صاحبه واجلاس هرقليوس فى مجلسه ، وقد سار هذا من مقره فى برقة ، وكان يحكمها باسم الامبراطورية حتى سلانيك فاعد فيها حملة قصد بها القسطنطينية ففتحها بعد عناء ، واوقد انصاره ثورات اخرى فى بعض انحاء الامبراطورية ولا سيما فى مصر تأييدا له وانتهت هذه الفتنة وكانت من الفتن الكبرى ، وقد استنزفت جانبا كبيرا من قوى البلاد ومواردها بالقبض على الامبراطور ومحاكمته وقتله شر قتلة فقد قطعوا يديه ورجليه وتفننوا فى تعذيبه ثم اجلسوا هركليوس فى مجلسه ونادوا به امبراطورا على تلك الامبراطورية العظيمة وقد جرى كل ذلك فى سنة ٦٠٩ على ما يذهب اليه اكثر المؤرخين

ولم يكد يستوى هذا على عرشه الجديد حتى زحف الفرس زحفهم العظيم على بلاد الشام مهتبلين فرصة الثورات الداخلية ، والاضطرابات السياسية ، والانقسامات المذهبية ، وكانت تمزق احشاء الامبراطورية تمزيقا ، وتحزها حزا ، فما ثبتت فى وجههم وما قاومتهم فاحتلوا دمشق واستولوا على بيت المقدس ، وانتزعوا الصندوق المقدس ، ويقال انه كان يحتوى على الخشبة التى صلب عليها السيد المسيح وكانت تحفظ فى كنيسة القيامة ونقلوها الى المداين (طيسفون) وغنموا كل ما عثروا عليه من آثار وتحف ونفائس ، وواصلوا تقدمهم بعد ذلك جنوبا فاستولوا على القطر المصرى وانتزعوه من الامبراطورية وكان درة تاجها

وبينما كان سالارشاهين قائد جيش الفرس فى الشام يواصل اعماله العسكرية ويزحف على الاسكندرية ، كان جيش زميله شهرزور يتوغل فى آسيا الصغرى قاصدا القسطنطينية لدك بنيان الامبراطورية ، فادرك من الفوز ما ادركه زميله

وصاحبه ، ويلوح لنا انه سلك الطريق البرى المعروف ، فقد واصل تقدمه من حلب حتى انطاكية ثم احتل طرسوس اى انه اخترق سلسلة جبال امانوس و بعدما استولى على كيليكية اجتاز سلسلة جبال طوروس موغلا فى زحفه نحو الشمال ومعنى ذلك ان الفرس قسموا جيشهم بعد الاستيلاء على سورية الى قسمين : اتجه قسم نحو الجنوب واتجه الفريق الآخر نحو الشمال لاحتلال العاصمة ، ولئن تكللت جهود الاول بالنصر وتم له احتلال مصر ، فلم يوفق الثانى الى احتلال القسطنطينية مع ما ادركه من نصر فى بعض المعارك ومع اكتساحه لمعظم مناطق الاناضول الجنوبية و بلوغه اسوار العاصمة نفسها

وكانت قبائل شرق اوربا تهاجم الامبراطورية الرومية فى منطقة الدردنيل من الجانب الاوربى فى نفس الوقت الذى كان الفرس يوغلون فى داخليتها ويقطعون اوصالها وهكذا كانت بين نارين وعدوين شديدين ينقضان عليها و يقوضان بناءها ، مما فت فى عضد الامبراطور الجديد ، و بدد احلامه ، فادرك انه اخطأ فى تآمره على سيده ، وعرف ان حمل الامبراطور من اثقل الاحمال . فاخذ يعد عدته للهرب والرجوع سرا الى افريقية للتخلص من الاعباء المرهقة التى اثقلت عاتقه ، فيعيش هنالك آمنا مطمئنا ، واتصل ذلك بالبطريرك سرجيوس وعرف بما يدبره الامبراطور من تدابير سرية لينجو بنفسه ويفر من العرش ، فجاء واسمعه ما يجب ان يسمع ، ولم يزل به حتى اقنعه بالعدول والبقاء ، مع انه سبق فارسل امتعته ونفائسه الى افريقية استعدادا للهرب ، ونفخ فيه روحا جديدة ، فاعتزم مواصلة الحرب والعمل لانقاذ الامبراطورية وكانت على شفا الخراب والاضمحلال

وكان اول ما بدأ به فى هذه المرحلة ، هو انه اختار ثلاثة من خاصته حملهم هدايا ثمينة وارسلهم مع كتاب الى كسرى (خسرو الاول) يقترح فيه عقد صلح بين البلادين يعيد السيوف الى اغمادها ، ويريح العباد من الحرب وعنائها ، وقبل خسرو الهدية ورفض الاقتراح وارسل رسالة شفهية الى الامبراطور مع الوفد

هـذا فحواها « ان دولة الروم من ارضى وان قيصرها عاص ثائر ، وعبد ابق ، ولن امنحه سلاما ، حتى يترك عبادة الصليب و يعبد الشمس »

وانقلب الرسل الى بلادهم يحملون الرسالة و يعلنون عزم الفرس على قهر الروم واذلالهم ، و ينادون انهم يوقدون حربا دينية سداها القضاء على الدين المسيحى ولحمتها اذلال النصارى فكان لهذه الاقوال فعل الكهرباء فى نفوس الروم فاستيقظوا ونهضوا واقبلوا على التطوع فى الجيش لانقاذ الدين والوطن ، وقدمت الكنائس للجيش ما احتوته خزائنها من ذهب وحلى ومجوهرات ليستعين بها فى حروبه ، وهكذا تبدل الموقف ، وظهر النشاط وتجلت قوة العزيمة ، وقام الشعب الرومى فى داخل بلاده قومة رجل واحد للنضال عن حوزته ولاسترداد مكانته ففاز وتم له ما ارد ، وذلك شأن الامم فلا تغلب ولا تزل متى طلبت العز وسعت اليه و بذلت فى سبيله

و بيان ذلك انه لما عقد هركليوس العزم على محاربة الفرس ، والظاهر انه ما كان يأمل ان يقبلوا اقتراحاته بالصلح ـ وقد جاء سير الحوادث مؤيدا لما رآه ـ ارسل رسلا الى زعماء القبائل التى تهاجم بلاده يقترح مهادنتهم فهادنوه على شروط اتفق عليها و وضعت الحرب اوزارها بينه و بينهم فارتاح باله من جهة الحدود الاوربية فعكف على الاستعداد للحرب فى الميدان الاسيوى ، فحشد جيشا كبيرا فى خليج اسكندرونة

ولقد اراد هركليوس بحشد جيشه فى هذه المنطقة وهى مركز متوسط بين الاناضول الجنوبى و بين شمالى سورية وشرق الفرات ان يهدد الجيش الفارسى فى الاناضول بقطع خط رجعته ، و بعزله عن قاعدته العسكرية وكانت فى المداين ، ثم يهاجم الحاميات الفارسية الضعيفة فى الشام ويشق طريقا له الى العاصمة فيضطر الفرس الى الجلاء عن الاناضول ومصر والشام فى وقت واحد . واذا قيل لنا كيف تسنى للامبراطور ان ينفذ هذه الخطة والفرس يحتلون كيليكية نقول انه استطاع ذلك على يد اسطوله البحرى ، وكان الروم يملكون اسطولا بحريا كبيرا يسيطر على البحر المتوسط

وشواطئه . وحاول الفرس عند ما احتلوا الشام ومصر ووصلوا الى ساحل البحر الابيض ان ينشئوا اسطولا ثم عدلوا عن عزمهم . ولما اتم الروم حشد قواهم فى منطقة خليج اسكندرونة و بيلان تحت حماية اسطولهم ، جاء الامبراطور بنفسه فقادهم بعد ما استخلف ولده واقام له وصيين، ويقولون انه لما ازمع السفر انتعل نعلا اسود ودخل كنيسة ايا صوفيا يدعو الله ان يوفقه ، وركب فى الغداة السفينة وكان ذلك يوم الاثنين عيد الفصح فى سنة ٦٢٢ اى فى فصل الربيع وهو يساعد على اجراء الحركات العسكرية فى تلك المنطقة الجبلية الصعبة (منطقة كيليكية) وهى واقعة بين جبلين شاهقين : جبال طوروس وتكتنفها شمالا وهى معروفة قائمة ، وجبل امانوس او جبل الساعات كما يسميه جغرافيو العرب ، ويكتنفها من الجنوب

واشعل هركليوس نار الحرب وادار رحاها فحالفه التوفيق وتقدم فى اتجاه حلب فاحتل قنسرين وسار شرقا يقصد الفرات ويطلب المداين فأوقع فوزه الرعب فى نفوس الفرس فجلوا على جناح السرعة عن الاناضول والشام وارتدوا الى بلادهم للدفاع عنها ، وصد عادية الجيش المغير ، فلم يغن ذلك عنهم شيئا ، وهزمهم فى معركة كبرى دارت فى دستجرد (غير معروفة الآن) ويظن انها شرق الفرات ثم احتل المداين ففر خسرو ابرويز (ملك الفرس يومئذ) ثم قبض عليه وسجن وقتل بعد ذلك على يد نجله قباد شيرويه. وهكذا خضد الامبراطور شوكة الفرس ونال نصرا عظيما واسترد بلاده كما استرد الصندوق الذى فيه بقايا خشبة الصليب وعقد صلحا معهم وذلك فى شهر يوليو سنة ٦٢٨، عاد بعده الى عاصمته فاستقبل استقبالا فخما ، ولم يطل فيها المقام بل عاد فى السنة التالية أى فى سنة ٦٢٩ الى سورية يبتغى الحج وزيارة بيت المقدس ليعيد بقايا الصليب الى مكانها فجاء الى انطاكية ومنها الى حمص ، فاستقر فيها اياما ثم سار ماشيا على قدميه الى بيت المقدس ، علامة شكر لله على ما أتاه من نصر وتوفيق ، وجاءه وهو فى الطريق كتاب الرسول بالدعوة الى الاسلام

٥

الدعوة الاسلامية والامبراطور هركليوس

اتصل الاسلام اتصالا رسميا بالامبراطورية الرومانية للمرة الاولى يوم ارسل النبي كتابه الى الامبراطور هركليوس فى السنة السادسة للهجرة (سنة ٦٢٨) يدعوه فيه الى الدخول فى دينه (انظر نص الكتاب ص ١٢٣ ج ١)

وحمل دحية بن خليفة الكلبى - وكان من المكيين الذين اعتادوا التردد على بلاد الشام للتجارة - هذا الكتاب وسار به الى بصرى ، فقابل الحارث بن ابى شمر الغسانى وسلمه اياه ، ليوصله الى الامبراطور ، فلم يتردد كما قال المؤرخون فى قبول هذه المهمة فسلم الكتاب الى الامبراطور يدا بيد وهو فى سفره من حمص الى القدس

وفى رواية اخرى ان الحارث ارسل عدى بن حاتم مع دحية فقصدا القدس وهناك تسلم هركليوس الكتاب ويؤيد هذه الرواية - ويلوح لنا انها الارجح والاصح - ما رواه البخارى عن ابى سفيان بن حرب قال ما معناه « استقبل قيصر حينما قصد القدس حاجا بعد انتهائه من حربه مع الفرس ، رسول صاحب بصرى مع رجل من العرب يقوده . وكانت الملوك تهادى الاخبار بينها ، فقال ايها الملك ان هذا الرجل من العرب من اهل الشاء والابل يحدث عن امر عجيب حدث ببلادهم فسله عنه . فسأل هركليوس دحية بواسطة الترجمان عنه فقال : خرج بين اظهرنا رجل يزعم انه نبى قد تبعه ناس وصدقوه ، وخالفه ناس ، وقد كانت بينهم ملاحم فى مواطن كثيرة وتركتهم على ذلك »

ويمضى ابو سفيان فى ايراد حديثه ويقول « فدعا الامبراطور على الأثر صاحب شرطته (مدير الامن العام فى الدولة) وامره بان يبحث له فى الشام عن حجازى من

قوم محمد يسأله خبره . قال وكنت ونفرا من تجار قريش فى غزة وقد جئناها بعد الهدنة التى عقدت بيننا و بينه ، فقدم علينا صاحب الشرطة فسألنا هل انتم من قوم هذا الرجل الذى ظهر بالحجاز فقلنا نعم فقال انطلقوا بنا الى الملك فانطلقنا معه . فلما دخلنا عليه سألنا قائلا :

ـ هل انتم رهط ذلك الرجل ؟

ـ نعم

ـ ايكم امس به رحما ؟

ـ انا

ـ اقترب منى

قال ابو سفيان فاجلسنى بين يديه واجلس اصحابى خلفى وقال لهم انى سأسأله اسئلة فان كذب فردوه . و يقول ابو سفيان « والله لو كذبت ماردوا على . ولكنى امرؤ سيد اتكرم عن الكذب ، وعرفت ان ايسر ما فى ذلك ان انا كذبته ان يحفظوه على ثم يحدثوا به عنى »

ودارت بين ابى سفيان والامبراطور المحاورة الآتية كما يرويها الاول :

ـ كيف نسبه فيكم ؟

ـ اوسطنا نسبا

ـ هل كان احد من اهل بيته يقول ما قاله فتشبه به ؟

ـ كلا

ـ هل كان له ملك فاستلبتموه منه فجاء بهذا الحديث يسترد ملكه ؟

ـ كلا

ـ من هم اتباعه وما هو مقامهم الاجتماعى ؟

ـ الضعفاء والاحداث والغلمان والنساء . ولم يتبعه احد من ذوى المكانة

ـ هل يحبه الذين يتبعونه و يلزمونه أم يتركونه و ينفصلون عنه ؟

ـ ماتبعه رجل ففارقه

ـ كيف كانت الحرب بينكم و بينه ؟

ـ سجال : يدال علينا و يدال عليه

ـ هل يغدر ؟

ـ لا

ـ كيف علاقاتكم معه الآن ؟

ـ نحن معه فى هدنة

ولخص هركليوس الحديث وعلق عليه ووجه الخطاب الى ابى سفيان فقال : سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت انه محض من اوسطكم نسبا وكذلك يأخذ الله النبى اذا اخذه ، لا يأخذه الا من أوسط قومه نسبا . وسألتك هل كان احد من اهل بيته يقول بقوله ، فهو يتشبه به فقلت لا . وسألتك هل كان له ملك فسلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت ان لا . وسألتك عن اتباعه فزعمت انهم الضعفاء والمساكين والاحداث والنساء ، وكذلك اتباع الانبياء فى كل زمان . وسألتك عمن يتبعه ايحبه و يلزمه ام يقليه و يفارقه فزعمت ان لايتبعه احد فيفارقه ، وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلبا فتخرج منه . وسألتك هل يغدر فزعمت ان لا . فلئن كنت صدقتنى عنه فسيملك ما تحت قدمى هاتين ولوددت انى عنده فاغسل قدميه . انطلق لشانك »

هذا مجمل ما رواه ابو سفيان بنفسه عن هذه المقابلة وقد اثبته البخارى مفصلا

ورد هركليوس الرسول ردا جميلا ولم يسلم ، كما انه لم يأمر باتخاذ شىء من التدابير لمقاومة الحركة الجديدة فى بلاد العرب ، ولو فعل لما خفى علينا الامر ، وغادر القدس بعد ذلك الى دمشق ومنها الى حمص فانطاكية فاستقر فيها

الروم واليهود

ولا بد لنا من القول ان هركليوس اصدر حين اقامته فى القدس امرا بذبح يهود

فلسطين والتنكيل بهم ، لما اظهروه من عطف على الفرس حين غزوهم الشام ، ولانهم مالاوهم على الروم ، فنفذ امره ، وكانت نكبة شديدة على اليهود مع انهم سبقوا فأخذوا منه كتابا بالامان حين مروره بطبريا فى طريقه الى بيت المقدس

ويرى بعض مؤرخى الدولة الرومية ان رجال الدين الارثوذكس هم الذين اثروا فيه واستصدروا هذا الامر بعد نزوله بينهم شفاء لحزازات فى صدورهم . ومن غرائب الصدف ان تقع هذه النكبة على اليهود فى نفس السنة التى هاجم فيها المسلمون خيبر واجلوهم عنها

٦

طريق المسلمين الى الشام

سلك المسلمون فى زحفهم الى الشام ، طريق القوافل القديم المعروف بين الحجاز والشام ، وكانت قوافل قريش ، كما كانت قوافل البتراء ، تسلكها بدون انقطاع غادية رائحة بين البلادين ، ثم سلكها الحجاج والزوار . وقد ظلت طريق المواصلات الوحيد تقريبا بين هذين القطرين حتى انشاء سكة حديد الحجاز فعول الناس عليها فى تنقلاتهم وتجارتهم

ونبدأ هنا بذكر اسماء محطات هذا الطريق بين دمشق ـ المدينة ـ مكة ـ مع مسافاتها بالساعات ثم نذكر اسماء محطات سكة الحديد الجديدة ومسافاتها ايضا فقد لايخلو ذلك من فائدة تساعد فى درس حالة تلك الحرب الضروس التى نشبت بين العرب والروم

المسافة بالساعة	اسم المحطة	المسافة بالساعة	اسم المحطة
	دمشق	١٣	حسا
٤	خان دنون	١٣	عنيزه
٨	كتيبة	١٠	معان
٩	مزيريب	١٨	عقبة
٥	رمته	١٢	المدوره
١٠	مفرق	٨	ذات الحج
١٣	زرقه	١٣	قاع الصغير
١٦	بلقاء	١٢	عاصى خرما
١٣	قطرانه	١٢	الاخضر

المسافة بالساعة	اسم المحطة
١٤	المعظم
١٦	دار الحمرة
١٨	مداين صالح
١٠	بيار الغنم
١٦	بئر الزمرد
٨	« الجديد
١٨	هدية
١٨	فحلتين
١٠	بيار نصيف
١	المدينة
٣١٩	المجموع

المسافة بالساعة	اسم المحطة
	المدينة
٣	بيار على
٦	بئر ماشى
٨	غدير
١٠	الريان
١٢	ام الضباع
١٤	ظهر العقبة
٧	رابغ
١٣	قضيمة
١٣	عسفان
٢٠	مكة
١٠٦	المجموع من المدينة الى مكة
٣١٩	مجموع المسافة من
٤٢٥	دمشق الى المدينة بالساعة

فاذا حسبنا متوسط السير اليومى وهو خمس كيلوا مترات فى الساعة لبلغت المسافة ٢١٢١ كيلوا مترا كانت القوافل تقطعها عادة فى ٤٢ يوما منها ٣٠ بين دمشق والمدينة و١٢ بين المدينة ومكة سيرا على ظهور الابل

طريق الرجوع

وكان هنالك طريق اخر يختلف قليلا عن هذا الطريق كانت بعض القوافل تسلكه فى رجوعها الى الشام وهذه اسماء محطاته بين المدينة ودمشق

المسافة بالساعة	اسماء المحطات	المسافة بالساعة	أسماء المحطات
	المدينة	٣	تبوك
٣	جرف	١٢	قاع الصغير
٢	بئر الصغير	١٣	ذات الحج
١١	بيار نصيف	٨	المدورة
١٠	فحلتين	٣	بطن الغول
١٣	دير العظام	٦	عقبة
٦	هدية	٦	بئر التوبة
١٢	براقه	١٢	معان
٦	البئر الجديد	١٠	عنيزة
٨	بئر الزمرد	١٢	حسا
١٢	سهل مطران	١٢	قطرانة
١٠	مداين صالح	١٤	بلقا
٨	جبل ابوطاقه	١٦	زرقه
١٠	دار الحمرة	١٢	مفرق
٧	مفرش البربر	١٠	رمته
١٢	المعظم	٥	مزيريب
٨	جناين القاضى	٧	كتيبة
٦	الاخضر	٥	الكسوة
١٣	ظهر المعز	٤	دمشق
		٣٢٧	المجموع أى بزيادة ٨ساعات عن ذلك الطريق

اسماء محطات سكة حديد الحجاز من دمشق الى المدينة

وهـذه اسماء محطات سكة حديد الحجاز بين دمشق والمدينـة مع مسافاتها الكيلومترية :

اسم المحطة	المسافة بين المحطتين بالكيلو متر	المسافة من أول الخط بالكيلومتر
دمشق (القنوات)		
القدم	٤٫١٠٠	
الكسوة	٢٠٫٩٠٠	٢٥
دير علي	٩٫٧٠٠	٣٤٫٧٠٠
مسمية	٢١٫٣٠٠	٥٦
جباب	١٠٫٩٠٠	٦٦٫٩٠٠
خبب	٦٫٥٠٠	٧٣٫٤٠٠
محجة	٨٫٨٠٠	٨٢٫٢٠٠
اذرع	١٣٫٣٠٠	٩٥٫٥٠٠
خربة الغزالة	١٤٫٩٠٠	١١٠٫٣٠٠
درعا	١٧	١٢٧٫٣٠٠
قم غرز	٥٫٦٠٠	١٣٢٫٩٠٠
نصيب	٧٫١٠٠	١٤٠
المفرق	٢٣٫٧٠٠	١٦٣٫٧٠٠
خربة السمرة	٢٣٫٧٠٠	١٨٧٫٤٠٠
زرقة	١٧٫٤٠٠	٢٠٤٫٨٠٠
عمان	١٩٫٦٠٠	٢٢٤٫٤٠٠
القصر	١١٫٧٠٠	٢٣٦٫١٠٠
اللبن	١٤٫٨٠٠	٢٥٠٫١٫٩٠٠
الجيزة	١١	٢٦١٫٩٠٠

الضبعة	١٩	٢٨٠،٩٠٠
خان الزبيب	١٦،٥٠٠	٢٩٧،٥٠٠
سواقة	١٤	٣١١،٥٠٠
القطرانة	١٦،٩٠٠	٣٢٨،٤٠٠
منزل	٢٢،٢٠٠	٣٥٠،٦٠٠
فريفرة (خربة)	١٨،٧٠٠	٣٦٩،٣٠٠
الحسا	١٠،٧٠٠	٣٨٠
جروف الدراويش	١٩،٥٠٠	٣٩٩،٥٠٠
عنيزة	٢٥،٣٠٠	٤٢٤،٨٠٠
وادى الجردونه	١٧،٨٠٠	٤٤٢،٦٠٠
معان	١٨،٣٠٠	٤٦٠،٩٠٠
غدير الحج	١٦،٦٠٠	٤٧٧،٥٠٠
بئر الشيدية	١١،٣٠٠	٤٨٨،٨٠٠
عقبة	٢٧،٦٠٠	٥١٦،٤٠٠
وادى الرتم	١٥،٦٠٠	٥٣٢
تل الشحم	١٣،٣٠٠	٥٤٨،٣٠٠
الرملة	٨،٨٠٠	٥٥٧،١٠٠
المدورة	١٧،١٠٠	٥٤٧،٢٠٠
حارة عمار	٢٢،٣٠٠	٥٩٦،٥٠٠
ذات الحج	١٣،٨٠٠	٦١٠،٣٠٠
بئر هرماس	٢٣،٨٠٠	٦٣٤،١٠٠
الهضم	٢٢،٤٠٠	٦٥٦،٥٠٠
المحصب	٢٣	٦٧٩،٥٠٠

تبوك	١٤،٥٠٠	٦٩٤
وادى الاثيل	٢٨	٧٢٢
دار الحج	٢٣،٨٠٠	٧٤٥،٨٠٠
مستبقة	١٠،٩٠٠	٧٥٦،٧٠٠
الاخضر	٩،٦٠٠	٧٦٦،٣٠٠
جميس	١٧،٤٠٠	٧٨٣،٧٠٠
أبى سعيد	٢٣	٨٠٦،٧٠٠
المعظم	٢٢،٩٠٠	٨٢٩،٦٠٠
خشم صنعاء	٢٥،١٠٠	٨٥٤،٧٠٠
الدار الحمراء	٢٧،٢٠٠	٨٨١،٩٠٠
المطلع	٢٣،٩٠٠	٩٠٥،٨٠٠
أبو طاقة	٢١،٥٠٠	٩٢٧،٣٠٠
مبرك الناقة « المرحم »	١٦،٢٠٠	٩٤٣،٥٠٠
مداين صالح	١٣،٣٠٠	٩٥٦،٨٠٠
العلا	٢٤،٧٠٠	٩٨١،٥٠٠
البدايع	١٩،٣٠٠	١٠٠٠،٨٠٠
مشهد	١٣،٣٠٠	١٠١٤،١٠٠
سهل المطران	٢١،٩٠٠	١٠٣٥
زمرد	١٥،١٠٠	١٠٥٠،١٠٠
البئر الجديد	٢٣	١٠٧٣،١٠٠
الطويرة	١٨	١٠٩٠،١٠٠
المدرج	٢٥،٧٠٠	١١١٦،٨٠٠
هدية	١٧،٥٠٠	١١٣٤،٣٠٠
جداعة	٢٢،٣٠٠	١١٥٦،٦٠٠

أبو النعم	١٧٬٣٠٠	١١٧٣٬٩٠٠
اصطبل عنتر	١٥٬٩٠٠	١١٨٩٬٨٠٠
بويرة	١٩٬٨٠٠	١٢٠٩٬٦٠٠
بيار ناصيف	١٩٬٦٠٠	١٢٢٩٬٢٠٠
بواط	١٩٬٣٠٠	١٢٤٨
الحفيرة	٢٠٬٧٠٠	١٢٦٩٨٬٧٠٠
المحيط	١٩	١٢٨٧
المدينة	١٤٬٩٠٠	١٣٠١٬٩٠٠

تلك هى أسماء محطات سكة حديد الحجاز وقد افتتحت رسميا يوم ٣ شعبان سنة ١٣٢٦ و٢٨ اغسطس سنة ١٩٠٨ وكانت قطاراتها تقطع المسافة فى مدة أربعة أيام بين دمشق والمدينة ومجموع سيرها ٨٠ ساعة وقد تعطلت فى أثناء الحرب العظمى ولم يتم اصلاحها حتى الآن

٧

حدود الشام فى القديم والحديث

لئن كانت بلاد الشام ممرا للغزاة الفاتحين فى طريقهم من الشرق الى الجنوب او من الجنوب الى الشمال ، ولئن تداولتها دول شتى ونزلتها شعوب عديدة لمركزها الجغرافى وخصبها وجودة اقليمها ، فقد ظل الحجاز فى نجوة عن ذلك فلم يمر به غزاة ولا اكتسحه فاتحون ولم يخضع لسلطان غير عربى ، ولم يك دار نجعة لشعوب غير عربية فصان لغته ، ودمه ، وعاداته ، وتقاليده ؛ والهجرة الوحيدة التى يرد ذكرها فى تاريخ الحجاز لشعب غير عربى هى هجرة اليهود الى شماليه بعد خراب الهيكل ، وانتشارهم على طول الطريق تقريبا ، من معان ، حتى المدينة (يثرب) وقد اجلاهم المسلمون بعد ذلك ، فعاد الذين ظلوا احياء منهم الى فلسطين من دون ان يتركوا اثرا يدل على وجودهم ، او ينطق بوصولهم الى هنالك ، ولولا ماورد عنهم فى القرآن ، وما ذكره المؤرخون الاسلاميون من اخبارهم لما عرفنا عنهم شيئا فكتب اليهود تتجاهلهم ولا تعرف شيئا عنهم

وما قلناه عن هجرة غير العرب الى الحجاز لا ينطبق على القبائل العربية فهى بطبيعتها دائبة التنقل تنتجع المرعى والكلأ ، وتبحث عن العشب والماء تنزل المكان الذى تستطيبه ، ولا يزال هذا شأن بعض القبائل حتى يوم الناس هذا ، فهى لاتبرح ترحل فى طلب الماء فحيثما وجدته نزلت بقربه ، واناخت فى جانبه ، والماء قليل فى معظم مناطق الجزيرة لطبيعة ارضها الرملية ، ويعانى سكانها مصاعب من قلته ، وطالما وقعت بينهم المعارك فى سبيل امتلاكه

والتاريخ العربى طافح باخبار هجرة القبائل العربية فى العصور القديمة

وتنقلاتها فكانت قبائل الشمال (العراق) ترحل الى الجنوب (اليمن) وقبائل اليمن ترحل الى الحجاز والشام وقد افادتها هذه التنقلات وصانت كيانها واستقر معظم هذه القبائل فى الشام والعراق ومصر والمغرب بعد الاسلام وعدل عن حياة البداوة ولعلنا نأتى على اسماء هذه القبائل واوطانها الجديدة فقد عنى بها المؤرخون ودونوها

ونعيد هنا ما قلناه فى فاتحة الكتاب الاول وهو انه لم تقم بالحجاز فى جميع ادواره التاريخية دولة غير عربية ولم يخضع لسلطان غير عربى بعكس الاجزاء العربية الاخرى المجاورة له، كاليمن وقد خضع للاحباش والفرس ، ومثله العراق وجنوبى الشام. نعم حاول الاحباش الاستيلاء على مكة فى الفترة التى تقدمت النهضة العربية الكبرى ، ولكنهم ما لبثوا ان عدلوا وعادوا الى قاعدتهم فى صنعاء واستعان اليمانيون بالفرس على الاحباش وطردوهم من بلادهم ولما ظهرت الدولة العربية الكبرى فى الحجاز كان اليمن فى مقدمة الاقطار التى خضعت لها لما هنالك من روابط عديدة تربط بين هذين القطرين

ولئن لم يدون التاريخ اسماء دول وحكومات عربية نشأت فى جنوبى الحجاز اى فى المنطقة الممتدة بين مكة وعسير فى الجبال او بين ميناء الليث وميناء الحديدة على ساحل البحر الاحمر فهنالك شعوب عربية ذكرها التاريخ وعنى بتدوين اخبارها نشأت فى شمالى الحجاز وجنوبى الشام اى فى المنطقة الممتدة من معان وتقع فى الكيلومتر ٤٦٥ جنوبى دمشق حتى مداين صالح وتقع فى الكيلومتر ٩٥٦ فقد سجلوا اخبار شعب عربى عاش فى منطقة المداين (شعب ثمود) وكذلك سجلوا اخبار شعب عربى آخر عاش فى بلاد مدين (العقبة و وادى موسى)

ونشأت فى هذه المنطقة ايضا دولة البتراء « الانباط » و ورثت الادوميين وظلت قائمة حتى جاء الروم فاجتثوا استقلالها و يقول بعض المؤرخين انه لما حاصر القائد الرومانى دميتريوس عاصمتهم (وادى موسى) اطل عليه احدهم وقال له « لماذا تقاتلوننا ونحن مقيمون فى بادية اتحاربوننا لفرارنا من الرق »

ويصعب على الباحث فى جغرافية هذه المنطقة ان يعثر على حد طبيعى يفصل

بين الشام والحجاز كما هو الحال بين الشام والاناضول او بين الشام والعراق وذلك لتشابه الاماكن وعدم وجود انهار او جبال او بحار او وديان . ولذلك كانت منطقة الحدود هنا تضيق وتتسع تبعا لسير الحوادث ، فاحيانا تبلغ معان فتتخذ حدا فاصلا واحيانا تبوك واحيانا جروف الدراويش . وقد كانت مدينة معان نفسها فى اواخر العهد التركى مقسومة الى قسمين :

معان الشامية وتتألف من محطة سكة الحديد ، ومعان الحجازية وهى المدينة الاصلية و بينهما منطقة صغيرة ضيقة وكانت الاولى تتبع ولاية الشام والثانية ولاية الحجاز

ولما وضعت الحكومة الفيصلية فى دمشق وقد نشأت فى سنة ١٩١٨ اى فى ختام الحرب العظمى يدها على معان وتولت ادارتها ، لم تجد معارضة من حكومة مكة الهاشمية وكانت حدود الحجاز تنتهى فى شمالى تبوك . و وضعت الحكومة الهاشمية يدها على معان حينما استولى الفرنسويون على دمشق فى سنة ١٩٢٠ وكانت حدود امارة شرق الاردن وقد نشأت فى سنة ١٩٢١ تمتد حتى محطة جروف الدراويش الواقعة فى الكيلومتر ٤٠٠ على ان الملك الحسين تنازل فى سنة ١٩٢٤ عن هذه المقاطعة لامارة شرق الاردن فوضعت يدها عليها وتعد من ممتلكاتها اليوم و بذلك صارت حدود الشام تمتد حتى جنوبى معان

وكان تحديد الحدود بين الحجاز وشرق الاردن فى جملة ما دار عليه البحث بين مندوب الحكومة السعودية وقد حلت فى الحجاز محل الدولة الهاشمية ومندوب الحكومة البريطانية فى جدة سنة ١٩٢٧ حين تنظيم العلاقات السياسية بين هاتين الحكومتين فقد طلب الثانى من الاول ان تعترف الحكومة السعودية بان خط الحدود بين الحجاز وشرق الاردن هو كما يأتى :

« من نقطة تقاطع دائرة الطول ٣٨ شرق بدائرة العرض ٢٩،٣٥ شمال حيث تنتهى الحدود بين نجد وشرق الاردن فتمتد على خط مستقيم الى نقطة على سكة حديد الحجاز بعدها ميلان الى الجنوب من محطة المدورة ثم تمتد من تلك النقطة على خط مستقيم الى نقطة خليج العقبة بعدها ميلان من الجنوب من مدينة

العقبة» و بذلك تدخل العقبة ومحطة المدورة فى حدود شرق الاردن وهذه المحطة تقع فى الكيلومتر ٥٧٤ اى انها تبعد عن محطة معان وقد كانت الحد الفاصل فى الزمن التركى بين ولاية الشام (سورية) وولاية الحجاز (خطا اعتباريا) ١١٤ كيلو مترا انتزعت من الحجاز وادخلت فى حدود شرق الاردن الجنوبية. وقد رد جلالة الملك عبد العزيز السعود على كتاب المندوب البريطانى بكتاب رسمى مؤرخ فى ٢٧ ذى القعدة سنة ١٣٤٥ و ١٩ مايو سنة ١٩٢٧ هذا نصه: « اخذنا علما بان حكومة صاحب الجلالة البريطانية مصرة على موقفها فى ما يختص بمسألة تحديد الحدود بين الحجاز وشرق الاردن ولكن نرى ان تسوية هذه المسألة بصورة نهائية امر متعذر فى الظروف الحاضرة ومع ذلك ونظرا لرغبتنا الصادقة فى المحافظة على العلاقات الودية المؤسسة على صلات الصداقة المتينة رأينا ان نعرب عن استعدادنا لابقاء الحالة الحاضرة على ماهى عليه فى منطقة معان والعقبة مع الوعد بان لاتتدخل فى ادارتها الى ان تحين الظروف المناسبة لتسوية هذه المسألة تسوية نهائية »

فالوضع الحاضر للحدود بين شرق الاردن والحجاز او بين الشام والحجاز هو كما يأتى: تبتدىء حدود الحجاز فى نقطة تبعد ميلين من جنوبى محطة المدورة وتمتد على خط مستقيم الى نقطة تبعد ميلين ايضا عن جنوبى مدينه العقبة وبذلك تدخل مع محطة المدورة فى اراضى شرق الاردن اى فى الشام

حدود الشام من الشمال

هذا وصف لحالة منطقة الحدود بين الشام والحجاز فى العهدين القديم والجديد فهى تنتهى الآن جنوبى محطة المدورة اما حين ظهور الاسلام فكانت تمتد حتى جنوبى تبوك. وتبوك تبعد ٦٩٤ ك. م. عن دمشق وجاء فى بعض الروايات ان تبوك نفسها كانت خاضعة للروم فى ذلك العهد اما فى العهد العثمانى فكانت تتبع الحجاز تارة والشام تارة اخرى

ويحد بلاد الشام من الغرب البحر الابيض ومن الشرق صحراء الشام اما الحدود الشمالية فلا تزال موضع اخذ ورد بين الجغرافيين ويجعل جغرافيو العرب حدود الشام الشمالية عند سلسلة جبال طوروس باعتبارها الحد الطبيعي الفاصل بين بلاد العرب و بلاد الروم

لقد خضع شماليه الشام كما خضع جنوبيه لحكومة الروم فكانت حدودها فى آسيا تمتد من القسطنطينية شمالا حتى تبوك جنوبا. وواصل العرب حملتهم حينما تدفقوا من الشمال فاكتسحوا الحصون والمعاقل حتى بلغوا جبال طوروس فوقفوا عندها ، ولم يتوغلوا فى احشائها ، فاتخذت حدا فاصلا بين بلاد العرب و بلاد الروم او بين الدولة العربية الجديدة و بين القيصرية الرومية القديمة . وتتابعت بعد ذلك الحروب بين الفريقين حتى جاء العثمانيون فى القرون الوسطى فاستولوا على العاصمة الرومية وقضوا على الامبراطورية البيزانطية ثم زحفوا جنوبا نحو الشام فاستولوا عليها وعلى مصر والحجاز فعادت الى هذه الاقطار وحدتها وانتظمت فى سلك الامبراطورية العثمانية الاسلامية الجديدة وقد حلت محل ملوك الطوائف وكانوا نكبة شديدة على الاسلام

وجلا الترك العثمانيون عن حلب فى ختام الحرب العظمى (٢٥ اكتوبر سنة ١٩١٨) فاحتلها الجيش العربى بعد معركة دارت بينه و بينهم فى جنوبيها وشماليها ولجأوا الى مدينة ادنه (اطنه) عاصمة مقاطعة كيليكية واعدوا معداتهم للدفاع والنضال فى جبل الساعة (امانوس – Amanus) وعقدت الهدنة بعد ذلك بينهم و بين الحلفاء (الانكليز والفرنسويون والايطاليون والاميركيون) فاطلقت بموجبها يد الحلفاء فى

الاستيلاء على اى جزء ارادوه من اجزاء البلاد العثمانية وتعهد الترك فيها ايضا بالجلاء عن بلاد العرب كلها وجلوا عنها كلها ماعدا كيليكية وما كانوا يعترفون بانها عربية ، وجاء الفرنسويون بعد ذلك فوضعوا يدهم على هذا الاقليم واحتلوه احتلالا سلميا بدون مقاومة من جانب الترك ، وكان فى ادنه يومئذ وال يمثل السلطان وحكومة تدير البلاد باسمه . ولم يك مثل ذلك فى بقية اجزاء البلاد العربية الاخرى

الحسين بن علي يطالب بكيليكية

ومما يجب ذكره فى هذا المقام للتدليل على ان العرب يعتبرون جبال طوروس الحد الفاصل بين بلادهم و بلاد الروم و يعتبرون كيليكية جزءا من اقطارهم الكتاب الذى ارسله الحسين بن على فى ٢٨ رمضان سنة ١٣٣٣ الموافق ٤ يوليو سنة ١٩١٥ اى فى ابتداء النهضة العربية الى السر هنرى مكماهون مندوب انكلترا السامى بمصر وقد جاء فيه عن الحدود ما نصه :

« تعترف انكلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين ـ ادنه حتى الخليج الفارسى شمالا ، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا . ومن المحيط الهندى الى الجزيرة جنوبا يستثنى من ذلك عدن وتبقى كما هى ـ ومن البحر الاحمر والبحر المتوسط حتى سينا غربا »

وفى يوم ١٥ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ و ٢٤ اكتوبر سنة ١٩١٥ رد السر هنرى مكماهون بكتاب مطول جاء فى مقدمته :

«وقد ادركت من كتابكم الاخير انكم تعلقون اهمية كبرى على قضية الحدود ، وانكم تعتبرونها من المسائل الحيوية ، فارسلت مضمون كتابكم الى الحكومة البريطانية وانه ليسرنى ان ارسل اليكم البيانات التالية التى اثق كل الثقة انها ستفوز برضائكم :

« ان مرسين واسكندرونة و بعض الاقسام السورية الواقعة فى غربى دمشق ، وحمص وحماة ، وحلب لا يمكن ان يقال عنها بانها عربية محضة ، فيجب ان تستثنى من الحدود التى ذكرتموها ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على اساس هذه التعديلات »

طلبات المؤتمر السورى العام

وجاء فى القرار الذى قرره المؤتمر السورى العام فى دمشق يوم ٢ يوليو سنة

١٩١٩ وسلمه الى لجنة الاستفتاء الاميركية وقد ارسلت فى تلك الايام الى سورية للوقوف على رغائب سكانها فى تقرير مصيرهم ما نصه :

« نطلب الاستقلال السياسى التام الناجز للبلاد السورية التى تحدها شمالا جبال طوروس وجنوبا رفح فالخط المار فى جنوبى الجوف الى جنوبى العقبة الشامية والعقبة الحجازية وشرقا نهر الفرات فالخابور والخط الممتد شرقى البوكمال الى شرق الجوف وغربا البحر المتوسط بدون حماية ولا وصاية »

وجاء فى تقرير اللجنة الاميركية ما نصه :

« نالت سورية المتحدة اكبر نسبة فى ١٥٠٠ عريضة هى ٨٠،٤ فى المئة من مجموع العرائض . وسورية المتحدة هنا تدخل فيها كيليكية والصحراء وفلسطين »

فرنسا تنال كيليكية

ولما نشبت الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤ واصطلتها تركيا فى جانب المانيا عقدت فرنسا وانكلترا وروسيا اتفاقا فى بطرسبرج يوم ٤ مارس سنة ١٩١٦ لاقتسام البلاد العثمانية جاء فيه عن مصير كيليكية مانصه :

« تضم ولاية كيليكية الى النفوذ الفرنسوى وتبدأ حدود هذا الخط من جهة الجنوب حتى الحدود الخاضعة للنفوذ الروسى فى جزيرة ابن عمر ثم تتجه الى عينتاب وماردين ثم تنحدر شمالا من الاطاغ ـ قيصرى ـ آق طاغ ـ يلديز طاغ ـ زرعه ـ اكين ـ خربوط

« تظل هذه المنطقة خاضعة تمام الخضوع للنفوذ الفرنسوى »

ولما وضعت الحرب اوزارها ، احتل الفرنسويون كيليكية سنة١٩١٩ ، وانشأوا فيها ادارة عسكرية برئاسة الكولونيل بريمون جاءت بطوائف من مهاجرى

الارمن فانزلتهم فى ربوعها لمقاومة الترك فوقعت بين الفريقين فتن دامت نحو سنتين وانتهت بارغام فرنسا على الاعتراف بملكية الترك لهذه المقاطعة واعادتها اليهم ، فعقدت معهم يوم ٢١ اكتوبر سنة ١٩٢١ اتفاقا فى انقره حدد الحدود نهائيا بين سورية وتركيا ، وهى الحدود القائمة فى الوقت الحاضر ، وهذا وصفها :

يبدأ خط الحدود من نقطة تختار على حدود اسكندرونة وتقع مباشرة فى جنوبى باياس وتتجه بوضوح نحو ميدان اكبس - وتبقى محطة سكة الحديد والمحلة تابعتين لسورية . ومن هناك يتجه خط الحدود الى الجنوب الشرقى بحيث يترك لسورية محلة مرسوه ولتركيا محلة قرنه وكذا مدينة كليس . ومن هناك يصل الى سكة الحديد عند محطة جوبان بك ثم يتبع خط سكة حديد بغداد التى تبقى ارضها داخلة فى الاراضى التركية حتى نصيبين وجزيرة ابن عمر حيث يلتقى بدجلة وتبقى نصيبين وجزيرة ابن عمر فى ارض تركيا وتكون للبلدين سورية وتركيا الحقوق فى الانتفاع بهذا الطريق وتكون المواقف والمحطات بين جوبان بك ونصيبين ملكا لتركيا كانها جزء من ارض سكة الحديد

ويبقى قبر سليمان شاه جد السلطان عثمان مؤسس الاسرة العثمانية الواقع فى جرابلس مع ملحقاته لتركيا التى يكون لها الحق فى وضع حراس عليه ورفع الراية التركية فوقه

وجاء فى اتفاق آخر ان الحد فى الغرب يبدأ من مصب نهر باياس الصغير الذى يبعد عن محطتها الى الشمال نحو ٥٠٠ متر ويمر فى وسط سلسلة جبل اللكام (امانوس) من الغرب الى الشرق

الحدود الجنوبية الغربية والشرقية الشمالية

انتهينا الآن من وصف الحدود الشمالية والجنوبية والجنوبية الشرقية الحاضرة لسورية فهى تنتهى فى الجنوب ، جنوبى محط المدورة كما تنتهى فى الشمال فى شمال حلب وعلى بعد ٤٠ كيلو متر وتبدأ بعد ذلك حدود الدولة التركية هنا كما تبدأ هنالك

حدود الدولة السعودية ، وبقى علينا ان نصف الحدود الجنوبية ـ الغربية وهى الحدود المصرية ـ الفلسطينية والحدود الشرقية الشمالية فنقول :

١ ـ الحدود المصرية ـ الفلسطينية :

حددت هذه الحدود فى الوقت الحاضر باتفاق عقد بين الحكومتين العثمانية والمصرية سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م وهذا وصفها :

يبتدأ خط الحدود من رأس طابا على الساحل الغربى لخليج العقبة ممتدا الى قمة جبل فورث مارا على رءوس جبال طابا الشرقية المطلة على وادى طابا ثم من قمة جبل فورث يتجه الى الخط الفاصل الى نقطة المفرق على قمة جبل فتحى باشا ، حيث ملتقى طريق غزة الى العقبة بطريق نخل الى العقبة

ومن هذه المنطقة الى التل الذى الى الشرق من مكان ماء يعرف بثميلة الروادى والمطل على الثميلة ، بحيث تبقى الثميلة غربى الخط . ومن هنالك الى قمة رأس الروادى ثم الى رأس جبل الصفرة ، ومنه رأس القمة الشرقية بجبل قم قف . ثم الى سويلة شمالى الثميلة . ومنها الى غربى الشمال الغربى من سماوة . ومنها الى قمة التل الواقع الى غربى الشمالى الغربى من بدء المغارة فى الفرع الشمالى من وردى مايين . ومنها الى غربى جبل المقراة فالى رأس العين ثم الى نقطة على جبل ام حواويط الى منتصف المسافة بين عمودين قائمين فى الجنوب الغربى من بئر رفح . ومنها الى نقطة على التلال الرملية فى اتجاه ٢٨ درجة اى ٨٠ درجة الى الغرب وعلى مسافة ٤٢٠ مترا فى خط مستقيم من العمودين المذكورين ثم يمتد الخط مستقيما من هذه النقطة باتجاه ٤ ر ٣٣ درجة فى الشمال المغنطيسى اعنى ٢٦ درجة الى الغرب الى شاطىء البحر الابيض المتوسط مارا بتل خرائب على ساحل البحر الاحمر

٢ ـ الحدود العراقية السورية ـ وهى الحدود الشرقية الشمالية لسورية وقد حددت اخيرا بين سورية والعراق وهذا وصفها :

تبدأ من ضفة دجلة اليمنى فى مصب سفيان دره فى نهر دجلة فى شمالى فيشخابور ويمتد الخط الشمالى على اتجاه مستقيم من نقطة واقعة على ضفة الفرات اليمنى بين القائم

والبو كمال الى موقع جزيرة ابن عمر ، ويمتد الخط الجنوبي على اتجاه مستقيم من النقطة المذكورة الى قرية امتان في جنوبي جبل الدروز (سورية)

ويقسم الخط الاول قضاء سنجار الى قسمين ويترك بعض القرى اليزيدية لسورية ويجتاز طريق الموصل ـ نصيبين وطريق الموصل دير الزور ، القسم الشمالي

ويمر القسم الجنوبي بأراض صحراوية جرداء قاحلة لانبت فيها ولا ماء ، ويجتاز طريق بغداد ـ وادي حوران ـ تدمر وطريق بغداد ـ رطبة ـ دمشق للسيارات ويمر خط الحدود بعيدا عن مخفر الرطبة نحو مائة ميل حينما يقطع جبل الطف

ومما يستحق الذكر ان حدود سورية دخلت بين حدود العراق وتركيا على ضفاف نهر دجلة في شمالي فيشخابور

سورية الحاضرة

هذا وصف لحالة حدود سورية الحاضرة من جميع الجهات والاطراف ومنه يظهر انها تحد من الجنوب الغربي بمصر ومن الجنوب الشرقي بالحجاز ومن الشرق والشمال الشرقي بالعراق ومن الشمال بالترك وتتألف من دول ست هذه اسماؤها :

١ ـ امارة شرق الاردن

٢ ـ حكومة فلسطين

٣ ـ جمهورية سورية

٤ ـ جمهورية لبنان

٥ ـ حكومة جبل الدروز

٦ ـ حكومة العلويين

وتخضع هذه الدول للحكومتين الفرنسوية والانكليزية فامارة شرق الاردن وحكومة فلسطين مشمولتان بالحماية البريطانية والدول الاربع الباقية مشمولات بالحماية الفرنسوية وسنتكلم عن كل دولة منها على حدة ونصف حدودها اثناء البحث في تاريخها وعن احتلال العرب لها

٨

سكان الشام ولغاتهم

كانت بلاد الشام تتألف فى القديم كما تتألف فى الحديث من مجموع قوميات وعناصر قطن كل منها منطقة خاصة تغلب عليها فأضيفت اليه وعرفت به

ويمكن القول انه كان فى سورية حين الغزو العربى اربع قوميات كبيرة :

١ ـ القومية العربية

٢ ـ « اليهودية

٣ ـ « اليونانية

٤ ـ « الارمنية

وكانت كل قومية من هذه القوميات تؤلف الاكثرية المطلقة فى المنطقة التى تديرتها. فكان العرب يؤلفون الاكثرية المطلقة فى المنطقة الجنوبية وبعض الشرقية اى فى بلاد البتراء والشراة ومؤاب والبلقاء وحوران وتدمر وجنوبى فلسطين وصحراء سينا وكانت فى دمشق جالية عربية كبيرة

وكان اليهود ينزلون فى منطقة فلسطين الحاضرة والى جانبهم جالية يونانية وجالية عربية

وكان اليونان والروم (اللاتين) والارمن يؤلفون الاكثرية المطلقة فى المنطقة الشمالية وكانت فى الشمال ايضا (اى فى منطقة حلب والبلاد الواقعة فى شرقيها) جالية عربية ترتاد الجزيرة وتضرب فى الاراضى الواقعة بين دجلة والفرات

وكان عدد اليونانيين محدودا فى المنطقة الجنوبية لعدم ملاءمة الاقليم ولصعوبة

السكنى ولضعف موارد الثروة وكان عدد غير قليل منها ينزل فى المنطقة الشرقية (منطقة دمشق) ومعنى ذلك ان اليونانيين كانوا يكثرون فى فلسطين وفى سواحل سورية وفى المنطقة الشمالية منطقة (انطاكية وكيليكية)

وكان الى جانب هذه القوميات الكبرى قوميات صغيرة تنزل ايضا فى هذه المناطق وتعيش على وئام مع سكانها فهنالك الاشوريون وينزلون فى منطقة دمشق، والمردة «الموارنة» ينزلون فى جبال لبنان والفرس وينزلون فى بعض انحاء المنطقة الشرقية وغيرهم من ابناء الامم الاخرى التى مرت بسورية ثم ضعفت وتقهقرت

لغات اهل الشام

كانت اللغات المعروفة فى الشام حين الفتح الاسلامى ستا هى هذه :

١ ـ اللاتينة : لغة الحاكمين

٢ ـ العربية : لغة سكان الجنوب والشرق

٣ ـ العبرية : لغة اليهود فى الجنوب

٤ ـ اليونانية : لغة اليونانيين الذين حكموا الشام قبل الروم وكانت لهم جالية كبيرة

٥ ـ الآرامية وكانت منتشرة قبل الفتح الرومى وجميع الكتابات الذين عثروا عليها فى تدمر وحوران و بلاد النبط مكتوبة بها

٦ ـ السريانية وهى لغة اشور وقد حكمت سورية قبل اليونانيين، وهى اللغة الدينية حتى الوقت الحاضر للموارنة فى جبل لبنان . كما ان فى سورية قرى قليلة لا يزال سكانها يتكلمون السريانية . وكانت هنالك ايضا الارمنية والفارسية وغيرها وعدد المتكلمين بها قليل وغلبت العربية اللغات الاخرى بعد الفتح الاسلامى وخصوصا بعد ما دونت بها الدواوين فى العهد

الاموى وصارت لغة الحكومة الرسمية كما صارت لغة اهل البلاد عامة ولا يزال هذا شأنها حتى اليوم

سكان الشام

يقدر بعض الباحثين من الفرنجة سكان الشام فى العهد الرومى اى حين الغزو الاسلامى بعشرة ملايين من النفوس كانوا يقطنون فى هذه المنطقة الواسعة من حدود الحجاز حتى طوروس ومن صحراء سيناء حتى الفرات ويقولون ان عددهم فى العهد اليونانى بلغ عشرين مليونا . ويقول آخرون ان سكان الشام فى آخر العهد الرومى ما كانوا يزيدون عن سبعة ملايين

اللغة العربية فى كيليكية

ولا بد لنا من القول هنا ان الحكومة التركية الكمالية تصلى العرب والعربية حربا شعواء فى كيليكية وتعامل العرب من ابناء هذا الاقليم بشر ماتعامل به امة مستعمرة شعبا خاضعا لها فقد منعتهم من التكلم باللغة العربية ومن درسها ومن اظهار عواطفهم القومية وتعمل بمختلف السبل والوسائل لادماجهم فى الجامعة الطورانية ، فلا يطالب العرب بهذا الاقليم وهو معجون بدماء شهدائهم فى قرون طويلة ، ولا يعملون على استرداده واعادته الى الوطن العربى وهو جزء منه

٩

حالة الحدود الجنوبية حين الفتح الاسلامى

لم يعن الروم بحدودهم الجنوبية لا من ناحيتها الغربية حيث صحراء سيناء وكانت تجاور مصر التى تعد جزءا من ممتلكاتهم ولا من ناحية الشرق الجنوبى وسكانها من قبائل العرب ، عنايتهم بحدودهم الشرقية والشرقية الشمالية ، حيث الفرس اعدائهم الالداء وكانوا يجاذبونهم حبل السيادة والنفوذ ، ويحاولون انتزاع الشام ومصر والاناضول من ايديهم

على ان قولنا هذا لا ينفى ان الروم انشأوا مراكز عسكرية حصينة ومخافر كبيرة فى هذه المناطق ولا سيما فى بصرى ، وجرش ، وعمان ، واللجاه ، ومعان ، والظاهر ان الغاية من انشائها كانت دفع غارات القبائل العربية ، فيما لو حاول بعضها الهجوم على احدى المناطق كما هو دأب بعضها حتى الآن

وكانت للروم حاميات عسكرية صغيرة منتشرة فى حوران والبلقاء ومؤاب والشراة والبتراء اى فى مناطق الحدود العربية . وكان مركز بصرى وعمان يعدان من المراكز الحصينة ، ولهم فى كل منهما قوة يقودها قائد كبير (بطريق) . وما كان الروم يعتمدون على الغسانيين —وكانت بصرى قاعدتهم— فى الدفاع عن المناطق العربية ، بل يتولون هذا الأمر بالذات بواسطة قواد عسكريين من ابناء جلدتهم

ولقد افردنا فصلا خاصا درسنا فيه حالة الحدود الشرقية والحصون التى أقامها الروم ومعدات الدفاع التى اعدوها و وصفنا الخطوط التى انشأوها والطرق التى عبدوها ، وما اتخذوه من تدابير عسكرية لمقاومة الهجوم العربى ، فلم يعد ذلك كله بعائدة عليهم

ولم يحل دون استيلاء العرب على هذا الاقليم العظيم ، فانتزعوه منهم فى زمن غير قليل واخرجوهم منــه وقد كان فى استطاعتهــم بلوغ القسطنطينية وافتتاحها بعد ما بلغوا جبال طوروس و بعد ما استولوا من الناحية الاخرى أى من جهة الشرق على العراق وايران ومن جهة الجنوب على مصر و بلاد المغرب ولم يستطع الروم الوقوف امامهم فى معركة من المعارك العظيمة التى دارت فى شتى الميادين لولا معارضــة عمر بن الخطاب ومنعه اياهم من التوغل فى بلاد العدو خوفا عليهم

١٠

الرسول فى الشام

المجمع عليه بين رواة السيرة النبوية ان الرسول صلى الله عليه وسلم زار الشام مرتين فى شبابه وقبل بعثه :

فقد زارها فى المرة الاولى وعمره ١٢ سنة جاء فى قافلة قريش السنوية الكبرى مع عمه ابى طالب فبلغا بصرى (عاصمة حوران) ونزلا فيهـا اياما اى ريثما انجزت القافلة عملها فعادا معها كما جاءا

وزارها فى المرة الثانية وهو فى الثلاثين اى بعد انقضاء ١٨ سنة على الزيارة الاولى وكان فى رحلته هذه يتولى تجارة زوجته السيدة خديجة ؛ فقضى اياما فى ربوعها اى ريثما انجز عمله التجارى ثم عاد مع القافلة الى مكة حينما عادت ، ويقول ابن عباس ان ابا بكر رافقه فى هذه الرحلة

وكان معه ايضا ميسرة غلام السيدة خديجة اى وكيل اعمالها .

ولم يذكر احد من المؤرخين انه زار دمشق او غيرها من الاقطار الشامية مما يدل على انه اقتصر على الوصول الى بصرى ، وكانت قوافل العرب تقصدها فتبيع ما تحمله فى سوقها ، وتبتاع ما تحتاج اليه منها ، ثم تعود الى بلدانها واوطانها وهنالك كثيرون من الصحابة زاروا الشام فى الجاهليـة للتجارة او لاغراض اخرى وجالوا فى مدنها واسواقها وقد رأينا كيف ان صاحب شرطة قيصر جاء بابى سفيان ومن معه من رجال قريش وكانوا حينما وافاه كتاب رسول الله فى مدينة غزة . و بالاجمال فقد كانت هنالك علاقات تجارية واقتصادية وثيقة بين الشام والحجاز . وكان الحجازيون يعتمدون فى تجارتهم على بلاد الشام اكثر من بقية الاقطار الاخرى لانها اقرب اليهم ولان الوصول اليها ايسر

١١
اعمال المسلمين العسكرية الاولى

شغل المسلمون فى السنين الاربع الاول لنشوء دولتهم الجديدة بقبائل الحجاز، فلم يلتفتوا لسواها، ولم يعنوا بغيرها. والمرة الأولى التى بلغت فيها اول قوة عسكرية للمسلمين حدود الشام كانت فى اوائل السنة الخامسة للهجرة وعلى رأس الشهر التاسع والاربعين، فقد غادر النبى المدينة يقود الفا من الصحابة الى دومة الجندل (الجوف) ويسميه بعض جغرافيي العرب، جوف ابن عمرو ـ يرشدهم دليل من بنى عذرة

١ ـ غزوة دومة الجندل

والجوف (دومة الجندل) فى شرقى المدينة الشمالى ويبعد عنها بطريق تيماء نحو ٦٠٠ كيلو مترا وبطريق حائل الشرقى نحو ٩٠٠ كيلو مترا. ويقدر جغرافيو العرب المسافة بينهما بخمسة عشر يوما ويقدرون المسافة بينها وبين الشام بخمسة ايام.

ويتألف الجوف فى الوقت الحاضر من مزارع صغيرة متقاربة، اعظمها شأنا مزرعة سكاكه، ويتبع الحكومة النجدية فى الرياض، أى انه يعد من نجد لا من الشام ولا من الحجاز

ومما يستحق الذكر ان انقاض قصر مارد الذى بناه اكيدر ملك الجوف، وهو الذى غزاه خالد بن الوليد، معروفة هنالك، يزورها الزائرون

وكان سكان الجوف، حينما غزاهم المسلمون من العرب النصارى ينتسبون الى بنى كلب وكانت تقطن فى تلك الديرة

وكانوا يخضعون لحكومة الروم ويدفعون لها الضرائب ويعترفون بسيادتها وما كانت تتدخل فى شؤونهم الداخلية الخاصة ولا تقيم حامية عسكرية بينهم. وكان لهم امير منهم يلقب بالملك كما رأيت

ويقول رواة السيرة فى اسباب هذه الغزوة ، ان اخبارا وصلت الى المدينة بأن اهل دومة الجندل (الجوف) يعتدون على من يمر بهم من تجار الميرة فى غدوهم الى المدينة ورواحهم منها ، وانهم يتجهزون لحرب المسلمين والغارة عليهم فى عاصمتهم فسار اليهم قبل ان يسيروا اليه وتلك عادته فى حروبه كلها ، فقد كان يفضل أن يكون مهاجما لامدافعا ، حينما يتبين انه لامناص من الحرب

واستعان المسلمون فى غزوهم هذا بالكتمان ، وقد اشتهر النبى بشدة التكتم فى اعماله العسكرية ، فما عرف عنه انه اذاع اسم المكان الذى يقصده الا فى النادر او لمصلحة حتى يغادر المدينة ويبتعد عنها . وكان المسلمون فى مسيرهم الى الجوف يسيرون فى الليل ويستريحون بالنهار ، ويلوح لنا انهم فعلوا ذلك اتقاء شدة الحر ، فقد كان الموسم صيفا (كانت الغزوة فى شهر يوليو سنة ٦٢٦) كما يرى بعض المؤرخين وتشتد الحرارة اشتدادا مخيفا فى هذا الفصل فى بادية الشام

واغار المسلمون على سرح اهل الجوف وهاجموا مزارعهم واطمهم ، وكان لهم اطم كاطم المدينة المعروفة ، وعادوا بالسرح سالمين الى بلادهم ، ولم يشتبكوا مع اهل الجوف فى حرب ، ولعل هؤلاء خرجوا للقائهم فلم يدركوهم

٢ ـ الحملة الثانية على دومة الجندل

لم تكن النتائج التى ادركها المسلمون من غزوتهم الاولى لهذه الربوع ذات شأن من الوجهة الادبية ، ولذلك ، رأيناهم يتأهبون لغزوة اخرى ، فقد اصدر النبى أمره بعد انتهاء غزوة الخندق وبعد ما ارتاح باله من جهة قريش باعداد حملة جديدة تسير الى الجوف ، وكان ذلك فى شهر شعبان سنة ست (نوفمبر سنة ٦٢٧) وقاد الحملة عبد الرحمن بن عوف واوصاه النبي حينما دفع اليه اللواء بالوصية الآتية :

« اغزوا جميعا فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ،

ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم »

وقال له ايضا « ادعهم الى الاسلام فان استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم »

وكان عدد رجال الحملة ٧٠٠ مقاتل

وقضى عبد الرحمن بن عوف ثلاثة ايام فى دومة الجندل يدعو اهلها الى الاسلام فلما استجابوا له ، واسلم ملكهم وهو الاضبع بن عمرو الكلبى من بنى كلب ، وكانوا ينزلون فى تلك المنطقة وتمتد ديرتهم من تيماء حتى الجوف واصلهم من قحطان ، واسلم معه كثيرون من قومه فتزوج عبد الرحمن بنته تماضر ، عملا بوصية النبى ، وعاد بها الى المدينة ، فنشأت بذلك صلة نسب بينهم و بين المسلمين ، ودخلت بلادهم فى حكم الاسلام ، وكانت النتائج الأدبية والمادية التى ادركتها من هذه السرية مما لايستهان به

٣ — الحملة الثالثة على مؤتة

وتدرج المسلمون فى اعمالهم العسكرية فى هـذه المنطقة ، منطقة الحدود بين الشام والحجاز ، عاملين عـلى نشر دينهم ونفوذهم السياسى والعسكرى ، لايدخرون فى ذلك وسعا ، ولا تفوتهم فرصة

وكانت الحملة التى سيروها الى مؤتة فى شهر جمادى الاول للسنة الثـامنة (شهر سبتمبر سنة ٦٢٩) الحملة الثالثة التى طرقت ديار الروم ، ولئن وقفت الحملتان الاوليان فى منطقة الحدود ولم تتوغلا فى الاراضى المعمورة ، فقد بزتهما هـذه الحملة وواصلت تقدمها حتى بلغت قرية مؤتة والمعروف انها كانت تقصدها بالذات

وصف مؤتة

ومؤتة اسم لقرية لاتزال قائمة فى جنوبى امارة شرقى الاردن الغربى ، وتقع شرقى البحر الميت ، وجنوبى الكرك وتبعد عنها ١١ كيلو مترا ، وعـلى مقربة من قرية مؤتة الحاضرة والى شرقيها المزار ويبعد عنها نحو كيلو متر واحد ، وفى المزار قبور

الشهداء الثلاثة الذين سقطوا فى معركة مؤتة وهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ـ وقبورهم معروفة وتزار حتى الآن ، ولم يبق من المشهد المؤسس لهذه الاضرحة سوى قوس كبير تحيط به جدران مهدمة فيها محراب من الجنوب وعلى بعض حجارة الجدران المتساقطة كتابة عربية ، تقرأ بعض حروفها بصعوبة ، ويظهر انها البسملة و بعض آى الكتاب الكريم، والمظنون ان هذا البناء اقيم فى مكان المعركة تذكارا لها و يقال انه انشىء فى عهد الملك الظاهر بيبرس او فى عهد صلاح الدين بن ايوب اى فى عهد الحروب الصليبية وقد جاس الصليبيون تلك الجهات .

وفى جوار قرية مؤتة الحالية ، والى جنوبيها وشرقيها آثار رومانية ، غير منقوشة او مكتوبة ويظن انها فى مكان القرية القديمة

وعدد سكان قرية مؤتة اليوم ٤٦٣ نسمة وفيها ١٠٠ بيت و ٢٥ دكانا ومدرسة واحدة وجامع واحد ومطحنة ويصعب نقل شىء من الكتابة المنقوشة على الأثر الاسلامى الباقى فيها

ومما يستحق الذكر من اخبار مؤتة هذه ما يرويه بعض مسيحى الكرك وهو ان فى مادبا على مقربة من الجيزة عائلة مسيحية اسمها « العزيزات » كان اجدادها سلموا مفاتيح مؤتة للجيش الاسلامى حين قدومه الى هذه البلاد وان الفاتحين المسلمين منحوهم امتيازات احترمتها الدول الاسلامية فى جميع العصور وان الوثائق التى يملكونها محفوظة فى بطريركية الروم الارثوذكس فى القدس ، ولم يرو ان احدا رأى هذه الوثائق وقد ادركنا العزيزات لا يتميزون بشىء عن غيرهم كما انهم اليوم فى عهد شرق الاردن لايميزون بشىء أيضا

اسباب حملة مؤتة

ويقول رواة السيرة ان السبب فى بعث مؤتة العسكرى ، هو قتل شرحبيل ابن عمرو الغسانى عامل بنى غسان فى مؤتة رسولا للمسلمين اسمه الحارث بن عمير الاسدى ، اوفده النبى بكتاب الى الحارث بن ابى شمر الغسانى صاحب بصرى ، خلافا

للاصول والقواعد المتبعة فى احترام الرسل ، وكان الحارث بن عمير (أى رسول النبي) يحمل كتابا خاصا ، فلما نزل مؤتة اوثقه شرحبيل وضرب عنقه ، ولم يقتل من رسل النبي غيره ، ولم يشر المؤرخون الى ما انطوى عليه هذا الكتاب ولم يذكروا شيئا مما تضمنه خلافا لعادتهم ، يضاف الى هذا ان ابن اسحاق لم يورد سببا لبعث هذه الحملة وليس من عادته ان يغفل ذكر الاسباب وكذلك فعل ابن هشام

قوة الحملة

وكانت الحملة تتألف من ثلاثة آلاف مقاتل ، ولى النبي زيد بن حارثة (مولاه) قيادها ، وقال ان اصيب زيد فجعفر بن ابى طالب فان اصيب فعبد الله بن رواحة فان اصيب فليرتض الناس رجلا من بينهم يولونه عليهم اى انه كان يعرف صعوبة العمل الذى يقدم عليه وخطورته

وكان فى هذه الحملة عدد من اقطاب الصحابة وكبارهم وامر النبي زيدا حين سفره بان يقصد المكان الذى قتل فيه الحارث بن عمير (اى مؤتة) ليدعوا من هناك الى الاسلام فان اجابوه فهو المقصود وان ابوا فليستعن بالله وليقاتلهم وقال له :

« أوصيك بتقوى الله و بمن معك من المسلمين خيرا . اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله

« ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ، ولا كبيرا ولا فانيا ولا منعزلا بصومعة ، ولا تقربوا نخلا ، ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء »

الطريق التى سلكتها الحملة

غادرت الحملة المدينة سالكة طريق القوافل (الطريق السلطانى) بين الشام والحجاز ، فاجتازت تبوك و واصلت تقدمها حتى معان فنزلت فيها وتبعد عن المدينة ٨٤٣ كيلو مترا من جهة الشمال ، وهى اول بلاد الشراة

وعلم قائد الحملة وهو فى معان ، ان شرحبيل بن عمرو الغسانى ، عامل مؤتة ، وهو الذى قتل الرسول واوقد هذه الحرب ، جمع القوى للقائهم ويقدر بعض المؤرخين القوى التى اجتمعت فى مؤتة لقتال المسلمين بمئتى الف من العرب والروم ، ونرى فى هـذا الرقم كثيرا من المبالغة ، لان جمع مثل هذا الجيش اللجب لا يتيسر فى اسبوع او اسبوعين بل لابد له من اشهر ، يضاف الى هـذا انه ما كانت هنالك ضرورة تقضى بحشد مثل هذه القوة الكبرى ، ويلوح لنا ان الجيش الذى احتشد بمؤتة ما كان يزيد عن بضعة آلاف ، يؤيد هـذا قلة قتلى المسلمين فى تلك المعركة فما زادوا عن ١٢٠ قتيلا ، ولو كان هنالك مئتا الف يقاتلونهم لما سلم منهم الا القليل

وحار المسلمون فى ما يفعلونه وكانوا بين رأيين : رأى يقول بالتوكل على الله والمضى فى القتال ؛ ورأى يقول بالتريث ومكاتبة المدينة وابلاغها خبر العدو وما أعده من قوى ومعدات وانتظار تعليماتها والسير بمقتضى هذه التعليمات عند وصولها

وتشاوروا وأطالوا واخيرا اتفقت كلمتهم على مواصلة التقدم والزحف من دون استشارة المدينـة أو طلب نجدات منها ، فساروا من معان الى مؤتة ولا تقل المسافة بينهما عن ٨٠ كيلو مترا ، فالتقوا بالعدو فى قرية مشارف (ولم نعثر على اثر لهذه القرية فى الوقت الحاضر . وربما كانوا يعتبرون تلك الجهات منتهى الحدود بين الحجاز والشام ويسمون المرتفعات البسيطة هناك بمشارف وربما ابدل اسمها بالمزار بعد ان دفن فيها من دفن من الصحابة اذا كان لا بد من وجود قرية هناك بهـذا الاسم والا فلا يعقل ان يطلق اسم المزار على هـذه القرية قبل ان تشاد فيها أضرحة القواد) والعرب يطلقون اسم المزار على القرى التى فيها أضرحة مقدسة مثال ذلك ان فى جبل عجلون قرية يطلق عليها اسم المزار وتعرف احيانا بمزار ابى عبيدة عامر بن الجراح بطل الفتوح الاكبر فى الشام . وليس من شك ان هـذا الاسم اطلق على هـذه القرية ايضا بعد ان دفن ابو عبيدة فى الغور على بعد غير قليل عنها وبعد ان شيدت

زاوية باسمه هناك وأقام متولو أوقافه فيها

وانحاز المسلمون الى مؤتة ورتبوا صفوفهم للقتال فكان على جناحهم الايمن قطبة ابن قتادة من بنى عذرة وعلى جناحهم الايسر عبادة بن مالك من الانصار و برز الجمعان ودارت رحى الحرب فقاتل زيد بن حارثة القائد العام للحملة حتى قتل فحل محله جعفر ابن ابى طالب فقتل ايضا و يقال انه لما قطعت يمينه وكان يحمل بها اللواء اخذه بشماله فقطعت شماله فاحتضنه حتى شطر شطرين فحل محله عبد الله بن رواحة (شاعر الانصار) وحمل الراية وتقدم بها الى الامام فقاتل حتى قتل فأخذ الراية ثابت بن اقرم ودعا اخوانه الى انتخاب قائد فانتدبه بعضهم فأبى فاتفقوا على تولية القيادة خالد بن الوليد وكان فى الجيش - فأخذ الراية وأبدى مهارة زائدة اذ عبأ جيشه تعبئة جديدة فظن العدو انه تلق نجدات فافسح له الطريق فكان يقاتل و ينسحب تدريجيا مع محافظته على النظام ولم يلحق الروم به ولم يطاردوه لانهم ظنوا انه يستدرجهم وتوهموا ان هنالك قوات اخرى ترابط وراءه ولم يقف المسلمون بعد ذلك بل واصلوا انسحابهم الى المدينة

على هذا المنوال انتهت اول معركة اشتبك فيها العرب بالجيش الرومى ولئن لم تكلل بالفوز الذى كانوا ينشدونه و يطمعون فيه فقد شجعتهم على مواصلة النضال فى هذا الميدان فعادوا بعد ذلك بقوى اكبر ، ففازوا ونالوا ما أدركوه واملوه ، والواقع ان حملة مؤتة هذه وحملة تبوك وقد جاءت بعدها ، تعد فى نظر الاكثرين من قبيل اعمال الاستطلاع التى يعمد اليها القواد فى الحروب لسبر قوى اعدائهم وعجم عودهم قبل المعارك الكبرى ، فيكتشفوا موضع الضعف منهم فيحملوا عليه

هركليوس والمعركة

و يقول بعض المؤرخين المسلمين ان هركليوس كان فى مؤاب (مقاطعة الكرك الحاضرة) حين وصول زيد الى مؤتة وانه هو الذى حشد الجيوش وامر بتعبئتها و يبالغ

ابن هشام فيجعل عدد الجيش الذى حشده هركليوس فى مؤتة مائتى الف كما قدمنا عدا متطوعة العرب وقد بحثنا فى تاريخ الامبراطورية الرومية فلم نجد ما يصح ان يحتج به على تأييد هذه الرواية ، نعم ان مؤرخى الامبراطورية يقولون ان هركليوس غادر القسطنطينية فى ربيع سنة ٦٢٩ وهى السنة التى غزا المسلمون فى خريفها مؤتة ، فجاء انطاكية ومنها قصد بيت المقدس فأقام فيها مدة ثم عاد ادراجه من دون ان يقصد مؤاب أو غيرها من الاماكن المجاورة للقدس . والواقع انه زار سورية مرتين فى عهد امبراطوريته الاولى حينما جاء لغزو الفرس فقضى فيها ست سنوات (سنة ٦٢٢ - ٦٢٨) ثم عاد الى عاصمته بعد ان حاز ماحاز من نصر على الفرس ، فلم يطل فيها المقام بل عاد ثانية الى الشام فقصد حمص ومنها بيت المقدس ، وكان ذلك فى سنة ٦٢٩ أى فى نفس الوقت الذى كان المسلمون يتجهزون فيه لغزو مؤتة . واذا صحت هذه الرواية ، فيكون كتاب النبى بالدعوة للدخول فى الاسلام جاءه قبل مهاجمة العرب لمؤتة بقليل

والامر الذى لامرية فيه هو ان هركليوس لم يعر الحركة الجديدة على حدود بلاده الجنوبية شيئا من الاهمية أو العناية ، بل ترك كل شىء على حاله وعاد الى اورفا فأقام فيها

٤ — سرية ذات السلاسل

وفى شهر جمادى الآخرة ، أى على أثر عودة حملة مؤتة ـ وقد اثر فشلها فى نفوس المسلمين وكانوا يعيرون رجالها ويسمونهم الفرارين ويقولون لهم ان الفرار ليس من شأن المسلمين فيجيبهم النبى انهم الكرارون لا الفرارون ويدافع عنهم ويثنى عليهم ـ امر النبى باعداد حملة جديدة على قضاعة

ويقول المؤرخون فى اسباب هذه الغزوة ان اخبارا سرية وردت الى المدينة بان اناسا من قضاعة يتجمعون للاغارة على المدينة ومهاجمتها ، فأمر باعداد حملة صغيرة قالوا ان عدد رجالها بلغ ٣٠٠ قادها عمرو بن العاص ، فسار بها الى ديرة بلى (وتنزل

وراء وادى القرى فى منطقة العلا بين ينبع والوجه وتبعد عن المدينة نحو ٣٠٠ كيلو متر من جهة الشمال الغربى)

وكان عمرو يسرى فى الليل ويكمن فى النهار حتى قرب من منازلهم فأرسل يتجسس اخبارهم فعرف انهم جمعوا جموعا كثيرة فكتب رسالة الى المدينة حملها رافع ابن مكيث الجهنى ، فأرسل النبى نجدة عددها ٢٠٠ مقاتل بقيادة ابى عبيدة

وتقدم المسلمون حينما تكاملت قواهم لمهاجمة العدو فدارت معركة بسيطة بينهم وبينه تفرق على اثرها فكان ذلك اول انتصار ناله المسلمون فى هذه المنطقة ولم يريقوا دما

٥ — غزوة تبوك

كانت غزوة تبوك خاتمة الاعمال العسكرية « التمهيدية » التى عملها المسلمون على حدود الشام وانتهت بفتح هذا القطر بعد ذلك والقضاء على الحكم القيصرى الرومى فى ربوعه

نعم ان حملة اسامة بن زيد اعدت بعد ذلك للسفر الى مشارف الشام ومهاجمة مؤتة طلبا لثأر الذين قتلوا فى المعركة الاولى فقصدتها وقد نشرنا ما دار من المناقشة بشأن سفرها (انظر ص ٢٠٢ ك ١) الا ان جميع الدلائل تدل على انها لم تدن من حدود الشام بل اكتفت بان غزت بلاد قضاعة وهى الى الشمال الغربى من المدينة على ساحل البحر الاحمر قرب ديرة قبائل بلى . يؤيد هذا الرأى ما أجمع المؤرخون على تدوينه وهو ان الحملة عادت الى المدينة بعد غياب اربعين يوما فقط ، ومثل هذه المدة لاتكفى لبلوغ مؤتة وتبعد عن المدينة نحو ٧٥٠ كيلو مترا يضاف اليها مثلها للاياب فتبلغ المسافة ١٥٠٠ كيلو متر لايقطعها المشاة عادة فى أقل من ٥٢ يوما . وعلاوة على ذلك فلم يذكر المؤرخون انها عملت عملا عسكريا على حدود الشام أو احدثت حدثا ، أو حملت الروم

على اتخاذ تدابير جديدة كما وقع فى حملة مؤتة الاولى فى حين ان وصولها كان يقتضى اتخاذ تدابير خاصة ، فقد تنبه الروم فى اواخر هذا العهد الى الحركات الجديدة وراء حدودهم الجنوبية

ولا بد لنا من القول ان النبى اصدر الى اسامة بن زيد حينما ولاه قيادة الحملة الجديدة لغزو الشام التعليمات الآتية . قال :

« سر الى موضع مقتل ابيك فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فاغر صباحا على اهل ابنى وحرق عليهم ، واسرع السير تسبق الاخبار ، فان ظفرك الله ، فاقلل اللبث فيهم ، وخذ معك الادلاء ، وقدم الطلائع امامك »

وقيل ايضا انه ندبه الى البلقاء واذرح ومؤتة ثائرا لأبيه . وفى رواية انه امره ان يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم وان يبلغ يبنى واسدود من اراضى فلسطين ، وقيل امره ان يوطىء من آبل الزيت بالاردن » ومع ان مكان آبل الزيت غير معروف لنا تماما وان كنا نرجح انها فى منطقة مأدما بالبلقاء الا ان ابنى معروفة اليوم وهى فى فلسطين (احدى محطات سكة حديد حيفا ـ مصر) وهى واقعة فى الكيلو متر ١٢٥ من حيفا و بقربها محطة اسدود وهى فى الكيلو متر ١٤١ من حيفا

وليس بمستبعد ان يؤمر بأن يوطىء الخيل البلقاء فهى اسهل عليه من ان يتعدى منطقة شرقى الاردن الى فلسطين . وعلى كل حال فاننا نستبعد ان يكون هذا الجيش بلغ حدود البلقاء ونرجح انه لم يتجاوز تخوم بنى قضاعة ، بل عاد مسرعا الى المدينة لتدارك الحال التى نشأت عن حوادث الردة «حركة الارتجاع» فى جزيرة العرب

كيف احدث غزوة تبوك

نعود بعد هذا الاستطراد وقد اردنا ان نقيم به الدليل على ان غزوة تبوك كانت خاتمة الاعمال العسكرية التمهيدية التى عملها المسلمون على حدود الشام كما كانت خاتمة الاعمال العسكرية التى عملت فى حياة النبى ـ نعود بعد هذا الاستطراد لنقول ان النبي

امر بالتعبئة العامة فى شهر رجب سنة تسع (شهر سبتمبر سنة ٦٣٠) للزحف الى تبوك وتبعد عن شمالى المدينة ٦٠٩ كيلو مترات لما بلغه من احتشاد قبائل الشام ووصول مقدمتها الى البلقاء (اراضى امارة شرق الاردن اليوم) وتأهبها للزحف على المدينة . ويقول المؤرخون ان الاخبار التى وصلت الى المدينة يومئذ زعمت ان الروم جمعوا قبائل لخم وجذام وغسان وغيرها مع جند الروم لقتال المسلمين

وعملا بالقاعدة التى سار عليها النبي فى اعماله العسكرية قرر الخروج الى لقائهم قبل أن يصلوا الى المدينة ، ومع ان الوقت كان فى اواخر الصيف والناس منهمكون فى جمع محصولاتهم الزراعية ونتاج كرومهم ، ومع ان اعداد هذه الحملة يحتاج الى كثير من النفقات فقد تم تجهيزها بسرعة وتسمى غزوة العسرة اقتباسا مما ورد فى القرآن بشأنها قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ وقد اشتركت فيها معظم القبائل الحجازية النازلة حول المدينة وبينها وبين مكة ، اى انها لم تكن قاصرة على المهاجرين والانصار من سكان العاصمة ، كما كان يحدث فى الحملات الاولى ، ولذلك سمينا التعبئة التى عملت لاجلها بالتعبئة العامة اشارة الى اشتراك المسلمين فيها كما اشترك اغنياء الصحابة فى دفع نفقاتها

ويقدر بعض المؤرخين الجيش الذى اجتمع فى ثنية الوداع بالمدينة وزحف الى تبوك باربعين الف مقاتل ونشك فى صحة هذا التقدير

واذا قيل لنا ان مكة والمدينة وقبائلها اشتركت فيها نجيب ان اعداد جيش فيه ٣٠ الفا من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان واجتياز تلك الصحراء المحرقة بهم فى اشهر القيظ حيث يحتاجون الى كثير من العلوفات والماء للجند والخيل ليس بالامر السهل فضلا عن ان المسلمين ما كانوا حتى ذلك الوقت يملكون من المعدات الحربية ما يكفى لتسليح مثل هذا الجيش العظيم . ونرجح ان عدده كان يتفاوت بين ٨ – ١٢ الفا ولا نشك فى انه كان اعظم جيش عبأه المسلمون فى حياة النبي ، ويصح ان يتخذ عنوانا للتقدم الذى تقدمه الجيش الاسلامى فى زمن وجيز ؛ فبعد ان كان عبارة عن

قوات بسيطة فى السنة الثانيـة للهجرة يقـدر بالعشرات ، ولا يكاد يملك شيئا يذكر من المعدات والوسائل المادية ، صار فى السنة التاسعة أى بعد سبع سنوات فقط جيشا منظما ، قويا ، مدربا يقـدر عدد رجاله بالآلاف وهو مجهز بمختلف لوسائل المـادية من خيل وابل وسـلاح . و بعـد ان كان المسلمون يتجنبون لقاء القبائل فقد تحصنوا بأسوار المدينـة يوم احد ويوم الخندق ، اصبحوا يخرجون للقاء جيش القياصرة ، وكان اعظم جيوش العالم يومئذ ، وليس هذا بالامر الهين وهو يدل على ارتفاع مستوى القوة الادبية فى نفوسهم

وهنالك حادث آخر يصح الاستدلال به على ما كان المسلمون يشعرون به من القوة والبأس ، فقد اعلن النبى حينما نادى بالتعبئة العامة انه يسير لقتال الروم ، وذلك خلافا لعادته ، وقد كان التـكتم من دأبه ، فـكأنه اراد ان يعرف الناس انه انما يخرج للقاء جيش قيصر ومنازلته ، لا يريد ان يباغته ولا ان يبيته بل ان ينازله وجها الى وجه ، وصفا امام صف ، وما حدثت عربيا نفسه قبل الاسـلام ان يحشد للروم و يسير لقتالهم ، وكانت الشمس لاتـكاد تغرب عن املاكهم كما يقولون فى الاصطلاح الجديد ؛ وكيفما كان الحال ، وسواء بلغ عـدد هـذا الجيش ٣٠ الفا او نقص او زاد ، فالـكمية لاتقدم ولا تؤخر فى نظرنا وانما المهم هو العمل نفسه وما تجلى فى اعداد هذه الحملة من جرأة وقوة ارادة ، سهلت للمسلمين طريق المرحـلة العسـكرية الثانيـة (دور الفتح) وجرأتهم على القياصرة ، ودفعتهم الى اقتحام حدودهم ، ودك حصونهم وصياصيهم وضمنت لهم التغلب عليهم واستصفاء ملـكهم واستخلافهم فى ديارهم

فحملة تبوك اذن من أيمن الحمـلات العسكرية التى جهزها المسلمون ومن ابركها نتائج ، والغاية التى اريدت منها كانت من افضـل الغايات وانبلها ، وقـد مكنت للمسلمين فى منطقة الحـدود (حـدود الشام والحجاز) وضمنت لهم خضوعها ولذلك لم يلقوا كبير عناء ، حينما جاءوها بعـد ذلك ، فقد وجـدوا الطريق ممهدا ، وابواب

الامبراطورية مفتحة فولجوها ، وتغلغلوا فى احشائهـا وما زالوا ببنائها ينتزعون احجاره الواحدة بعد الاخرى حتى تقوض وانهار

تعبئة المسلمين العسكرية

نظم النبى جيشه حينما ازمع السير الى تبوك فدفع لواءه الاعظم الى ابى بكر الصديق ورايته العظمى للزبير ، وسلم راية الاوس لأسيد بن حضير ، وراية الخزرج للمنذر بن حباب

اعمال المسلمين فى تبوك

ضرب المسلمون مخيمهم فى تبوك ، ولم يروا اثرا للعدو ، فأرسل النبى الرسل يرودون البلاد ويكشفون الطرق ـ فعادوا ولم يجدوا شيئا

وارسل خالدا على رأس قوة قالوا انها تألفت من ٤٢٠ مقاتلا ، فبلغ دومة الجندل (الجوف) واسر صاحبها اكيدر بن عبدالملك وجاء به الى تبوك ، فصالحه النبى وكتب له الكتاب الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله لاكيدر دومة حين اجاب الى الاسلام وخلع الانداد والاصنام مع خالد بن الوليد سيف الله فى دومة الجندل واكنافها ان لنا الضاحية من الضحل والبور والمعامى واغفال الارض والحلقة والسلاح والحافر والحصن ، ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور ، لا تعدل سارحتكم ، ولا تعد فاردتكم ، ولا يحظر النبات ، تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة لحقها ، عليكم بذلك عهد الله والميثاق ، ولكم به الصدق والوفاء . شهد الله ومن حضر من المسلمين »

ويقول بعض الرواة ان النبى صالحه على الجزية لانه كان مسيحيا ، ويلوح

لنا ان الاصح ما أوردناه هنا ، لان العهد صريح بدخول القوم فى الاسلام ، والعهد المكتوب أو المقطوع يحدد علاقتهم بالمسلمين تحديدا صريحا و يبين حقوقهم وواجباتهم

وجاء فى رواية أخرى ان اكيدرا ومن معه امتنعوا على خالد فى اول الامر فهاجمهم بشدة وقاتلهم وهزمهم وقتل حسان اخو اكيدر ، فاستسلم هذا على الاثر لخالد وصالحه على الشروط الآتية :

١ ـ ان يفتح دومة الجندل و يسلمها للمسلمين بلا قيد ولا شرط

٢ ـ ان يسلمهم ٢٠٠٠ بعير و ٨٠٠ فرس و ٤٠٠ درع و ٤٠٠ رمح

٣ ـ ان يجيره خالد ، أى (يصون حياته) حتى يفد به على النبى فى تبوك فيقرر مصيره ، وقد أقر ما فعله خالد وحقن دمه وصالحه وكتب له العهد السابق

فتح العقبة

وجاءه وهو هنالك يحنة « يوحنا » بن رؤبة صاحب ايلة (العقبة) وهى الى الشرق من معان وتبعد عن تبوك نحو ٣٠٠ كيلو متر طائعا فكتب له العهد الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا امنة من الله ومحمد النبى ليحنة بن رؤبة واهل ايلة اساقفهم وسائرهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة النبى ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر فمن احدث منهم حدثا فانه لايحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن اخذه من الناس وانه لايحل ان يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يردونه من بر او بحر »

وصالح ايضا وهو فى تبوك اهل مقنا (على مقربة من العقبة وهم يهود) على ٣٠٠ دينار وعلى ربع عروكهم وغزولهم وربع كراعهم وحلقتهم وعلى ربع ثمارهم وكتب لهم العهد الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله الى بنى حبيبة واهل مقنا سلم انتم فانه انزل على انكم راجعون الى قريتكم فاذا جاءكم كتابى هذا فانكم آمنون ولكم ذمة الله وذمة

رسوله وان رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به لا شريك لكم فى قريتكم الا رسول الله أو رسول رسول الله وانه لاظلم عليكم ولا عدوان وان رسول الله يجيركم مما يجير منه نفسه فان لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة الا ماعفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله . وان عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ماصادت عروككم (العروك : خشب يصطاد عليه) وربع ما اغتزلت نساؤكم وانكم قد ثريتم بعد ذلك ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة فان سمعتم واطعتم فعلى رسول الله ان يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ومن ائتمر فى بنى حبيبة واهل مقنا من المسلمين خيرا فهو خير له ومن اطلعهم بشر فهو شر له ، وليس عليكم امير الا من انفسكم أو من اهل بيت رسول الله »

وصف البلقاء

وصالح ايضا وهو فى تبوك اهل حربا واهل اذرح (قرية فى شرق الاردن على الطريق السلطانى بين معان والكرك لا تزال موجودة) وهما من بلاد الشراة على مائة دينار ثم عاد الى المدينة بعد ماقضى ٢٠ يوما فى تبوك وبعد مانشر نفوذه فى المناطق العربية المجاورة لحدود الحجاز الشمالية واخضعها لدولته وكانت من قبل خاضعة للروم تدفع الجزية لهم وتدين بطاعتهم . ومعنى ذلك ان حدود الدولة الاسلامية وصلت الى شمالى معان ، وتبعد هذه عن المدينة نحو ٨٥٠ كيلو مترا وان المسلمين انتزعوا من الروم مقاطعات الشراة ودومة الجندل « الجوف » وغيرها من الامارات الصغيرة الواقعة فى منطقة الحدود بين الحجاز والشام ، واصبحوا على ابواب البلقاء وهى شرق فلسطين والى الجنوب الشرقى من السلط وتضم السلط وعمان وقد اعتبر الترك فى بعض الاوقات نابلس من البلقاء وجعلوها مركزا للواء البلقاء ومركز لواء البلقاء اليوم فى نفس عمان باعتبار التقسيمات الحاضرة ومن اعماله السلط حتى الشونة على مقربة من نهر الاردن وبمقابلته اريحا والحد الفاصل من البلقاء وجبل عجلون هو مسيل الزرقاء المعلوم الذى ينبع من محطة الزرقاء المعروفة باسمه ويصب فى الاردن بين

صويلح وجرش فى منتصف طريقهما ومادبا والجيزة من البلقاء اما جرش فعجلونية والكرك والشوبك والطفيلة مؤابية

نفوذ العرب محل نفوذ الروم

على هذا المنوال ، انتهت الاعمال العسكرية الاولى التى عملت على حدود الشام فى خلال خمس سنوات أى منذ الغارة التى أغارها النبى فى السنة الخامسة على دومة الجندل . وقد كانت مقدمة للعمل العظيم الذى شرع به ابو بكر بعد ذلك وأتمه عمر ابن الخطاب فاجتث نفوذ الروم من الشرق العربى وأحل محله نفوذ الاسلام كما ستراه مفصلا

التعبئة في عهد أبي بكر

١

ابو بكر وحرب الروم

سكنت الحالة سكونا نسبيا على حدود الشام ، بعد رجوع الجيش من تبوك ووفاة النبي واشتغال المدينة بحرب الردة

ورأى ابو بكر ان لايدع الميدان خاليا فى منطقة الحدود وكان حريصا على فتح الشام فجهز حملة عهد بقيادتها الى خالد بن سعيد بن العاص وامره ان لا يتخطى حدود تيماء (لا تزال قائمة حتى الآن وآثار الابلق « حصن السموأل » فيها كما يؤكد البعض وهى فى الجنوب الشرقى من تبوك ، وكانت من المناطق التى ينزلها اليهود فى شمالى الحجاز وقد اخضعها المسلمون فى خلال غزوة خيبر سنة سبع وصالحوا اهلها على الجزية وعينوا يزيد بن ابى سفيان واليا لها) وان يدعو من حوله من العرب للانضمام اليه ، وان لايقاتل الا من قاتله انتظارا لأمر آخر يصدر اليه

وقصد خالد تيماء بجيشه ، فنزلها واقام يبث دعوته بين القبائل المجاورة و يستميل الناس اليه ويدعوهم الى الدخول فى الاسلام كما ارسل الرسل والرواد ترتاد اخبار الروم وتأتيه بما يعملونه ، فعلم ان جيشا روميا يشد أزره متطوعون من العرب يتجمع فى عمان ، بقيادة البطريق ماهان — قائد الروم فى البلقاء — لمهاجمة تيماء ، والظاهر ان الروم كانوا يرقبون حالة الحدود ، فكتب اليه الخليفة يأمره بأن يعجل فى الزحف ومهاجمة هذا الجيش قبل ان يهاجمه ، مشترطا عليه ، ان لا يوغل كثيرا فى تقدمه ، وان يحافظ على خط رجعته فلا يهاجمه الروم من الوراء ويجعلوه بين نارين

و واصل خالد تقدمه فاجتاز معان ودخل ديرة البلقاء حتى وصل الى الزيزاء

(الزيزاء أو الجيزة كما يسمونها اليوم احدى محطات سكة حديد الحجاز بين عمان ومعان ، وتبعد عن الاولى نحو ٦٢ كيلو مترا الى الجنوب وعن الثانية ١٩٩ كيلو مترا وهي مركز ناحية معروفة باسمها تتبع متصرفية البلقاء من اعمال حكومة شرق الاردن وفيها بركتها الكبيرة المشهورة والى جانبها حصن صغير ربما اقيم على انقاض مسلحة من مسالح الرومان) وواصل تقدمه نحو عمان قاعدة الروم العسكرية في البلقاء لمهاجمتهم في عقر دارهم

وعرف ماهان بزحف خالد فأسرع الى لقائه بمن معه من الجند فدارت بين الفريقين معركة يظن ان مكانها بين الجيزة وعمان انتهت بانتصار المسلمين وفوزهم ، فشجع ذلك خالدا فكتب الى الخليفة يبشره بالنصر ويسأله السماح له بالتوغل في اراضي الروم ويطلب نجدات ، فوافقه على طلبه واصدر امرا الى عكرمة بن ابي جهل والوليد بن عقبة وهما ممن قاتلا في حرب الردة يأمرهما بالسير مع رجالهما لنجدة سعيد كما اصدر امرا آخر الى ذي الكلاع الحميري فساروا على عجل الى الشام

ووقع خالد في هذا الميدان بما وقع فيه عكرمة بن ابي جهل يوم اليمامة ، فقد اسرع في مطاردة الروم موغلا في بلادهم من دون ان يحفظ خط رجعته ومن دون ان ينتظر وصول النجدات التي ابلغه ابو بكر انها ارسلت اليه ، آملا ان ينال فخر الانتصار وحده ، فسقط في الفخ الذي نصبه له ماهان ، فقد تظاهر بالانكسار واخذ ينسحب الى الداخل وخالد يتبعه حتى بلغ مرج الصفر (هو السهل الواقع جنوبي نهر الاعوج في شمالي حوران في منطقة قضاء وادي العجم اليوم) وهنالك اطبقت عليه القوى الرومية القادمة من فلسطين ، والقوى القادمة من حوران وضيقت الخناق عليه . ولم ينقذه من ايديهم سوى وصول عكرمة بن ابي جهل على رأس جيشه فادركه وقد احدق به الاعداء من كل جانب ، وقتلوا عددا غير قليل من رجاله فانقذه منهم ، فعاد مع رجاله الى الحجاز

واصل خبر ما وقع بابى بكر فكتب الى خالد بن سعيد وكان ينزل فى ذى المروة (ضواحى المدينة) يعزله من القيادة و يقول له « اقم مكانك فلعمرى انك مقدام محجام نجاء من الغمرات لاتخوضها الى حق ولا تصبر عليه » وامره ايضا بان لايدخل المدينة لئلا يعرف الناس خبر هزيمته وفشله فيؤثر فى قواهم الادبية فيوهنها

٢

ابو بكر يعلن التعبئة العامة

انتهت حروب الردة على المنوال الذى وصفناه فى الكتاب الاول وسار خالد الى العراق فاشعل الحرب فى جنوبيه ، واصيب خالد بن سعيد بما اصيب به فى البلقاء ، فرأى ابو بكر ان يتشمر لحرب الروم وان يوجه القوى لقتالهم ، فدعا كبار الصحابة الى اجتماع عقده فى المسجد وخطبهم خطبة طويلة قال فى مقدمتها :

« الا ان لكل امر جوامع فمن بلغها فهى حسبه ، ومن عمل لله كفاه الله ، عليكم بالجد والقصد ، فان القصد ابلغ ، الا انه لادين لأحد لا ايمان له ، ولا اجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له

« الا وان فى كتاب الله من الثواب على الجهاد لما ينبغى للمسلم ان يحب ان يخص به ، هى التجارة التى دل الله عليها ونجا بها من الخزى ، والحق بها الكرامة فى الدنيا والآخرة »

ثم قال : اعلموا ايها الناس ان رسول الله عول ان يصرف همه الى الشام فقبضه الله اليه ، واختاره لديه ، الا وانى عازم على ان اوجه المسلمين الى الشام باهلهم ومالهم » فأقروا رأيه وفوضوه ان يفعل مايشاء

وكتب ابو بكر بعد ختام هذا الاجتماع الى مكة والطائف واليمن يستنفر القبائل للجهاد فى سبيل الله ويدعوها للقدوم عليه فوافاه المتطوعون من كل مكان فأنشأ اربعة جيوش سيرها على التوالى وهذه اسماء قوادها :

١ ــ جيش يزيد بن ابى سفيان ــ الى دمشق

٢ ــ جيش شرحبيل بن حسنة ــ الى البلقاء

٣ ـ جيش عمرو بن العاص ـ الى فلسطين
٤ ـ جيش ابى عبيدة بن الجراح ـ الى حمص

١ — يزيد بن ابى سفيان

واول جيش قصد الشام هو جيش يزيد ، ويتفاوت عدد رجاله بين ٣ ـ ٤ آلاف ولما ازمع الرحيل خرج الخليفة يشيعه

فطلب اليه يزيد ان يركب او ينزل هو عن دابته فقال له :

ما انت بنازل وما انا براكب ، انى احتسب خطاى هذه فى سبيل الله

ولما ازف الرحيل خطب ابو بكر الراحلين الخطبة الآتية قال :

« اذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على اصحابك فى مسيرك ، ولا تغضب على قومك ، ولا على اصحابك ، وشاورهم فى الامر ، واستعمل العدل ، وباعد عنك الظلم والجور ، فانه لا افلح قوم ظلموا ، ولا نصروا على عدوهم

« واذا لقيتم القوم فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير

« واذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدا ولا شيخا ولا امرأة ولا طفلا ولا تعقروا بهيمة الا بهيمة المأكول ولا تغدروا اذا عاهدتم ولا تنقضوا اذا صالحتم

« وستمرون على قوم فى الصوامع (الرهبان) حبسوا انفسهم فذروهم وما حبسوا انفسهم له ، وستجدون قوما فحصوا من اوساط رؤوسهم (حلقوا وسطها) فاضربوا مافحصوا عنه بالسيف »

٢ — جيش شرحبيل بن حسنة

ثم جهز جيشا ثانيا يتفاوت عدده بين ٣٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ مقاتل وعقد لواءه لشرحبيل بن حسنة (من كتاب رسول الله) وامره ان يسير الى تبوك ـ البلقاء ـ

بصرى وهى آخر مراحله وقال له حينما ودعه :

« اذا اقدمت على اهل عملك فعدهم الخير وما بعده ، واذا وعدت فانجز ، ولا تكثر عليهم الكلام فان بعضه ينسى بعضا ، واصلح نفسك يصلح لك الناس ، واذا قدم عليك رسل عدوك فاكرم مثواهم فانه اول خبرك اليهم ، واقلل حبسهم حتى يخرجوا من عندك وهم جاهلون بما عندك ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن انت الذى تلى كلامهم ، ولا تجعل سرك مع علانيتك ، فيخرج امرك ، واذا استشرت فاصدق الخبر تصدق لك المشورة ، ولا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك ، واذا بلغتك عن العدو عورة فاكتمها حتى توافيها ، واستر فى عسكرك الاخبار ، واذك حراسك واكثر مناجاتهم فى ليلك ونهارك ، واصدق اللقاء اذا لقيت ، ولا تجبن فيجبن من سواك »

٣ — جيش عمرو بن العاص

ثم جهز جيشا ثالثا عقد لواءه لعمرو بن العاص السهمى وامره ان يقصد فلسطين وان يكاتب ابا عبيدة ويستنجده اذا اراد ولا يبت امرا الا بمشورته . قالوا وكان عدد رجاله سبعة آلاف مقاتل

ولما ازمع الرحيل خرج ابو بكر لوداعه وقال له حين رحيله

« اتق الله فى سرك وعلانيتك ، واستحه فى خلواتك ، فانه يراك فى عملك وقد رأيت تقدمتى لك على من هو اكبر منك سابقة واقدم حرمة ، فكن من عمال الآخرة ، وارد بعملك وجه الله ، وكن والدا لمن معك وارفق بهم فى السير فان فيهم اهل ضعف والله ناصر دينه فيظهره على الدين كله

« واذا سرت بجيشك فلا تسر فى الطريق التى سار فيها يزيد وشرحبيل بل اسلك طريق ايلياء (القدس) حتى تنتهى الى ارض فلسطين وابعث عيونك يأتوك

باخبار ابى عبيدة فان كان ظافرا بعدوه فكن انت لقتال من فى فلسطين ، وان كان يريد عسكرا فانفذ اليه جيشا فى اثر جيش. وقدم سهل بن عمرو وعكرمة بن ابى جهل والحارث بن هشام وسعيد بن خالد واياك ان تكون وانيا عما ندبتك اليه ، واياك والوهن ان تقول جعلنى بن ابى قحافة فى نحر العدو ولا قوة لى به ، وقد رأيت يا عمرو ونحن فى مواطن كثيرة ، ونحن نلاق مانلاق من جموع المشركين ، ونحن فى قلة من عددنا ثم رأيت يوم حنين من نصرنا الله عليهم

« واعلم يا عمرو ان معك المهاجرين والانصار من اهل بدر فاكرمهم واعرف حقهم ، ولا تتطاول عليهم بسلطانك ، ولا تداخلك نجدة الشيطان . فتقول ان ابا بكر ولانى لانى خيرهم

« واياك ومدح النفس وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من امرك

« والصلاة ثم الصلاة ، اذن بها ، اذا دخل وقتها ولا تصل صلاة الا باذان يسمعه اهل العسكر ، ثم ابرز وصل بمن يرغب فى الصلاة معك فذلك افضل له ، ومن صلاها وحده اجزأت صلاته

« واحذر من عدوك وامر اصحابك بالحرس ، ولتكن بعد ذلك مطلعا عليهم ، وأطل الجلوس بالليل مع اصحابك وأقم بينهم ، واجلس معهم ، ولا تكشف استار الناس واتق الله اذا لاقيت العدو ، واذا وعظت اصحابك فاوجز ، واصلح نفسك تصلح لك رعيتك ، فالامام ينفرد الى الله تعالى فيما يعمله وما يفعله فى رعيته ، وانى قد وليتك على من قد ورث من العرب فاجعل كل قبيلة على حميتها ، وكن عليهم كالوالد الشفيق الرفيق وتعهد عسكرك فى سيرك ، وقدم قبلك طلائعك ، فيكونوا امامك ، وخلف على الناس من ترضاه ، واذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر فيكون ذلك منك نخرا

« والزم اصحابك قراءة القرآن ، وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها ، فان

ذلك يورث العـداوة بينهم واعرض عن زهرة الدنيا حتى تلتقى بمن مضى من سلفك وكن مع الأئمة الممدوحين فى القرآن »

٤ — جيش ابى عبيدة

وسير فى الغداة جيشا رابعا عقد لواءه لأبى عبيدة بن الجراح ولما ودعه قال له : سمعت ماقلته لصاحبك امس فلا اعيده عليك ولا اكرره

٣

طريق العرب الى الشام

سارت جيوش العرب الاربعة من المدينة الى الشام سالكة طريق القوافل المعتاد وقد وصفناه فيما تقدم ، يتبع الواحد الآخر فبلغت معان ، من دون ان يحدث لها حادث ، وتبعد معان ٨٤٣ كيلو مترا عن المدينة الى الشمال . وكانت من ممتلكات الروم تخضع للغسانيين مباشرة ، ولهم فيها آثار لا تزال قائمة ، وتدل الدلائل على انهم سبقوا فاستردوا الحامية العسكرية التى كانت لهم قبل وصول المسلمين.

وكانت هنالك اربع طرق الى قلب سورية هذا وصفها :

١ طريق معان ـ الشوبك ـ الكرك ـ مادبا ـ حوران ـ دمشق

٢ « معان ـ الجفر ـ الازرق ـ الجابية ـ حمص

٣ « معان ـ الجفر ـ الازرق ـ بصرى ـ دمشق

٤ « معان ـ وادى عربه ـ البحر الميت ـ القدس

تلك هى الطرق المؤدية الى قلب سورية وقد سلكوا بعضها بعد قيامهم من معان ونحن نصف كلا منها على حدة فنقول :

١ ـ طريق معان ـ الكرك ـ مأدبا ـ البلقاء

يجتاز هذا الطريق منطقة الشراة ويشقها شقا مبتدئا من معان وهى بابها ويمر باذرح ولا تزال بقاياها قائمة وفيها ماء ـ الجرباء الكبيرة ـ الجرباء الصغيرة ـ الشوبك ـ الطفيلة ـ الكرك ـ كورة بنى حميديات ـ مأدبا ـ الجيزة ـ عمان

هذا هو الطريق الذى يرجح ان يكون جيش شرحبيل سلكه فى زحفه الى

البلقاء ويبلغ طوله نحو ٢٠٠ كيلو متر من معان حتى عمـان ، وهو الطريق الرومى القديم ، وكانوا يسلـكونه فى ذاك العصر ، وقد جددته الحـكومة الاردنية الحاضرة واصلحته وربما تم افتتاحه فى زمن قريب وهو نفس الطريق القديم مع تعديل طفيف

اما خط سكة حـديد الحجاز الممتد بين معان وعمان فيقع شرقى هذا الطريق ويجتاز صحراء بلقع على ان انشاء المحطات على طوله نشط حركة العمران ووسعها

٢ ـ طريق معان ـ الجفر ـ الازرق ـ بصرى ـ دمشق

كان هنالك طريقان امام يزيد وابى عبيدة : طريق الطفيلة ـ الـكرك ـ مادبا الذى تقدم وصفه او طريق معان ـ الازرق ـ بصرى والمفهوم انهما سلـكا الطريق الاول

٣ ـ طريق معان ـ وادى عربه ـ البحر الميت

وسلك عمرو بن العاص هذا الطريق فقد مشى الى وادى عربة وهو واد متسع الجنبات عظيم الخطورة ومنه خرج الى البحر الميت فاستقر حوله واتخذه قاعدة لاعماله العسكرية وهو قريب من القدس

٤

قوات العرب العسكرية فى الشام

تلك هى الطرق التى نرجح ان قادة الجيش العربى سلكوها بعد دخولهم حدود الشام الجنوبية ، اى بعد اجتيازهم منطقة معان ، وكان لكل جيش من الاربعة عملا خاصا نيط به اتمامه ، ومهمة يطلب منه قضاؤها

بيان عن المنطقة الحربية

وكانت المنطقة التى عهد اليهم ان يثيروا الحرب فى داخلها خلال هذه المرحلة واسعة تمتد من اراضى غزة على البحر المتوسط غربا حتى صحراء الشام شرقا ولا يقل طول هذا الخط عن ٣٠٠ كيلوا متر ، ولا يقل عمقه عن ٤٠٠ كيلو متر ايضا اى من معان حتى ابواب دمشق

وكان العرب فى حروبهم هذه يبعدون عن قاعدتهم العسكرية الكبرى فى المدينة مسافة لاتقل عن ١١٠٠ كيلو متر والمواصلات بينهم وبينها تكاد تكون مقطوعة ، وكان ابو بكر يمدهم بالنجدات ، وكانوا يعولون على الابل فى ارسال أخبارهم الى الخليفة وتلقى تعليماته ، ولا تروح وتغدو فى اقل من بضعة اسابيع

مجموع عدد الجيش العربى

ما كان عدد الجيش الواحد من الجيوش الثلاثة الاولى يزيد عند ابتداء الزحف عن اربعة آلاف مقاتل بين فارس وراجل ، اما الرابع فكان يقدر بثمانية آلاف

وكان ابو بكر لا يكف عن استنفار الناس الى الجهاد حتى بلغ عـددها يوم اليرموك ٢٨ الف مقاتل بالتقدير المتوسط ولا يدخل فى هذا الاحصاء جيش خالد وقد جاء من العراق يومئذ وعدده عشرة آلاف فانضم اليهم فصار عـددهم ٣٨ الفا وقيل غير ذلك والروايات متضاربة فى تقدير العـدد والاصح ما ذهبنا اليـه فانه لم يكن فى استطاعة الحجاز ان يخرج فى تلك الايام اكثر من ٦٠ الف مقاتل (بالاضافة الى جيش العراق وكان يقـاتل الفرس بقيـادة المثنى فى نفس الوقت الذى كانت الحرب دائرة مع الروم)

قيادة العرب العسكرية

ولم تـكن هنالك قيادة موحـدة للعرب فى ميـدان الشام يرجع اليها قوادهم ويتلقون منهـا التعليمات والاوامر العسكرية ؛ بـل كان كل واحـد منهـم يعمل مستقلا فى منطقة عمله الحربى ، فقد انتدب عمرو بن العـاص للعمل فى منطقة فلسطين ؛ وانتدب ابو عبيدة للعمل فى الجابية ؛ وانتدب يزيد للعمل فى البلقاء « امارة شرق الاردن » ؛ كما انتدب شرحبيل للعمل فى منطقة بصرى «مملكة غسان» ؛ وكان كل مالديهم من الاوامر الخاصة بالتعاون هو ان يعملوا متساندين وان يشد بعضهم ازر بعض وأن ينجد بعضهم بعضا (هو ما اوصاهم به ابو بكر حين سفرهم) ومعنى هذا انه لم تـكن هنالك سلطة عليا يرجعون اليها ، ولعـل منشأ ذلك هو صعوبة الاتصال واتساع المنطقة التى كانوا يعملون فيها فمـا كان من السهل اجتماعهم ولا تـكاتبهم ، فالسيارات لم تـكن معروفة فى ذلك العصر فيعتمدون عليها فى تنقلهم للاجتماع ، ومثل ذلك البرق والتليفون فيعتمدون عليهما فى ارسال اخبارهم

وكانت العاصمة مرجعا لـكل واحد منهم ، يرسل اليها اخباره وما يغنمه من غنائم بعد مايوزع على كل محارب ما يستحقه ، ويتلقى منها التعليمات والاوامر والخطط العسكرية التى يسير عليها .

على ان هذا لا يمنعنا من القول بان الرئاسة الادبية كانت لابى عبيدة بن الجراح لانه اقدمهم فى الاسلام ، فهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وهو من اصحاب رسول الله القدماء وقد كان من المرشحين للخلافة يوم وفاته واراد ابو بكر ان يبايعه ، كما انه يحمل لقب « امين الامة » وقد لقبه به رسول الله فى حياته وكان يقربه منه و يدنيه

٥

قوات الروم العسكرية

ليس من شأننا هنا ان نصف عظمة امبراطورية الروم التى جاء العرب لمهاجمتها ، وبرزوا لقتالها ونزالها ، فقد اجمعت كلمة المؤرخين على انها من اعظم الامبراطوريات التى عرفها التاريخ وكانت تملك جميع الاقطار التى اصطلحنا ان نسميها فى هذا العصر ببلدان الشرق الادنى ، فكانت حدودها تمتد من شرق اوربا حتى منتهى حدود افريقية الشمالية فتشمل الاقطار الواقعة شرقى البحر الابيض المتوسط كلها وهى اليونان والاناضول وسورية وفلسطين ومصر و بنغازى وطرابلس الغرب وتونس ، والجزائر والمغرب يضاف الى ذلك ما كان لها من ملك ضخم فى اوربا

الجيش الرومى

وكان لهذه الامبراطورية جيش اجمعت الكلمة ايضا على انه كان من اعظم الجيوش التى عرفها التاريخ سواء من جهة العدد والعدد او الروح العسكرية او النظم او المواصلات والوسائل الاخرى . ولولا تفوق الروم العسكرى ، وكفاءة قوادهم و بسالة جندهم ، و وفرة معداتهم ، لما استطاعوا ان ينشئوا ذلك الملك الفخم العظيم ، ويخضعوا القسم المعمور من العالم لسلطانهم ، و يحكموه قرونا

وعلاوة على ذلك فقد اشتهر الروم باجادة انشاء الحصون والقلاع واتقانها ، وكانوا يكثرون منها فى المقاطعات التى يحكمونها ويجعلون جل اعتمادهم عليها وعلى الاجناد المقيمة فى داخلها ، فيخيفون بها السكان فلا ينتقضون عليهم ، وكانوا ايضا

يكثرون من شق الطرق العسكرية فى داخل امبراطوريتهم ، وهى طرق خاصة بالجيش لضمان مواصلاته فتسهل عليه الانتقال من قطر الى آخر عند الحاجة

وكان لهم أيضا فى كل مقاطعة يحكمونها حامية عسكرية تتناسب مع اهميتها ، وكان على رأس كل منها قائد رومى تطلق يده عادة فى اتخاذ ما يراه لازما من التدابير المحلية ، أى انه كان يتمتع من هذه الجهة باستقلال داخلى

مراكز الروم العسكرية

والكلام عن تاريخ الروم العسكرى وعن جيشهم ونظمهم العسكرية يطول ولا يدخل فى دائرة بحثنا فنقتصر على ايراد نبذة نصف فيها حالة الشام العسكرية عند هجوم العرب ، فذلك يساعد على تقدير المخاطر التى استهدف لها هؤلاء فى غارتهم على ذلك الاقليم الواسع ، ويكاد يكون شبه منطقة عسكرية حصينة لكثرة ما أقاموا فيه من حصون وقلاع

ويمكننا القول استنادا الى ما جمعناه من المصادر التاريخية انه كان للروم فى الشام أى فى المنطقة الممتدة من شمالى حلب حتى بيت المقدس ستة مراكز عسكرية كبيرة هى :

١ ـ انطاكية : وكانت عاصمة الشام فى العهد الرومى

٢ ـ قنسرين : فى شرقى حلب ومن احيائها [1]

---

(١) كتب الينا الاستاذ عمر الطيبي بعد اثبات ما كتبناه عن قنسرين يقول انها كانت تقع بين حماه وحلب وهى الى الجنوب الغربى من حلب وعلى بعد ٢٥ كيلو مترا عنها ، وفى حلب باب يسمى بباب قنسرين يسير المسافر منه اليها على خط مستقيم . وكانت واقعة فى سفح جبل يسمى النبى عيص وهو صغير مستطيل يمتد من الشرق الى الغرب فى ذورته مدفن يقولون انه قبر النبى عيص وثمة قرية بيوتها قباب مخروطية تدعى العيص بنيت فوق اطلال مدينة قنسرين التى كانت حلب قرية من قراها ،

٣ ـ حمص : و يمتد نفوذها العسكرى حتى تدمر وصحراء الشام فيبلغ حدود الجزيرة أى انها تحاد الفرس من الشمال الشرق كما كانت قاعدة قنسرين تحادهم من الشمال الغربى

٤ ـ عمان : وكانت قاعدة البلقاء وكان للروم فى الكرك قلعة حصينة ومثلها فى عمان

٥ ـ اجنادين : وكانت قاعدتهم العسكرية فى جنوبى فلسطين وعلى حدود بلاد العرب الشرقية والغربية وعلى حدود مصر

٦ ـ قيسارية : فى شمالى فلسطين (جنوبى حيفا وتبعد عنها ١٣ كيلو مترا) وعلى شاطئ البحر الابيض المتوسط ولا تزال أنقاضها قائمة

وكان هناك أيضا مراكز عسكرية فرعية تتبع هذه القواعد وكان القائد الرومى العام يقيم فى انطاكية أو فى حمص ، وكثيرا ما كان الامبراطرة أنفسهم يترددون على الشام

ولا يخفى أن الروم لم يعنوا هذه العناية ببلاد الشام ولم ينشئوا هذه المراكز العسكرية الكبرى ولم يكثروا من حشد القوى والجند الا لانها كانت فى طرف مملكتهم الجنوبى فكان الفرس يحادونها من الشرق ومن الشمال الشرق ، كما كانت بلاد

وقد خربت قنسرين فى القرن الرابع للهجرة وفى عهد سيف الدولة بن حمدان ولكن قراها عامرة واسعة وقنسرين اليوم من أملاك الدولة امتلكتها هذه المؤسسة فى عهد السلطان عبد المجيد هى وقراها ولما فتح الاندلس نزل أهل قنسرين مدينة جيان لانها تشبه مقاطعتهم

وقنسرين بجانب المطخ الكبير الذى كان يملأه قويق فى العهد الغابر أيضا فيشمل الجزيرة حتى آخر الحدود عند ضفة الفرات الغربية (منطقة جرابلس ومسكنة فى الوقت الحاضر)

العرب تحدها من الجنوب ومن الجنوب الشرقى ، وحيث ان العداء كان مستحكما بين امبراطوريتى الروم والفرس ، وحيث ان الحروب بينهما ما كانت تنقطع وكانت كل واحدة منهما تترقب بالثانيه دوائر السوء وتسعى لاذلالها واستصفاء بلادها ـ اضطر الروم الى حشد قوى كبيرة فى بلاد الشام واعداد هذه المراكز وشحنها بالجند وشق الطرق وتعبيدها لئلا يؤخذوا على غرة او يستباح حماهم ، اى ان ما اعدوه لم يعدوه لقتال العرب وما خطر لهم ببال بأنهم سيؤخذون من الجنوب وينهار على أيدى أبنائه ملكهم

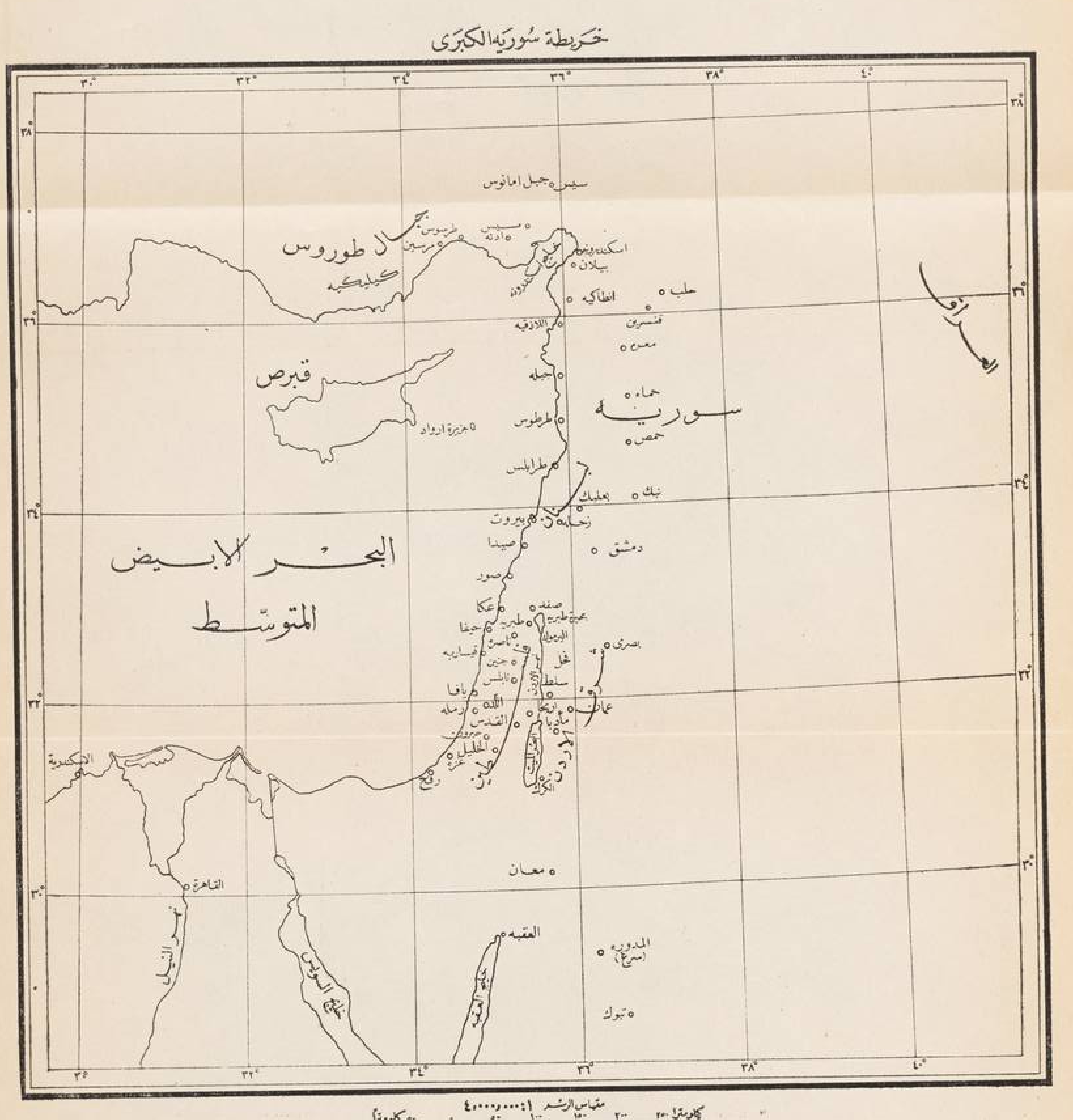
عدد الجيش الرومى

ويلوح لنا أن قادة الروم العسكريين فى انطاكية قرروا فتح ابواب الحدود فى وجه الجيش العربى لاستدراجه الى الداخل فيثبون عليه ويضربونه ضربة لا يعود بعدها الى غزو الشام ، ولتحقيق هذه الخطة عكفوا على حشد جيش كبير فى انطاكية حشروا له الارمن والروم من الاناضول وكانوا عمدة جيشهم ويقدر بعض المؤرخين قوى هذا الجيش بمئتى الف مقاتل جمعت فى خلال بضعة أشهر ، وبعد أن تم تجهيزها زحفت الى الجنوب قاصدة حمص فدمشق وكان قادتها ينادون بأنه لابد لهم من القاء درس قاس على العرب ومنعهم من ارتياد بلاد الشام او الدنو من حدودها

وكذلك عزز الروم قواهم العسكرية فى فلسطين بنجدات قوية أرسلوها اليها من هنا وهناك ويقول مؤرخو العرب ان عدد القوى التى جمعوها فى هذا الميدان ما كانت تقل عن مائة الف جندى . ومعنى ذلك انه كان يجب على العرب اذا صح الرقم ـ ولا يخلو من مبالغة فى نظرنا ـ منازلة ثلاثمائة الف مقاتل ، مع ان

عددهم ما كان يزيد على أربعين الفا فى أكبر تقدير ، وليس هذا كل ما كان يتفوق به الروم فقد كانوا يتفوقون على العرب بالحصون والقلاع والمعدات والخيل والسلاح وأدوات الحرب ، ووسائل المواصلات ، وكانوا يقاتلون فى عقر دارهم وفى داخل أراضيهم ، وكانوا على اتصال وثيق برا وبحرا بعاصمة ملكهم وكانت النجدات تأتيهم تباعا من أنحاء امبراطوريتهم الواسعة

خريطة سورية الكبرى



٦

ميدان الشام وميدان العراق

كانت القوى التى اعدها العرب لحرب الروم فى الشام اكثر من التى اعدوها لحرب الفرس فى العراق ، فقد جندوا جيشين للعراق : جيش خالد وجيش عياض ابن غنم (ولم يعمل هذا عملا عسكريا يذكر) وجهزوا اربعة للشام

وما كان عدد جندهم الذى طرق العراق يزيد فى المرحلة الاولى عن بضعة آلاف مع انهم زحفوا على الشام دفعة واحدة فى قوة لا تقل عن ١٦ الف جندى على اقل تقدير

ومع ان الاوامر التى صدرت لجيش الشرق (جيش العراق) تقضى عليه بان يهاجم العراق من شماليه وجنوبيه فان الاوامر التى حملها قادة جيش الشمال كانت تقضى عليهم بان يهاجموا الشام فى أربعة مناطق :

١ ـ البلقاء

٢ ـ فلسطين

٣ ـ حوران

٤ ـ دمشق

ويلوح لنا ان اتساع نطاق الميادين التى تقرر ان يقاتلوا فى داخلها هنا ومحاولتهم اشعال نار الحرب على طول خط الحدود واشغال الروم فى كل دائرة ، جعلهم يتبعون هذه الخطة ويحشدون هذه القوى ، يضاف الى ذلك ان الروم ، كانوا خارجين من حربهم مع الفرس وثملين بخمرة النصر العظيم الذى انقذ بلادهم واعاد اليهم

اقطارهم ، اى ان قواهم الادبية كانت سليمة ـ مما يزيد فى خطورة المهمة التى اخذ الجيش العربى على عاتقه الاضطلاع بها

هذا من جهة ، اما من الجهة الاخرى فان طبيعة الاراضى التى جاء العرب لمهاجمتها تختلف اختلافا كبيرا عن طبيعة الاراضى فى العراق ، فقد كان خالد يقاتل فى ارض رملية ، سهلة ، غزيرة الماء ، كثيرة السكان بعكس الحالة فى ميدان الشام فقد كان عليهم ان يقاتلوا فى مناطق جبلية سواء كان فى فلسطين او فى البلقاء (شرق الاردن) او فى حوران نفسها او على طريق حمص ايضا

ولا بد من القول بان معظم المناطق التى هاجمها العرب فى ابتداء القتال كانت محصنة : فهنالك معان والكرك و بصرى ودمشق وحمص فقد كانت كلها ذات قلاع وحصون

وما عرفنا ان الفرس ، عنوا بتحصين حدودهم الجنوبية المتاخمة للحجاز

وكان شأنهم هذا شأن الروم تقريبا فقد كانوا مطمئنين الى البادية ومعتقدين ان لاخطر يهددهم من جهتها

ومما تجب ملاحظته ايضا ان المعركة الفاصلة ، نشبت فى هذا الميدان (ميدان الشمال) بسرعة زائدة ، وكان الروم هم الذين استعدوا لها وحملوا العرب على الاشتباك فيها ـ وذلك انهم حشدوا قوات عظيمة على جناح السرعة فى حمص ودمشق وساروا للقاء العرب فى الجنوب فتنبه هؤلاء الى خطط الروم العسكرية وعرفوا ان تفرقهم مؤذن بهزيمتهم فتكاتبوا واتصلوا ، ثم اجتمعوا واتحدوا وانشأوا لهم قيادة عليا تدير شؤونهم وتنظم امورهم

ولقد اشتركت المرأة العربية فى الاعمال العسكرية التى عملت فى هذا الميدان من الاول الى الآخر ولم تشترك فى ميدان العراق الا متأخرة اى فى الدور الثانى يوم تقلد سعد بن ابى وقاص القيادة وانشب معركة القادسية الكبرى وكان للمرأة العربية حظ الاشتراك فيها ، فقد ثبت ان نساء العرب قاتلت فى اليرموك وابلت البلاء الحسن وحملت الرجال على الثبات حينما حاول بعضهم الانهزام عند الصدمة

الاولى ، وعلى كل حال فان استصحاب العرب لنسائهم الى الشام ، من أول الامر، يدل على انهم كانوا جادين ، وانهم جاءوا للقيام بعمل حاسم ، وما اعتادوا أن يصحبوا نساءهم الا فى الامور الجسام

وجملة القول ان العرب كانوا يعلقون اهمية عظيمة على حرب الشام ويعرفون انهم ملاقون فيها عدوا شديدا صعب المراس ، وجيوشا لجبة ، وحصونا حصينة ، وعددا ومعدات تفوق العدد والمعدات التى لاقوها فى العراق ، وكان الفرس خارجين من حرب طويلة ، انهكت قواهم واستنزفت مواردهم ، واضعفت القوى الادبية فى صدورهم

٧

هل سعى الامبراطور للصلح

لابد لنا ونحن ندرس حالة العرب وحالة الروم ونقابل بين قواهم المادية والادبية قبل المعركة الكبرى : معركة اليرموك ـ من الاشارة الى رواية رواها غير واحد من مؤرخي العرب ، وخلاصتها ان الامبراطور هركليوس استشار بعض قواد جيشه واقطاب دولته فى عقد صلح مع العرب على قاعدة التنازل لهم عن نصف خراج الشام وعن جزئها الجنوبى (حوران والبلقاء) أى الجزء المأهول باكثرية عربية ، فيبقى الجزء الآخر المأهول باكثرية غير عربية للامبراطورية فتتقى بذلك خطر الاشتباك فى حرب ما كان يرى ان من مصلحتها خوضها

ويقول المؤرخون ان الامبراطور قال لرجاله : « لئن تعطوهم نصف ما اخرجته الشام وتأخذوا نصفه وتقربون من جبال الروم فذلكم خير لكم من ان يغلبوكم على الشام كلها ويشاركوكم فى جبال الروم نفسها » فلم يسمعوا له ولم يصغوا اليه ، واصروا على القتال باسم المحافظة على الكرامة القومية ، وقالوا ان من العار على الامبراطورية ان نعقد صلحا مع شراذم بدوية ، مع انها قادرة على تشتيتها واذلالها ، فاضطر الى مجاراتهم حينما احس منهم العزيمة ، والتصميم لان تمسكه برأيه يقع موقعا غير مستحب عند الشعب المتحمس ، وكان يستهين بامر العرب ويرى انه من العار على الامبراطورية ان تصالحهم

ولم نطلع فى الكتب الاجنبية المؤلفة فى تاريخ روما على ما يؤيد هذه الرواية ، الا ان ماعرف به الامبراطور نفسه من كره الحرب ومقته لها واعتقاده بان

فيها خطرا عظيما على دولتـه ـ وكانت تقاسي ازمة داخلية شديدة ـ يجعلنا لا نستبعد ذلك كثيرا ، يؤيد هذا سعيه للاتفاق مع الفرس وارساله هدايا لكسرى فى اول الامر سعيه للاتفاق مع قبائل شرقى اوربا ، وقد فاز فى ذلك . ومهما يكن من امر فاننا نشك كثيرا فى قبول العرب لمثل هذا الاقتراح لو عرض عليهم ، لانهم كانوا يعملون لنشر دينهم ، ولا يتسنى لهم ادراك ذلك الا باخضاع البلاد سياسيا ودخولها فى عهدهم

٨

فى طريق المعركة الفاصلة

اتبع قادة الجيش العربى خطة الحذر والاحتياط فى هذه المرحلة ، خوف الوقوع فى شرك العدو فساروا وئيدا ، ومشوا بطيئا

و يرى دارس الخطط العسكرية التى نفذت فى ابتداء هذه المرحلة ، ان قادة هذا الجيش وكان كل منهم يعمل منفردا فى منطقة مستقلة خاصة به ، انهم كانوا يحاربون عدوهم ، حروب ازعاج ، وذلك بشن الغارات على مراكزه ويتجنبون الاشتباك معه فى معركة حاسمة . وتلجأ الامم الضعيفة الى هذا الضرب من الكفاح ابان نهضاتها الوطنية وفى نضالها مع الشعوب المستعمرة التى غلبتها على بلادها واستباحت حماها ، وقد سار البلقانيون على هذه القاعدة فى نضالهم مع الترك العثمانيين قبل سنة ١٩٠٨ م وسار عليها الرومانيون ايضا قبل استقلالهم عن الترك سنة ١٨٧٦ ثم سار السوريون عليها فى كفاحهم العظيم مع الفرنسويين سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ وسنة ١٩٢٥ - ١٩٢٧ و يسير عليها كل شعب مغلوب مقهور لا قبل له بمقاومة قوى الدولة التى تحتل بلاده ولا بالوقوف وجها لوجه امام جيوشها الجرارة وجنودها المنظمة

والذى نرجحه ان هيئة اركان حرب الجيش الرومى ارادت ادراك غرضين اثنين من عملية الجلاء وقد اتبعتها فى بعض مناطق الحدود ولم يجد العرب مقاومة قوية هنا

بعكس ما جرى حينما قصدوا مؤتة ولعلها ارادت اكتساب الوقت اللازم لحشد قواتها الكبرى ، وبديهى ان المواصلات فى ذلك العهد لم تكن منظمة كما هى اليوم كما ان اساليب تعبئة الجيوش وحشدها ونقلها لم تكن ايضا على ماهى عليه فى عصرنا الحالى من الاتقان والتنظيم ، ومعنى ذلك ان حشد جيش لجب كالذى أعده الروم فى انطاكية وقالوا ان عدده بلغ مئتا الفا يحتاج الى شهور ، ولذلك رأى قواد الجيش الرومى ان من الحزم ان لايشتركوا فى ابانها بمعارك موضعية مع الجيش العربى قد يشجعه الفوز فيها ويضرم نار الحماسة فى صدور رجاله فيزدادون قوة واندفاعا

وأما الغرض الثانى فخلاصة ما يقال فيه هو انهم أرادوا أن يدعو سكان مناطق الحدود بين أيدى حكومة غير حكومتهم ولو لمدة قليلة ، لكى يدركوا ما هنالك من فرق كبير ، بينهم وبين سواهم فقد توهموا ان العرب يبطشون ويقتلون وينهبون ويدمرون فينقلب السكان عليهم ويساعدون الروم فى نضالهم ، ولا يعودون الى التضجر والتذمر من أعمالهم وقد كانوا يشكون مر الشكوى من سوء حالتهم ومن المظالم والمغارم التى ينزلونها بهم

ونفذ قادة الجيش الاسلامى وجنده التعليمات التى أوصاهم بها الخليفة عند سفرهم ، كما تمسكوا بالقواعد التى جاء بها دينهم ، وهى تأمر بالعدل والاحسان وبالمساواة التامة فلا فاضل ولا مفضول، ولا سيد ولا مسود بل الكل اخوان تحت راية الاسلام والايمان ، للكبير ما للصغير من حقوق ، وللغنى ما للفقير من حرمة ، فلا اعتداء ولا ارهاق ، ولا ظلم ، ولا مصادرة . فذاق الناس لونا جديدا من الحرية والعدل لم يعرفوه ، فأقبلوا على الفاتحين والتفوا حولهم وأيدوهم ونصروهم ، لانهم رأوا أن فى تأييدهم الوسيلة الوحيدة للنجاة من الاستعمار الرومى الظالم والتحرر من نيره الثقيل . والمؤرخون مجمعون سواء منهم مؤرخو الاسلام أو مؤرخو الدولة

الرومية أو مؤرخو العصر الحديث من الاوروبيين على انه كان لقواعد العدل والانصاف والمساواة التى جرى عليها المسلمون حين دخولهم الشام تأثير كبير فى استمالة الناس اليهم ، وكانوا لحكم الروم كارهين ، ولاعمالهم مبغضين ، ومن تصرفاتهم متبرمين ، فاجتذبوا النفوس ، وامتلكوا القلوب ، فانضم الشعب اليهم ومالأهم وحارب الروم معهم ، وكذلك عاقبة الظلم والطغيان فى كل زمان ، فهو لا يلبث أن يورد مرتكبه موارد الشقاء والبوار ، ويسوقه الى الهلاك والتلف

وايد فريق كبير من الغزاة سكان مناطق الحدود وحوران والبلقاء ، وانضم اليهم لانهم اخوانهم وأبناء عمومتهم ، فرابطة القومية عند العربى فوق كل رابطة ومقامها يعلو كل مقام والعربى ابن عم العربى ، مهما اختلفت داره ، وبعدت شقته ، ومهما كان شكل الحكومة التى تحكمه ، يحن اليه ويحفظ عهده ، ويفضله على أى أجنبى كان ، وكذلك مالأهم بعض يهود فلسطين فقد انقض عليهم الروم حين زيارة هركليوس لبيت المقدس فى سنة ٦٢٩ وذبحوهم وقتلوهم تقتيلا بايعاز الاكليروس الرومى واغرائه ، لانه نقم على اليهود تصرفات تصرفوها حين احتلال الفرس لفلسطين واتهمهم بالتواطؤ مع العدو فلجأ بعض رجالهم وشبانهم الى أطراف الحدود فى البلقاء والشراة (منطقة معان) ولما اطلت عليهم كتائب الجيش العربى فى زحفها الى الشام تظاهروا بتأييدها وتجسسوا لها ، انتقاما من اعدائهم الروم الذين ظلموهم وجاروا عليهم وذبحوهم

ويمكن القول ان فوز العرب فى خلال المرحلة الاولى كان كبيرا سواء من الوجهة العسكرية أو من الوجهة الادبية مما جعل الروم يعجلون فى حشد الجنود وتسييرها ، وحسب العرب حساب القوى العظيمة التى حشدها الروم وأدركوا ما تنطوى عليه الخطط العسكرية الجديدة من خطر فانسحبوا بانتظام وارتدوا الى

حوران ليكونوا على مقربة من البادية ، فلا يعوقهم عائق اذا قضت الضرورات العسكرية عليهم بالارتداد ، ولا يسقطون بين مراكز اعدائهم القوية ، فكان ذلك فاتحة النهاية ، وقد ابتدأت بمعركة اليرموك وانتهت بجلاء الروم نهائيا عن الشام وبدخوله فى حوزة العرب وسيبقى عربيا الى الابد ان شاء الله

٩

اعمال الجيوش الاربعة

لانملك تفاصيل وافية عن المعارك الاولى التى دارت بين جيوش العرب الاربعة حين وصولها الى حدود الشام ، و بين الروم ، فما كان مؤرخو العصور الاولى يعنون بمـا نعنى به من تفصيلات ، ولا يحرصون على ايراد ما نحرص على ايراده من بيانات ، على ان الواقدى تفـرد بمـا رواه عن اخبار معـركة زعم انها دارت فى تبوك بين جيش يزيد و بين جيش الروم بقيادة ماهان قائد البلقاء ، فقد ذكر ان هـذا قصد تبوك على اثر ماعامه من بعض العربان المتنصرة وهو ان ابا بكر يجهز لقتالهم ، فأراد ان يبـدأهم قبل ان يبـدأوه فسار اليهم فدارت معركة اشترك فيها شرحبيل ايضا وانتهت بانهزام الروم وتشتت شملهم ، مما يجب ان يقابل بالحذر فقد دل الاستقراء على ان معظم روايات الواقدى واخباره مما لايعوله عليها، ولا يوثق بها

ويذهب بعض المؤرخين الى ان اول معركة دارت بين العرب والروم فى هذه المرحلة كانت تلك التى حدثت فى داثن (قرية مندثرة فى منطقة غزة وتبعد عنها ١٨ ميلا الى الشرق) وانتهت بنصر العرب . ويورد غيرهم تفصيلات أخرى ، ونحن نسرد بايجاز ماوقفنا عليه من اخبار هـذه الجيوش وأعمالها من ابتداء الزحف حتى المعركة الفاصلة فى اليرموك فقد كانت خاتمة عهد ـ كما قلنا آنفا ـ وفاتحة عهد ومقدمة انتشار الاسلام فى بلاد الشام

١ — جيش يزيد بن ابى سفيان

كانت مهمة هـذا الجيش بلوغ غوطة دمشق واحتلال مدينـة دمشق نفسها ومساعدة الجيوش الاخرى فى حركاتها والعمل بالتساند معها

ويؤخذ مما لدينا من التفصيلات انه اتصل بقائد هـذا الجيش وهو اول جيش توغل فى حدود الشام ، ان قوات للروم ترابط على مقربة من وادى عربة وقالوا انها كانت تتألف من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة سرجيوس قائد منطقة غزة فلم يتردد فى منازلتها خوفا على خط رجعته اذا واصل التقدم وتركها وراءه ، فاعد على الفور قوة بقيادة ابى امامة الباهلى سارت للقاء سرجيوس فالتقى الجمعان فى الوادى[1] نفسه ودارت معركة انتهت بفوز المسلمين وهزيمة الروم . ثم عادت القوة فانضمت الى جيشها وكان معسكرا فى شرق الوادى . ويقال ان هذه المعركة وقعت فى شهر ذى الحجة من السنة الثانية عشرة (فبراير سنة ٦٣٤) وهى أول معركة فى هذه المرحلة وقد انتهت بانتصار المسلمين فشجعهم مالقوه من نصر وقوى عزائمهم

وواصل هـذا الجيش تقدمه بعد ذلك و بعد وصول الجيوش الاخرى ، وكانت على شبه اتصال فيما بينها وتعمل فى مناطق متقاربة ، فاجتاز البلقاء وحوران والغوطة ، حتى ابواب دمشق فوقف حولها ، وظل مرابطا فى هـذه المنطقة حتى اجتمعت كلمة قواد الجيوش على الانسحاب حينما بلغهم مسير الروم اليهم فارتد الى اليرموك واشترك فى المعركة الفاصلة . وتولى قائده قيادة جناح المسلمين الايمن فى ذلك اليوم الادهم

٢ — جيش شرحبيل بن حسنة

كانت مهمة هذا الجيش منازلة الجيش الرومى فى البلقاء (الجزء الجنوبى الغربى من امارة شرقى الاردن الحاضرة تقريبا) وتضم مقاطعة عمان والسلط وما بينهما حتى ضفة الاردن الشرقية وتنتهى حدودها الجنوبية عند ابتداء حدود مقاطعة الكرك التى

---

(١) انظر وصف الوادى ص ٧٢

كانوا يسمونها مؤاب ، اما حـدودها الشمالية فكانت تنتهى على مقربة من الزرقاء (المحطة الثانية بعد عمان للمتوجه الى دمشق) والحد الفاصل بين البلقاء وجبل عجلون وفيها نهر الزرقاء المعلوم الذى يصب فى الاردن بعد ان يفصل بين جبال البلقاء وجبال عجلون فى نحو منتصف الطريق بين عمان وجرش ، وجرش من أعمال جبل عجلون لا من البلقاء

ولم يلق هذا الجيش مقاومة تستحق الذكر فى تقدمه وكان يسير على الجناح الايسر لجيش ابى عبيدة والايمن لجيش فلسطين فاوغـل فى البلقاء حـتى بلغ بصرى ، وكانت من مراكز الروم الكبرى ، محصنة وذات سوار تدافع عنها قوة كبيرة من الروم والعرب الغسانيين ، فحاصرها ولم يوفق الى فتحها ، وقـد تم على يد خالد بن الوليـد حينما قدم من العراق وسيأتى وصف ذلك

٣ — جيش عمرو بن العاص

كانت مهمة هذا الجيش من أشق المهمات ، ولذلك كان عدده أكثر من غيره وكان عليه أن ينازل الروم فى فلسطين ، وان يحتل هذا الاقليم الواسع ويقضى على نفوذ القيصرية فيه

ووقعت بين هذا الجيش وبين الحاميات الرومية معارك فتغلب عليها واستولى عـلى جانب من فلسطين الشرقيـة والجنوبيـة وأوغل فى زحفـه نحو الشمال فخاف الروم العاقبة فحشروا قوات كبيرة لمقاتلته وأرسل هركليوس أخاه تيودور على رأس جيش كبير نزل فى قيسارية وهى قائمـة على الساحـل قرب حيفا ، وتقـدم حتى جنـين ، فانضم الى جيش فلسطين الرومى وكان بقيادة سرجيوس قائد فلسطين العسكرى، وربما كان هو قائد حامية غزة الذى هزمه أبو امامة فى وادى عربة — فاتحد الجيشان ويقدرون عددهما بسبعين الفا ، وسارا معا لمنازلة جيش ابن العاص ، فى نفس الوقت الذى تحرك فيه جيش الروم الاكبر من انطاكية ، وكانت مهمة جيش تيـدور طرد العرب من فلسطين واجلاءهم عنها ومضايقـة جناح الجيش العربى

الايسر ومحاولة قطع خط رجعته من البلقاء (شرق الاردن) بالظهور من ورائه

ورأى عمرو بن العاص انه لا قبل له بمقاومة هذه القوة فانسحب الى الغور (غور الاردن) متجنبا الاشتباك فى معركة فاصلة مع الروم ، وكانوا يسعون لجره الى الاشتباك معهم وقصد الجابية فانضم الى زملائه

٤ — ابو عبيدة بن الجراح

اتجه ابو عبيدة من معان الى مؤاب فالتقى على طريق الشوبك ـ الطفيلة بقوة للعدو فهاجمها وهزمها ـ نخضعت له المقاطعة وصالحه اهلها ـ فواصل تقدمه حتى الجابية ويطلق اسم الجابية على تل فى اراضى الجيدور من اعمال حوران وهو اليوم فى منطقة ناحية نوى وآثار الانقاض ظاهرة على التل ، وقد كانت الجابية عاصمة الجيدور وكان يدعى يومئذ ايطور ، وبالجابية سمى باب الجابية فى دمشق لانه الباب الذى يخرج منه من يقصد الجابية . ويشمل اقليم الجيدور من القرى المهمة فى حوران الشيخ مسكين ونوى وجاسم وانخل حتى حدود القنيطرة فالمزيريب وهو على يمين طريق السيارات الحاضر الآخذ من دمشق الى درعا عن طريق الشيخ مسكين ويخترقه الطريق الآخذ من الشيخ مسكين الى القنيطرة والزوية

وزار عمر بن الخطاب وهو امير المؤمنين الجابية مرتين وفيها قرر مقدار طعام الجند ولا يقل ارتفاع تل الجابية اليوم عن ١٠٠ متر وينبع منه ماء غزير يسيل الى قرية نوى نفسها

ولا يعرف الوقت الذى خربت فيه هذه العاصمة القديمة بالضبط

واحتل ابو عبيدة الجابية بدون مقاومة تذكر . وتقدم منها الى حمص ، سالكا الطريق الواقع شرق دمشق، وكان ذلك فى نفس الوقت الذى انتشر فيه جيشا يزيد وشرحبيل فى حوران والغوطة ، فحاصر حمص وغلبها فدخلت فى طاعة المسلمين وهى اول مدينة كبيرة فى سورية الوسطى دخلت فى حوزتهم

كلمة مجملة

هذا وصف موجز للاعمال العسكرية التى عملها العرب فى خلال المرحلة الاولى وقد امتدت من شهر ذى الحجة سنة ١٢ (فبراير سنه ٦٣٤) الى شهر رجب سـنة ١٣ ـ سبتمبر سنة ٦٣٥ تقريبا) وانتهت باحتـلالهم المقاطعات الآتيـة : وهى من الجنوب الى الشمال : الشراة ومؤاب والبلقاء والجابية والغوطة ثم محاصرة مدينة دمشق نفسها ، و بصرى واحتلال حمص والتقدم فى شماليها وهى نتائج لا يستهان بهـا . وكذلك فقد ادرك جيش فلسطين نتائج جديرة بالذكر فبسط نفوذه على معظم اجزاء هـذا الاقليم الجنوبيـة والشرقيـة ، وكاد يحتـله لولا ان عجل الروم بحشد قواهـم وعزموا على منازلته فى معركة فاصلة

ورأى قادة الجيش الرومى بعد ماوصلت الحالة الى هـذا الحد ، و بعد ان فقدوا القسم الجنوبى من بلاد الشام (ماعدا دمشق) و بصرى و بعـد ما كادوا يفقدون فلسطين ، ان يبـدأوا العمل فزحفت قواهـم الـكبرى الى حمص من انطاكية بقيادة تيودور شقيق هركليوس ، والظاهر انه ترك منصب القيادة العامـة لجيش فلسطين بعد ما أكمل تجهيزه ، للبطريق (اريطبون) وجاء الى انطاكية طبقا لاوامر اخيه فتولى قيادة جيشـها وسار الى حمص وكانت خطته تقوم عـلى ضرب جيوش العرب الثـلاثة الواحد بعد الآخر وطردها الى ماوراء الحدود

ومتى ذكرنا ان حركة هـذا الجيش بدأت وحركات جيش فلسطين فى وقت واحـد ادركنا ان الروم كانوا يسيرون على خطة منظمة محكمة ترمى الى سحق الجيوش العربية والقضاء عليها ، وقد عهدوا بتنفيذها الى جيش عظيم ماخامرهم شك فى انه سينيلهم اغراضهم ، ويقضى على كل محاولة للعرب فى الاستيلاء على الشام ، ولـكن ما كل مايتمنى المرء يدركه

١٠

خالد بن الوليد فى ميدان الشام

ما كان قادة الجيش العربي بغافلين عما يدبره عدوهم ، وما كانوا يجهلون مقدار القوى التى يحشدها لهم ، والخطط التى يسعى لتنفيذها ، فكتبوا الى الخليفة فى المدينة يطلعونه على الحالة ، ويسألونه اصدار تعليمات اليهم فيما يعملونه وارسال نجدات قوية للقاء الجيوش التى حشدت لهم وأعدت لقتالهم

القواد يكاتبون ويتصلون

وتكاتب القواد الاربعة للاتفاق على خطة يسيرون عليها ، لانهم ادركوا ان تفرقهم مؤذن بالقضاء عليهم ، وتمزيقهم ، فاجمعوا على الجلاء عن المناطق التى احتلوها فى الداخل وعلى ان يجتمعوا فى جوار بصرى من دون ان يدعوا فرصة للعدو للاشتباك معهم ، وكتب عمرو بن العاص بهذه المناسبة الى ابى عبيدة يقول « ان الرأى لمثلنا الاجتماع ، فانا اذا اجتمعنا لن نغلب من قلة ، وان تفرقنا لا تقوم فرقة بمن استقبلها لكثرة عدوها »

ونفذ قادة الجيوش الاسلامية هذه الخطة فجلا ابو عبيدة بقواته عن حمص عائدا الى جوار بصرى ، حسب الاتفاق ، وكذلك فعل صاحباه ، فتجمعت الجيوش الثلاثة فى حوران : جيش يزيد وجيش شرحبيل وجيش ابى عبيدة . اما جيش عمرو ابن العاص فقد اخذ ينسحب تدريجيا على محاذاة ضفة نهر الاردن الغربية ، حيث يكون على مقربة من الجيوش الثلاثة فيساعدها وتساعده عند الحاجة

ووفق القادة الى تطبيق هذه الخطة بمهارة زائدة ، فارتدوا بقواهم سليمة من

دون ان يحدث لها حادث يذكر ورابطوا فى جوار بصرى ، وامتدت جيوشهم الى جهة اليرموك والمسافة بينهما نحو ٤٥ كيلو مترا ، واخذوا يعدون العدة للمعركة الكبرى الفاصلة ، ولم يبق شك فى انها ستدور فى تلك المنطقة وقد اختارها قادة الجيش العربى للقاء الروم . لانها كما قلنا من قبل قريبة من حدود الحجاز ومن الصحراء نفسها ، والصحراء حصن العرب الحصين ، يلجأون اليها اذا قضت عليهم بذلك الضرورات العسكرية فيكونون فى مأمن من المطاردة واللحاق

ومما هو جدير بالذكر ان الجيش العربى كان فى حركاته العسكرية اسرع واخف من الجيش الرومى وتلك مزية كبيرة ، يقدرها جهابذة الفن العسكرى قدرها وقد ساعدت العرب وكانت من جملة العوامل التى ضمنت لهم التفوق فى ذلك القتال الدموى العنيف ، فان قلة المعدات فى هذا الجيش واعتياد جنده شظف العيش وتحمل المشقات ، بعكس ما كانت عليه حالة الجيش الرومى ، وقد اثبت النقاد العسكريون انه كان بطىء الحركة ، كثير المعدات ، نقول ان هذه الاعتبارات مكنت الجيش العربى من تنفيذ الخطط العسكرية التى يضعها قواده بسهولة زائدة وبدون مشقة ولا عناء فعاد الى الاماكن التى اختارها واقام يترقب صدور تعليمات الخليفة (القائد الاعلى للجيش) وقد كتب اليه القواد بما اتفقوا عليه وبانهم تراجعوا الى جوار بصرى فيجتمعون فيها ويلقون عدوهم اذا كان لابد من لقائه وقتاله ، وبالطبع فما كانوا يبرمون قرارا نهائيا قبل تلقى تعليماته النهائية

ابو بكر يقر الخطة

وأقر ابو بكر تصرفات قواده وتدابيرهم ورأى ان افضل مايعمله لمساعدتهم ، هو ان يوعز الى خالد بن الوليد قائد جيش فى العراق ، ان يغادر الحيرة على عجل مع نصف جيشه ، لنجدة جيش الشام ، ويترك النصف الآخر بقيادة المثنى بن حارثة الشيبانى ، لانه ادرك ان الحالة فى ميدان الشام تقضى باتخاذ تدابير سريعة وحاسمة ،

وما كان فى استطاعته (ابى بكر) ان يفعل غير ما فعله ، لشد أزر قواده فقد امدهم بأفضل رجاله العسكريين كما امدهم بجيش كبير عدد رجاله عشرة آلاف مدربين على القتال ، ثملين بنشوة الانتصارات العظيمة التى نالوها على الفرس

وكان من مقتضى تنفيذ هذه الخطة ، وهى ولا شك من افضل الخطط وأجداها ، وقف الاعمال العسكرية الهجومية فى العراق ، واتخاذ خطة الدفاع فى ميدانه وذلك لا يحرجهم ، ولا يزلزل مركزهم فهم قادرون على استئناف الهجوم متى شاءوا ومتى رأوا ان الظروف مساعدة ، فى حين انهم يقابلون خطرا مستعجلا فى الشام لا بد لهم من تداركه ودرئه

وهذا نص الكتاب الذى ارسله ابو بكر الى خالد بهذا الشأن :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الله بن عتيق بن ابى قحافة الى خالد بن الوليد

« سلام الله عليك : اما بعد فانى امرتك بقتال الروم ، فسارع الى مرضاة الله وقتال اعداء الله ، وكن ممن يجاهد فى الله حق جهاده »

وكتب ايضا الى ابى عبيدة ، بصفته عميد القواد فى الشام واكبرهم سنا ومقاما يعلمه بما استقر عليه رأيه من انفاذ خالد اليهم ، ويبلغه انه انتدب للاشتراك معهم وهذا نص كتابه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الله بن عتيق بن ابى قحافة الى عبيدة بن الجراح

« سلام الله عليك : اما بعد فقد وليت خالدا قتال العدو فى الشام ، فلا تخالفه ، واسمع له وأطع ، فانى لم أبعثه عليك ان لاتكون عندى خيرا منه ، ولكننى ظننت ان له فطنة فى الحرب ليست لك . اراد الله بنا وبك خيرا والسلام »

الطريق الذى سلكه خالد الى الشام

ما كاد خالد يتلقى امر الخليفة او القائد الاعلى للجيش بالسفر الى الشام وكان يومئذ فى الحيرة حتى اخذ يعد معدات السفر ويفكر فى اختيار الطريق الذى يسلكه فى سيره ولا تقل المسافة بين الحيرة وحوران عن ٨٥٠ كيلو مترا فى صحراء رملية قاحلة لا ماء فيها ولا كلأ

وهنالك طرق اربعة لا بد له من سلوك احداها فى هذه المرحلة الشاقة المحفوفة بالاخطار وهذا بيان عنها :

١ ـ طريق عين التمر (العراق) قراقر ، سوى ، ارك ، تدمر ، القريتين ، الغوطة ، بصرى

٢ ـ طريق الفلوجة ، هيت ، دير الزور ، تدمر ، حمص ، النبك ، القطيفة ، دمشق ، بصرى

٣ ـ طريق عين التمر ، قراقر ، هيت ، كبيسه ، بئر اللوحة ، ابى الشامات ، الضمير ، عذراء ، الغوطة ، بصرى

٤ ـ طريق الحيرة ، وادى حوران ، الجوف ، الزرقاء ، البلقاء ، اليرموك

تلك هى الطرق التى كان على خالد ان يختار واحدا منها لجيشه ، ولكل منها فوائد ومخاطر لا بد من ملاحظتها وعدم اغفالها ، كما انه لا بد من مراعاة اعتبار آخر وهو ان خالدا كان على عجل من امره ، وكان عليه ان يسرع فى الانضمام الى اخوانه والاشتراك فى الاعمال التى يعملونها فان للتاخير عواقب خطيرة يخشى نتائجها

ومع ان الطريق الثانية: طريق هيت ، دير الزور ، تدمر اسهلها وان لم تكن اقربها واكثرها ماء وعمرانا . الا ان وجود مراكز عسكرية ، وحاميات مسلحة فيها لكونها من مناطق الحدود بين الامبراطوريتين الكبيرتين ، جعله يعدل عن اختيارها ، لانه قد يضطر الى الاشتباك مع القوات العسكرية المرابطة فى انحائها .

ولا مصلحة له فى ذلك ولا فائدة وهو من امره على عجل ، علاوة على ان انتصاره الحاسم فى ميدان الشام ، يحمل هذه الحاميات على تسليم سلاحها من دون قتال ، لانها تدرك انه لا فائدة لها من المقاومة

ورأى خالد بعد اعمال الفكر ، و بعد ان درس الحالة وقلبها على وجوهها ان الافضل له ان يسلك الطريق الاولى ، فهى وان كانت اكثرها خطرا ، وأشحها ماء ، الا انها اقصرها مسافة ، واقلها تعرضا لخطر الاشتباك مع العدو ، وان كان الامر لا يخلو من بعض قبائل توالى الروم ، وحاميات صغيرة منتشرة فى اطرافها وعلى جنباتها

وما كان فى استطاعته سلوك الطريقين الباقيين بوجه من الوجوه لان الثانى وقد كان طريق البريد الرسمى ، مشحون بالجند ، كما ان الرابع بعيد ، يحتاج قطعه الى ايام طوال ، مع انه اسهلها واقلها مخاطر ، لعدم وجود اثر للقوات الرومية والفارسية فى انحائه

وكتب خالد الى ابى عبيدة من الحيرة الكتاب الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من خالد بن الوليد الى ابى عبيدة بن الجراح

« سلام الله عليك : اما بعد فقد اتانى كتاب خليفة رسول الله يأمرنى بالسير الى الشام ، و بالقيام على جندها ، والتولى لأمرها ، والله ماطلبت ذلك قط ، ولا اردته اذ وليته فأنت على حالك الذى كنت عليه ، لا نعصيك ، ولا نخالفك ولا نقطع دونك امرا ، فأنت سيد المسلمين ، لا ننكر فضلك ، ولا نستغنى عن رأيك »

وغادر خالد الحيرة فى اوائل شهر صفر سنة ١٣ فمر بعين التمر (غربى كربلاء) ثم بقراقر (ماء لبنى كلب قرب السماوة) فتوقف فيها واستشار اصحابه فى الطريق التى يسلكها مقترحا عليهم سلوك الطريق الاولى ، فعارض بعضهم لوعورتها ، وقلة مائها ، وضياع معالمها ، وندرة سكانها ، ولا سيما الجزء الممتد بين قراقر وسوى ، فوقف فى وسط رجاله ، وكانوا يثقون به ثقة عمياء ، و يطيعونه اطاعة تامة ، وقد

ذاقوا طعم النصر على يديه ، ولم يقدهم الى الهزيمة والتراجع والفشل ، و بسط على مسامعهم الاعتبارات التى تجعله يفضل اختيار هـذا الطريق على غيره ، ويسرد مزاياه ويقول :

« لايختلفن هديكم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا بان القوة تأتى على قدر النية ، والاجر على قدر الحسبة ، وان المسلم لا ينبغى له ان يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله له . والله انلى من هـذا ، انه قد اتتنى من امير المؤمنين عزمة بذلك » فأثر فيهم كلامه ، فانصاعوا اليـه وانقادوا له ، وقالوا « انت رجـل قد جمع الله لك الخير فشأنك وما تريد »

واقترح دليل الجيش واسمه رافع بن عميرة الطائى وكان قد جاز هذا الطريق وهو صغير قبـل ثلاثين عاما ، ولم يكن بينهم احد يعرفها سواه ـ على خالد ان يدع الاثقال فى قراقر او يخففها على الاقل . فقال لا بد ان تكون معنا

ـ والله ان الراكب المنفرد ليخافها على نفسـه فكيف انت بمن معك من هذا الجيش

ـ لا بد من ذلك

ـ اعطنى اذن عشرين ناقة مسانا عظاما . فأعطاه خالد ماطلبه ، فمنع المـاء عنها اياما حتى عطشت فأوردها اياه ، فملأت جوفها ، فقطع مشافرها وكمها فلا تجتر ، ثم قال لخالد :

سر الآن بالخيول والاثقال ، وكلما نزلت منزلا ، نحرت من تلك الابل اربعا ، ثم أخذت ما فى بطونها من ماء فسقيته الخيل وشرب الناس مما تزودوا ، وهكذا نفذ أمر خالد ، وسار الجيش الى سوى والمسافة بينها وبين قراقر مسيرة خمس ليال ، يستريحون بالنهار ويسرون بالليل ، ولما اشرق صبح اليوم الخامس ، وكان عليهم ان يبلغوا سوى ليشربوا من مائها ، وكان العطش قد اجهدهم واجهـد دوابهم ، سأل خالد رافعا عن الماء ، وكان قد اصاب عينه رمد ، فقال له : ادركته ان شاء الله

ثم قال لهم هل تجدون شجرة عوسج على هـذا الطريق فنظروا فوجدوها

فقال احفروا فى اصلها فحفروا فوجدوا ماء فشربوا وتزودوا واتقوا الهلكة وبعد ان استراحوا قليلا واصلوا سيرهم الى ارك وهى اول حدود الروم من جهة الشام ، ولما مروا بمصيخ بهراء - قابلهم اهلها بالاعتداء فادبوهم وهزموهم وغنموا منهم غنائم تزودوا بها ، ثم صالحوهم فواصلوا السير حتى بلغوا تدمر وتقع شرق دمشق وتبعد عنها ٢٢٧ كيلو مترا ، وكانت عاصمة مملكة الزباء القديمة ، وهى من مدن الصحراء المشهورة ومن مراكز الروم العسكرية الكبرى فى الشام وبينها وبين هيت (الفرات) ٥٠٠ كيلو متر وقد اجتاز خالد المسافة بين الشام والعراق فى ١٨ يوما فقط تخللها فتح بلاد ومقاومة اعداء وهى مدة قصيرة بالنسبة لحالة جيش كجيشه

خالد يفتح شرقى الشام

واصطدم خالد بقوى الروم فى تدمر ، وكانت كما تقدم ، من مراكزهم العسكرية الكبرى ، وكان لهم فيها على الدوام حامية عسكرية لتوطيد الامن فى الصحراء ولصيانة حدودهم من جهة الفرس ، وقد انشأوا بينها وبين حمص طريقا عسكريا (Strate) لسير الجند وتسهيل المواصلات بين العاصمتين ، عاصمة سورية الوسطى وعاصمة الصحراء

ونازل خالد الحامية الرومية فانتصر عليها ثم صالحها بعد ماخضعت له . فكانت اول مدينة احتلها فى الشام ، كما كان انتصاره فيها اول نصر احرزه على الروم ، وواصل سيره فبلغ القريتين والمسافة بينها وبين تدمر ١٣٠ كيلو مترا فقاومه سكانها وحاميتها فقهرهما واخضعهما ثم قصد حوارين وبينها وبين القريتين ١٥ كيلو مترا ، ثم اتجه جنوبا قاصدا غوطة دمشق فبلغ الثنية او ثنية العقاب وهى اصطلاح جغرافى عربى قديم - يطلق على الجبل الممتد من آخر سهل دوما شمالى دمشق وانت صاعد الى القطيفة ، كما يطلق اسم الثنية على جهات خان العروس وانت صاعد من

القطيفة الى النبك على طريق السيارات العام فى الوقت الحاضر بين حمص ودمشق .
والثنية التى وقف عليها خالد واشرف على غوطة دمشق منها هى الاولى وقد اطلق عليها
اسم ثنية العقاب لان خالدا نشر رايته العقاب على ما قاله اكثر المؤرخين

والمسافة بين دمشق والقطيفة ٣٧ كيلو مترا وطرف الثنية المشرف على الغوطة
فى منتصف هذه المسافة ، والمرج الذى اغار فيه خالد على الروم هو مرج راهط ،
وهو معروف اليوم بالمرج ومن اعمال قضاء دوما الذى يبعد عن مركز دمشق
١١ كيلو مترا ويقع الى جانب قرية عذراء ولذا يطلق عليه احيانا اسم مرج عذراء
وهو فى طرف غوطة دمشق للشرق الجنوبى ويتصل بها اتصالا وثيقا و بينه و بين مدينة
دمشق نفسها بضعة عشر كيلوا مترا فقط

وصف غوطة دمشق

يطلقون اسم الغوطة على الواحة الخضراء المحيطة بدمشق من جهاتها
الاربع ، وهى مما يسقيه نهر بردى وينبع قرب الزبدانى على مسافة تبعد نحو ٣٠
كيلو مترا فى غربى دمشق ويسير ماؤه اليها فيسقى المزارع والحقول ويشق
واديا يسمى « وادى بردى » وقبل ان يدخلها يتفرع الى سبعة انهار بين
متنزهى الربوة ودمر تدخلها من جهات مختلفة ثم يجتمع اكثرها فى شرقيها بعد ان
تسقى المدينة كلها ، فى مكان يسمى الصوفانية ، وذلك طبقا لنظام محكم بديع انشأه الروم
ثم يتفرق ماء النهر بعد اجتماعه فى الصوفانية فى جداول واقنية تتفرع شرق الغوطة
وشماليها و يسير فرع الى جنوبيها فيرويها على مسافة تمتد حتى ٢٠ كيلومترا الى الشمال
والشرق والجنوب ، ويصب ماء النهر فى بحيرة عتيبة وتبعد عن دمشق نحو ٣٥
كيلو مترا ، وهى فى آخر المرج من الجهة الشرقية ، وتكثر فى الغوطة الاشجار
والبساتين بفضل هذا النهر المبارك ، ولولاه لم تكن حدائق دمشق ورياضها الغناء
وخمائلها الجميلة ، بل لكانت جزءا متمما للصحراء وتكتنفها من جهاتها ولبلغت
حدودها جبال لبنان الشرقية

انتصار خالد فى المرج

والتقى خالد فى المرج بقوة عسكرية لبنى غسان حشـدها القائد الرومى وولى قيادها الحـارث بن الايهـم ، وناط بها عرقلة حركات خالد العسكرية فى الغوطة والحيلولة دون انضمامها الى الجيش العربى فى حوران ، ويدل هذا الحشد على ان هيئة اركان حرب الجيش الرومى كانت تتبع حركات خالد العسكرية فى الشرق وتعـرف احتلالها لتدمر واتجاهها نحو الجنوب لنجدة الجيوش المرابطة هنا ، فحشدت هذه القوة لمقاومتها وصـد تقدمها ومع اننا لا نملك بيانا عن عـددها الا ان دلائل الحال تدل على انها لم تكن قليلة ولولا ذلك لما حدثتها النفس بالوقوف فى وجه خالد ومحاولة صده وقتاله ومعه عشرة آلاف جندى

و رأى خالد انه لابد له من منازلة الغسانيين ليشق له طريقا الى الجنوب ، فاغار عليهم . ويقول المؤرخون ان غارته هذه حدثت يوم ١٨ صفر سنة ١٣ و ٢٤ ابريل سنة ٦٣٤ وكان ذلك يوم عيد الفصح ، وكان الغسانيون يعيـدون فيه مع الروم فلم يقو هؤلاء عـلى الوقوف فى وجهه ، فارتدوا الى قلعة دمشق وفتحوا له الطريق فواصل سيره الى بصرى والمسافة بينها و بين دمشق ١٧٠ كيلو مترا ، بعد ماغنم منهم غنائم كبيرة و زعها على رجاله ، فازدادوا اقداما وشجـاعة ، وليس كالنصر يؤثر فى النفوس ، و يضرم الحماسة فى الصدور

خالد يفتح بصرى

و واصل خالد زحفه مخترقا الغوطة من الشمال الى الجنوب ، حتى بلغ قناة بصرى ، وكانت بصرى لم تفتح حتى ذاك العهد ، وكان المسلمون يحاصرونها ، وكانت الحصن الوحيد الباقى للروم فى الجنوب ، فهاجمها واصلاها حربا عوانا حتى فتحها

١١

معركة اجنادين الاولى

بلغ الجيش الرومانى الاكبر ، حمص بعد مسيره من انطاكية فاحتلها ، بدون عناء ، وكان ابو عبيدة قد سبق فجلا عنها عسكريا ، واعاد يوم رحيله الجزية (الضريبة) الى اهلها قائلا لهم :

« يا اهل حمص :

« قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم ، فأنتم على امركم » فاجابوه بصوت واحد ـ وكانوا قد ذاقو طعم العدل العربى الاسلامى ، بعد ما تجرعوا صاب الارهاق والظلم الرومى الاوربى : « لولايتكم وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندافعن ضد هركليوس عن المدينة مع عاملكم »

وانتقم الروم من اهل حمص شر انتقام حينما بلغوها ، ونكلوا بسكانها لانهم والوا العرب وايدوهم ، وتظاهروا بكره الروم ومقتهم

وواصل الجيش الرومى مسيره فبلغ دمشق بعد ذلك بقليل ، ويلاحظ من سير الحوادث ، انه بلغها فى نفس الوقت ، الذى وصل فيه خالد الى حوران ، فنزل فيها واخذ قواده يرقبون الوقائع ويعدون عدتهم ، للزحف الى حوران ولقاء جيش العرب الاكبر ، ومنازلته ، وكان لا بد من وقوع هذه المعركة بعد ما تقدم ، فمن فاز فى سوقها ورجحت كفته فهو سيد بلاد الشام

واجتمع خالد الى قادة الجيوش فى اليرموك : ابو عبيدة ويزيد وشرحبيل ،

والى اقطاب الصحابة و رؤساء الاجناد ، ودرس الموقف العسكرى عن كثب واطلع على التفاصيل و وقف على المعلومات التى يجب ان يقف عليها ، كما درس موقف جيش ابن العاص ، وكان ينسحب كما قلنا على محاذاة ضفة نهر الاردن الغربية ، قاصدا الغور « غور الاردن » ويقع فى طرف شمالى فلسطين الشرقى للالتجاء اليه حيث يكون على اتصال بجيوش العرب الاخرى ، وكان سرجيوس قائد الروم يتعقبه و يسعى لكى يجره فيشتبك معه فى معركة ميدان فاصلة ، وما كان عمرو يجهل انه ليس من مصلحته الاشتباك بمثل هذه المعركة ، لفقد النسبة بين قواهما فهنا جيش لايزيد عدده عن ثمانية آلاف مقاتل على اكثر تقدير وهنالك ٧٠ الفا مجهزون بافضل انواع سلاح ذلك العصر وا كمله واتقنه

وادرك خالد بعد ما درس الموقف العسكرى انه لا مناص له من اختيار احدى خطتين : فاما ان يسرع فينحدر من جبال حوران و ينضم الى جيش عمرو ويخوض واياه معركة فاصلة مع جيش سرجيوس فيقضى عليه فيعزز بذلك مركز جناح الجيش العربى الايسر و يصون خط رجعته ، و يوطد مركز المسلمين فى فلسطين وحوران ، واما ان يجمع جموعه ، و يوعز الى عمرو بالانضمام اليه ويقف فى مكانه بانتظار قدوم الروم فينازلهم مجتمعين و يبذل جهده فى التفوق عليهم

ومع ان الاخذ بهذه الخطة هو الاسلم ، الا ان خالدا فضل الاولى ، لان التغلب على جيش فلسطين الرومى وتشتيته يحفظ للعرب خط رجعتهم ، ويعزز مركزهم علاوة على انه يجعلهم فى موقف يستطيعون معه ان يهددوا جناح الجيش الرومى الايمن ، ويجعلونه يحسب حساب حركة احداق يقومون بها من الوراء ، فيضطر لاتخاذ تدابير خاصة تشغل جانبا من قواه ، اى انه يصبح مهددا (بالفتح) بعدما كان مهددا (بالكسر) ولما كان خالد ممن اعتاد خوض المنايا وكان يعول على رجاله كثيرا وقد خبرهم فى المهمات والملمات وهزم بهم جيوش كسرى فقد صحت عزيمته على تنفيذ الخطة الاولى ، فانحدر من اليرموك الى سهل فلسطين بعد ما اصدر امرا الى عمرو بن العاص بان يعدل خطة مسيره و يستدرج جيش فلسطين الرومى ، ثم

يأتيه هو من الوراء فيحمل عليه ويشتركان فى النزال

ونفذ عمرو الخطة باحكام فارتد نحو اجنادين وقد تقدم وصفها وهنالك وقف للروم وأعد عدته للمعركة الفاصلة ، فجعل الضحاك على جناحه الايمن ، وسعيد بن خالد بن العاص على الجناح الايسر وأبا الدرداء على الساقة وتولى هو قيادة القلب وحوله اهل مكة ، ونادى فى الناس ان يلزموا اماكنهم ويثبتوا وقال لهم « اصبروا على قضاء الله وارغبوا فى ثواب الله » كما امر الحفظة بتلاوة القرآن

ويقول المؤرخون ان هذه المعركة دارت يوم ٢٨ جمادى الآخرة سنة ١٣ و٧ يوليو سنة ٦٣٤ وان المسلمين ابلوا فيها بلاء حسنا وهزموا الروم هزيمة شنعاء وشتتوا جيشهم فلجأت فلوله الى القدس وتحصنت وراء اسوارها ، فغنم العرب غنائم كثيرة وارتدوا على الفور الى اليرموك ، من دون ان يطاردوا عدوهم لانهم كانوا من امرهم على عجل ، وكانوا يترقبون من ساعة الى اخرى ان تدور المعركة الكبرى فى ذلك الميدان

١٢

اليرموك

رافق النصر اعلام خالد من ساعة دخوله حدود الشام فاحتل ارك وتدمر والقريتين وهزم جيوش بنى غسان فى المرج واخضع الغوطة واحتل بصرى ثم كلل فوزه بالنصر العظيم الذى ادركه فى معركة اجنادين وكان له اثر بليغ فى نفوس المسلمين خاصة ، وفى نفوس اهل الشام عامة وكانوا يرقبون النضال الدائر بين الفريقين بفارغ صبر

ولا ريب ان انتصارات العرب المتتابعة اضعفت القوى الادبية فى صدور الروم وافقدت جيشهم الشمالى – وقد اصطلحنا على ان نسميه الجيش الاكبر – عضدا قويا كان يرجو مساعدته وتأييده ، ويطمع فى ان يقضى على جيش ابن العاص ويريحه منه ويهدد جناح عدوه الايسر فى اليرموك على الاقل اذا لم يقم بحركة التفاف من ورائه وذلك بان يجتاز الاردن قرب اريحا ويوغل فى سهل الاردن سائرا من الجنوب الى الشمال فيباغت المسلمين فى اليرموك ويهاجمهم من الوراء ، فلما هزم هذا الانهزام الشنيع ، اسقط فى يده وكان لانهزامه صدى غير مستحب بين رجاله

وتفرغ العرب بعد معركة اجنادين لحرب الروم ولم يبق هنالك شاغل يشغلهم ولا قوة فى الجنوب الغربى يحسبون حسابها بعد ماهزموا جيش اجنادين وشتتوه ، وصار عليهم ان ينازلوا جيش تيودور وينجزوا امره ، وكان من الجيوش الكبرى التى جهزها الروم وكانوا يعلقون عليه آمالا كبارا ويرجون انقاذ بلادهم بل امبراطوريتهم على يده

ونحن فى غنى عن القول ان الفوز المتتابع الذى ادركه العرب خلال الدور الاول سواء فى البلقاء او حوران او فى الغوطة او فى المنطقة الشرقية ، او فى فلسطين ، اثر فى نفوسهم فهم لم يهزموا فى معركة واحدة ، مع انه دارت معارك شتى بينهم وبين الروم ، ولئن لم تكن حاسمة ، فان بينها ما لا يستهان به كمعركة الغوطة ومعركة بصرى ومعركة اجنادين ومعركة وادى عربة وغيرها من المعارك الاخرى ، فاقبلوا على خوض المعركة الكبرى ، وهم اكثر ما يكونون ثقة بالله ثم بأنفسهم بان النصر سيكون لهم وان الدائرة ستدور على اعدائهم ، والكتاب يقرأ من عنوانه ، والفوز لمن يضرب الضربة الاولى

نظام العرب العسكرى فى اليرموك

عبأ خالد جيش المسلمين يوم اليرموك تعبئة جديدة لا عهد للعرب بمثلها ، ولم يعرفوها فى تاريخهم العسكرى فقد ادرك حينما وقف امام الروم وجها لوجه وبعد ما حارب الفرس والعراق ، انه لابد من تعديل قواعد التعبئة التى يسير عليها العرب فى حروبهم ، وان ما كان يصلح لهم ويلائمهم فى حروبهم داخل الجزيرة ، يوم كانوا قبائل يقاتل بعضها بعضا ، وما كان عدد الذين يشتركون فى المعركة منهم يزيد عن مئات لا يلائمهم ولا يصلح لهم بعد ما اصبحوا يملكون جيشا لجبا لا يقل عدد رجاله عن ٤٠ الفا ، ويقفون امام جيش لا يقل عدده عن مائة الف او اكثر ، ويعد من اعظم جيوش العالم

ونفذ خالد خطته بلا ابطاء ولا تردد ، شأن كبار القواد وعظمائهم ، الذين لا يعرفون للتردد معنى ، فقسمه الى كراديس بلغ عددها ٣٦ كردوسا وقيل ٤٠ ويقدر عدد رجال الكردوس الواحد بألف ، وعين لكل كردوس قائدا يقوده ، ثم الف من هذه الكراديس فرقا ، فجعل كل ١٠ منها فرقة ، فكان عدد الفرقة الواحدة عشرة آلاف مقاتل تقريبا ، وعين لكل فرقة قائدا كبيرا اى انه نظم قواته طبقا للنظام

المتبع فى عصرنا تقريبا وبموجبه يتألف الجيش من حظيرة (عـدد رجالها عشرة) ثم فصيلة وعددها ٨٠ ثم سرية وعـددها ٢٥٠ فـكتيبة وتتألف من اربع (سرايا) اى الف جندى ، فلواء ويتألف من ثلاث كتائب ، ففرقة وتتألف كل فرقة من لواءين ففيالق ويتألف كل فيلق من فرقتين او ثـلاث فجيش (Armé) ويتألف من ثلاثة فيالق

اسلوب القتال عند الروم والعرب

ولا يخفى ان اسلوب القتال او طريقته ، تعـدل تعديلا كبيرا عند الروم على يد يوليوس قيصر ، فقد كان من قبله يقوم على قاعدة اللجيون (Legion) ويتألف اللجيون عادة من عشرة كراديس ، وكانوا يعبئون الكراديس فى خطين عند القتال كل خمسة منها فى دائرة و بينها فاصلة ، على ان تقف كراديس الخط الثانى وراء فاصلات الخط الاول

ويقضى التعديل الذى ادخله يوليوس بان يقف اللجيون (١٠ كراديس) فى ثلاثة خطوط على المنوال الآتى : اربعة فى الخط الاول ، وثلاثة فى الخط الثانى ، ومثلها فى الخط الثالث

وكان رماة الجيش الرومى ـ وكانوا يرمون بسهام او حراب ـ يقفون امام الكراديس ، وتؤلف القلب (المركز) وينشبون القتال ، ثم ينسحبون الى الجناحين وتحمى الخيالة الجناحين ايضا على النسق المتبع الآن

وكان الروم يكثرون من الخيالة فى جيشهم وكان لها شأن خطير عندهم

اما العرب فكانوا يعولون فى حروبهم الاولى على الكر والفر ، وما كانوا يعرفون نظام اللجيون او غـيره من الانظمة والاساليب التى كانت متبعـة فى الجيشين الرومى والفارسى وكانت هنالك دولتان كبيرتان من ورائهما تعززهما وتنفق عليهما وتسهر على ترقيتهما وتقدمهما ؛ فقـد كانت حروب العرب فى داخـل جزيرتهم تقتصر فى الغالب عـلى غارات يشنونهـا بعضهم على بعض ، ويعولون فيهـا على « المفاجآت »

فيفاجىء الخصم خصمه فى عقر داره من دون انذار او اخبار ومن دون ان يكون قد استعد الاستعداد اللازم ، فيأخـذه اخذ عزيز مقتدر ، ويفتك به اذ يكون فى الغالب على غير استعداد ، وقد اتبع المسلمون هذه القاعدة فى حروبهم الاولى كما يظهر لمن تتبع اخبار قتالهم ، فكانوا يعولون عليها كثيرا . وقد رأيت مارافق الجيش الذى زحف عـلى مكة وفتحها من كتمان زائد ، وكيف انهـم ارسلوا فقطعوا الطرق بين مكة والمدينة فى خلال التعبئة ومنعوا الاتصال بين البلدتين فلا يذهب احـد من المدينة الى مكة ، وما ارادوا بذلك الا ان يباغتوا قريشا ويأخـذوها على غرة . ولا يزال هـذا النظام هو المتبع عنـد قبائل العرب فى داخل الجزيرة ، فهى تترقب فرصة من عدوها ومتى لاحت لهـا وادركت انها قادرة على ان تنال منه انقضت عليه وباغتته ، على انها قـد تعدل احيانا عن مهاجمته ، اذا تبينت انه على استعداد للقائها ، لانها تأبى المجازفة

وعلى كل حال نخالد هو اول من ادخـل نظام التعبئة فى الجيش العربى طبقا للاساليب التى كانت متبعـة فى الجيش الرومى مع تعـديل يذكر ، فهو لم يحجم عن اقتباسها حينما رأى ان ذلك يفيده فى منازلة خصمه وكان يفوقه عددا وعددا واسلحة وتدريبا . وكان ذلك من جملة الوسائل التى يسرت له ذلك الفوز العظيم

وصف وادى اليرموك

وادى اليرموك هو احد اودية حوران ينبع ماؤه فى اراضى الثريان(اراضى قرية انخل) ويسمى بنهر الهرير ويمر بين شمسكين ونوى ثم باراضى داعل فطفس ثم بجانب قرية قديمة تدعى تل الاشعرى ، وهناك ينحدر ماءنهر الهرير فى واد يقرب عمقه من ٥٠ مترا ويزداد انخفاضه بالتدريج ومن عنـد هذا الشلال يطلق عليـه اسم اليرموك

ويعرف الشلال بشلال اليرموك ويسير فى هذا الوادى الى جسر سكة حديد الحجاز بين محطتى زيزون والمقارن وهو الى المقارن اقرب ، ويلتقى فى جانب المقارن بمياه شلالى زيزون وتل شهاب وبمياه وادى الشلال المنحدرة من اراضى ناحية الرمثا فى شرق الاردن ، وهذا هو سر تسمية المحطة بمحطة المقارن ، ويتابع نهر اليرموك سيره فى هذا الوادى الذى يطلق عليه من محطة المقارن اسم اليرموك اما من تل الشهاب الى المقارن فيسمى وادى تل شهاب فوادى زيزون او وادى الذهب ويمر اليرموك بمحطتى وادى خالد ثم باراضى سمخ الى ان يصل الى جسر المجامع فيصب هناك فى نهر الاردن وهناك المكان الذى اقيم فيه مشروع روتمبرغ الصهيونى لتنوير فلسطين والوادى الآخذ من تل شهاب الى سمخ يبلغ طوله نحو ٥٨ كيلو مترا ويقطع نهر اليرموك من محطة المقارن الى جسر المجامع نحو ٦٢ كيلو مترا . اما من تل الاشعرى حيث شلال اليرموك الى جسر الدورة فلا يزيد طوله على ٨ كيلو مترات ، وفى وادى اليرموك الآن محطة اسمها وادى خالد تقع فى الكيلو متر ١٨٠ من دمشق ، يقولون انها قد تكون اضيفت الى خالد بن الوليد لبعض اسباب لم نستطع كشفها بعد، ولا يمكن ان يحشد فى جهات المحطة الا بعض السرايا القليلة العدد تتراوح بين ٥٠ و١٥٠ جنديا او اكثر بقليل ، وفيه آثار احراش صغيرة ، وجبال وادى اليرموك وتلاله صغيرة والوادى ضيق لا يمكن ان تجرى فيه حركات عسكرية وهو يصلح لالتجاء عصابات وافراد . وقد كانت الحكومة العثمانية تعجز عن تعقب الجناة الذين يلجأون الى هذا الوادى ، ويتصل من شماليه باراضى الزوية ولا تزيد المسافة بين الوادى وغوطة دمشق فى خط مستقيم عن ٨٠ كيلو مترا وليس فى الوادى سكان لضيقه ومعظم القرى على طرفيه ولا نذكر ان فيه مزرعة عامرة الا المخيبة الواقعة على مقربة من محطة الحمة . وفى جوار الوادى عرب يدعون المناظرة بالظاء ولعلهم اقيموا للمناظرة على الامن والمحافظة على الطريق . والوادى من تل شهاب الى سمخ يؤلف الحد الفاصل بين سورية وشرق الاردن فى هذه الايام، فالاراضى الواقعة على ضفته اليمنى لسورية والاراضى الواقعة على ضفته اليسرى لشرق الاردن

تعبئة المسلمين العسكرية فى اليرموك

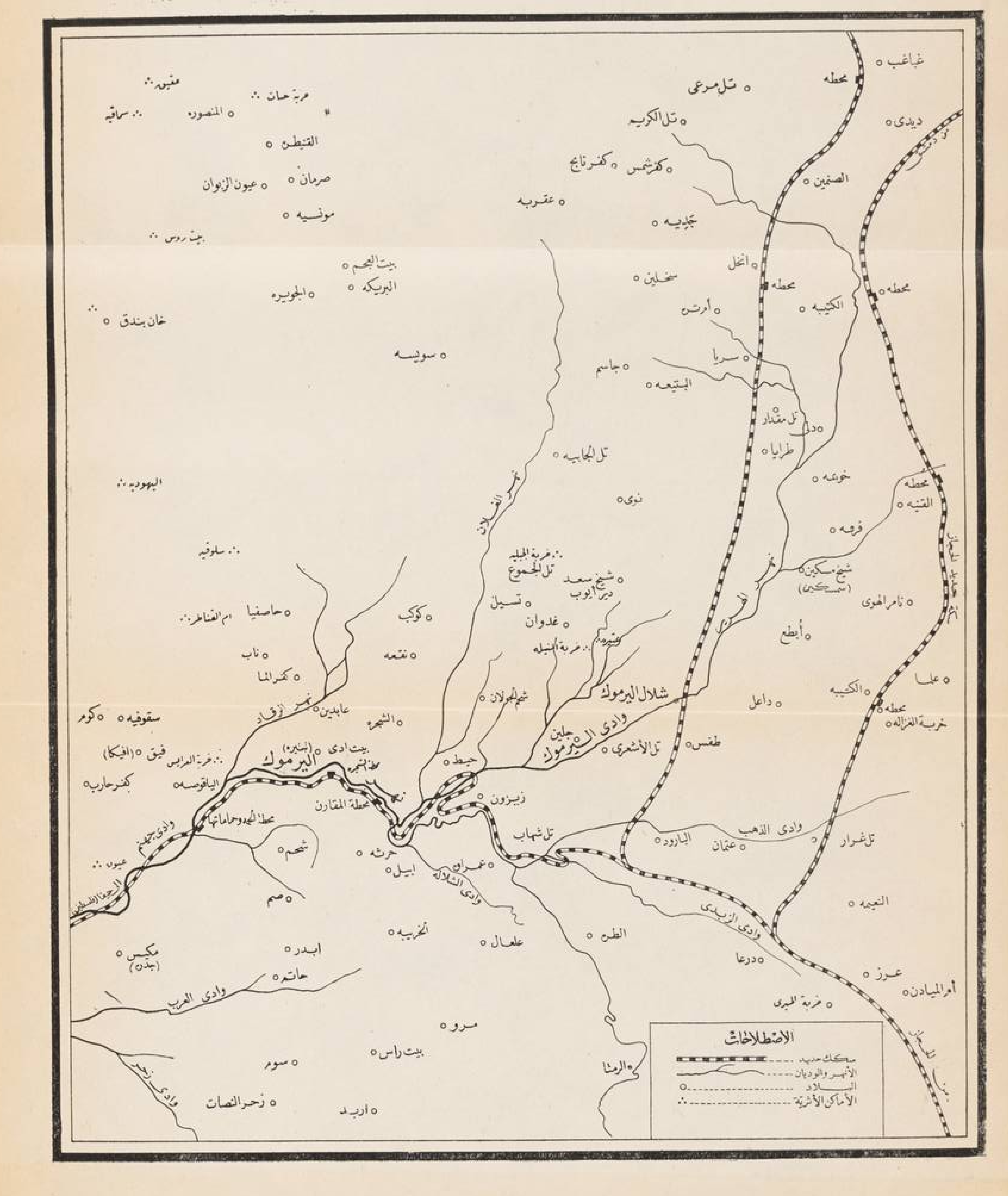
يقول بعض المؤرخين ان ابا سفيان بن حرب هو الذى اختار وادى اليرموك للقتال ، ويقولون فى تعليل ذلك ان قادة الجند الاسلامى اجتمعوا فى خيمة يزيد بن ابى سفيان فى الجابية ، بعد جلائهم عن الاقسام الشرقية والوسطى ، للنظر فى الموقف العسكرى ، وبينما هم يتذاكرون ويتشاورون ، جاء ابو سفيان ، فادخلوه للاسترشاد برأيه ، وهو القائد الخبير الذى جاب الشام وعرف طرقه ومخابئه ، فقال لهم ان معسكركم هذا ليس بمعسكر ، انى اخاف ان يأتيكم اهل فلسطين والاردن فيحولوا بينكم وبين حدودكم من المدينة فتكونوا بين عسكرهم فارتحلوا حتى تجعلوا اذرعات (درعا وهى عاصمة حوران الادارية فى الوقت الحاضر اى انها حلت محل بصرى فى العهد القديم وتبعد عن دمشق ١٢٨ كيلو مترا بالخط الحديدى اما بطريق السيارات فتبعد ١٠٣ كيلو مترات فقط وهى جنوب دمشق وتعد من محطات سكة حديد الحجاز الكبرى وفيها مركز تقاطع ثلاثة خطوط تمر بها : خط دمشق وخط حيفا وخط المدينة) فيأتيكم المدد والذخيرة . وقد عملوا برأيه لما تبينوا من صوابه . فارتحلوا الى اليرموك ونزلوا على ضفته اليسرى ونرجح انهم نزلوا فى جهات تل الاشعرى وامتدوا حتى تل شهاب وضربوا خيامهم ، ورتبوا صفوفهم طبقا للنظام الجديد الذى وصفناه آنفا على ان خالد بن الوليد لم يكن وصل الى اليرموك لما عقد هذا الاجتماع

ثلاثة صفوف لا صف واحد

وعملا بالنظام الجديد الذى اقتبسه خالد ، انشأ العرب ثلاثة صفوف فى اليرموك او ثلاثة خطوط دفاع كما يقولون فى الاصطلاح العسكرى الحديث ، وحشدوا الرماة على الجناحين

وقاد الجناح الايمن عمرو بن العاص والجناح الايسر يزيد بن ابى سفيان والمشاة

خريطة اليرموك



هاشم بن عتبة بن ابى وقاص ، واقام ابا عبيدة فى القلب (المركز) مع فرقة تحت راية ابى بكر وقد عقدها له يوم سفره الى الشام وهى راية رسول الله الصفراء التى سار بها الى خيبر . اما خالد فوقف فى الوسط تحت راية العقاب ، راية رسول الله ، وهى التى ركزها فى ثنية العقاب حينما اطل على غوطة دمشق ، وحوله كبار الصحابة واقطابهم وشيوخهم

نساء المسلمين فى الميدان

وانزل المسلمون نساءهم وكن يصحبنهم فى غزوهم على تل فى مؤخرة جيشهم ـ لعله تل شهاب وهو احصن تل لحماية النساء ويمكن ان يمنع بضعة اشخاص متحصنين فيه جيشا لجبا من الصعود اليهم بسهولة ويليه فى حصانته تل الاشعرى ـ مع اطفالهم وذراريهم وكانت المرأة العربية تشارك زوجها فى الخطير من غزواته وحروبه ، وكان من عاداتهم ان لا يصحبوا النساء والذرارى الا لحادث عظيم او اذا كانوا يريدون الثبات الى النهاية والاستماتة ، وكان للمرأة العربية وظائف تؤديها فى ميدان الحرب وفى مقدمتها العناية بالجرحى والمرضى اولا ، ولم تكن هنالك « هيئات صحية » كما هو الحال فى زمننا ، وتوزيع الماء على المجاهدين فى اثناء المعركة ثانيا ، فاثارة الحماسة فى الصدور بما ينشدنه من اناشيد ويلقينه من كلمات ثالثا . وكانت تشترك فى القتال اذا لزم الامر . وترد الرجال بالقوة ، اذا حاولوا الفرار وتحملهم على الثبات والنضال حتى النفس الاخير ، وطالما افادت هذه الخطة وعادت على متبعها بالفوز الجزيل

اسماء السيدات اللواتى اشتركن فى المعركة

ولا نعرف بالضبط عدد السيدات القرشيات المسلمات اللواتى شهدن معركة اليرموك وانما نقول ان فى مقدمتهن السيدة اسماء بنت ابى بكر الصديق زوجة الزبير

ابن العوام، وهند بنت عتبة زوجة ابى سفيان ووالدة معاوية، وأم ابان زوجة عكرمة ابن ابى جهل ، وخولة بنت الازور ، ونسيبة بنت كعب ، وغرة بنت عامر بن عاصم الضمرى ، ورملة بنت طليحة الزبيرى ، وامامة وزينب ، وهند ، ويعمر ، وسمية بنت عاصم الخولانى ، وعفيرة بنت غفار وغيرهن

وزار ابو عبيدة مقر النساء قبل المعركة وقال لهن : خذن بايديكن اعمدة البيوت والخيام واجعلن الحجارة بين ايديكن وحرضن المسلمين على القتال ، فان كان الامر لنا والظفر ، فكن على ما انتن عليه ، وان رأيتن احدا من المسلمين منهزما ، فاضربن وجهه باعمدتكن ، وارجعنه بحجارتكن ، وارفعن اليه اولادكن وقلن له قاتل عن اهلك وعن الاسلام »

وقاد سعيد بن زيد الظعن ووقف مع ٥٠٠ مقاتل للدفاع عنه وحمايته عن العدو وكان فى المؤخرة كما تقدم

وكذلك اقام خالد طلائع امام جبهة جيشه بقيادة قباث بن اشيم ، وهكذا اتم تعبئة قواه على افضل نظام واكمله

تعبئة الجيش الرومى

لم يحدد مؤرخو الدولة الرومية الوقت الذى خرج فيه تيودور بجيشه من دمشق لقتال الجيش العربى ؛ على ان جميع الدلائل تدل على انه غادرها فى اوائل شهر اغسطس سنة ٦٣٢

وبين المؤرخين خلاف فى الفريق الذى اختار اليرموك ، فمؤرخو المسلمين يقولون ان قادة الجيش الاسلامى هم الذين اختاروه عملا بمشورة ابى سفيان على اثر اجتماع الجابية ، وكان بصفته شيخ قريش وعميدها ، يقوم بوظيفة رئيس هيئة اركان الحرب لخالد بن الوليد فى ذلك الميدان ، ويقول غيرهم من الباحثين الاوربيين الذين كتبوا عن اليرموك ان تيدور هو الذى اختار المكان ، لا المسلمين ويؤيدون روايتهم بما يروونه وهو ان هركليوس - وكان مقيما فى حمص ينتظر نتيجة

النضال الدائر فى الجنوب ، يجهز القوى و يرسلها ـ كتب الى اخيه حينما بلغه نبأ هزيمة جيش فلسطين ، يأمره ان لايوغل كثيرا فى زحفه الى الجنوب ، بل يختار موضعا دفاعيا حصينا ، يحمل العرب على مهاجمته فيه ، وان لا يكون مهاجما لهم ، فعملا بهذه الاوامر اختار وادى اليرموك لميزات حربية ادركها فنهر الاردن و بحيرة طبرية عن يمينه يحميان جناحه الايمن ، و وادى اليرموك يصون جبهته وجانبا من جناحه الايسر وخطوط مواصلاته امينة ومحفوظة ومنظمة ، وهو قريب من دمشق ، وكانت محصنة وتعد من قواعدهم العسكرية الكبرى و يلوح لنا ان الرأى الاول هو الاصح وقد رجحناه بناء على اعتبارات ذكرناها

وقضى الروم نحو خمسة اسابيع باليرموك ينظمون صفوفهم ويعبئون قواهم ، و يأخذون اهبتهم

ومما يستحق الذكر انهم اتبعوا نفس الطريقة التى اتبعها المسلمون فى اثارة الروح الدينية واضرامها ، فحشدوا فى جيشهم عددا كبيرا من القسس والرهبان بصلبانهم وشاراتهم ، يحضون الناس على الثبات ، و يبينون لهم مايولده التخاذل من عواقب سيئة على الامبراطورية الرومية والدين المسيحى ، و يبشرونهم بجزيل الثواب اذا قاتلوا وثبتوا . و بالاجمال فاعتماد الفريقين على هذا الضرب من ضروب الدعاية والتشويق يدل على ما كان للروح الدينى من مقام عندهم كما يدل دلالة خاصة على ان الروم كانوا بصفتهم اصحاب الدولة المسيحية الكبرى فى الشرق يحاولون اثارة الرأى العام المسيحى على اصحاب الدين الجديد ، فينهض لقتالهم و يتحمس لنزالهم . وقد فعلوا ذلك من قبل فى نضالهم مع الفرس فاستثاروا العاطفة الدينية فى صدور ابنائهم واستنفروهم فنفروا خفافا وثقالا بعد ما كانوا جامدين ، خاضعين ، فتم لهم الفوز و ربحوا المعركة

وكان الجيش الرومى فى اليرموك خليطا من امشاج شتى ومن عناصر مختلفة

تمثل سكان الامبراطورية الرومية ، فكان الروم وعليهم المعول فى القتال ، ومنهم الامراء والقواد ورؤساء الجند ، والارمن من سكان ارمينية (الاناضول وقفقاسيا) وكانوا خاضعين للامبراطورية الرومية ويعدون فى جملة رعاياها وكانوا يؤيدونها ويشتركون معها فى بعض الاعمال العسكرية والفرس وغيرهم

وكان هنالك عدد غير قليل من متطوعة العرب المتنصرة وقد حشرهم الروم حشرا من قضاعة وغسان وكلاب ، وكانوا يعتمدون عليهم فى اعمال الكشف والاستطلاع ، ولا ريب ان وحدة العنصر فى الجيش العربى ، اكسبته تفوقا وامتيازا على هذا الجيش « المختلط » ولكل فريق منه نزعة خاصة ، وغرض يختلف عن غرض صاحبه ، ومعنى ذلك انه لم يكن له مثل اعلى يحارب لأجله ، ويستسهل الموت فى سبيله ، ويتسابق الى ورود منهله ، بعكس المسلمين الذين كانوا يحاربون لغرض اسمى واجل ، وهو نشر دينهم واذاعة تعاليمهم لايبغون من وراء ذلك ثوابا عاجلا

المسلمون يدعون الى السلام

وعملا بالخطة التى جرى عليها المسلمون فى حروبهم ونفذها خالد فى العراق ، ارسل الى قائد الروم وفدا يعرض عليه شروط المسلمين المعروفة لحقن الدم وهى :

١ ـ الدخول فى الاسلام

٢ ـ دفع الجزية فى حالة الرفض

٣ ـ تحكيم السيف فى حالة رفض احد هذين المطلبين

ورأس ابو عبيدة بن الجراح وفد المسلمين الى تيدور ، فأعد هذا سرادقا فخما اراد ان يستقبلهم فيه فأبوا الدخول وقالوا « ان ديننا يمنعنا من افتراش الحرير والديباج »

ودارت مفاوضات بينهم و بين تيـدور عرضوا فيها اقتراحاتهم ، و بالطبع فقد كان جوابه الرفض ، والمفهوم انه حاول عقـد اتفاق سـلمى يرجعون بموجبـه عن الشام مقابل اموال ينقدونها ، وهدايا توزع عليهم ، فأبوا وقالوا لا سلام الا بالدخول فى الاسلام او دفع الجزية

١٣

الزحف

اتم الفريقان تعبئتهما واخذا اهبتهما ، وانقطعت المفاوضات السلمية وعاد الوفد الاسلامى واصبح الحكم للسيف وحده ، فاما ان يفوز المسلمون فيملكوا الشام ويجلوا الروم ، واما ان يفوز هؤلاء فيرجع العرب الى جزيرتهم ، ويتحصنون وراء رمالهم موغلين فى بيدائهم وصحاريهم

وتقدم الجيش الرومى للنزال وبرز رجاله وقادته وكان على مقدمته البطريق سرجيوس وعلى جناحيه ماهان والدراقص ، وكان رجاله يملأون الوادى وما حوله من هضاب

وبرز المسلمون للقتال ، وكانوا معبئين على المنوال الآتى :

فرقة القلب بقيادة ابى عبيدة ومهمتها منازلة قلب العدو

الجناح الايمن بقيادة عمرو بن العاص ومهمته قتال جناح العدو الايسر والقيام بحركة التفاف حوله

الجناح الايسر بقيادة يزيد بن ابى سفيان ومهمته قتال جناح العدو الايمن

وامر خالد بن الوليد حينما دنا وقت القتال المقداد بان يتلو سورة الانفال وخطب قائلا :

« ايها الناس

« هذا يوم من ايام الله ، لاينبغى فيه الفخر ولا البغى ، اخلصوا جهادكم ، واريدوا الله بعملكم ، هاموا فان هؤلاء قد تهيأوا . وهذا يوم له مابعده ، ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وان هزمونا لم نفلح بعدها »

وخطب ابو عبيدة فقال :

عباد الله ، انصروا الله ينصركم، ويثبت اقدامكم ، يا عباد الله اصبروا فان الصبر منجاة من الكفر ، ومرضاة للرب ، ومدحضة للعار ، لا تتركوا مصافكم ، ولا تخطوا اليهم خطوة ، ولا تبدؤهم القتال ، واشرعوا الرماح واستتروا بالدرق ، والزموا الصمت الا عن ذكر الله عز وجل فى انفسكم ، حتى يتم امركم ان شاء الله »

وكان ابو سفيان بن حرب يطوف الصفوف ويقول باعلى صوته : « يامعشر المسلمين ؛ انتم العرب اصبحتم فى دار العجم ، منقطعين عن الاهل ، تأثيرا من امير المؤمنين ، وامدادا لله ، وقد والله اصبحتم بازاء عدو كثير عدده ، شديد عليكم حنقه ، وقد وترتموهم فى انفسهم و بلادهم ونسائهم والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم اليوم ولا تبلغون رضوان الله غدا الا بصدق اللقاء ، والصبر فى المواطن المكروهة ، الا انها سنة لازمة ، وان الارض وراءكم ؛ بينكم و بين امير المؤمنين وجماعة المسلمين ، صحارى و برارى ليس لأحد فيها معقل ، ولا معول الا الصبر و رجاء ما وعد فهو خير معول ، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا بها ، ولتكن هى الحصون »

وطاف معاذ بن جبل الصفوف يقول « يا اهل القرآن يا مستحفظى الكتاب وانصار الحق والهدى والرحمة ، ان رحمة الله لا تنال وجنته لا تدخل بالامانى ، ولا يولى الله المغفرة الا الصادق المصدق الخ

وخطب عمرو بن العاص الناس ومما قاله :

« ايها المسلمون

« غضوا الابصار ، واجثوا على الركب ، واشرعوا الرماح ، فاذا حملوا عليكم فامهلوهم ، حتى اذا ركبوا اطراف الاسنة فثبوا فى وجوههم وثبة الاسد ، فوالذى يرضى الصدق و يثيب عليه ، و يمقت الكذب و يجزى بالاحسان احسانا ، لقد سمعت ان المسلمين سيفتحونها كفرا كفرا (قرية قرية) وقصرا قصرا فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فانكم لو صدقتموهم الحملة تطاير وا تطاير اولاد الحجول »

اول من انشب المعركة

ويقول المؤرخون الاسلاميون ، انه لما عاد وفد ابى عبيدة من معسكر تيدور يحمل جوابه بالرفض ، وكان خالد يترقب ذلك ، وكان اعد عدته ، وابلغ الكتائب والفرق تعليماته ، وحدد لكل منها مهمته ، امر عكرمة بن ابى جهل والقعقاع بن عمرو ـ وكان كل منهما يقود كردوسا فى القلب ـ ان ينشبا القتال فبرز كل منهما مع كردوسه وحمل على العدو ، وهجم الروم بقواهم كلها على المسلمين وصبوها صبا فقابلهم هؤلاء بالمثل فكانت ملحمة كبرى من الملاحم التى لايزال صداها يرن فى اذن التاريخ ولا يزال الكتاب والباحثون العسكريون يخوضون فى درسها ويسهبون فى وصف حوادثها ووقائعها

وقد استبسل الروم فى ابتداء القتال وبذلوا جهدا عظيما للتغلب على المسلمين ، وكان الكردوس الواحد منهم يقاتل خمسة كراديس فاضطرب هؤلاء وتراجعت بعض صفوفهم ، كما تخلت عنهم بعض قبائل الشام التى انضمت اليهم ، لما توهمته من ان الدائرة ستدور عليهم

ولما اشتد الهول وعظم الكرب ، وظهر الاضطراب فى صفوف المسلمين ، برزت النساء تصيح فى وجوه الرجال المدبرين وتضرب فى وجوه الخيل وتقول : « الى اين ياحماة الاسلام وطلاب الشهادة » فثبتن الاقدام ، واضرمن الحماسة فى الصدور ، فعاد الى العرب نشاطهم وكروا على عدوهم

واستقتل يوم اليرموك عكرمة بن ابى جهل وكان من العاملين فى ادراك النصر ، فقد كان يخوض الصفوف وينادى من يبايع على الموت . فبايعه نحو ٤٠٠ من خيرة الابطال ثبتوا فى القلب ثبات الجبال الراسيات امام العدو المتهافت على مقر القائد العام ولم يزالوا به حتى ردوه واجلوه بعد ما قتل معظمهم وفى مقدمتهم عكرمة نفسه وولده عمرو وكثيرون من الصحابة

ولما انكسرت حدة الحملة الرومية وتراجعت صفوفهم حمل قلب المسلمين عليهم

حملة صادقة ، وقام عمرو بن العاص بحركة التفاف موفقة فى الجناح الايسر اقترنت بهجوم عام على جناحهم الايمن فاضطربوا وارتدت صفوفهم على اعقابها ، فطاردتها قوة القلب بقيادة خالد ، فالقى مشاة الروم بانفسهم فى منخفضات اليرموك ، وفصل بينهم و بين الفرسان ، الذين اخذوا يفرون مشتتين

ودخل المسلمون الخنادق التى لجأ اليها مشاة الروم فأعملوا فيهم السيف ، فلاذ اكثرهم بالفرار وعمت الهزيمة ، وكان الليل قد ارخى سدوله ، فمن نجا من السيف هلك بوقوعه فى هوة الواقوصة (وهى قرية تدعى اليوم الياقوصية ولا تزال قائمة فى وادى الرقاد الذى يصب فى وادى اليرموك باراضى الزوية وهى من اعمال الزوية وتبعد عن القنيطرة نحو ٤٥ كيلو مترا وقد كانوا جعلوا خط رجعتهم عن طريق فيق ولكنهم ضلوا الطريق فتساقطوا فى الواقوصة) ويقال ان من هلك منهم فيها لايقل عن ٨٠ الفا وكان آخرهم لايعرف مصير الذى قبله ، ومما زاد فى نكبتهم ، وضاعف فى مصابهم ، انهم كانوا قرنوا كل عشرة من رجالهم فى سلسلة ، ليحولوا بينهم و بين الفرار وكانوا يسيرون على هذه القاعدة فى بعض حروبهم ، وقد جنوا منها بعض فوائد . اما فى اليرموك فقد عادت عليهم بأوخم العواقب والنتائج ، فكان المقرون بالسلسلة يجر — متى هوى — زملاءه فيموتون جميعا

ويقول سعيد بن بطريق وهو مسيحى من مؤرخى الصدر الاول فى تعليل انكسار الروم فى اليرموك ماخلاصته :

« و بينما كان ماهان قائد جيش الروم فى معسكره والعرب ازاءهم و بينهم نهر اليرموك ، خرج منصور العامل على دمشق ، ومعه مال جباه ، يريد به معسكر ماهان فلما اقترب منه ضربوا الطبول ، و بوقوا وصاحوا ، وكان ذلك من منصور مكيدة ، فلما نظر الروم الى المشاعل خلفهم وسمعوا صوت الطبول ، والبوقات ، توهموا ان العرب جاءوهم من خلفهم وكبسوهم فوقعت بينهم الهزيمة — وسقطوا فى وادى الرماد (الواقوصة) » وتسمية الوادى بوادى الرماد تصحيف من النساخ فهو وادى الرقاد كما قلنا ، والواقوصة على طرف الوادى ، وقد وصف ابن البطريق الوادى بانه واد عظيم

كبير ، فماتوا ولم يخلص منهم الا عدد قليل . ومنهم من هرب الى مواضع شتى

واستسلم كبار الروم واشرافهم الى الموت لما تحققوا الفشل ، وفضلوه على الاسر فوضعوا برانسهم فى اسنانهم ففتك بهم المسلمون ، ولم ينج من نجا منهم الا بشق الانفس

وقصد جانب من المنهزمين دمشق ، فلاذ باسوارها ، وقصد آخرون فلسطين ، وتقدر خسارتهم بعشرات الالوف فقد معظمهم فى الواقوصة ، ويقدر المسلمون قتلاهم فى ذلك اليوم باربعة آلاف بينهم عدد من كبار الصحابة واعيانهم . ويقال انه شهد اليرموك الف صحابى

وكانت المعركة ، على مايرى بعض المؤرخين يوم ١٢ رجب سنة ١٣ و ١١ سبتمبر سنة ٦٣٤

ابو عبيدة يتقلد القيادة العامة

مات ابو بكر قبل معركة اليرموك بعشرين ليلة ، وبويع عمر بالخلافة فكان فى مقدمة ما فعله ، انه اقال خالدا من منصب القيادة العليا فى الشام ، وكان يجد عليه لتصرفاته يوم اليمامة وولى مكانه ابا عبيدة بن الجراح وارسل بذلك كتابا مع رسول ، وصل الى اليرموك والمعركة فى اقصى شدتها ، فتسلم خالد الكتاب ، وحفظه فى كنانته ، حتى اذا انتهت بالفوز والظفر ، سلم ابا عبيدة زمام القيادة العليا ، فابقاه معه بمثابة رئيس اركان حرب له ، مدة حروب الشام كلها ، واعتذر عمر بعد ذلك عن اقالة خالد وقال « لقد اقلت خالدا والمثنى بن ابى حارثة لان الناس لهجوا كثيرا بذكرهما فخفت ان يفتنوا بهما »

وهذا نص كتاب عمر بتولية ابى عبيدة : وهو اول ما كتبه عمر :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الله عمر بن الخطاب الى ابى عبيدة بن الجراح

« اوصيك بتقوى الله الذى يبقى ولا يبقى سواه ، الذى هدانا من الضلالة

واخرجنا من الظلمات الى النور ، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بامرهم بحق الذى عليك . لاتقدم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلا قبل ان تستريده لهم ، وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية الا فى كشف من الناس ، واياك والقاء المسلمين فى الهلكة ، وقد ابتلاك الله بى وابتلانى بك ؛ فغمض بصرك عن الدنيا ، واله قلبك عنها ، اياك ان تهلكك كما اهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم » على ان هنالك من يقول ان العزل لم يقع الا بعد فتح دمشق والرأى الاول هوالارجح

١٤

ابو عبيدة بن الجراح

هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة اشتهر بكنيته ونسبه الى جده فيقال ابو عبيدة بن الجراح . وامه اميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العزى ادركت الاسلام واسلمت وكان معروفا بالدهاء وشدة الذكاء فى الجاهلية

كان من السابقين فى الاسلام فقد اسلم وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث فى يوم واحد بدعوة ابى بكر وقد لقبه النبى بامين الامة فقال فى حديث صحيح « لكل امة امين وان امينا هو ابو عبيدة بن الجراح »

التقى ابو عبيدة وابوه عبد الله بن الجراح فى يوم بدر ، هذا فى جيش المسلمين وذاك فى جيش قريش ، وجعل ابوه يقصده وجعل يحيد عنه فلما اكثر قصده ، قتله فجاء فى حقه من القرآن : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾

شهد المشاهد كلها مع الرسول وثبت معه يوم احد ونزع الحلقتين اللتين دخلتا فى وجهه من المغفر . وسأل وفد نجران حينما قدم المدينة النبى ان يبعث معهم من يأخذ بالحق و يعطيه فقال لهم « والذى بعثنى بالحق لارسلن معكم القوى الامين » ثم دعا بابى عبيدة وارسله معهم

ولما طعن عمر بن الخطاب قال « لو ادركت ابا عبيدة بن الجراح لاستخلفته وما شاورت فان سئلت عنه قلت استخلفت امين الامة وامين رسول الله »

اختاره ابو بكر لقيادة الجيش الذى وجهه لفتح حمص ، وعينه عمر بعد توليه

الخلافة قائدا عاما لجيش الشام وسأل عنه حينما وصل الى الجابية فى طريقه لتسلم بيت المقدس قائلا :

– اين اخى ؟

– ومن هو ؟

– ابو عبيدة

– الآن يأتيك

ثم جاء ابو عبيدة على ناقة فسلم عليه ثم سار معه حتى اتى منزله فنزل فيه فلم يجد الا سيفه وترسه قال لو اتخذت متاعا او شيئا ؟ قال « ان هذا سيبلغنا المقيل يا امير المؤمنين »

اصيب بالطاعون فى عمواس سنة ١٨ فهلك فيه واوصى قبل وفاته بالوصية الآتية :

« اقرئوا امير المؤمنين السلام ، واعلموه انه لم يبق من اماتتى شىء الا وقد قمت به واديته . وقد كان بعث الى بمئة دينار فردوها اليه »

ودفن فى غور الاردن وقبره معروف يزار ويقصد . وكان عمره حين وفاته ٥٨ سنة

١٥

بعد اليرموك

على هذا المنوال ختمت معركة اليرموك وهى ولا شك اعظم المعارك التى خاضها العرب فى الصدر الاول شأنا ، فلم يسبق لهم ان نازلوا جيشا كذاك الجيش ، ولا وقفوا امام قوة كتلك القوة

ولقد القى العرب على الروم فى ذاك اليوم درسا بليغا فى الشجاعة والنجدة والرجولة وشدة العزيمة ، والاخلاص والايمان ، وما لاح فى خاطر احد منهم قبل فشو الاسلام فيهم بانهم سيوفقون التوفيق الذى نالوه وادركوه ، وأن الغلبة ستتم لهم على الروم ، سادة ذلك العصر وحكامه

ومهما كانت العوامل التى عملت فى هزيمة الروم وانكسارهم ومهما قاله الروم وانصارهم فى تعليل ماوقع فقد كان انتصار العرب حاسما كما كانت هزيمة الروم من اشنع الهزائم ففقد مئة الف او اقل او اكثر من جيش فى معركة واحدة ليس مما يستهان به ، مهما كان عدده كبيرا ، ومهما كانت موارده غزيرة ، ولذلك يعد الباحثون العسكريون معركة اليرموك من المعارك الحاسمة ويقولون ان انهزام الروم فى ساحاتها هو الذى اضطرهم الى الجلاء عن بلاد الشام بعدها

وينحى بعض مؤرخى الامبراطورية الرومية من الاوربيين المعاصرين باللائمة الشديدة على عرب الشام المتنصرة وينعتهم بالخيانة واللؤم لانهم لم يخلصوا للامبراطورية ولم يصدقوا فى خدمتها ، ولم يستميتوا فى قتال اعدائها ، ويقول انهم لو اخلصوا وتركوا الخلافات الدينية والقومية جانبا لما نبه للعرب ذكر ولارتدوا على اعقابهم من الطريق

التى جاءوا منها ؛ وثمة فريق آخر من هؤلاء يحمل على بعض رجال الدين الارثوذكس من ابناء الشام حملات شديدة ، لانهم اظهروا ارتياحا الى نظام الحكم الجديد وارتضوه ويرى انه كان يجب عليهم ان يصلوا الاسلام حربا عوانا ويشنوا عليه غارة شعواء حتى تدال دولته ويعود الحكم الى الروم المسيحيين فى الشرق كما كان

وهنالك ايضا من يحمل على اليهود حملات شعواء ويتهمهم بالخيانة ايضا لانهم مالأوا المسلمين حين زحفهم ولم ينضموا الى الروم ومع ان هؤلاء الكتاب لايجهلون ماانزله الروم باليهود فى فلسطين ، قبيل الغارة العربية ، بسنوات قلائل ، وكيف انهم ذبحوهم وقتلوهم وطاردوهم اى انهم يطلبون منهم ان يتناسوا كل شىء وينهضوا لقتال العرب ، ولا بد لنا من القول انه لم يشر احد من المؤرخين المسلمين الذين دونوا حوادث ذلك العصر الى تجند احد من اليهود فى صفوف المسلمين وتقلدهم السلاح وخوضهم معهم المعارك التى دارت بينهم وبين الروم ؛ وكل ما نقلوه ورووه يلخص فى ان اليهود كانوا يعطفون على المسلمين ويمدونهم بالاخبار ، اى انهم لم يساعدوهم مساعدة ايجابية حقيقة وكان موقفهم من الروم سلبيا

لقد كان انتصار العرب فى اليرموك نتيجة طبيعية للفوز الذى ادركوه فى اجنادين ، وفى جنوبى الشام باستيلائهم على حمص ، واجتثاثهم النفوذ الرومى من حوران والبلقاء وهما مقاطعتان كبيرتان . ويقول بعض النقاد العسكريين انه لو وقف الروم من اول الامر ازاء العرب الموقف الحازم الذى وقفوه فى الآخر وحشدوا لهم القوى الكبرى التى حشدوها ، وقاتلوهم على الحدود وفى مناطقها لتبدل الموقف . وعند هؤلاء ان استهانة الروم بالغارة العربية فى ابتدائها واعتقادهم بانها غارة بدوية يراد بها السلب والنهب هو الذى ضمن للعرب التفوق والنصر ، فلم ينهض اعداؤهم الا بعد فوات الوقت ، فكانوا من الخاسرين .

وعندنا انه كان لتضامن العرب واشتراكهم فى القتال نساء ورجالا وما ابداه

قوادهم العسكريون من الكفاءة الزائدة فى التعبئة وفى ادارة المعركة ، وفى تنفيذ الخطط العسكرية التى رسموها واستهانتهم بالحياة الدنيا ، وطلبهم الشهادة ، المقام الاول فى تهيئة اسباب النجاح ، فالعبرة فى الحروب للقوى الادبية او المعنوية ، لا للعدد . وقد كان العرب مجهزين بافضل جهاز واكمله منها ، وحسبك ان احد اعدائهم من الروم وصفهم بأنهم رهبان بالليل ، فرسان بالنهار لو سرق ابن ملكهم لقطعوا يده ولو زنى لرجموه واقاموا عليه الحد وذلك كناية عن تمسكهم بالحق ، وعدم تهاونهم باقامة قسطاس العدل وما تمسك قوم بهذه القواعد الا فازوا ونجحوا

وهنالك شبه كثيرة بين معركتى القادسية واليرموك و بين الظروف التى درات فيهما و بين النتائج الايجابية التى انتجتاها ، فقد انتهت كل منهما بسحق جيش الدولة التى جاء العرب لمحاربتها ، وكما تم لهم سحق الجيش الرومى فى اليرموك واحتلال الشام بعد ذلك تدريجيا فكذلك كان شأنهم فى القادسية فلم يوفق الفرس الى الوقوف امامهم بعد ما سحقوا جيشهم على المنوال الذى بسطناه فى الكتاب الاول وهذا يؤيد الرأى الذى مابرح العسكريون يرددونه ، وهو ان العبرة فى الحروب بسحق جيش العدو وتمزيقه والقضاء على القوة الادبية فى صدور رجاله ، ومتى ادرك الجيش المهاجم ذلك استسلمت البلاد التى يهاجمها اليه بدون كبير مقاومة ولا عناء لعدم وجود قوة مسلحة تدافع عنها وتصونها

وزحف العرب بعد انتصارهم فى اليرموك فسار الجانب الاكبر منهم الى الشمال ، لاكمال الفتح ، وللقضاء على البقية الباقية من الجيش الرومى ، فاستولوا على دمشق فحمص وظلوا يواصلون تقدمهم حتى انطاكية عاصمتهم الكبرى ، فاستولوا عليها كما اتجهت قواتهم الاخرى نحو فلسطين فاكملت فتحها و واصلت تقدمها بعد ذلك فاستولت على مصر وافريقية الشمالية ونشرت الاسلام فيها

واوغل العرب ايضا فى ميدان العراق بعد انتصار القادسية الحاسم فساروا شمالا نحو المداين فاستولوا عليها ثم اتجهوا شرقا فاستولوا على جبال حمرين ثم انحدروا على بلاد ايران فدانت لهم وخضعت لدولتهم ، وهكذا ازالوا هاتين الامواطوريتين فى خلال

مدة لاتزيد على عشر سنوات ١٢ ـ ٢٢ للهجرة ولم يبقوا للروم فى الشرق سوى الجزء الممتد من حيدر باشا (الجزء الاسيوى من القسطنطينية) حتى جبال طوروس اى مقاطعة الاناضول الحاضرة التابعة لدولة تركيا . على انهم كثيرا ماغزوا هذه العاصمة وتم فتحها بعد ذلك على يد السلطان محمد العثمانى

وكان للمبادىء السامية التى حملها المسلمون الى البلاد التى فتحوها ، اثر كبير فى توطيد ملكهم ، وثبات دولتهم ، واتساع نفوذهم ، فقد جاءوها بالعدل والاحسان والرحمة والرفق ، فلم يعتدوا على احد ، ولم يظلموا احدا ، ولم يسلبوا مالا ، ولم يغتصبوا امرأة ، ولم يقتلوا شيخا ولا طفلا ، مما لم يؤثر عن جيش غير جيشهم ، ولا يزال نخره منحصرا فيهم ، مع تقدم العالم ، ومع ما يتبجحون به من انتشار العلم والمدنية ، ولم ننس ما وصم به الحلفاء الالمان فى زمن الحرب وما عيروهم به من جرائم قالوا انهم ارتكبوها وملأوا الدنيا صياحا وصراخا استنكارا لها

ووصف الالمان الانكليز والفرنسيس والروس والطليان من خصومهم بأشد من هذا ، ولا يحتاج اهل الشرق العربى الى ادلة مادية على صحة هذه الدعوى فقد خبروا هؤلاء حينما جاءوا بلادهم فى ابان الحرب العظمى وبعدها ورأوا من اعمال جندهم وتصرفات قوادهم ما لا ينسونه على الاطلاق ، وما يعد لطخة فى جبين هذه المدنية

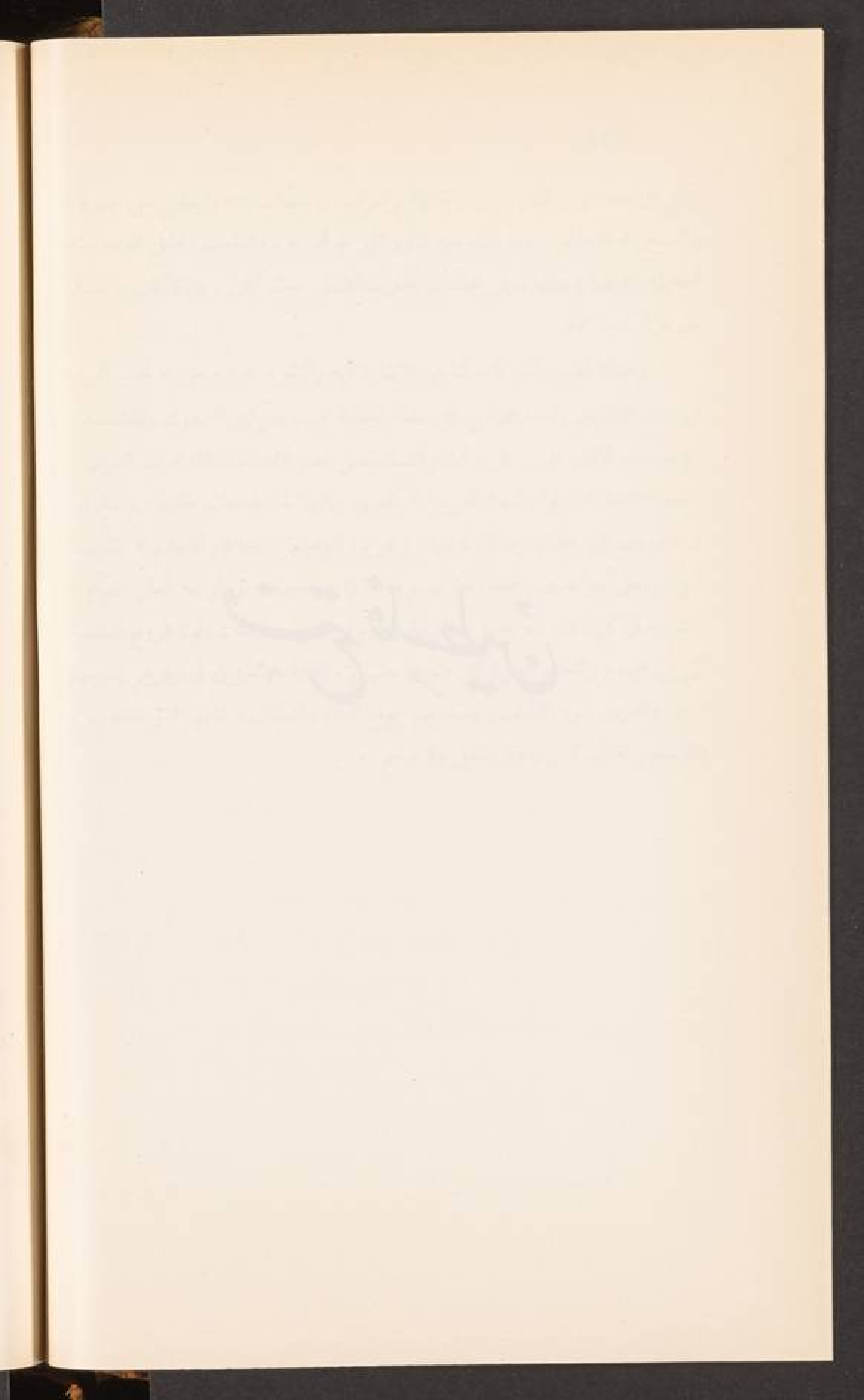
لقد ظلم الروم الناس فابتعدوا عنهم ، ونفروا منهم ، ولم يحجموا عن قتالهم ، والمجاهرة بعدائهم ؛ وعدل فيهم العرب فأحبوهم ووالوهم وتقربوا اليهم ، وهكذا شأن الناس فى كل زمان ومكان ، فهم ميالون بطبيعتهم الى حب العدل والعادل ، وكره الظلم والظالم مهما كان نوع الظلم وشكله ، ومهما كان آتيه ومرتكبه ، ومهما كان العادل بعيدا عنهم ، غريبا عن جامعتهم ومجتمعهم

وعندنا انه كان الاجدر بأولئك الذين صبوا جام الغضب واللوم على سكان الشام لانهم والوا العرب ولم يقوموا على ساق وقدم لقتالهم ، ان يستخرجوا العبر النافعة مما حدث فيدعوا الى اذاعة العدل وتعميمه ، والكف عن الظلم ومحاربته ، فلا

يكفى ان يكون الظالم غربيا والمظلوم شرقيا ، ليسكت عنه وليغضى عن تصرفاته ولتنتحل له الاعذار ، وما ذلك من شأن المؤرخ النزيه ، والباحث المحقق الذى ينشد الحقيقه ليذيعها و يعلنها ، بل يجب ان يحارب الظلم حيث كان ، واينما كان و ينكر على مرتكبيه عمله

وهناك اعتبار آخر لابد لنا من الاشارة اليه والتنويه به ، ونعنى به تحرر العرب فى جميع اقطارهم وامصارهم من كل سلطة اجنبية بعد معركتى اليرموك والقادسية ، وكما ضمنت الاولى تحرير عرب الشام فقد ضمن نصر القادسية ذلك لعرب العراق ، فانضووا جميعا تحت لواء الدولة العربية الكبرى وادوا لها خدمات جليلة ، واشتركوا فى الحروب التى خاضتها اعلاء لدينها ، وتعزيزا لقوميتها ، وما قام الاسلام الا بتأييد العرب وعلى سواعدهم ، فقد اعتز بهم واعتزوا به فحملوه الى اربعة اقطار المسكونة ونشروه فى كل مكان ، و بلغوا بفضله مالم يكونوا يحلمون ببلوغه ، ولولا الروح السامية التى بثها فيهم ، والتعاليم العالية التى نشرها بينهم ، لظلوا مستعبدين فى ديارهم يسومهم الروم والفرس سوء العذاب و يذيقونهم انواع البلاء والنكال ، شأن المحتل المغتصب ، والمستعمر الغالب لا يرق ولا يشفق ولا يرحم

فتح فلسطين



فلسطين

معلومات جغرافية وتاريخية موجزة عنها

يطلقون اسم فلسطين فى الوقت الحاضر على المقاطعة الممتدة من ضفة نهر الاردن شرقا حتى البحر المتوسط غربا ومن خط الناقورة شمالا حتى رفح جنوبا

خضعت فلسطين للامبراطورية الرومية سنة ٦٥ قبل الميلاد وظلت تابعة لها حتى جاء المسلمون فاستولوا عليها فخضعت للدول الاسلامية التى تداولت على الشرق حتى الحرب العظمى فاحتلها الانكليز سنة ١٩١٧ – ١٩١٨ ولا يزالون فيها حتى اليوم

ويقدر عدد سكانها فى الوقت الحاضر بمليون نسمة ثلثاهم من المسلمين

١

عمر يرسم الخطة الجديدة

ما كذب خالد جنده يوم اليرموك حينما قال لهم « لئن رددناهم اليوم الى خندقهم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها » وما اخطأ الحساب والتقدير ، فقد واصل العرب رد الروم بعد ذلك اليوم حتى اجلوهم عن فلسطين وسورية ومصر وافريقية وحلوا محلهم وجاسوا فى مجلسهم والارض لله يورثها من يشاء من عباده ودوله

ولم يشأ ابو عبيدة — وقد تولى منصب القيادة العامة ، خلفا لخالد بأمر عمر بن الخطاب الخليفة الجديد — ان يشرع فى حركات عسكرية قبل ان يتصل بالخليفة وكان يتقلد بحكم منصبه الرئاسة العليا للجيش او القيادة العامة كما نقول الآن ، ويتلقى اوامره وتعليماته فى الخطة التى يسير عليها

ولا بد لنا من ترديد ما رواه الثقات من المؤرخين وهو ان العرب لم يمعنوا بعد معركة اليرموك فى مطاردة عدوهم ، ولم يحاولوا امتلاك البلاد ، ولو فعلوا لاحتلوا دمشق بدون كبير عناء ، فقد كانت الطرق المؤدية اليها مفتحة لهم ، وما كانت اسوارها لتستعصى عليهم ، والظاهر ان قادة الجيش العربى رأوا ان لايعجلوا بالزحف قبل تلقى اوامر الخليفة لكى يدعوا لجيشهم وقتا للراحة بعد عناء الاعمال العسكرية التى عملها فى خلال سنة و بضعة اشهر فهو لم يلق السلاح ولم يخلد الى الراحة منذ دخل حدود الشام فى اواخر السنة الثانية عشرة

ويمكن القول ايضا بانهم كانوا يفضلون ان يعرفوا مايريد قادة الجيش الرومى

عمله فى المرحلة الجديدة ، فيسيروا على هدى و يتخذوا من التدابير ما يكفل احباطه والقضاء عليه

والذى عليه الاكثرون ان ابا عبيدة غادر بجيشه وادى اليرموك – على اثر المعركة – فنزل مرج الصفر (وهو المرج او السهل الواقع جنوبى نهر الاعوج وينبع هذا النهر من قرية عرنة فى سفح جبل الشيخ الشرقى فينساب فى السهول نحو الشمال الشرقى و يؤلف الحد الفاصل بين اراضى حوران واراضى قضاء وادى العجم ، ثم يصب فى بحيرة مرج راهط بعد ان يقطع نحو ٤٠ كيلو مترا – ومرج الصفر هو المكان الذى هزم فيه خالد بن سعيد بن العاص فى ابتداء خلافة ابى بكر – (انظر ص ٦٤) ولا يبعد هذا المرج عن دمشق اكثر من ٢٥ كيلو مترا وهو واقع فى غربيها الجنوبى فى المنطقة الممتدة بينها و بين القنيطرة وتبعد هذه عن دمشق ٦٣ كيلو مترا

عمر يرسم الخطة الجديدة

جاء فى الكتاب الذى كتبه ابو عبيدة الى الخليفة بالنصر ان فل الروم قد اتجه الى فلسطين ، وانه يخشى ان يؤتى من ناحيتهم فهل يهاجم دمشق او حمص ام يبدأ بفلسطين فينجز امرها و يقضى على جيش الروم فى ديارها فكتب اليه عمر يأمره بما يأتى :

ابدأوا بدمشق فانهدوا لها ، فانها حصن الشام و بيت مملكتهم واشغلوا عنكم اهل فحل بخيل تكون بازائهم فى نحورهم ، واهل فلسطين واهل حمص ، فان فتحها الله قبل دمشق فذاك الذى نحب وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فينزل بدمشق من بها ودعوها وانطلق انت وسائر الامراء حتى فحل فان فتحها الله عليكم فانصرف انت وخالد الى حمص ودع شرحبيل وعمرا بالاردن وفلسطين ، وامر كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من امارته

تفصيل ما اجملته الخطة الجديدة

وفى كتاب الخليفة وصف للخطة العسكرية الجديدة التى طلب ابو عبيدة رسمها وابلاغهم قواعدها لتنفيذها وهذا تفصيل ما اجملته :

١ ـ ان يبدأ بمهاجمة دمشق و يعمل لاحتلالها

٢ ـ ان يرسل قوة عسكرية لاشغال الروم فى فحل حين مهاجمة دمشق

٣ ـ ان يرسل قوة عسكرية لاشغال الروم فى حمص زمن محاصرته لدمشق

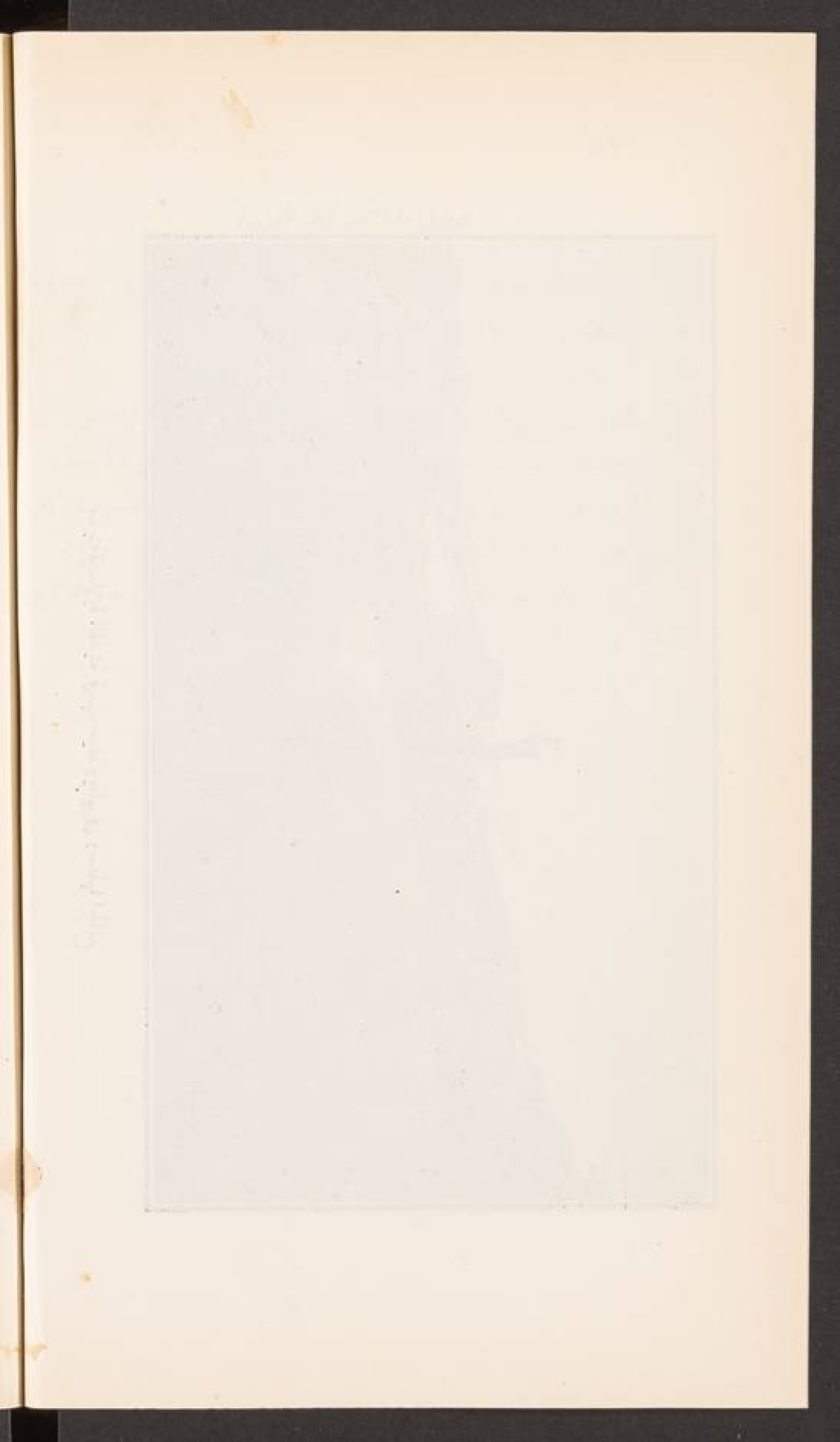
٤ ـ فى حالة تأخر فتح دمشق وامتداد زمن الحصار يدع حولها قوة كافية ويقصد فحل فينجز امرها بالاشتراك مع الجيش الذى يحاصرها

٥ ـ يقصد بعد فتح فحل مع خالد وسائر الامراء حمص لفتحها و يدع عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة فى فلسطين والاردن

٦ ـ ينشىء حكومة فى كل بلد ويقيم فيه حامية عسكرية



مدينة قيسارية القديمة قرب حيفا ويظهر في وسطها الجامع



٢

قوات الروم العسكرية فى فلسطين

كان للروم اربع مراكز عسكرية فى فلسطين احسنوا تحصينها ، واكملوا تجهيزها بالجند والمقاتلة وهذه اسماؤها مع وصفها :

١ – فحل

٢ – اجنادين

٣ – قيسارية

٤ – بيت المقدس

وفحل من قرى اربد فى لواء عجلون من شرق الاردن اليوم وتسمى طبقة فحل وهى على مقربة من غور بيسان وانقاضها كثيرة تدل على عظمتها ، وماؤها غزير ويمكن ان تغرق اراضيها اليوم كما اغرقت فى زمن الفتح

اما اجنادين فهى اليوم منطقة رملية بين مدينة الرملة و بين بيت جبرين فى فلسطين وقد طم الرمل انقاضها ، وطمس معالمها

واما قيسارية فتقع جنوبى حيفا وتبعد عنها ١٣ كيلو مترا وهى واقعة على شاطىء البحر الابيض بينها و بين يافا ولا تزال انقاض حصونها وابراجها القديمة قائمة تشهد بما كان لها من عظمة بائدة ، ويلوح لنا انها كانت ميناء فلسطين الحربى فى ذلك الزمن فكانت سفن الاسطول الرومى ترسوا فيها ، كما كانت سفنهم التجارية تقصدها ، وقد احسنوا تحكيمها واعدادها ، وحشدوا فيها حامية كبيرة ، وكانت تعد من مراكزهم الحربية الكبرى

واما المركز الرابع فكان فى القدس ، عاصمة المسيحية الدينية والعاصمة

السياسية لاقليم فلسطين كله ، فكان فيها مقر الحاكم العام ، كما كانت مقر البطريرك الاورشليمى ، وكان فيها جيش من الرهبان والقسس ورجال الدين المسيحى وكان لهم ايضا مركزان صغيران آخران فى الرملة وفى غزة

عدد القوات الرومية

ومع اننا لا نملك رقما صحيحا لعدد القوات الرومية التى كانت فى فلسطين بعد اليرموك . الا ان دلائل الحال تجعلنا نرجح انها ما كانت تقل عن عشرات الالوف تتألف من العناصر الآتية :

١ ـ الحاميات الاصلية التى كانت ترابط فى فلسطين خلال معركة اليرموك ، فقد ابقى الروم عددا من جندهم لحمايتها والمحافظة عليها من قبيل الاحتياط

٢ ـ فلول جيش اليرموك فقد اتفق المؤرخون على ان فل جيش الروم انقسم بعد اليرموك الى قسمين : سار قسم الى دمشق اى انه اتجه نحو الشمال ، وقصد القسم الآخر فلسطين ، ويلوح لنا ان معظم الجناح الايمن للروم لجأ الى هذه المنطقة بعد الانكسار لانها اقرب من دمشق واسلم

٣ ـ الامدادات التى كانت ترد من البحر بطريق قيسارية ، وكان هركليوس يزجيها وحسبك ان بعض مؤرخى المسلمين يزعم انه كان للروم فى فحل وحدها ٨٠ الفا وهو رقم لا يخلو من مبالغة . وعلى كل حال فليس هنالك من يشك فى انه كان للروم قوات عسكرية كبيرة فى هذه المنطقة ، حشدوها بسبب خلافهم مع اليهود وكانوا يخشون انتقاضهم وخروجهم عليهم

قوات المسلمين فى هذا الميدان

وتولى عمرو بن العاص القيادة العامة للجيش العربى فى هذا الميدان لخبرته ولانه سبق فعمل فيه خلال المرحلة الاولى يساعده ويشد ازره شرحبيل بن حسنة ، وكان قائد منطقة البلقاء (شرقى الاردن) فى المرحلة الاولى ، ومعنى ذلك ان

الخطة العسكرية الجديدة هي نفس الخطة القديمة التي رسمها ابو بكر وعهد الى عمرو وشرحبيل بتنفيذها

اما قوة المسلمين العسكرية هنا فلا نظنها كانت تزيد على بضعة عشر الفا لان القسم الاكبر من الجيش اتجه الى الشمال حيث كانت للروم قوات كبيرة ، وحيث كان هركليوس بنفسه يشرف على ادارة الحركات العسكرية

ولا ريب ان العرب كانوا امام عمل عسكري خطير في هذه المرحلة ، فمن الخطأ الاعتقاد بان معركة اليرموك قضت على كل ما كان للروم من قوى ، وكانوا يملكون موارد غزيرة ، وامبراطورية متسعة ، ولقد خاض العرب بعدها معارك عظيمة ، سيأتي وصفها ، ولا ينكر ان معركة اليرموك فتحت الابواب للمسلمين فدخلوها

٣

فحل

اجمع المؤرخون الاسلاميون على القول بان معركة فحل وقعت فى شهر ذى القعدة للسنة الثالثة عشرة ، واختلفوا فى القواد الذين شهدوها وادار وها ، فالواقدى يقول ان شرحبيل بن حسنة هو الذى تولى ادارة الاعمال العسكرية حول فحل وفتحها ، وان عمرا قاد الجيوش حول اجنادين ، ويقول الخضرى فى « تاريخ الامم الاسلامية » ان الجنود (المسلمين) ساروا بعد انتهاء اليرموك الى فحل ، وان خالدا كان على مقدمتهم

ويقول صاحب خطط الشام انه بعد ماتم للمسلمين ما ارادوا من هزيمة الروم على اليرموك جمعت الروم جمعا عظيما وامدهم هركليوس بمدد فلقيهم المسلمون بمرج الصفر بين دمشق والجولان وهم متوجهون الى دمشق وذلك فى هلال المحرم سنة ١٤ فاقتتلوا اقتتالا شديدا وجرح من المسلمين زهاء اربعة آلاف وولى الروم مفلولين لايلوون على شئ حتى اتوا دمشق وبيت المقدس . ولمافرغ المسلمون من قتال من اجتمع لهم بالمرج رجعوا الى مدينة دمشق

ويقول ايضا فى مكان آخر : ان وقعة فحل كانت بعد خلافة عمر بن الخطاب بخمسة اشهر وذلك ان هرقل لما سمع بانتصارات العرب سار الى انطاكية واستنفر الروم واهل الجزيرة وبعث عليهم رجالا من خاصته وثقاته فلقوا المسلمين بفحل فقاتلوهم اشد قتال وابرحه حتى ظهروا عليهم وقتل بطريقهم وزهاء عشرة آلاف معه وتفرق الباقون فى مدن الشام ولحق بعضهم بهرقل

« ولما سار المسلمون بعد ان فرغوا من اجنادين الى فحل من أرض الروم نزلت

الروم بيسان ففتقوا انهارها فكانت وحلا . ثم نهضوا الى الروم وهم بفحل فاقتتلوا فهزمت الروم ودخل المسلمون فحل ولحقت رافضة الروم بدمشق » اه

والذى نرجحه ـ اعتمادا على كتاب الخليفة عمر الى ابى عبيدة المنشور آنفا وهو نص قاطع لامجال الى انكاره ، او الطعن فى صحته ، هو ان المسلمين انقسموا الى قسمين بعد اليرموك ، طبقا لاوامر الخليفة فسار ابو عبيدة وخالد الى دمشق لمحاصرتها وسار عمرو وشرحبيل بن حسنة الى فلسطين لفتحها . ومع ان المؤرخين القدماء وبعض الذين يكتبون فى هذه الموضوعات من المعاصرين يزعمون ان معركة اجنادين الكبرى كانت بعد اليرموك ، فاننا نرجح انها كانت قبلها اعتمادا على اقوال الثقات ، ولان طبيعة الموقف العسكرى كانت تضطر العرب الى خوضها قبل اليرموك خوفا على خط رجعتهم كما قدمنا ، فما كانوا يامنون ان يهاجموا من الوراء او من الجناح الايسر فى ذلك اليوم لو كانت قوات الروم فى فلسطين سليمة

وما قلناه عن معركة اجنادين نقوله عن معركة فحل ايضا ، فمن غير المعقول ، ان يترك قادة الجيش الاسلامى ، المنطقة الشمالية خالية ، وهركليوس على مقربة منهم فى حمص يجند الجيوش ويرسلها وينصرفون الى المنطقة الجنوبية ، يضاف الى هذا ان دمشق نفسها ، كانت اقرب اليهم من فحل تقريبا ، ولدمشق مقام كبير من الوجهتين العسكرية والادبية ، والاقتصادية ايضا ، وكان المسلمون يحرصون على افتتاحها والاستيلاء عليها .

والخلاصة اننا نرجح كما قلنا ان يكون جيش المسلمين قد انقسم فى هذه المرحلة الى قسمين : قسم وهو الاقل قصد فحلا ، وما كان الاستيلاء عليها يهمهم كما يهمهم امر دمشق ، وقسم اتجه الى الشمال لفتح دمشق وحمص والمناطق المجاورة لهما طبقا لاوامر الخليفة

كيف دارت المعركة

يلوح لدارس خطة جيش فلسطين العسكرية ، انه سلك فى سيره من مرج الصفر وقد عسكر المسلمون فيه بعد اليرموك الى فحل الطريق ، الواقع شمالى اليرموك ، اى انه اتبع الطريق الحالى المؤدى من القنيطرة عاصمة الجولان الى طبريا بطريق جسر بنات يعقوب والجاعونة فهو بعد ما اجتاز الاردن عند هذا الجسر ، وقد اتخذ حدا فاصلا بين سورية وفلسطين فى الوقت الحاضر قصد الجاعونة ثم انحدر الى طبريا

واتجه بعد فتح طبريا نحو الجنوب فسار على محاذاة ضفة بحيرة طبريا الغربية ، حتى فحل ، وهى على مقربة من بيسان ، وهذه واقعة قرب شاطئ البحيرة الجنوبى الغربى ، يؤيد ذلك ما رواه المؤرخون وهو ان المسلمين ساروا من فحل الى بيسان ففتحت لهم

ويبالغ المؤرخون المسلمون فى وصف التدابير التى اتخذها الروم فى فحل ، ويقولون انهم كانوا يعلقون آمالا عظيمة على قواهم المحتشدة فيها ، ويزعمون انها كانت ثمانين الفا ويزيد بعضهم هذا العدد ويلوح لنا انه كان اقل من ذلك بكثير ، لان الروم ما كانوا بقادرين على حشد مثل هذا الجيش الضخم فى هذا المكان ، اما ما يقال من ان هركليوس ، امد مقاتلة هذا الحصن بقوات ارسلها اليه ، فهذا غير وارد ايضا ، لانه كان عليه ان يحشد قواه فى دمشق وفى المنطقة المجاورة لها ، فما كان يجهل ان المسلمين سيقصدونها بدلا من ان يجزأها هنا وهناك

ومع ان بعضهم يطعن فى صحة هذه الرواية ، رواية ارسال الامداد الى فحل ، ويقول بعدم امكانها من الوجهة المادية لان المسلمين كانوا يحتلون طرق الجنوب الغربى المؤدية الى فلسطين ، مما يجعل ارسال النجدات متعذرا فاننا نقول فى الجواب انه كان فى استطاعتهم ارسالها بحرا بطريق قيسارية ، كما ان طريق الساحل كان بايديهم ، فتسير قواتهم من حمص الى طرابلس فبيروت فصيدا فالناقورة ومن هنالك

تتجه نحو الشرق الى الاردن ، وقد كان الروم يسيطرون على هذا الطريق حتى فتح الساحل

مستنقعات فحل

ويقول المؤرخون ايضا ان من جملة التدابير التى لجأ اليها الروم فى منطقة فحل ، انهم بثقوا جداول الماء ، والماء كثير فى منطقة فحل حتى اليوم ففاض وغمر تلك البقاع والبطاح حتى اصبحت مستنقعا ، والقصد من ذلك عرقلة حركات عدوهم العسكرية فى هذا الميدان ، اذا لم نقل انهم كانوا يريدون ايقاعه فى المستنقعات نفسها ، ثم يثبون عليه فيفتكون به وقد طبق المارشال هندبرج هذه الخطة ، فى بطاح مازوريا (بروسيا الشرقية) حينما غزا الروس تلك البقاع فى الحرب العظمى فى شهر اغسطس سنة ١٩١٥ فقد ظل يستدرجهم ، حتى اوقعهم فيها ، ثم اعمل فى رقابهم السيف ، فقضى عليهم ومزقهم كل ممزق . وتسمى هذه المعركة معركة تاننبرج الكبرى وقد رفعت مقام المارشال هندنبرج وجعلته فى مقدمة قواد العالم العسكريين ، ولم تقم للروس بعد هذه المعركة قائمة

وسقطت خيالة العرب فى الفخ الذى نصبه لها الروم ، ووحلت خيولهم حينما طرقوها ، ويعترف المؤرخون المسلمون بانهم لقوا عناء ثم سلموا ويسمون بيسان ذات الردغة ـ والردغة الوحل ـ وتدل الدلائل على ان الروم لم ينهضوا الى مهاجمة المسلمين حينما وحلت خيولهم ، اى سقطت فى المستنقع بل ظلوا يرابطون فى داخل فحل وقصدهم هؤلاء بعد ما تخلصوا

وضرب المسلمون الحصار على فحل ونزلوا حولها . ويقول المؤرخون العرب ان قائد الحامية الرومى خرج يوما بقواه ليأخذهم على غرة ، فصمدوا له وقاتلوه فقتلوه وفتكوا برجاله واستولوا على الحصن عنوة فانهزم الروم لا يلوون على شىء وسقط بعضهم فى المستنقع الذى اعدوه لعدوهم

فتح فلسطين الوسطى والشمالية والساحل

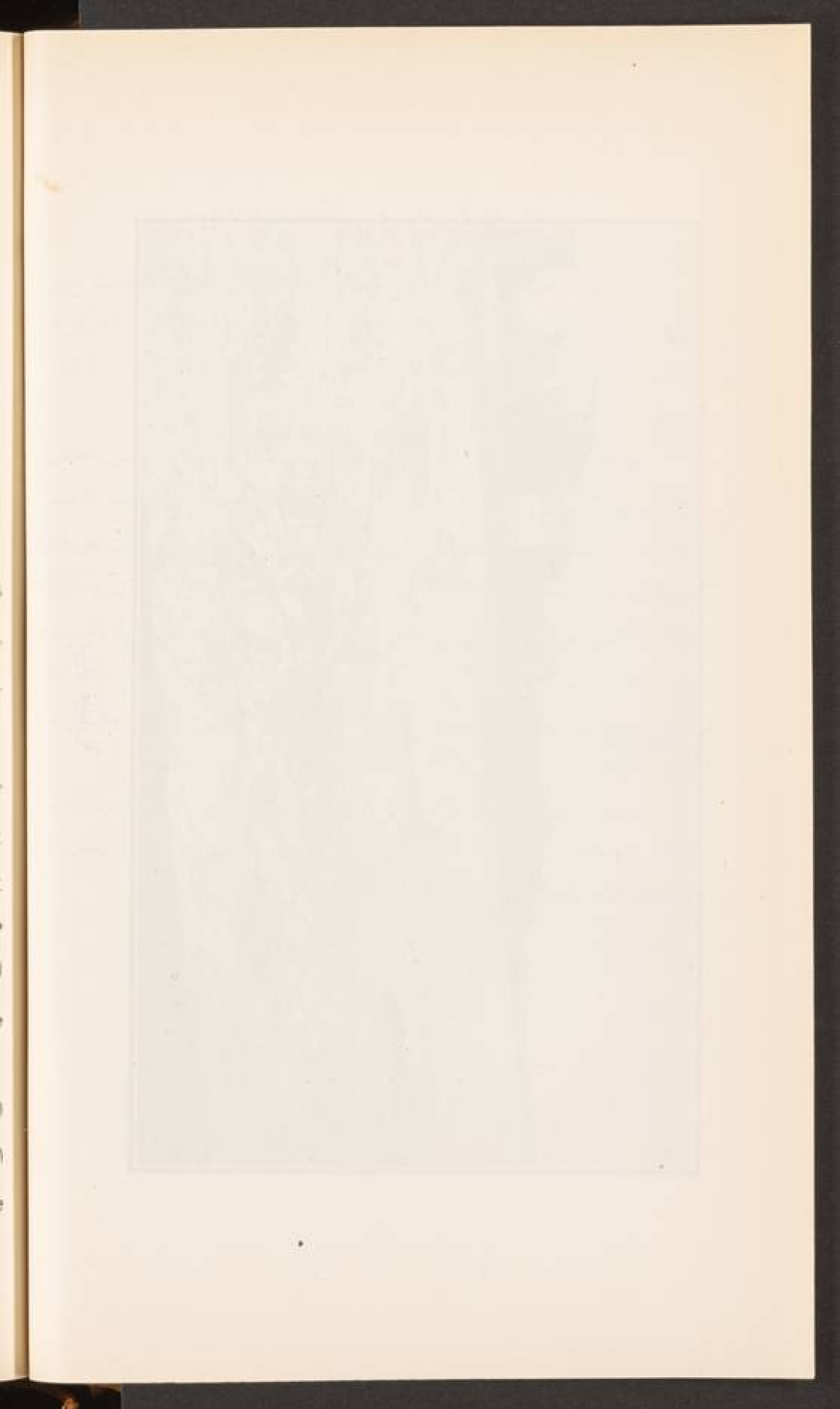
وانتشرت سرايا المسلمين بعد فتح فحل فى المناطق المجاورة ففتحت صور وعكا على الساحل وبذلك انقطع الاتصال من هذا الطريق بين قوى الروم العسكرية فى فلسطين ، وعاصمتهم فى انطاكية ، ولم يبق لهم سوى طريق البحر ، وكانوا يسيطرون عليه سيطرة فعلية.

وفتحت سرايا المسلمين ايضا قرى الاردن ومناطقه كما فتحت نابلس وجنين واللد وبيني ويافا وبيت جبرين وعمواس واذا استثنينا قيسارية ، وقد قاومت واجنادين والقدس وعسقلان فتكون فلسطين كلها ولا سيما القسم الساحلى قد خضع للمسلمين فقد اندفعوا على الساحل بعد فتح يافا واللد وواصلوا الزحف فاحتلوا غزة وظلوا مندفعين فى تقدمهم حتى رفح وهى آخر حدود فلسطين من جهة الجنوب واول حدود مصر من الصحراء ، فاتصلوا بالحجاز من هذه الناحية ، ومعنى ذلك انه لم يبق للروم فى فلسطين كلها سوى الحصون الثلاثة المعروفة وهى اجنادين وقيسارية وبيت المقدس.

وتولى عمرو بن العاص محاصرة اجنادين وارسل قوة اخرى ، حاصرت بيت المقدس ، وحاصرت قوة ثالثة قيسارية وكانت هذه بقيادة معاوية بن ابى سفيان ، ففتحت هذه الحصون تدريجا كما سيأتى.



ميناء قيسارية



٤

حصار بيت المقدس

اتم المسلمون فى خلال سنة ١٤ واوائل سنة ١٥ فتح سورية الشمالية فوصلوا حتى شمالى بيلان (بغراس) منتهى حدود سورية فى الوقت الحاضر ، كما بلغوا ضفة الفرات الغربية عند جرابلس (قرقيش) ومسكنة (باليس) آخر حدود سورية الشرقية الشمالية فى الوقت الحاضر ، ووصلوا ايضا الى تدمر والصحراء الشرقية فأخضعوها كما اخضعوا سواحل الشام كلها فصارت حدودهم تمتد من الاسكندرونة شمالا حتى غزة جنوبا ، ولم يبق بأيدى الروم فى هذا الساحل كله سوى عسقلان وقيسارية ، وكان معاوية يحاصر الثانية برا ، ويضيق على سكانها ، وكان غير قادر على مهاجمتها بحرا لان المسلمين ما كانوا حتى يومئذ يملكون عمارة بحرية يستطيعون ان يهاجموا بها حصون اعدائهم الساحلية ، والى معاوية يعود الفضل فى انشاء اول اسطول للعرب فقد بناه بعد ولايته على الشام وبعد موت عمر بن الخطاب ، وكان يقدر قيمة الاساطيل ويعرف فائدتها ولذلك لم يتأخر عن انشائها حينما اصبح ذلك فى امكانه وسيأتى وصف ذلك

ورأى المسلمون بعد ما أتموا فتح الشمال كله وبلغوا جبال امانوس العالية ، ان لا يوغلوا فى الزحف ، بل يعودوا الى اتمام العمل العسكرى الذى ينتظرهم فى الجنوب ونعنى بذلك فتح الحصون الثلاثة التى استعصت عليهم فى فلسطين وهى القدس واجنادين وقيسارية

قوات المسلمين فى هذا الميدان واعمالهم العسكرية

ولقد انتشر العرب فى ارجاء فلسطين بعد معركة فحل وكانت من المعارك الفاصلة كما قدمنا وعبأوا جنودهم على المنوال الآتى :

١ – تولى معاوية بن ابى سفيان وكان فى جيش اخيه يزيد قيادة الحملة التى ارسلت الى قيسارية لمنازلة حاميتها وقتالها ومنعها عن انجاد اجنادين والقيام باى حركة عسكرية تحول دون تنفيذ خطط المسلمين فى الجنوب او الشمال

٢ – تولى علقمة بن حكيم ومسروق بن فلاك العكى قيادة الحملة التى ارسلت الى القدس لمنازلة حاميتها وحصارها

٣ – تولى ايوب المالكى قيادة الحملة التى ارسلت الى الرملة

٤ – تولى علقمة بن مجزز قيادة الحملة التى ارسلت الى غزة

وكانت القيادة العليا لعمرو بن العاص وقد تولى محاصرة اجنادين و بذل جهودا عظيمة فى سبيل الاستيلاء عليها وكان فيها حامية قوية للروم بقيادة اريطبون من مشاهير رجالهم . فدارت بين الفريقين معارك شديدة استبسل فيها الفريقان ، ولم تستسلم اجنادين الا فى منتصف السنة الخامسة عشرة فانسحب اريطبون مع من سلم من رجاله الى (القدس) ففسح له الجيش الذى كان يحاصرها فدخلها .

واتخذ عمرو بن العاص اجنادين قاعدة لجيشه فاستراح فيها مدة ثم زحف الى القدس ، وضرب عليها الحصار واخذ يناجز جندها ، ولما طال على اهلها المطال ، ورأوا انه لا فائدة من المقاومة ، جنحوا الى السلم وعقد الصلح بشرط ان يتم على يد الخليفة نفسه ، وان يكون هو عاقده . تنويها بشأن القدس الدينى ، ولما لها من المقام العظيم

وكتب عمرو بن العاص بذلك الى عمر بن الخطاب ودعاه الى القدوم لتسلم المدينة . فاجابه الى مقترحه وغادر العاصمة فى طريقه الى الشام ، وكتب الى امراء جيش الشام بان يقابلوه فى الجابية (حوران) وقد تقدم وصف مكانها

٥

عمر بن الخطاب فى الجابية

عهد صلح القدس

كان يزيد بن ابى سفيان اول من استقبل الخليفة عند وصوله الى الجابية ثم جاء ابو عبيدة فخالد ، وتأخر عمرو وشرحبيل لانهما كانا مشغولين بحصار القدس

وفى الجابية استقبل عمر وفد اهل القدس وقد جاءوه يعرضون عليه التسليم والصلح فصالحهم وكتب لهم كتابا هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ما اعطى عبد الله امير المؤمنين اهل ايلياء من الامان ، اعطاهم امانا لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتها ، انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقض منها ولا من حيزها ، ولا من صلبهم ، ولا من شيء من اموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار احد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم احد من اليهود

« وعلى اهل ايلياء ان يعطوا الجزية كما يعطى اهل المداين ، وعليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوت فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن اقام منهم فهو آمن . وعليه مثل ماعلى اهل ايلياء من الجزية

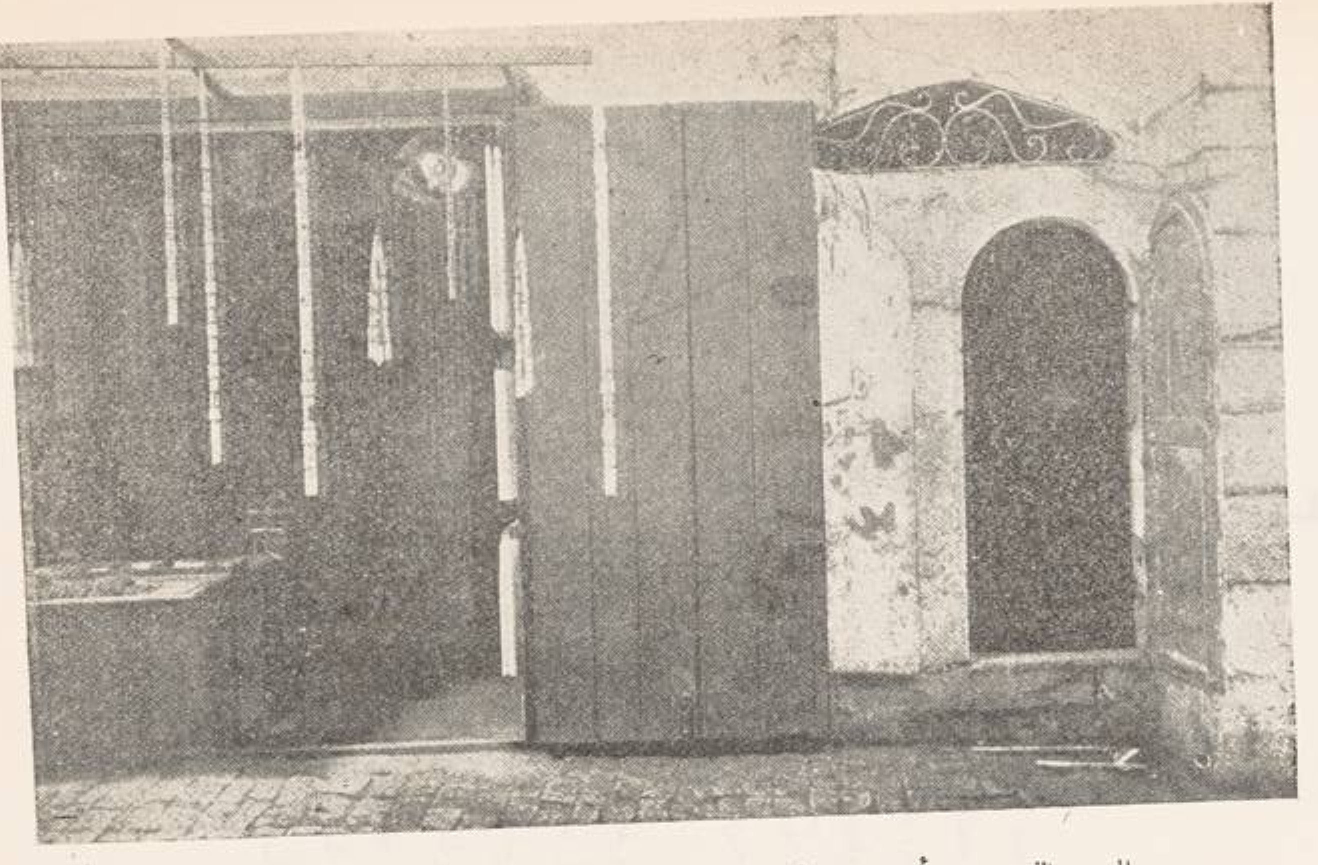
« ومن احب من اهل ايلياء ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على انفسهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان من اهل الارض قبل مقتل

فلان ، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ماعلى اهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى اهله ، لايؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم

« وعلى مافي هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء اذا اعطوا الذى عليهم من الجزية »

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن ابي سفيان

كتب وحضر سنة ١٥



المسجد الذى يرجح أن عمر بن الخطاب صلى فيه حينما زار القدس لتسلمها وهو خرب الآن
ويقع بجوار كنيسة القيامة والى غربها

٦

عمر بن الخطاب فى القدس

غادر عمر بن الخطاب الجابية ميمما بيت المقدس فى موكب بسيط يحيط به قواده ورجال خاصته ، فنزل فى مخيم الجيش العربى المرابط حولها ، واقام حتى فرغ الروم من الجلاء عنها ثم دخلها بدون موكب فاستقبله البطريرك صفرونيوس وكبار الرجال وقصدوا معه كنيسة القيامة لزيارتها

وادركته الصلاة وهو يزور الكنيسة فخرج منها وصلى امامها حيث كنيسة السيدة مريم الآن ، وقد انشىء فى مكان صلاته جامع ليكون تذكارا لها ولكنه محى وباد

ويقال ان البطريرك صفرونيوس اقترح عليه ان يصلى فى داخل الكنيسة فابى وقال له : اخاف ان يدعيها المسلمون ويحولوها مسجدا وكتب لهم ان لايجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها

وطلب من البطريرك ان يريه مكان هيكل سليمان فذهب معه ودله عليه فدهش حينما رآه اطلالا بالية ، ومزبلة قذرة ، واخذ يحفن التراب وينخضه بكفيه وحذى الذين معه حذوه حتى تصبب عرقا ثم امر ببناء مسجد فى ذلك المكان فبنى ، وهو مكان المسجد الاقصى الحالى وقد وسعه الوليد الاموى بعد ذلك

٧

فتح الرملة وقيسارية

صالح عمر بن الخطاب مندوبى الرملة وهو فى الجابية على نفس الشروط التى صالح عليها مندوبى القدس ، و وقع لهم عهدا كعهدهم ولا نرى فائدة من اعادة نشره هنا بعد ان نشرناه من قبل

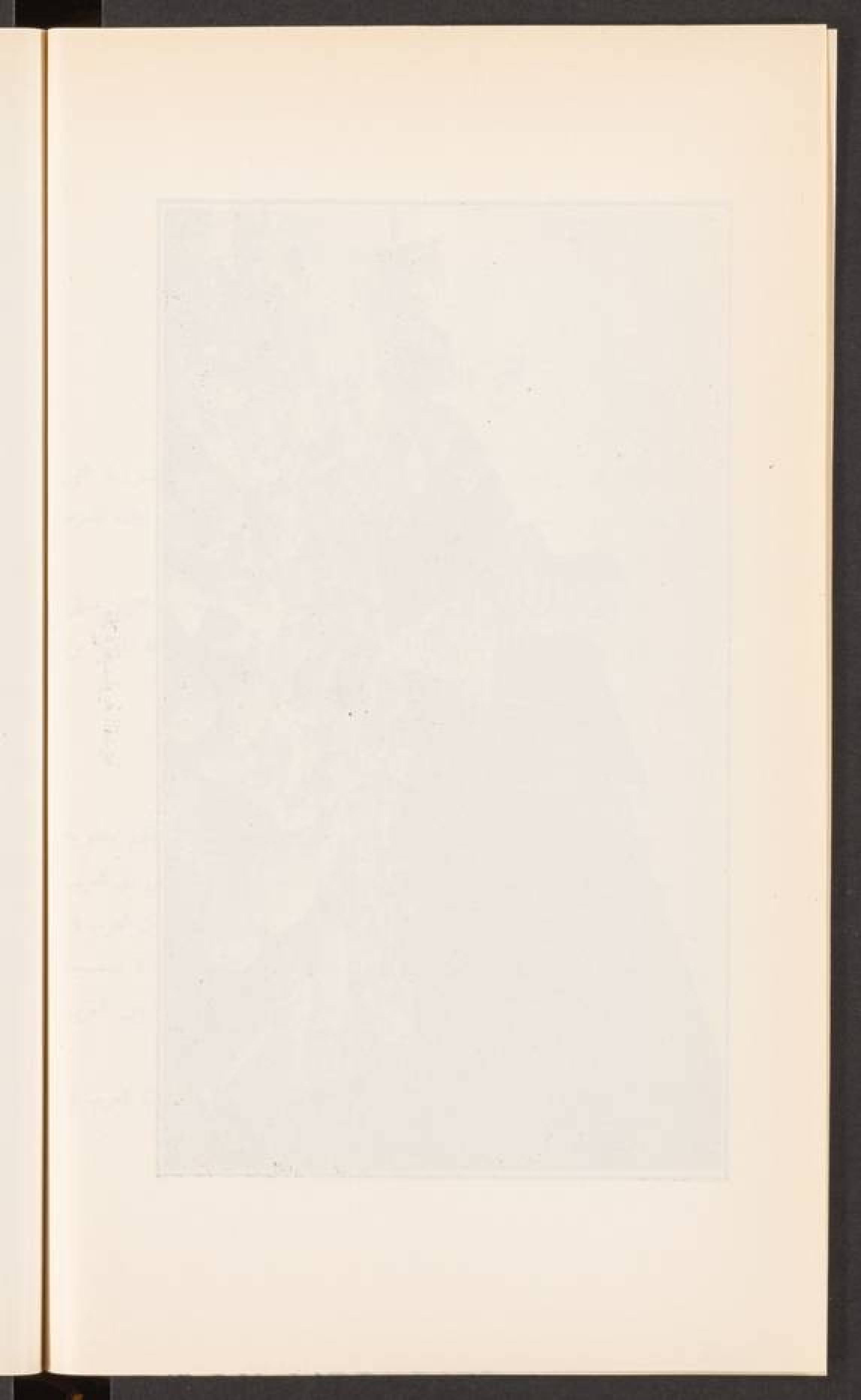
وفى بيت المقدس قسم عمر فلسطين الى ولايتين : فعين علقمة بن مجزز على القسم الجنوبى وقاعدته القدس ، وجعل الرملة عاصمة القسم الشمالى وعين له علقمة بن حكيم . ثم عاد من هنالك الى الحجاز ولم يزر المدن الاخرى

فتح قيسارية

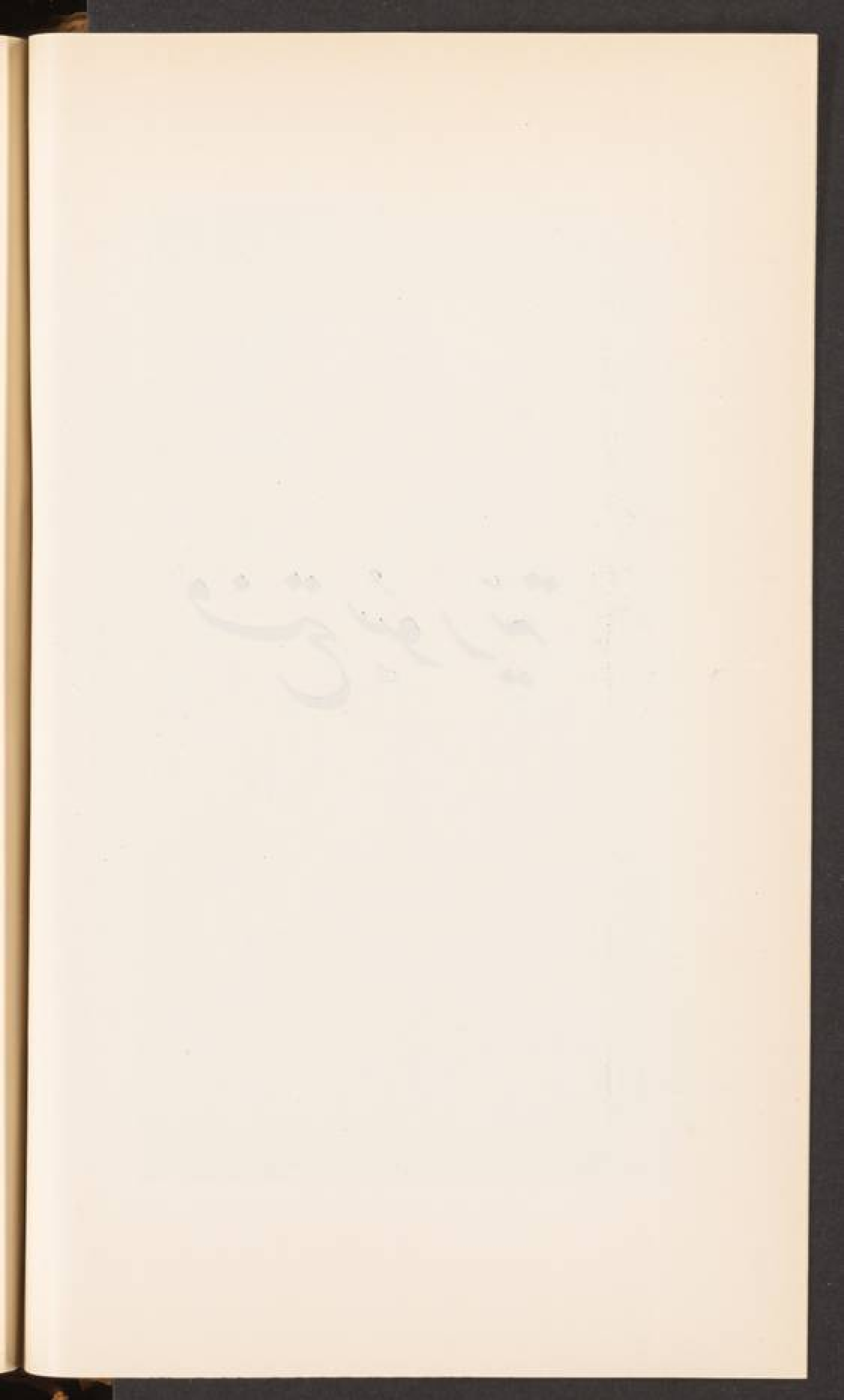
وبقيت قيسارية مع عسقلان فى جنوبى فلسطين تقاومان ، فاقام معاوية على حصار الاولى ولم تفتح الا فى سنة ٢٢ ويقال انها فتحت على يد يهودى دل العرب على نفق يؤدى الى داخلها فتسللوا منه واستولوا عليها . وبالغ المؤرخون العرب فى وصف حاميتها فقالوا انها كانت تتألف من ٢٨٠ الف جندى وهو مما لا يستسيغه العقل . والامر الذى لاريب فيه هو ان معارك ذات شأن دارت حولها بين العرب والروم

وفى سنة ٢٣ هـ فتحت مدينة عسقلان وكانت آخر مدينة استسلمت للعرب فى فلسطين وانتهت بفتحها الحرب فى هذا القطر ودخل فى حكم العرب

قلاع قيسارية القديمة



فتح سُورِيّة



سورية

معلومات جغرافية موجزة عنها

اطلقنا اسم سورية على البلاد الواقعة بين حوران جنوبا وجبل امانوس شمالا و بين البحر المتوسط غربا والصحراء شرقا وتشمل اراضى الجمهورية السورية وجمهورية لبنان وحكومة العلويين وحكومة جبل الدروز او البلاد الخاضعة فى هذه الايام للانتداب الفرنسوى

وتبلغ مساحة هذه الاراضى ١٥٠ الف كيلو متر مربع موزعة كما يأتى :

١٢٧،٠٠٠	ك . م . مربعا	مساحة اراضى الجمهورية السورية
١٠،٥٣٠	» » » » » »	اللبنانية
٦،٥٥٠	» » » » »	دولة العلويين
٦،٠٢٠	» » » » » »	جبل الدروز

وعاصمة الجمهورية السورية دمشق . وعاصمة الجمهورية اللبنانية بيروت وعاصمة دولة العلويين اللاذقية . وعاصمة جبل الدروز السويداء

و يبلغ عدد سكان هذه البلاد فى الوقت الحاضر ٠٥٦ر١٥٦ر٣ موزعة كما يأتى:

٤٦٠ر٧٥٤ر١ سكان الجمهورية السورية . ومليون سكان لبنان و٥٩٦ر٣٤١ سكان دولة العلويين و ٦٠ الف سكان جبل الدروز

ومن مدن الجمهورية السورية المشهورة : دمشق وحمص وحماه وحلب ودير الزور وانطاكية والمعرة و بيلان واسكندرونة

ومن مدن دولة العلويين : اللاذقية وجبلة و بانياس

ومن مدن لبنان : بيروت وطرابلس وصيدا وصور و بعلبك و زحلة

ومن مدن جبل الدروز : السويدا وصلخد وشهبا

١

فتح دمشق

لم يفل انكسار اليرموك من غرب الروم ، ولم يضعف همتهم ، فقد عكفوا على تنسيق جيشهم فى دمشق بعد رجوع فلوله ، ثم عززوه بالنجدات التى كانت تردهم بدون انقطاع من الشمال ، وكان الامبراطور نفسه يزجيها ويشرف على سوقها

وآنس الروم من انفسهم القوة واعتقدوا ان فى امكانهم صد المسلمين فغادرت قواهم دمشق ، فى اوائل شهر المحرم سنة ١٤ الى مرج الصفر لمهاجمة جيش ابى عبيدة ، وكان لايزال فيها ، ولعله اراد من اطالة الاقامة هنا الاطمئنان على جيش فلسطين او انجاده عند الحاجة

ويقول المؤرخون المسلمون : ان هركليوس قصد حمص بعد معركة اليرموك واقام فيها ، يحصنها ويعد المعدات للقاء العرب اذا جاءوها . كما ارسل قوات كبيرة الى دمشق لمقاتلتهم وربما كان يطمع بان يتاح له فى هذه المرحلة تعويض ماخسره فى المرحلة السابقة ، واستعادة نفوذه وكرامته وقد فقد جانبا منهما بتوالى الانكسار

وعملا باوامر الامبراطور وتعليماته ، زحفت قوات الروم لمنازلة ابى عبيدة فالتقى الفريقان فى مرج الصفر فدارت بينهما معركة شديدة استبسل الروم فيها كعادتهم واستنفدوا الجهد فى المقاومة والنضال فلم يغن ذلك عنهم شيئا ، بل صدوا وهزموا ، وقيل انه سقط من المسلمين فى يوم مرج الصفر من الجرحى ما لا يقل عن اربعة آلاف جريح ، عدا القتلى

وفتح النصر فى هذه المعركة طريق دمشق فى وجه المسلمين فزحفوا الى الغوطة ، من طريق المزة ، أى من طريق الغرب الجنوبى فاكتسحوها وتقدموا حتى بلغوا المدينة فضربوا نطاقا حولها وحاصروها واقاموا القوى حول خمسة من ابوابها وهى :

١ ـ الباب الشرقى ٢ ـ باب توما (فى الشرق الشمالى) ٣ ـ باب الفراديس « الشمالى » ٤ ـ باب الجابية (حوران) ٥ ـ الباب الصغير (الجنوبى)

وكانت دمشق ذات اسوار وابراج حصينة وفيها حامية مسلحة باجود السلاح وعدد من كبار القواد العسكريين وكانوا معتزمين الدفاع حتى النفس الاخير

العرب ومعدات الحصار

ولا بد لنا من القول ان العرب ما كانوا حتى ذلك الوقت يملكون المعدات الحربية اللازمة لدك الاسوار ، كالمنجنيقات ونيران النفط وكانت مستعملة فى الجيش الرومى ، نعم ان النبى استعمل المنجنيق للمرة الاولى فى حصار الطائف فضرب الاسوار بها الا انهم عدلوا عن استعمالها بعد ذلك كما يظهر . ولم يذكر رواة التاريخ ان المسلمين حملوا من ادوات الحرب التى كانت معروفة فى ذلك العهد الى الشام سوى السيوف والرماح والسهام والحراب وكانت كل عدتهم . وكما ضايقتهم الفيلة ـ وكان الجيش الفارسى يعتمد عليها كثيرا فى حروبه ، وهى تشبه الدبابات المستعملة فى جيوش هذا العصر وتقوم مقامها ـ فقد ضايقتهم الحصون التى شيدها الروم فى الشام وفلسطين ومصر وكيليكية لانهم ما اعتادوا منازلة الاسوار والوقوف امامها ، وكانت غير معروفة تقريبا فى داخل جزيرة العرب كما انهم ما كانوا يملكون الوسائل الحربية التى يتغلبون بها على الاسوار كالمنجنيقات وسواها من ادوات الجيش الرومى

كيف حاصر العرب دمشق

ويقول ابن عساكر ان ابا عبيدة نزل حول باب الجابية ، وان خالدا نزل حول الباب الشرقى ، وان ابا الدرداء كان ببرزة (اى انه كان قرب حى الاكراد الحالى من اعلا دمشق) وان الجند كان منتشرا حول ابوابها

خالد يغتنم الفرصة

واقام المسلمون حول دمشق نحو ستة اشهر (محرم - رجب) يرقبون سنوح الفرص للاستيلاء عليها ، بعد ماتبينوا انه ليس فى مقدورهم اقتحامها والتغلب على حاميتها ، وكانوا يرسلون العيون والجواسيس الى داخلها فتوافيهم باخبار الروم وحركاتهم وسكناتهم فلا يكاد يفوتهم من امر عدوهم شيء ، ومن يدرى فقد لايبعد ان يكون مثل ذلك للروم فى جيش العرب ، ينقلون اليهم اخبارهم وحوادثهم

وجاءت جواسيس العرب من اقصى دمشق تقول بانه ولد للبطريق قائد الحامية مولود ، وان الروم فى عيد وانهم اسرفوا على جارى عادتهم فى الاكل والشرب ، فادرك خالد انها فرصة ثمينة فاختار بضعة عشر رجلا من اصحابه المجربين الذين خبرهم فى اليمامة والعراق والشام ، وسار بهم الى الاسوار ، وكانت الخمرة قد لعبت برءوس حراسها لعبها برءوس ضباط الحامية ، فاختار مكانا عبر منه الخندق المملوء ماء ، بادوات جاء بها . ثم رموا بسلالم اعدوها من قبل الى احدى الشرفات ، البارزة من السور وتسلقوا عليها الواحد بعد الآخر ، حتى تكامل جمعهم ، والوقت سحر والروم نيام ، فوقف بعضهم لمراقبة الحوادث وانحدر الآخرون الى الباب الداخلى ففتحوه ، فدخل الجند المرابط خارجا وكبر ، وكبر الذين كانوا على السور ، اى قالوا : الله اكبر ، وكان التكبير - ولا يزال - شعار المسلمين ، يجهرون به فى المهمات والعظائم وبعض المواقف الدينية . وكان اول مافعلوه هو انهم قتلوا حراس الابواب . فاندفع المسلمون

الى داخلها فوقع الذعر والاضطراب وفر رجال الحامية لايلوون على شيء ، وكان خالد يتقدم من الباب الشرقي وابو عبيدة من باب الجابية وكلاهما يسير ليلتقي بصاحبه في وسط المدينة

عهد خالد

واسرع بعض اعيان دمشق الى خالد طائعين مستسلمين ، وصالحوه على الجزية والخضوع فكتب لهم العهد الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق اذ دخلها ، اعطاهم امانا على انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم ، لايهدم ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله ، وذمة رسول الله ، والخلفاء والمؤمنين لايعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية »

عهد ابى عبيدة

وكذلك صالح ابو عبيدة من في ناحيته من اعيان المدينة الذين جاءوا طائعين مستسلمين وكتبوا له العهد الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب لأبي عبيدة بن الجراح ، ممن اقام بدمشق وارضها ، وارض الشام من الاعاجم ، انك حين قدمت بلادنا سألناك الامان على انفسنا واهل ملتنا ، وانا اشترطنا لك ان لانحدث في مدينة دمشق ولا فيما حولها كنيسة ولا ديرا ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب من كنائسنا ولا شيئا منها مما كان في خطط المسلمين ولا نمنع كنائسنا من المسلمين ان ينزلوها في الليل والنهار ، وان نوسع ابوابها للمارة وابناء السبيل ، ولا نؤوى فيها ولا في منازلنا جاسوسا ولا نكتم على من غش المسلمين وعلى ان لانضرب بنواقيسنا الا ضربا خفيا في جوف كنائسنا ، ولا نظهر الصليب عليها ،

ولا اصواتنا فى صلاتنا ، وقراءتنا فى كنائسنا ، ولا نخرج صليبنا ولا كتابنا ولا نخرج باعوثا ولا شعانين ، ولا نرفع اصواتنا بموتانا ، ولا نظهر النيران معهم فى اسواق المسلمين ولا نجاورهم بالخنازير ولا نبيع الخمور ، ولا نظهر شركا فى نادى المسلمين ، ولا نرغب مسلما فى ديننا ، ولا ندعو اليه احدا

« وعلى ان لا نتخذ شيئا من الرقيق الذى جرت عليه سهام المسلمين ، ولا نمنع احدا من قرابتنا ان ارادوا الدخول فى الاسلام ، وان نلزم ديننا حيثما كنا ، ولا نتشبه بالمسلمين فى لبس قلنسوة ولا عمامة ، ولا نعلين ، ولا فرق شعر ، ولا فى مراكبهم ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نتسمى بأسمائهم وان نجز مقادم رءوسنا ونفرق نواصينا ، ونشد الزنانير على اوساطنا ، وان لا ننقش فى خواتيمنا بالعربية ولا نركب السروج ، ولا نتخذ شيئا من السلاح ، ولا نجعله فى بيوتنا ، ولا نتقلد السيوف

« وان نوقر المسلمين فى مجالسهم ونرشدهم الطريق ، ونقوم لهم من المجالس اذا ارادوها . ولا نطلع عليهم فى منازلهم ولا نعلم اولادنا القرآن . ولا نشارك احدا من المسلمين الا ان يكون للمسلم امر التجارة ، وان نضيف كل مسلم عابر سبيل من اوسط ما نجد ، ونطعمه فيها ثلاثة ايام

« وعلينا الا نشتم مسلما ومن ضرب مسلما فقد خلع عهده

« ضمنا ذلك على انفسنا وذرارينا وارواحنا ومساكننا ، وان نحن غيرنا او خالفنا عما اشترطنا لك وقبلنا الامان عليه فلا ذمة لنا ، وقد حل لك منا ما حل من اهل المعاندة والشقاق . على ذلك اعطينا الامان لأنفسنا واهل ملتنا فاقرونا فى بلادكم التى اورثكم الله اياها . شهد الله ما شرطنا لكم على انفسنا وكفى به شهيدا »

نظرة فى العهدين

والباحث فى العهدين : عهد خالد لأهل دمشق وهو قصير موجز ، وعهد اهل دمشق لأبى عبيدة وهو مطول مفصل ، يرى ان الاول ذو طرف واحد وان الثانى

ذو طرفين احدهما ابو عبيدة . وقد اعطى فيه الامان لأهل دمشق، والطرف الثانى هو هؤلاء وقد قبلوا الامان منه وتعهدوا له بالشروط التى نص عليها . والفرق بين الاثنين هو ان الاول لا يقيد السكان بشىء ازاء المسلمين ، اذا لم يقل انه يقيد هؤلاء ازاءهم اما الثانى فهو كما قلنا ذو طرفين اى مزدوج . ولا ريب ان ابا عبيدة اراد من الشروط التى فرضها عليهم وهى قاسية ضمان السلامة والامن لجيشه وكان يقاتل فى ارض لا تزال مملوءة باعدائه . فاراد بما قرره ونص عليه ان يلزم اهل البلاد الطاعة والسكينة والا عرضوا انفسهم للعقوبات الشديدة المنصوص عليها فى العهد . ولئن رآها بعض ابناء هذا الزمان قاسية وتمثلوا فيها روح الشدة ، فما كان ابناء ذلك الزمان يرونها كذلك . وربما كانت افضل واسهل شروط صالحت عليها دمشق فى تاريخها قبل الاسلام ، فقد اعتاد معظم غزاة ذلك العصر ، ان ينهبوا كل شىء ، ويقتلوا كل من وجدوه امامهم ، ولم يفعل المسلمون شيئا من ذلك ، وانما اشترطوا شروطا ، ارادوا منها ضمان السلامة لجيشهم كما قدمنا ، من دون ان يتقاضوا من السكان شيئا او ان يمدوا يدهم الى شىء ، او ان يقتلوا منهم احدا او يمسوهم بسوء ، وبعبارة اخرى ان شروطهم كانت منصبة على المستقبل لا على الماضى

ولا نشك فى ان هذه الشروط نفسها كانت افضل من الشروط التى اشترطها الفرس قبل ذلك على نصارى دمشق حينما جاءوها ، ويجب ان لاننسى ان شرائع الروم كانت تقضى باعتبار اهل البلاد المفتتحة اسرى وارقاء للغالب ان يتصرف فيهم كما يشاء من دون قيد ولا شرط ، وكان من عادتهم ان يستخدموهم فى الاعمال الشاقة الخاصة او فى الحروب . ولم يفعل المسلمون ذلك فى دمشق ، ولم يأخذوا منها شيئا ولم يتعرضوا لاهلها بسوء ولم يمسوهم بأذى

ولا بد لنا من القول ان المسلمين كانوا يسيرون على قاعدتين فى معاملة اهل البلاد التى يفتحونها :

فالبلاد التى تستسلم اليهم طوعا وتفتح اليهم ابوابها يتركونها وشأنها ويكتفون منها بالجزية فقط ، ولا يتعرضون لها بسوء

واما البلاد التي يفتحونها حربا فتعامل معاملة تختلف عن تلك فتباح لهم هي واموالها وكل مافيها باعتبار انها غنيمة حرب ، لم تؤخذ الا حربا و بعد نضال وكفاح

ومع ان نصف دمشق فتح صلحا (القسم الذى فتحه ابو عبيدة) ، ونصفها فتح عنوة (القسم الذى فتحه خالد) فقد امر الخليفة عمر بن الخطاب ، حينما رفع اليه الامر ، بان تعامل دمشق معاملة خاصة وان تعتبر كانها صلحا . ومعنى ذلك انه لايحق للمسلمين ان يمدوا ايديهم الى شيء منها ، وان يبقى لأهلها مالهم وحقوقهم و يظلوا فى بيوتهم واراضيهم

على هذا المنوال تم فتح مدينة دمشق الخالدة ، ومن ذلك اليوم (شهر رجب سنة ١٤ ﻫ) دخلت فى حوزة العرب والاسلام ، ولا تزال قاعدة من قواعدهم الكبرى وحصنا من حصونهم المنيعة ، وقد مرت بها نوازل ومصائب فى خلال هذه القرون الطويلة ، لم تزدها الا تمسكا بعروبتها واسلامها

ولا ريب ان الاستيلاء على دمشق معناه القضاء على النفوذ الرومى فى الشام الوسطى . وهكذا كانت مدن الشام وحصونه تتداعى وتسقط الواحدة بعد الاخرى بأيدى الفاتحين من العرب ، الذين رافق النصر اعلامهم ، وخفق على بنودهم ، فزادهم ثباتا وايمانا ، وزاد اعداءهم ضعفا وخبالا



جامع خالد بن الوليد بحمص وفى داخله ضريحه

٣

فتح حمص وحماة والمعرة

غادر الجيش الرومى دمشق على عجل ، وانسحب بأقصى ما يكون من السرعة تاركا الجانب الاكبر من معداته وعدده ، بين يدى الفاتحين ، فاستولوا على العاصمة الكبرى ، من دون عناء ، ولم يذكر المؤرخون ان معركة كبيرة دارت فى اسواقها او فى داخلها وانما كانت هنالك حوادث بسيطة لا شأن لها

وتفرق الروم الذين غادروا دمشق ، فاتجه جانب منهم الى الشمال سالكا طريق حمص ، واتجه الآخرون نحو الغرب سالكين طريق وادى بردى ـ البقاع ـ الساحل ـ وما كان فى استطاعتهم ان ينسحبوا فى غير هذين الاتجاهين لان طريق الجنوب والجنوب الغربى كانا بأيدى العرب ومثل ذلك كان الطريق الشرقى

تعليمات الخليفة الجديدة

واستقر ابو عبيدة فى دمشق بعد ما تسلمها وعكف على تنظيم شؤونها الداخلية فولى ادارتها يزيد بن ابى سفيان ، احد كبار قواده ، وجعله قائدا عاما لحاميتها ، وكتب الى الخليفة عمر يخبره بما تم وبما منحه الله من نصر ، ويسأله اصدار تعليمات جديدة فى الخطة التى يسير عليها فأمره بما يأتى :

١ ـ ان يمضى الى الشمال ويواصل فتح البلاد ومطاردة جيش الروم

٢ ـ ان يصرف جيش العراق الى العراق . وكانت معركة القادسية على وشك الوقوع وكان المسلمون يستعدون لهـا و يزجون القوات لمنازلة الفرس فى ميدانهـا وكان جيشهم فى اشـد الحاجة الى قوات الشام المرنة المدربة ، خصوصا والجيش الذى يراد اعادته ونعنى به الجيش الذى جاء مع خالد فى السنة الثالثة عشرة بأمر ابى بكر ، وقاتل فى اجنادين واليرموك ومرج الصفر ونال قسطا عظيما من فخر الفتوحات التى جرت ، كان من الابطال المجربين الذين ابلوا البـلاء الحسن فى كل معركة خاضوها وفى كل مهمة انتدبوا اليها

هذا مجمل ما كتب به عمر الى ابى عبيدة ، وهو يدل على اعتقاده ، بان شأن الروم قد ضعف بعـد الضربات التى انزلت بهم فى شتى الميادين ، وعلى انه لم يعد يحسب حساب قواهم الباقيـة ، فالجيش الذى اعد لهم كاف للقائهم ولولا ذلك لما امر باعادة جيش العراق و يؤلف نحو الربع من مجموع القوى العامة فى هذا الميدان . واذا قيل لنا ان هنالك نجدات كانت ترسـل الى ميدان الشام نجيب بان مركز القيادة العسكرية العليا فى المدينة عكف بعد اليرموك ـ وقد ارتاح الى نتائجها ، واعتقد بان الروم صائرون الى الزوال ـ على تجهيز القوى وارسالها الى ميدان العراق ، لاستئناف خطة الهجوم التى وقفت بعد انفصال خالد وسفره الى الشام وانجاز امر الفرس والقضاء على دولتهم

خالد يبقى فى الشام

وعمـلا بامر الخليفة اعـد جيش العراق معدات السفر واخـذ اهبته لاجتياز الصحراء ، ولـكن لا على المنوال القـديم بل على منوال آخر ، فقـد تبدل الحال فى خـلال الاشهر التى قضاها (صفر ـ رجب) ففتحت الاقطار التى اجتازها وتقلص النفوذ الرومى عنهـا واصبح فى امكانه ان يجوب بامان المنطقة الممتدة من الشام حتى

جنوبى العراق وكانت مما فتحه المسلمون واصبح فى عداد ممتلكاتهم

ورأى ابو عبيدة ان يستبقى خالدا الى جانبه ، لما خبره من مزاياه وعرفه من كفاءته ، فأبقاه بعد ما سير جيش العراق ، بقيادة هاشم بن عتبة بن ابى وقاص فوصل والمعركة دائرة فاشترك فيها وكان اشتراكه من عوامل النصر وكتب (ابو عبيدة) الى عمر يسأله ان يقر ما فعله ، لشدة حاجته الى خالد فهو من الرجال الذين لا يستغنى عنهم فلم يعارض

كيف فتحت حمص

ويرى بعض المؤرخين ان حمصا فتحت قبل دمشق ويقولون فى تعليل ذلك انه بينما كان المسلمون يحاصرون دمشق ـ وكانت لهم قوة على طريق حمص لقطع خط رجعة الروم المحصورين فى دمشق ومنعهم من الاتصال بالخارج يقودها ذو الكلاع ، وقد ارسلت طبقا لتعليمات عمر ، اقبلت خيل كثيرة للروم تريد دخول دمشق فصدمها المسلمون قرب دوما (مدينة صغيرة شمالى دمشق تبعد عنها ١١ كيلو مترا على طريق حمص) وقاتلوها وهزموها ولحقوا بها حتى حمص ، فاستسلم اليهم اهلها وانقادوا فصالحوهم

وقصد ابو عبيدة حمص بعد ما استقرت الامور فى دمشق وترك يزيد بن ابى سفيان على امارتها فدخلها سلما واقر الصلح الذى تم بين اهلها والمسلمين ، وتبعد حمص عن دمشق ١٦٢ كيلو مترا وهى فى شماليها ، ثم قصد حماة وتبعد عن حمص ٤٧ كيلومترا وهى الى شماليها ايضا فتلقاه اهلها مذعنين ، ثم قصد شيزر وهى فى شمالى حماة الغربى على ٢٤ كيلو مترا منها فى المنطقة الممتدة بينها وبين مصياف ، على طريق بانياس ـ اللاذقية الحالى ، وهى الآن قرية صغيرة بجانب قلعتها ، وكانت من جند حمص كما كانت من قلاع الدعوة الاسماعيلية ـ فخضعت له

ولم يمعن ابو عبيدة فى الزحف نحو الشمال الغربى لافتتاح المدن الواقعة فيه

وهى مصياف والمرقب وجبلة واللاذقيـة وكلها على ساحل الشام الشمالى ، بل ارتد الى الشمال وسار حتى مدينة المعرة (معرة النعمان) ولا تزال قائمة وهى فى شمالى حماة وتبعد عنها ٦١ كيلو مترا . وهى اول حدود مقاطعة حلب من ناحية الجنوب وتبعد عنها ٨٢ كيلو مترا بطريق السيارات اليوم . و بافتتاح المعرة أتم المسلمون فتح سورية الوسطى ولم يبق عليهم سوى شماليها ومدن الساحل وما كانوا يتوقعون ان يلقوا مقاومة فيها

٣

قنسرين وحلب

يظهر أن الروم حشدوا قوات عسكرية كبيرة فى قنسرين استعدادا لمعركة كبيرة قرروا خوضها مع العرب حينما يصلون الى هـذه الربوع ، وكانت قنسرين من قواعد الروم العسكرية الكبرى فى الشمال وقد تقدم وصفها ومكانها

وانفصل خالد عن ابى عبيدة فى حماة وسار على مقدمته الى قنسرين فالتقى فى الحاضر (جوار قنسرين) بجند كبير للروم بقيادة ميناس من كبار رجالهم العسكريين وكانوا يطمعون ان يصدوا المسلمين فى هـذا الميدان ، ويمنعونهـم من الاستيلاء على قنسرين لان الاستيلاء عليها معناه فتح طريق انطاكية وهى فى غربى حلب الشمالى وفتح المنطقة الشرقيـة الواسعة حولها (منطقة الفرات) والمنطقـة الغربية (ساحل سورية الشمالى) ويمتد من خليج اسكندرونة شمالا حتى طرابلس جنوبا

ودارت معـركة عنيفة بين الفريقين انتهت بانتصار المسلمين فاستولوا على الحـاضر وقنسرين وحلب وذلك سنة ١٧ وصالحتهم على مثـل صلح دمشق وحمص ودانت لهم قواعد الشمال الكبرى ، وصار فى استطاعتهم ان يتصلوا بجيشهم فى جنوبى العراق من هذه الناحية

٤

فتح ساحل الشام

اتجهت انظار قادة الجيش العربى بعد ما اتموا اخضاع المدن الداخلية الواقعة بين دمشق وحلب ــ والمسافة بينهما ٣٣٦ كيلو مترا وهى : دوما والقطيفة والنبك وحمص وحماة ومعرة النعمان ــ الى فتح ساحل الشام وهو الجزء المناوح لهـذا الخط و يمتد من خليج اسكندرونة شمالا حتى ميناء صور جنوبا اى حتى حدود منطقة فلسطين الحاضرة ويشمل الثغور الآتية : اللاذقية وطرابلس و بيروت وصيدا وصور

وسلك ابو عبيدة الطريق الرومى القديم الممتد بين حلب واللاذقية و يبلغ طوله ١٩٨ كيلو مترا فقصـد معرة مصرين ففتحها وهى على ١٠ كيلو مترات من شمالى مدينة ادلب ولا تزال قائمة كما فتح سرمين وهىقرية صغيرة من اعمال حلب و واصل التقـدم حتى بوقا (شرق مدينـة اللاذقية) وتعـد من ضاحيتها كما احتل جبلة و بانياس والخراب وطرطوس وهى فى جنوبى اللاذقية بينها و بين طرابلس الشام

و بينما كان ابو عبيدة وخالد يعملان فى الشمال على هذا المنوال كان يزيد بن ابى سفيان قائد حامية دمشق ، يعمل فى الساحـل اللبنانى فقـد جهز قوة من رجاله زحف بها الى بيروت وتقع غربى دمشق و بينهما ١٢٧ كيلو مترا فافتتحها ثم سار الى الجنوب سالـكا طريق الساحـل حتى بلغ صيدا و بينها و بين بيروت ٥٥ كيلو مترا فافتتحها ايضا واتصـل بقوات العرب بصور ، فتقلص بذلك ظل الروم عن فينيقية القديمة (صور وصيدا و بيروت) و بعـد ما اتم مهمته هنا عاد الى بيروت ومنها اتجه نحو الشمال سالـكا طريق الساحل فافتتحه وظل يتقدم حتى عرقا وهى شمالى طرابلس الشام وتبعد عنها نحو ٢٠ كيلو مترا فى طريق حمص واللاذقية ، فالسائر من طرابلس

الى حمص يظل سالكا طريق الساحل حتى عرقا ثم يتجه منها الى الشرق ، اما المسافر الى اللاذقية فيظل مواصلا السفر الى الشمال ، اى انها كانت مركز تقاطع بين طرابلس وحمص واللاذقية وقد خربت اليوم ، ويقال انها كانت عامرة زاهرة فى العهد القديم ، ولم يبق سوى اطلالها ، و بفتح عرقا اتصل الجيش العربى القادم من هذه الناحية بالقوات التى كانت تعمل فى الشمال ، فدان ساحل سورية كله من اللاذقية شمالا حتى قيسارية جنوبا للعرب

٥

فتح انطاكية

تعد انطاكية من مدن سورية الشمالية الكبرى اليوم وهى القاعدة الصيفية للواء اسكندرونة المستقل كما ان اسكندرونة قاعدته الشتوية . وهذا اللواء ملحق اسميا بالجمهورية السورية اما فعلا فهو مستقل عنها استقلالا تاما ويحكمه الفرنسويون حكما مباشرا

وقد كانت انطاكية فى العهدين اليونانى والرومى ذات شأن عظيم ، بناها سلوقس سنة ٣٠٠ ق . م فى سفح جبل سيلبيوس احياء لاسم ابيه انطيوخس ، فقصدها الناس من كل مكان وتديروها فنمت وازدهرت ، واتخذها السلوقيون عاصمة لدولتهم . ودخلت سنة ٦٤ ق . م فى حوزة الدولة الرومانية فتحها القائد بومبيوس الشهير حينما فتح سورية وجعلها قاعدة البلاد ، وزارها كثير من امبراطرة الروم وعظمائهم وكانت تعد من قواعدهم العسكرية الكبرى وكانت ملأى بالثكنات ودور الصناعات

وتقهقرت انطاكية فى اواخر العهد الرومى بسبب الاختلافات المحلية والمنازعات الدينية ولكثرة مهاجمة الفرس لها وفقدت رونقها ومقامها وقد حمل عليها ابو عبيدة بعد فتح حلب وقنسرين فاستولى عليها صلحا بعد حصار لم يدم طويلا

وتقع انطاكية فى شمالى حلب الغربى وتبعد عنها نحو ١١٢ كيلو مترا

افتتاح بغراس (بيلان)

مضيق بغراس او بيلان من المضايق الشهيرة فى شمالى سورية وقد مر به معظم الفاتحين فى طريقهم من الشمال الى الجنوب وبالعكس، ويبعد عن اسكندرونة نحو ١٣ كيلو مترا ، وعن انطاكية ٢٥ كيلو مترا ، وهو قائم بين جبل امانوس وجبل قزل طاغ (الجبل الاحمر) ، ويعد الجبل الاحمر (قزل طاغ) من سلسلة جبال امانوس ويحسبه آخرون مستقلا عنه

ولم يلق العرب مشقة فى احتلال هذا المضيق وهزموا القوات التى رابطت فيه وبذلك تم فتح سورية الشمالية كما نسميها اليوم ـ او منطقة حلب ، وتمتد من البحر الابيض غربا حتى نهر الفرات شرقا ومن المعرة جنوبا حتى جبل امانوس شمالا وهو الحد الفاصل بين سورية وبين مقاطعة كيليكية (تركيا) كما فتحت المناطق الاخرى بين دمشق وحلب والساحل ، فتقلص ظل الروم عن هذه المنطقة الواسعة ولا يقل طولها عن ٤٠٠ كيلو متر من الجنوب الى الشمال ، ولا يقل عرضها عن ٢٥٠ كيلو مترا من الفرات حتى البحر الابيض

مصير هركليوس

والذى عليه معظم المؤرخين من المسلمين ان هركليوس ، ظل يشرف على سير القتال فى ميدان الشام من الاول الى الآخر ويدير حركته ، فاقام فى حمص زمن اليرموك ، ثم انتقل الى انطاكية حينما عرف بقرب زحف المسلمين الى حمص ، فاقام فيها حتى بدأ هؤلاء الزحف الى قنسرين فغادرها الى اورفا (الرها) ومنها الى القسطنطينية وهنالك اصيب بخبل فى عقله ولم يعد يصلح لولاية الامر ، فزاد ذلك الروم وهنا على وهنهم واضطرابا على اضطرابهم ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة فى الشرق

٦

الروم يكرون على دمشق

عاد ابو عبيدة مع القسم الاكبر من جنده الى حمص بعد ما اتم فتح المنطقة الشمالية كلها فاتخذها قاعدة لجيشه بدلا من انطاكية لانها اقرب الى الحجاز والبادية من تلك ، ولانها واقعة فى منطقة عربية بعكس انطاكية و بلاد الشمال فهى متصلة ببلاد الروم (الاناضول) اتصالا وثيقا

ويقول المؤرخون الاسلاميون ، ان الروم جهزوا قوات عسكرية كبيرة فى سنة ١٧ لمهاجمة دمشق ، وعلم المسلمون بخبرها قبل ان تصل فسار ابو عبيدة وخالد بقواتهما فالتقوا بها فى مرج الروم ، وقد رجحنا ان يكون مرج الروم هذا هو سهل البقاع الواقع فى منتصف الطريق بين دمشق و بيروت وهو معروف اليوم ويتبع حكومة لبنان الحاضرة . ويبعد عن بيروت نحو ٤٠ كيلو مترا وعن دمشق ٧٨ كيلو مترا فاذا صح ذلك وصح ان الروم جاءوا بجيش كبير لغزو دمشق فلا بد ان يكونوا سلكوا احدى الطرق الآتية :

فاما ان يكونوا جاءوا من طريق الفرات

واما ان يكونوا جاءوا بحرا ونزلوا فى بيروت او فى ميناء آخر وكانوا يسيطرون على البحر

واما ان يكونوا قدموا من الشمال مكتسحين مدن السواحل

وعلى كل حال فان وصول غزو للروم الى قرب دمشق ، وبعد ما اتم المسلمون فتح بلاد الشمال وملكوا الدروب والقواعد واقاموا الحاميات والاجناد من الحوادث التى تستوقف النظر ، فهو وان لم ينتج نتيجة مادية ذات شأن وان انتهى بما انتهت

به سائر محاولاتهم فى هذا الميدان اى بالفشل والاخفاق فانه يدل على شدة عزيمتهم وعلى انهم استنفدوا الجهد فى النضال والدفاع

والذى نرجحه ان يكون هذا الجيش ـ اذا صح انه وصل وصح ان تكون مرج الروم هى سهل البقاع ـ قدم بطريق الساحل . ولا تزيد المسافة بينه وبين الساحل عن ٤٠ كيلو مترا كما قلنا ولا يصعب عليهم اجتيازها فى بلاد كانت حتى الامس القريب خاضعة لهم ، وبين شعب تربطهم به روابط عديدة ، سيما ولم يكن للعرب قوات كبيرة فى الساحل بل كانوا يكتفون من كل مدينة بالطاعة والامان وينشئون فيها حكومة من اهلها وما كانوا يقيمون حاميات الا فى المراكز الكبرى لحماية طرق المواصلات

كيف دارت المعركة

يقول المؤرخون ان جيش الروم كان بقيادة قائدين من مشاهير رجالهم العسكريين وهما تيدور وشنس ، وان ابا عبيدة وخالدا غادرا دمشق الى لقائهما وتركا فيها يزيد بن ابى سفيان لقيادة الحامية

ويقدر المؤرخون جيش تيدور بثمانين الفا ولا يخلو ذلك من مبالغة ظاهرة وما نظن ان جيش العرب كان يزيد عن بضعة عشر الفا

مناورة خطيرة للروم

وحاول الروم القيام فى هذا الميدان بمناورة عسكرية خطيرة احبطها ذكاء خالد وبعد نظره ، فانقلبت وبالا على الروم وادت الى هزيمتهم وعجلت فى القضاء عليهم

وبيان ماحدث ان قائدى الروم اتفقا بعد ما التقيا بالجيش الاسلامى ، ان يقسما قواتهما الى قسمين يقف احدهما امام العرب وينازلهم ، ويقصد الآخر دمشق سرا ، ويهاجمها على حين غرة فيفتحها وبعد ما يجهز على حاميتها ، يعود فيأخذه من الوراء ، ونحن فى غنى عن القول ان هذه المناورة تحتاج الى تكتم شديد ، فلو اطلع المسلمون عليها لحبطت وانتجت خلاف مايرجى منها ، واذا صح

مايقول المؤرخون فيكون الروم قد اتموا تطبيق الجزء الاول منها باحكام ومهارة فقد سار تيدور الى دمشق تحت جنح الظلام ومن دون ان يشعر به احد

ولاحظ قادة الجيش العربى عند ماطلعت الشمس واشرقت تبدلا فى وضع جيش عدوهم ، وادركوا ان هنالك سرا ، فتجسسوا فعلموا ان تيدور قصد دمشق لمهاجمتها وتمزيق حاميتها ، فلم يتردد خالد فى اقتفاء اثره تاركا قوة كبيرة مع ابى عبيدة تكفى لصد الروم الواقفين امامه ومناجزتهم

وسار خالد مسرعا حتى بلغ دمشق ولا تزيد المسافة بينها وبين المرج على ٧٨ كيلو مترا ، وهى فى شرقيه وكانت المعركة دائرة حولها مع يزيد بن ابى سفيان ، والظاهر ان الروم لم يأخذوه على غرة ، فتلقاهم واشتبك معهم ، ولما جاء خالد من ورائهم انهزموا وتشتتوا ، ولولا يقظة رجال الحامية لدخلوا دمشق ، وكانوا يعولون على تأييد سكانها ومساعدتهم . وهكذا سقطوا فى الفخ الذى نصبوه والحرب خدعة كما يقولون

وعاد يزيد الى مكانه فى دمشق بعد المعركة واسرع خالد الى المرج لمساعدة ابى عبيدة ، فوصل والمعركة دائرة فاشترك فيها وتم لهم النصر وفشلت حملة الروم كما فشلت خططهم وتدابيرهم

فتح كيليكية

كيليكية

معلومات جغرافية موجزة عنها

كيليكية احدى الولايات التركية الجنوبية تقع فى السهل الفسيح القائم بين جبال امانوس (جبل اللكام) وجبال طوروس وتحدها من الشرق جبال امانوس كما تحدها جبال طوروس من الغرب وانتى طوروس من الشمال والبحر المتوسط من الجنوب

ومن اشهر مدنها اطنه (آذنة) وطرسوس ومرسين و بياس ، وسيس ومسيس (مصيصة) وحاجين واياس

وسكانها من العرب والترك فى الوقت الحاضر ، واللغة المنتشرة فيها هى التركية وسكانها العرب ممنوعون من التخاطب بلغتهم

١

كيليكية فى التاريخ

خضعت كيليكية للامبراطورية الرومية على يد القائد الرومى بومبيوس الشهير انتزعها من يد السلوقيين وكان سكانها من اليونانيين وهم العنصر الغالب ومن الفرس والكلدان والاشوريين.

وانضمت الى القسطنطينية حينما حصل الانقسام فى الامبراطورية الرومية وخضعت لها ، وظلت على ذلك حتى جاء العرب سنة ٢١ للهجرة فهاجموها واستولوا عليها صلحا

وقد عرفت بلاد كيليكية بانها اقليم زراعى خصب كثير الغلات ، ومدينة آدنة عاصمتها راكبة على نهر سيحان وعليه جسر رومانى قديم يصل بين جزئيها

٢

امانوس وطوروس

جبل امانوس Amanus ويسميه جغرافيو العرب جبل اللكام ويسميه الترك كاور طاغى (جبل الكفرة) هو الحد الفاصل بين سورية وكيليكية فى العهد الحاضر ، فالقسم الواقع جنوبه للشام والواقع شماله للترك

ويمر خط الحدود فى وسط هذه الجبال وتنفصل جبال مرعش وسيس من سلسلة طوروس بوادى نهر جيحان وتتجه بخط مستقيم الى الجنوب حتى مضيق بيلان ويفصلها عن قزيل طاغ الممتد شمالى انطاكية وغربيها

وطول هذه السلسلة نحو ١٠٠ كيلو متر وعرضها ٧٠ كيلو مترا وفيها اودية ووهاد ومنحدرات ونجود واطواد وقمم ومضايق وثنايا ذات شعاب ومسالك دعاها العرب بالدربندات واعظمها شأنا مضيق بيلان فى الجنوب ومضيق دكر من درة فى الوسط ومضيق آصلان بوغاز فى الشمال

واعلى قمة فى هذا الجبل قمة آق قيا (الصخرة البيضاء) وارتفاعها ٢٥٠٠ متر وموغر او مغير وارتفاعها ٢٢٦٧ مترا والما داغ وارتفاعها ١٨٣٥ مترا

وكان فيه قلاع وابراج دثرت الآن واعظمها شأنا قلعة حجر شعلان وقلعة المركز قرب اسكندرونة وقلعة در بساك وقلعة بغراس وغيرها

اما سلسلة جبال طوروس فهى اعظم شأنا من امانوس واوسع رقعة واكثر ارتفاعا وهى تشرف على مدينة آذنة نفسها ويدخل اليها من مضيق يسمونه اليوم « كولك بوغاز » فى جبل بلغار طاغ وكانوا يسمونه Pylls cilicienne ويبلغ ارتفاع اعلى قممه نحو ٢٥٥٠ مترا

وكان العرب يسمون كيليكية بلاد الثغور ، والثغر عندهم كل موضع يكون فى وجه العدو . وكانت ثغور بلاد الشام اذنة وطرسوس والمصيصه (مسيس) ومن انهار كيليكية المشهورة جيحان يخرج من مدينة البستان و يمر بمرعش ثم يصب فى البحر قرب المصيصة ونهر سيحان و ينبع من اعالى نجود ولاية سيواس و يسير محاذيا السفح الشرقى لجبال اتى طوروس مارا بمدينة اذنة الى ان يصب فى جنوبى طرسوس



العرب فى كيليكية

اجلى هركليوس سكان جبل امانوس حينما جلا عن سورية واخذهم معه لئلا يسير العرب فى عمارة بين انطاكية وبلاد الروم ، وخرب الحصون فلا يلجأ احد اليها . وغايته من ذلك ان يعرقل حركات العرب فلا يمعنوا فى مطاردته واللحاق به

واذا صح ما رواه الواقدى فيكون ابو عبيدة اول من جهز القوى لفتح امانوس وكيليكية فقد روى انه بعث قوة بقيادة ميسرة بن مسروق العبسى سارت من حلب بطريق نهر الساجور (شرقى شمالى حلب وبين منبج وجرابلس) وتبعد عن حلب نحو ٩٠ كيلومترا حتى عمورية او المعمورة كما يسمونها اليوم وهى مدينة صغيرة على طريق سكة الحديد بين حلب واذنه واول ما يبلغه القادم من سورية الى تركيا بعد ما يجتاز امانوس ، فقاتلت الروم وانتصرت عليهم ، ولم تطل المكث هنالك ، بل عادت الى مقرها فتوقفت اعمال الفتح فى هذه المنطقة ثم استؤنفت بعد فتح فلسطين فقد هاجم هاشم بن عتبة كيليكية سنة ٢١ ففتحها واخضعها صلحا

٤

الروم يغزون الشام

ولا بد لنا من الاشارة الى ما رواه المؤرخون عن الحملة الكبرى التى جهزها الروم خلال السنة السابعة عشرة فى اورفا (الرها) وسيروها الى حمص بطريق البادية والفرات لمحاربة العرب واخراجهم من البلاد

وعرف ذلك قادة الجيش الاسلامى ، وكان لهم فى كل بلد عيون وجواسيس يوافونهم بالاخبار ، وكانوا يشترطون على اهل كل مدينة من سكان الحدود حين عقد الصلح معهم ان لا يكتموا عنهم خبرا من اخبار عدوهم ، والقصد من ذلك الا يؤخذوا على غرة ، وان لايصيب عدوهم منهم فرصة

وكتب ابو عبيدة ، الى عمر بن الخطاب يخبره بتأهب الروم ويقول انهم سيسيرون اليهم بقوات كبيرة ، فأصدر امرا الى سعد بن ابى وقاص (قائد جيش العراق) بان ينجدهم بقسم من القوات المرابطة على الفرات فأرسل قوة بقيادة القعقاع بن عمرو عددها ٤ آلاف وضم ابو عبيدة اليه مسالحه (قواته المسلحة) فجاءه خالد بن الوليد من قنسرين وجاءته قوة من دمشق والمناطق الاخرى ، فاجتمعت فى حمص فبرز بهـا الى خارج السور واقام ينتظر الروم ، بعد ما عبأ جيشه تعبئة عسكرية مناسبة . فوصلت حملتهم ، وكان العرب على اتم استعداد للقائها فاقتتلوا قتالا شديدا وكانت الهزيمة لهؤلاء فسلكوا طريق الصحراء عائدين من حيث اتوا ، فلحقت بهم حاميات العرب وقواهم المنبثة هنا وهنالك وانزلت بهم خسارة كبيرة

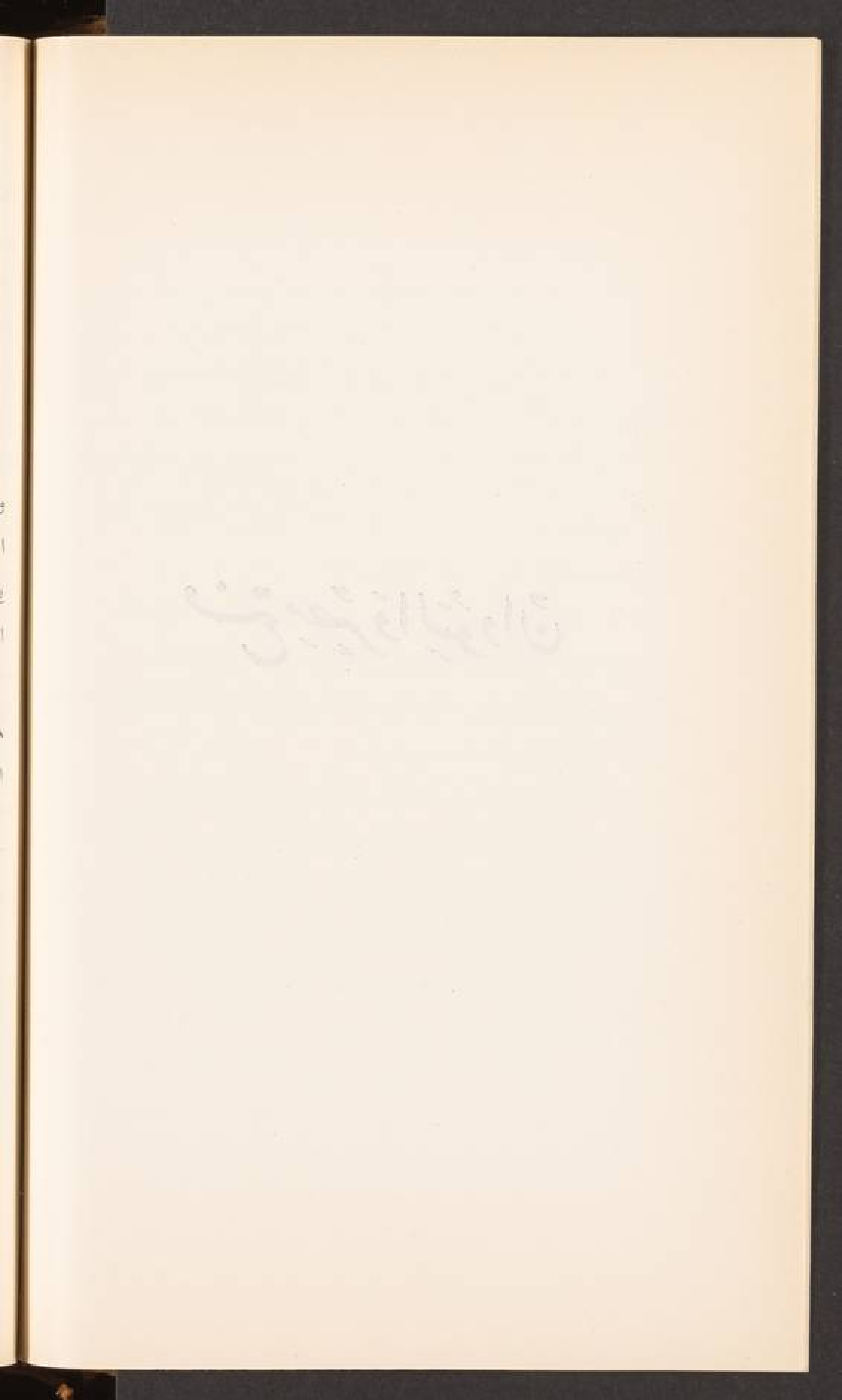
ويقول ابن خلدون ان عمر غادر المدينة بالذات الى الجابية لانجاد ابى عبيدة

واغاثته فوصل بعد المعركة ووصلت نجدات العراق متأخرة اى بعد المعركة بثلاثة ايام

وعلم عمر ان قبيلة اياد العربية جلت الى بلاد الروم مع هركليوس فكتب اليه يقول له : بلغنى ان حيا من احياء العرب تركوا دارنا وانوا دارك فوالله لتخرجنهم او لنخرجن النصارى اليك » فاخرجهم فعادوا الى بلاد العرب

وتم فى تلك الاثناء فتح مدن الجزيرة كلها واتصل الشام بالعراق والحجاز وتوحدت هذه الاقطار الثلاثة مع الجزيرة تحت راية الاسلام واصبحت حدود الدولة الجديدة تمتد من المدينة حتى جنوب سلسلة جبال طوروس شمالا وارمينية شرقا . وفتحت مصر وبرقة وطرابلس الغرب بعد ذلك

فتح مصر والسودان



مصر

معلومات جغرافية موجزة عنها

تبلغ مساحة مملكة مصر السطحية فى الوقت الحاضر ٩٤٩٣٠٠ كيلو متر مربع وحدودها تقريبا هى نفس الحدود التى كانت لها حين الفتح الاسلامى ، ويحدها من الجنوب السودان ، ومن الغرب السلوم وصحراء برقة ، ومن الشرق البحر الاحمر وخط يصل بين غربى العقبة ورفح وصحراء سينا والحجاز ومن الشمال البحر الابيض المتوسط

وعدد سكانها بموجب احصاء سنة ١٩٢٧ الرسمى ١٤١٨٦٤٧١ منهم ٨٥٤٧٧٨ قبطيا و ٥٩٥٨١ يهوديا و ٤٧٤٨١ بروتستانتيا و ١٤٤١٦ مسيحيا من المذاهب الاخرى و ١١٢ الف اجنبي والباقون من المسلمين

١

عمر بن الخطاب والشورى

استعصت قيسارية على العرب دون مراكز الروم وحصونهم فى فلسطين وكان يقود حاميتها تيدور نجل الامبراطور هركليوس ، ويقود جيش المسلمين معاوية بن ابى سفيان ، فرأى قادة الجيش الاسلامى ان يشددوا فى الحصار عليها ويضايقوها ولا سيما بعد ما استسلمت القدس على يد الخليفة عمر بن الخطاب نفسه ، سلمه اياها البطريرك (صفرونيوس) واصبح جيشها بدون عمل يعمله ، وقصد عمرو بن العاص بجيشه قيسارية فنزل حولها واشترك فى الحصار ، وكانت لعمرو القيادة العليا فى جند فلسطين

وعاد الخليفة بعد فتح بيت المقدس الى المدينة حاضرة الاسلام الكبرى ، واقام فيها يشرف على حركة القتال فى الميدانين : ميدان الشام وميدان العراق – وكان شمالى سورية لم يفتح بعد ، وكان الفرس لايزالون يناضلون فى المناطق الجبلية وفى الاهواز – ويرسل القوى والامداد ويصدر التعليمات والاوامر الى امرائه وقواده بالخطط التى يسيرون عليها . وكان من عادتهم ان يرجعوا الى المدينة فى الشؤون الخطيرة ، فلا يبتون فيها الا بأمر الخليفة ، وكان يتقلد الرئاسة العليا للجيش بحكم منصبه ، ويضع الخطط العسكرية الرئيسية بنفسه ، ويعهد الى القواد بتنفيذها تاركا لهم التفاصيل . وكان الى جانب ذلك يشرف على ادارة بلاد العرب الداخلية ويطلع على كل شىء ويعنى بكل شىء

ولما تم فتح الشام من شمالى حلب حتى رفح (اول حدود مصر الشرقية فى الوقت الحاضر وفى العهد الرومى ايضا) ولم تبق سوى قيسارية وحدها تقاوم وتصادم

قصد الخليفة الشام ثانية ليرتب امورها ، وينظم شؤونها ويعين الحكام والولاة وينظر فيما يجب اجراؤه ، وصحبه فى رحلته هذه عدد من الانصار والمهاجرين فسار يطوى المفاوز والقفار حتى اذا بلغ سرغا (هى نفس محطة المدورة فى الوقت الحاضر وهى آخر حدود الحجاز واول حدود سورية) جاءته الاخبار بان مرض الطاعون منتشر فى الشام

عمر يتردد

وتردد عمر فى الامر أيدخل البلاد والطاعون يفتك بسكانها فيعرض نفسه ومن معه للخطر من دون موجب ولا سبب ؟ ام يرجع من حيث اتى ويقيم فى المدينة حتى يزول الوباء فيعود اليها ثانية ويقضى حاجته ؟ وما ذا يقول الناس عنه اذا عاد ولم يدخل ؟ وماذا يكون أثر ذلك فى نفوسهم ؟ وماذا يقولون ايضا اذا دخل وخاطر بنفسه ؟ كل هذه الاسئلة جالت فى مخيلته وهو يدرس الموقف ويفكر فى القرار الذى يقرره

وعول اخيرا على الاستشارة وقرر ان يسأل الذين معه رأيهم فيما يجب عمله ، وكان محبا للشورى ميالا لها ، فقال لابن عباس ادع الى المهاجرين الاولين ، فلما اجتمعوا اليه بسط الامر على مسامعهم وسألهم رأيهم فى الخطة التى يسير عليها وهل يعود الى المدينة ام يمضى فى طريقه الى الشام

المهاجرون يختلفون

واختلف المهاجرون فيما بينهم ولم يتفقوا على رأى يأخذ به ويعول عليه فقال له بعضهم لقد خرجت تريد وجه الله وما عنده ولا نرى ان يعيدك عنه بلاء

وقال فريق انه لبلاء وفناء لانرى ان تقدم عليه

واقترح فريق اقتراحات اخرى لم ترقه فقال لهم قوموا عنى . . .

هيئة شورى الانصار

وعجز شيوخ المهاجرين عن الاتفاق على رأى معين فلم يشأ الخليفة ان يبت فى الامر وحده ، وان يستأثر به وكانت له الكلمة العليا ، فأمر ابن عباس ان يدعو له كبار الانصار وكانوا معه فى الركب فوقعوا فيما وقع فيه زملاؤهم ولم يجمعوا على رأى من الآراء فقال فريق منهم بوجوب الدخول والاستسلام الى قضاء الله وتلقيه بالصبر . وعارضهم فريق آخر قال بوجوب الحذر والاحتياط وانه يجب على المرء ان لا يعرض حياته للخطر ، وطالت مناقشتهم ولم يصلوا الى رأى حاسم فامر ابن عباس ان يخرجهم من حضرته

هيئة شورى مهاجرة الفتح

وكان فى الركب فريق من كبار قريش اسلموا بعد فتح مكة ، وكانوا يسمونهم مهاجرة الفتح من قريش ، فرأى ان يستشيرهم ويقف على رأيهم ، فأمر ابن عباس ان يدعوهم اليه فلما دخلوا بسط الامر عليهم وسألهم ماذا يفعل فأشاروا عليه بأن يعود ولا يعرض نفسه ومن معه لخطر الوباء واصدروا ذلك بالاتفاق فلم يشذ منهم احد . فرأى الخليفة ان يأخذ به وينفذه لانه ادرك انه الاصلح والافضل والاكثر انطباقا على العقل والمنطق

عمر يرجع الى المدينة

وامر الخليفة ابن عباس ان ينادى بالناس بان يتأهبوا للرحيل وقال انه اعتزم الرجوع فى الغداة فلا يصبح احد الا وقد اعد عدته وهيأ راحلته

وصلى المسلمون صلاة الصبح فى الغد واجتمعوا حول الخليفة ينتظرون امره

بالرحيل ليرحلوا ، وركوبه ليركبوا ، فقال لهم ايها الناس انى راجع فارجعوا

وعارض ابو عبيدة بن الجراح فى الرجوع والظاهر انه وصل مساء تلك الليلة من الشام لاستقباله والدخول معه حسب عادة القواد فى كل زمان ، وقال له افرارا من قضاء الله ؟

فرد عليه عمر قائلا :

فرارا من قدر الله الى قدر الله ، ثم اتبع ذلك قائلا :

ارأيت لو ان رجلا هبط واديا له عدوتان احداهما خصبة والاخرى جدبة اليس يرعى من يرعى الخصبة بقدر الله ويرعى من يرعى الجدبة بقدر الله

واراد الخليفة ان يعتب عليه فقال :

لو غيرك يقول هذا ياأبا عبيدة ؟ !

وسكت هذا ولم يعد الى الكلام فأخذه الخليفة وانتحى به مكانا عن الناس

الرأى الحاسم

وبينما الخليفة وابو عبيدة منتحيان جاء عبد الرحمن بن عوف وهو من اقطاب الصحابة ومن العشرة المبشرين بالجنة فسأل عن الخبر وكان غائبا عن استشارات امس فلم يحضرها ، فذكروا له الامر فقال ان عندى الخبر اليقين ، فدعاه الخليفة الى اعلان ما يعرفه بقوله له انت عندنا مصدق فقال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه واذا وقع وانتم به فلا تخرجوا فرارا منه لايخرجنكم الا ذلك

فقال الحمد لله على ذلك . ثم امرهم بالانصراف فانصرف ومن معه الى المدينة ، وعاد ابو عبيدة الى مقره بالشام ، وكان من جملة الذين استشهدوا بالطاعون فقد هلك به ودفن فى غور الاردن وله مقام معروف يزار ويقصد ، وقد اضيف الغور اليه ، فاسمه الآن غور ابى عبيدة

٢

هيئات الشورى فى الدولة الاسلامية

دل حادث الطاعون ، على رسوخ مبادئ الشورى فى نفس عمر ، وعلى انه متشرب بالروح الاسلامية الصحيحة ، كما دل على انه – وهو المشهور بالشدة والغلظة – ما كان يمضى فى أمر من الامور ولو كان عاديا من دون ان يعقد اجتماعات ، ويستشير استشارات

لقد كان فى استطاعته ، بما له من سلطان ونفوذ ، ان يمضى فى طريقه ، الى الشام لو اراد ، وما نظن ان احدا منهم كان يعترضه او ينكر عليه تصرفه ، كما كان فى استطاعته ان يعود بهم الى المدينة وهو ما حصل فعلا ، من دون ان يسأل احدا رأيه ، او يستشير هيئة من الهيئات ولكنه ابى ان يفعل ذلك من عند نفسه ، او ان يستأثر بالامر دون الذين معه ، وكان يعرف انه فى اعماله وتصرفاته ، يشرع للمسلمين ويضع تقاليد الدولة الجديدة ، وكانت تنمو وتعظم كل يوم بمن ينضم اليها من شعوب وجماعات ، اقبلت على تأييدها لما رأته فى رجالها وممثليها من حب العدل المطلق المجرد ، والتمسك به والتواصى باقامته

وهنالك ظاهرة أخرى فى استشارة عمر يجب ان يشار اليها ، وينوه بخطورة شأنها ، فقد بدأ كما رأيت بالمهاجرين من قريش وهم السابقون الاولون فى الاسلام وهم الذين قام على سواعدهم واكتافهم ، فلما عجزوا عن ابداء رأى حاسم ، دعا بأكابر الانصار ويؤلفون الهيئة الثانية بعد المهاجرين الاولين ، ويأتون بعدهم فى المرتبة من حيث ترتيب الدرجات الاسلامية ، لانهم اسلموا بعدهم ولما عجزوا عن ابداء رأى يسترشد به دعا مهاجرة الفتح من قريش ،

وكانوا يؤلفون المرتبة الثالثة فى ترتيب الدرجات الاسلامية ، لانهم اسلموا بعد الانصار فكان رأيهم قاطعا فأخذ به . وهكذا اثبت انه يراعى الدرجات فى استشاراته مبتدئا بالمهاجرين الاولين فالانصار فمهاجرة الفتح من قريش والمقصود بهم هنا كبار مكة الذين اسلموا بعد فتح مدينتهم ، وقد اشتركت قريش فى خدمة الاسلام اشتراكا فعليا بعد الفتح واندفعت فى تأييده ، لانها ادركت ان عزها فى عزه وعرفت انه ماقام الا لتعزيز شأن العرب ورفع مقامهم وتحرير اقطارهم واقصاء كل نفوذ اجنبى عن بلادهم ، وجعلهم سادة الشرق والغرب وخلفاء الارض

ومع ان رأى هؤلاء استقر على وجوب الرجوع ، وعدم دخول الشام ، وهو مايقضى به المنطق السليم ، ويوجبه الحذر والاحتياط ، وقد أخذ به عمر الا انه لم يتردد عن الوقوف لسماع رأى عبد الرحمن بن عوف حينما قال له ان عنده الخبر اليقين ، وقد جاء خبره مطابقا لما أشار به المهاجرة ، فمضى عمر فى تنفيذه وعاد الى المدينة يستند الى « سابقة » صحيحة والى رأى المهاجرة وكانوا اقطاب قريش وذوى الرأى الراجح فيها

٣

عمر فى الجابية

لم يطل عمر الاقامة فى حاضرته ، الا ريثما تقلص ظل الطاعون ، فقصد الجابية ولا بد لنا من القول ان الطاعون – ويسمونه طاعون عمواس (نسبة الى قرية قرب الرملة فى فلسطين اندثرت الآن ، ويظهر انه اول ما ظهر فيها [1]) فتك بالناس فتكا ذريعا ، فهلك ابو عبيدة ويزيد بن ابى سفيان ومعاذ بن جبل وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وعتبة بن سهيل وكانت نكبة عظيمة نكب بها المسلمون . وقد خفف عنهم وقعه ، نصيحة عمرو بن العاص ، وحل محل ابى عبيدة فى القيادة العامة فأشار عليهم ان يتفرقوا ويلجأوا الى الجبال لاتقاء الطاعون وقال لهم :

« أيها الناس

« ان هذا الوجع اذا وقع ، فانما يشتعل اشتعال النار فتجنبوا منه فى الجبال »

---

(١) لقد كنت فى فلسطين ايام انعقاد المؤتمر الاسلامى ، وقد مررنا بقرية ونحن ذاهبون الى وادى حنين وقد اخبرت انها عمواس التى ظهر فيها ذلك الطاعون اول ظهوره

ولعمواس هذه ذكر فى الانجيل ، اذ كان جماعة من اهلها يتحدثون بشأن المسيح وقتل اليهود له صبيحة الليلة التى يقولون بحصول ذلك فيها فمشى المسيح يتحدث معهم ومال معهم الى قريتهم وهناك اظهر نفسه لهم وعرفوه

عبد الوهاب النجار

فأجابوه الى طلبه وخرج وخرجوا معه ، فتقلص ظل الطاعون وماتت جراثيمه وانطفأ أثره (١) ، وبلغ ذلك الخليفة فجاءهم ينظم شؤونهم ، ويرتب امورهم ، ويولى عليهم الامراء والقادة ، بعد ان هلك منهم من هلك فى الطاعون والحروب وفقد من فقد

وفى خلال هذه الرحلة اتصل عمرو بن العاص بعمر بن الخطاب وعرض عليه مشروع فتح مصر فأقره مبدئيا وامره بتنفيذه واشترط عليه شروطا سيأتى بيانها

---

(١) من المعقول المقبول ان الانهار والعيون فى المدن والقرى قد تلوثت بجراثيم الوباء فاستعمالها والسقيا منها وهى بحالها زائدة فى الوباء منمية لجراثيمه فاذا صعدوا فى الجبال وهم على حال سلامة وجدوا عيونا ومنابع طاهرة غير ملوثة فتكون لهم السلامة

٤

مشروع فتح مصر

كان عمرو بن العاص يتولى القيادة العامة لجيش العرب فى الشام حينما بلغ عمر بن الخطاب الجابية فى المرة الثانية ، وقد استقبله بهذه الصفة ودرس معه مشروع اعادة تنظيم بلاد الشام اداريا وعسكريا وماليا

واقترح عمرو على عمر فى اثناء اجتماعاتهما المتكررة ان يسمح له بان يقود جيشا يفتح به مصر ، وكان قد زارها من قبل وعرف عظمتها وشاهد عمرانها ووفرة ثروتها وغناها ، وقال له ليس فى البلاد ما هو اقل منها قوة ولا اعظم منها ثروة وغنى و يعود فتحها على المسلمين بالخير العميم ، والنعم الوافرة وتكون قوة عظيمة لهم اذا ملكوها ـ كما ان قعودهم عن الزحف عليها قد يكون وبالا عليهم فهم لا يأمنون ، ان يجهز اريطبون قائد الروم فى اجنادين (وكان قد انسحب الى مصر قبل تسليم القدس) قوة كبيرة فى مصر يغير بها على الشام فيكون عاملا فى انتزاعها منهم فيتعبهم و يضايقهم

ولم يبت الخليفة فى المشروع لخطورة شأنه ، بل آثر التريث والدرس والبحث ـ وخاف من فتح ميدان جديد للقتال ، وكان الروم لايزالون على حدود سورية الشمالية والفرس لا يزالون يكافحون فى بلاد ايران ، ففتح ميدان جديد قد يؤدى الى اضعاف قوى العرب و زيادة متاعبهم واعبائهم العسكرية وما كان يميل بطبيعته الى المجازفات والمخاطر ، فاعاد عمرو عليه مقالته ، وا كد له ان فتح مصر لايحتاج الى اكثر من اربعة آلاف جندى لايضعف سفرهم الى مصر جيش الشام ، ولا سيما وفتحها ضرورة

عسكرية لا بد منها خوفا من غارة يغيرها الروم من وراء هذه الحدود ، اذا لم يبادر الى مطاردتهم وينتزع هذا القطر العظيم منهم

وارتاح الخليفة مبدئيا الى الاقتراح ، ووعد بان ينظر فيه بعد رجوعه الى المدينة وانه يكتب اليه بما يستقر عليه رأيه

٥

عمر يقر خطة عمرو

انتهت زيارة الخليفة للشام ، ونظم الامور ورتب القوى ، ولما ازمع الرحيل خطب فى امراء جيشه خطبة قال فيها : « الا وانى قد وليت عليكم وقضيت الذى على فى الذى ولانى الله من امركم . فمن علم شيئا ينبغى العمل به فيبلغنا نعمل به ان شاء الله ولا قوة الا بالله »

وعملا بالخطة التى سار عليها من استشارة رجال شوراه فى الامور قبل الاقدام عليها والبت فيها ، استشار بعد وصوله الى المدينة عثمان بن عفان فى غزو مصر واطلعه على مشروع عمرو بن العاص ، وما يطلبه من القوى فاجابه « انها لغزوة شديدة الخطورة وان فى ابن العاص جرأة وتهورا ، وانه قد يقود الناس الى الهلكة فيجب التريث والتروى »

وبين المؤرخين من يجعل الاستشارة بعد ارسال كتاب الخليفة الى ابن العاص بالموافقة على مشروعه لا قبله ، وغنى عن البيان ان وقوعها بعده يجعلها عديمة الفائدة والقيمة ، ولا يتفق مع خطة عمر فى استشارة الصحابة قبل البت فى الامور لا بعد البت فيها ، ولذلك نرجح ان كتاب عمر الى عمرو باجازة مشروعه كان بعد استشارة عثمان ، وقد لا يبعد ان يكون استشار غيره من رجال شوراه ، ولم يصل الينا

خبرهم ، فاقروا المشروع ورأوا تنفيذه وكان بينهم كثيرون زاروا مصر فى الجاهلية للتجارة أو لاغراض اخرى ، فمصر جارة الحجاز ، من البر والبحر والعلاقات الاقتصادية مابرحت متصلة بينهما من القديم

٦

عمرو يستعد للزحف

ولم يطل انتظار عمرو بن العاص ، فقد حمل اليـه شريك بن عبده بعد اشهر قلائل كتابا سريا من الخليفة يبلغه فيـه اقراره لمشروعه ويأمره ان يمضى فى تنفيذه ويوصيه بالكتمان الشديد فلا يعرف الروم من امره شيئا فيفسدوا عليه امره ويحبطوا مشروعه ، ويدعوا له بالنجاح والتوفيق ، فارتاح عمرو الى ذلك وابتهج به وعكف سرا على اعداد الجيش الذى قرر ان يسير على رأسه وكان لا يزال على اسوار قيسارية ، يحاصرها مع معاوية بن ابى سفيان ، ومع اننا لانعرف بالضبط تاريخ كتاب الخليفة الى عمرو ولا نعرف اليوم الذى زحف فيه الى مصر الا ان الدلائل تدل على انه تسلمه فى منتصف السنة الثامنة عشرة فكتم امره ريثما انتهى من تهيئة جنده ، فقطع به الصحراء ، الى العريش وكانت قيسارية لم تفتح وكان الروم يناجزون المسلمين ويقاتلونهم حولها

٧

عمرو بن العاص

عمرو بن العاص هو احد الاقطاب الذين قام الاسلام على كواهلهم والذين يضرب المثل بكفاءتهم فى الجاهلية والاسلام

وهو من بنى سهم (من بطون قريش المعروفة) و والده وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب و والدته سلمى بنت حرملة من بنى عنزة وتلقب بالنابغة وكنيته ابو عبد الله

قدم المدينة فى شهر صفر سنة ثمان للهجرة يعلن اسلامه ويجهر بايمانه ، و بايع النبى على ان يغفر له ما كان قبله ، فاجابه « الاسلام والهجرة يجبان ما قبلهما » واسلم معه فى يومه خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة العبدرى . فسر المسلمون بهم وفرحوا بدخولهم فى زمرتهم

وكان عمرو مشهورا بالذكاء والنبوغ فى مكة ، وكان ينتدب فى المهمات لكفاءته ، وكان احد اثنين ارسلتهما قريش الى اكسوم لمخاطبة اصحمة نجاشى الحبشة فى تسليم اللاجئين اليه من المهاجرين المسلمين فاخفق فى سفارته

ويسرد عمرو البواعث التى بعثته على الدخول فى الاسلام بعد ما كان من اشد مقاوميه ويقول : « لما انصرفنا مع الاحزاب عن الخندق ، جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيى و يسمعون منى ، فقلت لهم تعلمون انى ارى امر محمد يعلو الامور علوا مطردا ، لقد رأيت امرا فيه فما ترون ؟

ـ ماذا رأيت

ـ رأيت ان نلحق بالنجاشى فنكون عنده ، فان ظهر محمد على قومنا كنا

عند النجاشي ، فانا ان نكون تحت يديه احب الينا من ان نكون تحت يدى محمد ، وان ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم الا خير »

و يستمر فى ايراد هذه القصة حتى آخرها ، وتتضمن وصف رحلته الى الحبشة وعودته منها وقد صح عزمه على الاسلام فيجتمع بخالد بن الوليد ، وذلك قبل فتح مكة فيقول له الى اين يا أبا سليمان

ـ لقد والله استقام الميسم وان الرجل والله لنبي اذهب والله فاسلم فالى متى !

ـ والله ما جئت الا لاسلم

ثم يقصدان المدينة و يدخلان فى الاسلام

وسأل رجل عمرو بن العاص عن سبب ابطائه فى الاسلام وهو المشهور برجاحة العقل و وفرة الذكاء فقال له : « كنا مع قوم لهم علينا تقدم ، وكانوا ممن توازن احلامهم الجبال ، فلذنا بهم ، فلما ذهبوا وصار الامر الينا نظرنا وتدبرنا فاذا حق مبين فوقع الاسلام فى قلبى »

وقلد النبى عمرو بن العاص قيادة بعض سراياه واستخدمه فى بعض المهام العسكرية والادارية ، وكان عامله على عمان (مسقط) حين وفاته . وقلده ابو بكر قيادة الجيش الذى ارسله لفتح فلسطين ، واشترك فى معركة اليرموك وكان يقود جناح المسلمين فيها فابلى احسن بلاء ، وقام بحركة التفاف على جناح الروم الايسر عجلت فى انهزامه وتمزيقه

وتم على يده فتح فلسطين كما تم على يده فتح مصر ايضا فاهدى هذين القطرين الى الاسلام وفتح برقة وطرابلس الغرب بعد ذلك

وكان عمر بن الخطاب يعجب بذكائه ومهارته . ولما قيل له ان قائد الروم فى اجنادين وهو اريطبون من اذكى القواد وامهرهم ابتسم وقال « لقد رمينا اريطبون العرب باريطبون الروم » وكان عمرو بن العاص ينازله و يقاتله ، وقد فاز عليه فى النهاية والجأه الى الانسحاب الى مصر ثم لحق به اليها وقتله فى معركة بلبيس كما سيأتى

وكان من دأب عمر بن الخطاب ان يقول لمن يريد ان يعيره بقلة الذكاء والفهم « سبحان من خلقك وخلق عمرو بن العاص » وقيل انه كان يقول « اشهد ان خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد »

والمتفق عليه بين رواة التاريخ ان عمرو بن العاص كان يشتغل بالتجارة كبقية اعيان قريش ، وانه زار مصر فى تجارة له قبل الاسلام ، فجاب بعض مدنها ، وشاهد عظمتها وادرك اهميتها ولذلك لم يتمالك عن السعى لدى الخليفة ليسمح له بالمسير اليها وفتحها بعد مافتحت الشام وفلسطين ولم يبق مايحول دون الزحف عليها

وانضم الى معاوية فى اثناء الفتنة الداخلية فولاه مصر مكافأة له ومات فيها على فراشه يوم اول شوال سنة ٤٣ وقد نيف على السبعين ، ودفن فى سفح جبل المقطم بقرب « مدخل الشعب » وقد درس موضع قبره ولا يعرف احد مكانه الآن والغالب ان العلويين هم الذين محوه انتقاما منه وقد فعلوا ذلك مع اكثر خصومهم السياسيين

٨

طرق المواصلات بين مصر والحجاز

يحد الحجاز مصر من الشرق برا ، فاراضيها متصلة بأراضيه ، وحدودها مشتبكة بحدوده ، كما يجاورها من البحر الاحمر غربا ، فهو يقوم على ضفته الشرقية وتقوم على الضفة الغربية ، ويرى السائر فى هذا البحر اراضى البلدين وسواحلهما تبدو من الجانبين على السواء

وكان ثمة علاقات اقتصادية بين هذين القطرين قبل الاسلام فكان تجار الحجاز يقصدون الاسكندرية وغيرها من مدن القطر للتجارة ، وكانت سفن مصر تقصد ميناء الشعيبة (١) فى الحجاز ، وكان ثغر مكة التجارى ، قبل انشاء مدينة جدة ـ وقد انشئت فى عهد عثمان بن عفان ـ حاملة نتاج مصر ومحصولاتها فتبيعه لأهل الحجاز ، وكان فى مكة ايضا جالية قبطية ، ويقول رواة السير ان النجار الذى استخدمته قريش فى تجديد بناء الكعبة ، قبل ظهور الدعوة الاسلامية كان من الاقباط النازلين فى تلك الحاضرة الكبرى ، وقد اثبتنا من قبل انه كان فيها جالية

(١) على نحو اثنى عشر كيلو مترا من ثغر جدة الى الجنوب وهى تناوح الجزيرة المعروفة بجزيرة ابى سعد وهى محجر الحجاز وكان بقربها صنم يقال له سعد وفيه يقول الشاعر :

اتينا الى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وما سعد الا صخرة بمفازة من الارض لاتهدى لخير ولا رشد

وكان الشاعر جاء بابله فى التماس البركة من سعد فشردت ابله فقال ذلك

مسيحية تمثل طوائف المسيحيين من روم وقبط وعراقيين وسوريين يزاولون شتى الصناعات والمهن ويقول بعض المؤرخين انه كان لهؤلاء مقبرة خاصة بهم يدفنون فيها موتاهم وقد ظلت قائمة حتى اجلوا عن الحجاز فاندثرت وبادت

وكانت الصلات الودية بين هؤلاء والمسلمين فى ابتداء ظهور دعوتهم حسنة وكانوا يعطفون عليهم ويتقربون اليهم ، وقد نوه القرآن بما بينهم وبين المسلمين من مودة حسنة وصلات طيبة

وكانت هنالك مواصلات برية وبحرية تصل بين هذين القطرين وترابط بينهما وقد ازداد شأنها بعد الفتح الاسلامى ونصفها وصفا اجماليا فنقول :

١ — طريق المدينة — العقبة — الفسطاط

واول هذه الطرق واعظمها شأنا طريق المدينة ـ العقبة ـ الفسطاط . فقد كان المسافر يغادر المدينة الى العقبة والمسافة بينهما نحو ٧٥٠ كيلو مترا فيسلك طريق القوافل بين الشام والحجاز حتى المدورة (سرغ) ومنها يتجه الى العقبة ثم يدخل فى حدود مصر الشرقية ويقصد الفسطاط وتبلغ المسافة بينهما نحو ٤٠٠ كيلو متر

وقد ازداد شأن هذا الطريق بعد الفتح ولا سيما فى العصور الاخيرة ونظم تنظيما جديدا بين القاهرة (الفسطاط) وبين العقبة ومكة ونذكر اسماء محطاته مع مسافاتها بالساعة على المنوال الذى اتبعناه فى وصف طريق الحج الشامى :

اسم المحطة	المسافة بالساعة
١ ـ القاهرة	
٢ ـ بركة الحاج	٦
٣ ـ الدار البيضاء	١٤
٤ ـ عجرود جنوب غربى السويس وتبعد عنها ٢٠ كيلو مترا	١٢
٥ ـ الناطور الاول والثانى والثالث	٨
٦ ـ العلوه	٥

اسم المحطة	المسافة بالساعة
٧ ـ جنادل حسن	١١
٨ ـ نخل	١٢
٩ ـ بئر قريص	١٢
١٠ ـ العقبة	٧
١١ ـ ظهر حمار	٩
١٢ ـ الشرفا او ام العظام	١٤
١٣ ـ مغاير شعيب	١٢
١٤ ـ عيون القصب	١٤
١٥ ـ المويلح	١٢
١٦ ـ سلمى	١٢
١٧ ـ اصطبل عنتر	١٢
١٨ ـ الوجه	١٢
١٩ ـ عكرمة	١٦
٢٠ ـ الحنك	١٢
٢١ ـ الحوراء	١٢
٢٢ ـ الخضيرة	١٥
٢٣ ـ ينبع	١٠
٢٤ ـ السقيفة	١٨
٢٥ ـ مستورة	١٠
٢٦ ـ رابغ	١٤
	٢٩١ المجموع

تلك هي اسماء المحطات بين القاهرة ورابغ والطريق منها الى المدينـة معروفة

وكذلك الى مكة ، وقد كان بعضهم يقصد الوجه ومنها يسافر بحرا الى المدينة بطريق ينبع او يقصد المدينة بطريق العلا والمسافة بين الوجه وتبوك نحو ١٠٠ كيلو متر

٢ — طريق عمرو بن العاص البحرى

ولما اشتدت المجاعة فى الحجاز سنة ٢٢ هـ كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص يطلب اليه ان يمد المدينة بالاقوات والميرة فأرسل اليه القوافل بطريق العقبة اى الطريق البرى . فوصلت متأخرة و بعد انقضاء زمن طويل فاتجهت الانظار الى حفر خليج يصل الفسطاط بالبحر الاحمر فتسافر السفن حتى شواطىء الحجاز مملوءة بالحبوب والذخائر

وقد حفر هذا الخليج فوصل بين الفسطاط والبحر الاحمر وسمى خليج امير المؤمنين وسافرت فيه السفن بين القطرين تحمل الركاب والبضائع على انه ردم بعد ذلك وحل محله طريق جديد هو طريق القاهرة ــ قوص ــ القصير ــ جدة

٣ — طريق القاهرة — قوص — القصير — جدة

كان الحجاج المصريون فى القرون الاولى للهجرة يغادرون القاهرة الى قوص والمسافة بينهما ٦٥٠ كيلو مترا ومن قوص يسيرون فى الصحراء الى عيذاب او القصير والمسافة بينهما ١٥ يوما ومن القصير يركبون البحر الى جدة فى سفن شراعية خاصة

٤ — طريق السويس — جدة البحرى

ولما تقدم فن الملاحة فى القرن الماضى اخذت السفن تسافر بين السويس وجدة وكانت تبلغها فى ٢٠ يوما والمسافة بينهما نحو ٦٧٤ ميلا بحريا

وتقطع البواخر هـذه المسافة بين السويس وجـدة فى ٧٢ ساعة تقريبـا فى عصرنا الحالى

ولا بد لنا من القول ان جيش الفتح الاسـلامى لم يأت مصر من الحجاز وانما جاءها من طريق فلسطين ، اى انه اجتاز صحراء سينا او صحراء التيه وطولها من الشمال الى الجنوب نحو ٣٠٠ كيلو متر وهى طريق الفاتحين من اقدم ازمنة التاريخ ، فقد سلكها الرعاة او الهكسوس ، ويقولون انهم من عرب الجزيرة ، كما مشى عليها الاسكندر وقمبيز وشاهين وعمـرو بن العـاص ، وسـليم العثمانى وجمـال باشا واللورد اللنبي وكان سير هذا معكوسا ، وربما كانت المرة الاولى فى التاريخ المعروف ، يأتى فيها جيش من الجنوب فيفتح بلاد الشام وقـد جرت العادة ان تذهب الجيوش منها الى مصر فتفتحها اذا استثنينا غزوات ملوك مصر الاقـدمين للشام والعراق وآسيا الوسطى

٩

طريق العرب الى مصر

هنالك طرق ثلاثة الى مصر يسلكها القادمون من الشام وهى :

١ ـ طريق البحر

٢ ـ طريق الساحل

٣ ـ طريق الصحراء

ومع اننا لا نملك بيانات مفصلة عن الطريق التى سلكها عمرو فى سيره من قيسارية الى العريش ، والمسافة بينهما ٢٤٥ كيلو مترا الا ان الحال تدل على انه سلك طريق الساحل ، لانه اسهل وايسر واقرب ، ولانه ما كان هنالك اسطول رومى يرقبه ويترصد حركاته من البحر فيضطر الى سلوك طريق الصحراء وهو أصعب واشق

ولقد سلك معظم الفاتحين الى مصر هذه الطريق فسار عليه الفرس فى غزوتيهم ، وسلكه عمرو بن العاص وسلكه السلطان سليم العثمانى سنة ١٥٧٤ كما سلكه نابليون الأول سنة ١٨٠١ حينما زحف على فلسطين . واختار العثمانيون فى سنة ١٩١٥ طريق الصحراء حينما حملوا على مصر ، حذرا من سفن الاسطول الانكليزى ، التى كانت منتشرة على طول الساحل بين العريش وحيفا ترقب حركات الجيش التركى وسكناته ، وتهدد خط مواصلاته الساحلية . وما كانت تحجم عن اطلاق النار على وحداته لو ظهرت على هذا الطريق او حاولت سلوكه

طريق الصحراء

وطريق الصحراء هـذا يبتدىء من جنوبى القدس ويسير حتى خليل الرحمن والمسافة بينهما ٤٠ كيلو مترا فبئر السبع والمسافة بينهما ٤٠ كيلو مترا ايضا فالحفير فرفح وتبعد عن القدس ٢٦٠ كيلو مترا وهنا تبتدىء الحدود المصرية ويدخل المسافرون ارض مصر فاما ان يقصدوا السويس ، كما هو الحال الآن فى الطريق الجديدة التى ينشئونها فى طريق الصحراء والمسافة من السويس الى القدس ٤٦٠ كيلو مترا . واما ان يقصدوا العريش سالكين طريق الساحل

وواصلت الحملة التركية العسكرية السير فى وسط الصحراء ، من دون ان تجسر على الاقتراب من الساحل حتى ظهرت فى منطقة الاسماعيلية من قناة السويس اى فى وسط القناة تقريبا بين مدينتى السويس وبور سعيد . وما كان فى استطاعتها ان تفعل غير هذا لان ظهورها هنا وهناك يعرضها لنيران الاسطول الانكليزى . وكان يحمى مدخلى القناة وكانت بعض سفنه تجول فى القناة نفسها لحمايتها والدفاع عنها . وقد استهدف الترك لنيرانها ، حينما اقتربوا من ضفة القناة الشرقية يوم ٢ فبراير سنة ١٩١٥ وعبرها بعضهم فعلا ولما ادركوا عجزهم عن التقدم ارتدوا موغلين فى الصحراء نفسها وعائدين من حيث جاءوا ، وكان الانكليز قد احسنوا تحصين ضفة القناة الغربية ، ووقفوا على اتم استعداد للقاء الترك من اى ناحية تقدموا

وبهذه المناسبة نقول ايضا ان بنى اسرائيل سلكوا فى طريق هجرتهم من مصر الى فلسطين نفس الطريق التى سلكها الترك فى حملتهم ، اى انهم جاءوا من منطقة السويس وتبطنوا الصحراء ، فتاهوا وضلوا اربعين سنة ، وصلوا بعدها الى القدس ، فاستقروا فيها وانشأوا حكومات وآخر نكبة نكبوا بها ، تلك التى نزلت بهم فى سنة ٦٥ على يد القائد بومبيوس الرومى ، فقد هزمهم وشتتهم ، ولم تقم لهم بعدها قائمة ، وحلت الدولة العربية الاسلامية محل الدولة الرومية فى حكم فلسطين ،

وساد العرب هذا الاقليم من ذلك العهد ، ولا يزالون اصحابه ولا يزالون يؤلفون الاكثرية المطلقة فيه ، ويعمل اليهود فى هذه الايام على ارجاع ملكهم القديم فى فلسطين ، وقد مضى على اندراسه ٢١٦٣ سنة ويقاومهم العرب والنضال على اشده بين الفريقين

طريق الساحل

ومما يصح الاستدلال به على تأييد الرأى الذى ذهبنا اليه عن سلوك العرب لطريق الساحل ، هو انهم بدأوا زحفهم من الساحل نفسه اى من قيسارية وكانت قاعدة الروم البحرية فى فلسطين كما قدمنا ، فساروا جريدة حتى غزة والمسافة بين قيسارية وغزة ١٧٥ كيلومترا . ومن غزة الى العريش والمسافة ٧٠ كيلو مترا تقريبا .

ومن تحصيل الحاصل القول ان هذا الطريق وخصوصا لمن يأتى من قيسارية اسهل واقرب . وقد يختلف الحال لو سار عمرو من القدس الى مصر ، ولم يسر من قيسارية لانه بدلا من ان يتجه الى الساحل يخترق الصحراء مباشرة الى العريش . والطريق من هنا ابعد واصعب كما قدمنا . واذا قيل ان العرب ـ وهم الذين عاشوا فى الصحراء ، ونشأوا فيها والفوا قيظها وقلة مائها ـ لايعنون كثيرا بهذه الاعتبارات ، نجيب اننا مع تسليمنا بصحة هذه النظرية لانرى هنالك مايحمل عمرا على تغيير وجهة سيره ، مادام مقيما بالساحل فهو بدلا من ان يقصد القدس والمسافة بينها و بين قيسارية لاتقل عن ١٥٠ كيلو مترا تقريبا ، يقصد العريش ولا يعرض نفسه وجيشه لتحمل مشقات ليس ثمة ما يستدعى تحملها

وصف صحراء سيناء

وصحراء سينا التى سلكها عمرو بن العاص فى طريقه الى مصر هى نفس صحراء التيه التى سلكها بنو اسرائيل وتاهوا فيها وهى تفصل بين الشام (فلسطين) ومصر ،

كما تفصل صحراء الشام بين العراق والشام ايضا ، اى ان الشام واقع بين صحراوين صحراء فى الشرق تفصله عن العراق . وصحراء فى الجنوب تفصله عن مصر ، وتمتد صحراء سيناء من البحر الابيض حتى البحر الاحمر فتتصل بالحدود الحجازية نفسها . وسكان هذه الصحارى هم من العرب وحدهم . وقد يعثر المسافر فى صحراء سينا على منازل وقرى منثورة فى بعض اطرافها ، ولكنه لا يجد شيئا من ذلك فى صحراء الشام بعد ما يبتعد ٧٠ كيلو مترا من شرق دمشق حتى يبلغ الرطبة وهى اول الحدود العراقية من ناحية الشام فى الوقت الحاضر ، وتبعد عن بغداد نحو ٤٤٥ كيلو مترا منها ٣١٥ كيلو مترا عن الفرات و ١٣٠ كيلو مترا من الفرات الى بغداد

سكة حديد سيناء

لما صحت عزيمة الانكليز فى ايام الحرب العظمى على مهاجمة الترك فى فلسطين عولوا على انشاء سكة حديدية ينقلون عليها الجنود والعتاد والميرة وكل شىء يلزم للحرب فابتدأوا بانشائها من القنطرة ثم ساحلوا بها وتقدموا تحت حماية الاسطول الانكليزى . فكان لهم ما ارادوا وفازوا فى ذلك الميدان ولولا السكة الحديدية ما شاموا بارقة الظفر — وكان الابتداء بعمل السكة الحديدية سنة ١٩١٦ وهى باقية الى الآن وهى اهم طريق المواصلات بين مصر وفلسطين بل هى شريان الحياة بين البلادين

وما سلك الانكليز طريق الساحل الا لانه اقرب وايسر واقل خطرا وكانوا يتقدمون عسكريا ، بنسبة تقدم الاعمال فى سكة الحديد ، فبلغوا غزة فى سنة ١٩١٧ بعد عناء شديد ومعارك حامية دارت بينهم و بين الترك ثم اكملوا فتح فلسطين واكملوا معه انشاء هذه السكة حتى بلغوا حيفا والمسافة بينها و بين القنطرة

الشرقية (قناة السويس) وهى رأس هـذه السكة ٤١٣ كيلو مترا . تغدو عليها القطارات وتروح يوميا بين مصر والشام حاملة الركاب والمتاجر وتقطعها فى ٩ ساعات بعـد ما كانت القوافل تقطعها فى عشرة ايام

ولقـد بث انشاء هذه السكة فى الصحراء روحا جديدة ، وقرب المسافات بين اجزائها فانتعشت قليلا ، وهى تفضل صحراء الشام من وجوه كثيرة ، وقد اجتاز كاتب هذه السطور هاتين الصحراوين فى رحلاته المتابعة ، فالعمران هنا اكثر ، والسكان اوفر ، والواقع ان الجزء الغامر من هذه السكة لا يزيد عن ١٢٠ كيلو مترا اى من جنوبى خان يونس حتى شمالى العريش

وتبلغ المسافة من العريش الى القنطرة ١٥٥ كيلو مترا ويقطعها القطار فى ثلاث ساعات تقريبا . وتعـد عامرة اجمالا بالنسبة للاجزاء الاخرى . ويشاهد المسافر فيها من وقت الى آخر اشجار نخيل باسقات ومضارب وقطارات الابل ، ممـا يدل على الحياة ، ولا اثر لذلك فى الصحارى الاخرى . ويمكن القول ان الجزء الجنوبى منها اى الجزء الممتـد من القنطرة حتى العريش ، اعمر من الجزء المتوسط الممتد من العريش حتى خان يونس ، اما الجزء الممتد من هـذا حتى غزة فـدلائل العمران مشهودة فى ارجائه ، والمنطقة الممتدة من غزة حتى حيفا او القدس ، منطقة زراعية مأهولة مملوءة بالسكان

ويختلف الحال فى طريق الصحراء ، اى طريق القدس ـ السويس الجديد ، وهو الطريق الذى سلـكته حملة الترك الاتحاديين ، وكان مطروقا فى العهد الرومى فالعمران هنا لك قليل وكذلك الماء والسكان اقل . ولا يسلك هـذا الطريق سوى ركاب السيارات وقد انشأت الحكومة محطات لهم وان شئت فقل انها جددت المحطات التى انشأها الترك فى سنة ١٩١٥ واسترشدوا بها فى عبور الصحراء

اسماء محطات سكة الحديد بين حيفا والقنطرة

وبيان مسافاتها بالكيلو متر

اسم المحطة	المسافة بالكيلو متر
حيفا	
الكرمل	٣
عتليت	٢١
زخرون يعقوب	٣٥
بنيامينا	٤٢
الخضيرة	٥٠
طولكرم	٦٧
قلقيلية	٧٩
رأس العين	٩٢
كفر جنس	١٠٥
اللد	١١١
بئر يعقوب	١١٦
رحبوت	١٢٠
يبنى	١٢٥
اسدود	١٤١
المجدل	١٥٣
دير سنيد	١٦٦
غزة	١٧٧
دير البلح	١٩٣
خان يونس	٢٠١

اسم المحطة	المسافة بالكيلو متر
رفح	٢١٣
العريش	٢٥٩
المزار	٣٠١
مصفق	٣٢٢
بئر العبد	٣٣٩
رمانة (رومانى)	٣٧٣
القنطرة	٤١٣

١٠

المسلمون فى العريش

ما كاد عمرو بن العاص يتلقى « تصريح » القائد العام من المدينة بالزحف الى مصر ، وكان على حصار قيسارية ، حتى عكف على اعداد معدات الحملة الصغيرة التى ازمع ان يتولى قيادتها ، وقد التزم ادق شروط الكتمان ، عملا بتوصية الخليفة وتعليماته ؛ والتكتم من دأب العرب وطبائعهم الاصلية ، وهو اشد ما يكون لزوما فى الحروب فاعلان اى خطة من الخطط العسكرية ، قبل تنفيذها ، مؤذن بفشلها وحبوطها ، وتمزيق الجيش الذى يباشرها ، فيأخذه عدوه ، حينما يبدأ العمل ، ويكون قد استعد له من قبل ، واعد معداته للقائه ، والحرب خدعة ومباغتة و براعة

واتم عمرو اعداد جيشه . والرأى الارجح انه ماكان يزيد عن اربعة آلاف ، وقيل ٣٥٠٠ معظمهم من اهل اليمن ، وكانوا جميعا من الفرسان (الخيالة) وقد اختارهم اختيارا ، وانتقاهم من الابطال المجربين ، الذين خبرهم و بلاهم فى حرب فلسطين وقد خاضوها تحت رايته ، و بقيادته

وسار عمرو على بركة الله وتوفيقه من قيسارية يقصد العريش ، ولم يك فى جيشه احد من المشاة ، لئلا يعوقوا تقدمه و زحفه ، فى تلك الصحراء الجافة المحرقة ، وكان ذلك فى اواخر فصل الخريف من سنة ٦٣٩ وهو زمن مناسب لاجتياز الصحراء حتى دخل رفح (اول مناطق الحدود وتبعد عن العريش ٥٥ كيلو مترا وهى الى شماليها) فنزل فيها واستراح واراح جنده ، وكانت تعليمات القيادة العليا اليه بان لايرهقهم فى الاسفار والتنقلات

تعليمات جديدة من الخليفة

ويقول المؤرخون ان رسل الخليفة ادركت عمرا وهو فى رفح تحمل اليه تعليمات جديدة منه ، وخاف هذا ان يكون فيها ما لايتفق مع رغبته فى فتح مصر ، فامسك عن تسلمها ومشى بالجيش حتى اقترب من العريش وعبر الوادى الصغير القريب منها ، وهنالك تسلم كتاب الخليفة وقد امره فيه بأن يعود الى مقره ، و يعدل عن تنفيذ خطته ، اذا كان لايزال فى ارض فلسطين ، اما اذا كان اجتازها ودخل مصر فليمض فى سبيله على بركة الله

هذه خلاصة الكتاب الذى يقولون ان الخليفة كتبه الى عمرو وقد بعثه على كتابته حبه للسلامة ، وعدم رغبته فى تعريض المسلمين للخطر لانه كان يخاف عاقبة هذه المجازفة التى يقدم عليها عمرو بن العاص ، وقد وصفه عثمان بن عفان بان « فيه جرأة وتهورا » ويخشى ان يفشلوا فى مصر فيضطروه الى حشد جيوش كثيرة و يشغلوه عن الميادين الاخرى وما كان شأنها يقل عن شأن مصر عنده

وخاف الخليفة ـ وهو يرسل هذه التعليمات الى ابن العاص ـ ان لا تصل اليه ، الا بعد دخوله مصر ، وادرك ان فى استرجاع الجيش بعد ان يكون اوغل فى حدودها واشتبك مع الروم ، ما يطمع هؤلاء بالعرب و يحفزهم لقتالهم ، فاحتاط للامر ، وقال له اذا بلغك كتابى وانت فى داخل حدود مصر فامض على بركة الله فانا ممدوك والله ناصرك

والظاهر ان ما حاذره الخليفة حاذره قائده ، ولم يك هذا دونه ذكاء وكفاءة ، فقد امسك قليلا عن تسلم كتابه ليجعل الخليفة امام امر واقع ، فلما بلغ منطقة العريش ـ ولا اختلاف فى كونها من اراضى مصر ـ تسلم الكتاب وفتحه وقرأه على الناس ثم قال لهم :

ـ اين نحن الآن ؟ افى مصر ام فى الشام ؟

ـ فى مصر

ـ نسير فى سبيلنا على بركة الله كما يامرنا امير المؤمنين

واقر الجميع الخطة ، ومضوا فى سبيلهم حتى وصلوا العريش ، فاستولوا عليها سلما فكانت اول مدينة مصرية دخلت فى حوزة الاسلام . وفى العريش عيدوا عيد الأضحى من سنة ١٨ للهجرة ، فكان فرحهم مضاعفا ، بما بلغوه من توفيق وفتح وشجعهم على الاستمرار فى تنفيذ خطتهم والمضى فى سبيلهم لايصدهم صاد ، ولا يمنعهم مانع

وصف العريش

ومدينة العريش لاتزال قائمة فى مكانها على شاطىء البحر الابيض ، وهى الآن عاصمة الصحراء الشرقية ، وتمر بها سكة حديد سيناء ، ولها فيها محطة كبيرة وللحكومة المصرية فيها بنايات جميلة

ولم يلق المسلمون فيها حامية عسكرية للروم . واذا قيل لنا ان هؤلاء جلوا عنها حينما علموا بقرب وصول المسلمين نجيب ان عمرا كتم خبر خطته عن كل انسان ولذلك نستبعد ان يكون الروم عرفوا شيئا عنها . والذى نرجحه ، ان ولاة الروم العسكريين ما كانوا يرون حاجة لاقامة حامية عسكرية فى هذه المدينة الصحراوية لانها واقعة بين ممتلكاتهم فى الشمال وفى الجنوب وفى الشرق فلا خطر يهددها مطلقا فاكتفوا بالبوليس المحلى للمحافظة على النظام فى الداخل ، ومثل هذا لا يستطيع الدفاع

الانكليز يجلون عن العريش

ولما اعتزم الترك العثمانيون فى ابتداء الحرب العظمى الزحف على مصر وقرروا تجهيز حملة كبيرة لعبور الصحراء ، اصدر القائد الانكليزى العام فى مصر اوامر الى القوى المصرية والانكليزية فى صحراء سيناء كلها بالارتداد الى ما وراء ضفة القناة

الغربية ، وفى جملتها العريش تجنبا للاصطدام بالترك ، ونفذت هذه الخطة وجاءت قوة عسكرية صغيرة تركية فاحتلت العريش فى اواخر سنة ١٩١٤ وتسلمها الترك من ايدى ابنائها بدون مقاومة . وظلوا فيها حتى بدأ الانكليز زحفهم الكبير من الضفة الشرقية فى سنة ١٩١٦ فاستردوها واخرجوا الترك منها . ولا بد لنا من التنبيه الى ان حملة الترك الكبرى لم تمر بالعريش فى زحفها الى القناة ، لئلا تستهدف لقنابل الاسطول البريطانى ، بل سلكت الطريق الشرقى ـ طريق وسط الصحراء ـ مارة بقلعة النخل ، وقد اتخذ الترك قاعدة لأعمالهم العسكرية ولا تبعد كثيرا عن العريش

من العريش الى الفرما

لم تك قناة السويس ، قد شقت يوم زحف عمرو الى مصر ، ولم يك هذا « الحاجز المائى » قد فصل بين افريقية وآسيا وشطر الصحراء نفسها الى شطرين فوصل البحر الاحمر بالبحر الابيض

والواقع ان شق هذه القناة احدث انقلابا كبيرا فى نظام الدفاع العسكرى عن مصر ، وبعد ان كان الغزاة ، القادمون من الشام او من الحجاز ، يواصلون التقدم فى الصحراء حتى مصر السفلى ، صار عليهم ان يقفوا عند حدود القناة وينظروا فى اعداد الوسائل التى تساعدهم على عبورها واجتيازها . واول جيش اصطدم بهذه القناة وارتد عنها هو الجيش التركى الذى زحف فى سنة ١٩١٥ فقد وجد نفسه امام خط دفاع منظم احسن قادة الجيش البريطانى اعداده ونصبوا فيه المدافع الضخمة والاسلاك الشائكة وحشروا فيه الجند كما بثوا المدفعيات والطرادات على طوله لتحول دون عبور الترك اذا حاولوه

ولم يرهب الترك هذا الاستعداد العسكرى ، حينما بلغوا الضفة بل اقدموا على نصب جسور يعبرون عليها ، وقد عبر بعضهم فعلا فسقط فى الاسر ، لان رماة الانكليز نسفوا الجسور على الاثر وقطعوا خط رجعة هؤلاء ، كما امطروا الذين ظلوا فى الضفة الشرقية وابلا من نيرانهم الشديدة ، فارتدوا على الفور موغلين فى الصحراء نحو

الشمال ، وتلك هى المرة الاولى فى التاريخ ، التى يرتد فيها مغير على مصر ولا يتاح له ان يدخلها بعد تجشمه عناء فى سبيلها وكانت الصعوبة عند الاقدمين فى اجتياز الصحراء ، لافى احتلال الوادى نفسه وامره سهل بالنسبة اليها

عمرو يستأنف الزحف

ونهض عمرو بجيشه الصغير ، بعد ما استراح اياما ، وعيد فى العريش وتمتع بهوائها الجميل ومائها العذب ، وكرومها ونخيلها

وواصل هذا الجيش تقدمه تاركا البحر الابيض عن يمينه وموغلا نحو الغرب ووجهته مدينة الفرما (بادت واندثرت ومكانها اليوم قاطية قرب محطة رومانة وتبعد عن القنطرة ٣٥ كيلو مترا)

مدينة الفرما

وكانت الفرما مدينة كبيرة حصينة ، وكانت مفتاح مصر من الشرق ، تشرف على طريق الصحراء وعلى ناصية البحر ، وكانت على نهر من الارض وتبعد عن البحر نحو ١٠ كيلو مترات ، وكانت ذات مرفأ بحرى ترسو فيه السفن ، وكان فرع النيل يصب فى البحر بقربها وكانت فيها حامية عسكرية كبيرة

الروم يحصنون الفرما

ونازل الفرس مدينة الفرما عند قدومهم لغزو الوادى وقضوا مدة حول اسوارها ثم تغلبوا على حاميتها وفتحوها وواصلوا تقدمهم الى حصن بابليون (مصر القديمة) فاستولوا عليه بعد حصار ايضا ومنه ساروا الى الاسكندرية ففتحوها على المنوال الذى

بسطناه آنفا . وطبق عمرو هذه الخطة تقريبا فسار الى مصر القديمة بطريق بلبيس بعد ما استولى على الفرما ولم يحاصر الاسكندرية الا بعد الاستيلاء على حصن بابليون وفتح هذين الحصنين : بابليون والاسكندرية كفيل باخضاع وادى النيل كله ، وما استولى عليهما احد الا اخضعه و بسط ظله عليه من اسوان حتى رشيد

١١

مصر فى آخر العهد الرومى

دخلت مصر فى حكم الرومان سنة ٣٠ ق . م . على يد اغسطس قيصر انتزعها من كليوباطرة خاتمة ملوك البطالسة فانقرض بموتها الحكم اليونانى بمصر ، وصارت من جملة ولايات رومه

وطبق الروم فى مصر شرائعهم ونظمهم ، وكانت اقسى من الشرائع والقوانين اليونانية واشد ، ومنحوا السكان الاجانب (اى غير الوطنيين) من اليونانيين والرومان واليهود امتيازات خاصة فى المحاكم وغيرها ، ميزتهم عن العنصر المصرى الوطنى ، فكان هذا التفريق فى المعاملة ، فاتحة نضال بين الحاكمين والمحكومين ظهر فى صور واشكال شتى ، وكانت الانقسامات المذهبية فى عهد قيرس (المقوقس) احدى صوره

و بيان ما حدث ان الامبراطور هركليوس راى بعد ما استتب له الامر و بعد طرد الفرس واجلائهم على المنوال الذى سردناه ان يقضى على الخلافات المذهبية ، وان يحمل رعاياه كلهم على اتباع عقيدة واحدة وهى عقيدة الكنيسة اليونانية او عقيدة الملكيين ، ونبذ كل ما عداها من المذاهب والشيع الاخرى ، لما رسخ فى ذهنه وهو ان ذلك افضل لمصلحة الامبراطورية لانه يقيها شر الانقسامات المذهبية والاختلافات الدينية ، وقد برحت بها وطحنتها طحنا ، وكادت تودى بها وتقضى عليها

ووقع اختيار الامبراطور على الاسقف قيرس فعينه بطريركا على مصر ، وخوله

سلطة مطلقة ، بعد مارفع درجته ، وامره بأن يعمل على نشر مذهب الدولة وان يحمل المصريين الوطنيين (القبط) على اتباعه والتخلى عن المذهب القبطى الارثوذكسى

المذاهب الدينية واختلافاتها

وكان فى الامبراطورية الرومية يومئذ مذاهب دينية عدة يعتنقها الناس ، واولها المذهب الملكى وهو مذهب الدولة نفسها ويقوم على الاعتقاد بان للاقنوم الثانى طبيعتين ومشيئتين

٢ – مذهب اليعاقبة او النسطوريين ومداره الاعتقاد بان اللاهوتية والناسوتية موجودتان فى المسيح وليستا متحدتين

٣ – المذهب القبطى : ومداره الاعتقاد بان الله ذات واحدة مثلث الاقانيم : اقنوم الاب واقنوم الابن واقنوم الروح القدس . وان الاقنوم الثانى اى اقنوم الابن تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء فصيرا هذا الجسد معه واحدا وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة بريئة من الانفصال . وبهذا الاتحاد صار الابن المجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة

وكان هنالك مذاهب اخرى لاتدخل فى نطاق بحثنا

وقاوم القبط وعلى رأسهم البطريرك بنيامين (٦٢٠ – ٦٣٨) هذه الحركة مقاومة شديدة ، ولجأ البطريرك نفسه الى دير صيفر فى الصحراء قرب مدينة قوص فى الصعيد واختفى فيه مدة ١٣ سنة اى من ابتداء ولاية قيرس على مصر حتى دخولها فى حكم المسلمين . ولما ازمع البطريرك الرحيل جمع جمعا كبيرا من القسس والرعية وخطب فيهم يحثهم على الثبات فى عقيدتهم حتى الموت واذاع منشورا على اساقفته يأمرهم جميعا بالهجرة الى الجبال والصحارى والمواراة فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه . وقال « ان وبالا سيحل بالبلاد وانها ستلقى عسفا ويظل عشر سنوات ثم يرفع عنها »

واختفى معه ايضا فريق كبير خوف الظلم . وقد امعن قيرس فيـه ليحمل الناس على اتباع مذهب كنيسة الدولة او على اتباع عقيدة الطبيعتين كما جاء فى كتاب تاريخ الامة القبطية للجنة التاريخ القبطى . وتقول اللجنة ايضا ان قيرس ادرك بعض نجاح فانقاد اليه كثيرون ، وعين اساقفة من مذهبه لسائر ابرشيات القطر

وكتب التاريخ القبطى مشحونة بوصف الاضطهادات التى صب جامها قيرس على رءوس ابناء الكنيسة القبطية لحملهم على تغيير مذهبهم وعقيدتهـم ، فهو لم يدع وسيلة ليفتنهم الا اتبعها ونفذها ، ولئن فتن بعض العامة خوف الاضطهاد ، او طمعا بمغنم مادى فقد عادوا الى الحظيرة حينما انكشفت الغمة ، وزال كابوس الروم واشرق صبح الاسلام وشعاره المساواة المطلقة ، ولا اكراه فى الدين

ولم يقتصر الضغط على القبط وحدهم بل شمل اليهود ايضا فقد حاول قيرس أن يحملهم على تغيير دينهـم ، والدخول فى الدين المسيحى ، وكان الخلاف بينهم وبين الامبراطورية الرومية يومئذ على اشـده ، وقد وصفنا ما انزله بهـم الروم من فظائع وكيف ذبحوهم وقتلوهم ، حين زيارة هركليوس لفلسطين فى سنة ٦٢٨ اى ان اليهود كانوا فى مصر يعانون ما كان يعانيـه اخوانهم فى فلسطين من ظلم واضطهاد ، وكانوا كالقبط ناقمين على الامبراطورية مستائين من تصرفات رجالها

وكان ذلك ايضا شأن السوريين وكانت فى مصر جاليـة سورية كبيرة نالها نصيب من رشاش الاضطهاد الرومى وهكذا كانت العناصر الثلاثة الكبرى التى يتألف منها سكان وادى النيل فى اواخر العهد الرومانى وهى :

١ ــ القبط

٢ ــ اليهود

٣ ــ السوريون

غير مرتاحين . وكانت هنالك جاليـة عربيـة ايضا تعتبر اقلية بالنسبة للعناصر الثلاثة الاولى

وما كانت شكوى المصريين من الحكم الرومى قاصرة على هذه الناحية وحدها — الناحية الدينية — بل كانوا يشكون ايضا من فداحه الضرائب وكثرتها، ومن ظلم الموظفين ، وكان القبط يتألمون لانهم طردوا من وظائف الحكومة . ويقول يعقوب نخلة روفيلة فى كتاب تاريخ الامة القبطية (ص ٣٦) ان هركليوس انفذ امرا الى نائبه بمصر بطرد جميع الاقباط من خدمة الحكومة ودواوينها ، وعدم قبول احد منهم فى مصالحها ، رغبة منه فى اذلالهم ، فكان ذلك من جملة اسباب قنوطهم واعتزالهم الروم بالكلية وقطع كل علاقة فتأصلت الكراهة بين الفريقين ونمت مع الايام

ويجب ان لاننسى ما تركته غزوة الفرس لمصر — وقد اقاموا فيها عشر سنوات تقريبا — من اثر فى نفوس المصريين ، فقد اجمعت المصادر التاريخية على ان الفرس لم يتعرضوا للمعتقدات المذهبية ولم يحاولوا التدخل فى الشئون الدينية بل تركوا الناس احرارا فى معتقداتهم ، بعكس الروم ، يضاف الى هذا ما سببته الحرب نفسها من خسارة لوادى النيل وما ولدته من خراب ودمار زاد فى حقد الناس على الروم

وخلاصة القول ان الحالة الاجتماعية العامة فى وادى النيل ، ما كانت تختلف عنها فى كل قطر من اقطار الامبراطورية الرومية عند ظهور الاسلام ، فقد كان ابناء البلاد فى الشام وفلسطين ومصر ، غير مرتاحين الى الحكم الرومى يرجون زواله ، ويتمنون انقراضه ، كما كانت الدولة نفسها فى حالة التردى والاضمحلال ، لا يرجى لها معها حياة ولا بقاء ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

١٢

اقبط

جاء فى كتاب تاريخ الامة القبطية وقد وضعته لجنة التاريخ القبطى : ان اول من سكن ارض وادى النيـل هو مصرايم بن حام بن نوح جاءها هو وبنوه ومن بعدهم من القبائل الاسيوية عن طريق برزخ السويس واستوطنوها وعمروها . فدعى وادى النيل (مصرين) نسبة اليـه (التعبير عن المصريين فى العبرية « مصرايم » وعن ارض مصر « مصرايما »)

وتبعا لهذه التسمية دعى سكان وادى النيل مصرايم فى لغـة التوراة وفى اللغة القبطية يدعون « كيمى » وهى كلمة قد تفيـد النسبة الى حام ابى مصرايم اذ اسم الوادى فى لغـة التوراة (ارض حام) وقد تـكون مصحفة عن كلمة « كام » ومعناها اسود اشارة الى سواد تربته

ويسمى الافرنج هذه البلاد ايجبت« Egypte » وقد نقلوا هذه التسمية عن اليونان الذين اطلقوا عليهـا اسم « Aigaptos » تصحيفـا للكلمة المصرية « ها كابتاح » Ha - Ka - Ptah المركبة من (ها)بمعنى بيت او معبد و (كا) بمعنى روح (وبتاح) وهو الاله فتاح معبود منف وهذه الـكلمة هى احد اسماء منف عاصمة مصر ثم اطلق اسم ها كابتاح على كل القطر

ودعا العرب مصر (دار القبط) نسبة الى قفط وهى اقرب مدن وادى النيل الى البحر الاحمر ، وعليه تـكون كلمتا قبطى ومصرى بمعنى واحد ــ اه

وجاء فى تاريخ الامة القبطية ليعقوب نخلة روفيله « ان الاقباط هم بقايا تلك الامةالمصرية العريقة فى الحضارة التى اجمع الـكل على انها اقدم الامم فى المدنية واسبقها

الى التمدن وقد شهدت التواريخ بانها هى السبب الوحيد والعامل المؤثر فى ايجاد التمدن فى العالم وانتشاره على وجه البسيطة

ومصر اسم لتلك البلاد التى كانت استوطنتها هذه الامة ، وهى كلمة عبرانية الاصل مشتقة من مصرايم بن حام بن نوح الذى اتى بعشيرته الى وادى النيل واتخذه مقرا له ولاولاده من بعده ، وذلك عقب تبلبل الالسنة ببابل وتفرق اولاد نوح على وجه الارض كما جاء فى التوراة . وقيل ان مصر عند العبرانيين مشتق من (صبر) اى الشدة ويعنون بذلك ما لاقوه من الشدة والعنف فى الاستعباد ، ويدعى بعض المؤرخين ان اول ملوك مصر (مصرايم) ولكن لادليل على ذلك

ويسمى الافرنج مصر Egypte نقلا عن اليونان الذين لما فتحوا مصر على يد اسكندر المقدونى الشهير بالاكبر اطلقوا عليها اسم (ايجبتوس) ويقول بعض الباحثين ان لفظة ايجبتوس مركبة من كلمتين (اى) بمعنى ارض او دار ، وجبتوس اى قفط او (جفط) كما ينطقها اهل الصعيد للآن فيكون معنى الكلمتين معا ، ارض القبط او دار القبط

وقيل ان قبط من قفطايم احد اولاد مصرايم وهو الذى بنى مدينة قفط بالصعيد الاعلى فسميت باسمه وكانت مدينة عامرة اشتهرت قديما ــ وخصوصا فى عهد البطالسة ــ بكونها محط رحال التجار الذين كانوا يقصدون مصر من بلاد العرب والهند لبيع بضائعهم وكان بها قلعة حصينة وجنود للمحافظة ، اما الآن فهى قرية حقيرة تسمى دفادف قفط وقلعة قفط ايضا

وجاء ايضا ان ايجبت من (هيكپتاه) وهى كلمة مصرية مركبة من (هيكى) بمعنى ارض و (پتاه) وهو اسم المعبود الاله الذى كان يعبده قدماء المصريين ومعناه الخالق او المبدع

وضبط نطق كلمة هيكپتاه هو (كاهى پتاه) لان (كاهى) فى اللغة القبطية معناه ارض ، والافرنج تصرفوا فيها وحرفوها عن أصلها كتحريفهم الاسماء المنقولة

الى لغتهم . اما اسم مصر فى اللغة القبطية فهو كيمى او خيمى نسبة الى حام ابى مصرايم وقيل بل هى لفظة مشتقة من كيمى بمعنى اسود نسبة الى سواد طينتها

وقد اجمع المؤرخون المتأخرون على ان سكان وادى النيل كانوا قبل انضمامهم الى امة واحدة ، عبارة عن جملة قبائل – اشبه بقبائل العرب ، ولذلك لايبعد ان يكون بينها قبيلة تسمى قفط نسبة الى قفطايم بن مصرايم ، وربما كانت هذه القبيلة اكبر القبائل واشهرها كما يؤخذ مما نقله المقريزى ، وجميع هذه القبائل تجمعها كلمة (مصريين) نسبة الى مصرايم الذى هو ابو جميع اولاده المسماة باسمائهم ، وهذا هو الرأى الموافق لما جاء فى السفر الاول من التوراة فعلى هذا يكون كل قبطى مصريا وكل مصرى قبطيا الا فى حالة التمييز بين المسيحى والمسلم من المصريين

عدد سكان مصر حين الفتح العربى

لايعرف بالضبط عدد سكان مصر عند فتح العرب لها ، بيد ان دائرة المعارف الاسلامية قدرتهم باربعة وعشرين مليونا من النفوس وقد اعتمدت فى تقديرها هذا على نصوص المعاهدة التى عقدت بين العرب والروم وقالت ان عدد المسيحيين الذين شملتهم الضريبة كان يتفاوت بين ٦ – ٨ ملايين يضاف اليهم النساء والاطفال والشيوخ الطاعنون فى السن فلا يقل مجموع السكان عن ٢٤ مليونا

ثم قالت : والاحصاء الذى جرى فى سنة ١١٢ (٧٣٠ م) اثبت ان عدد القبط الخاضعين للضرائب هو خمسة ملايين

١٣

المقوقس

كان كتاب النبي الى المقوقس (عظيم القبط فى مصر) ـ وقد حمله حاطب بن ابى بلتعة ، وكان قد زار مصر فى الجاهلية وعرف الكثير من شؤونها ـ فاتحة عهد جديد بين مصر والحجاز

ويقول المؤرخون ان النبي ، وقف بين اصحابه فى المدينة على اثر وصوله من الحديبية فقال : ايكم ينطلق بكتابى هذا الى صاحب مصر فاجابه حاطب انا يارسول الله ـ بارك الله فيك

وتسلم حاطب الكتاب وقصد مصر على الفور وذلك فى السنة السادسة للهجرة (سنة ٦٢٨ م)

والكتاب المرسل الى المقوقس (انظر ص ١٢٥ من الكتاب الاول) نسخة من المنشور الذى وزعه النبي يومئذ على الملوك والامراء ورؤساء الحكومات التى كانت معروفة لهم فى ذلك العهد ولها صلة بالحجاز وبلاد العرب ، وقد اجاب قليل منهم بالقبول والرضاء ، وابى الاكثرون فحاربهم المسلمون وتغلبوا عليهم ، واستولوا على بلادهم الواحدة بعد الاخرى ، ولم يشذ عن ذلك سوى الحبشة فقد ابقى المسلمون لها استقلالها وتركوها وشأنها حرمة لما بينها وبين اجدادهم من صلات ومودة وقد بسطنا ذلك باسهاب فى الكتاب الاول (انظر ص ١٢٨)

والذى عليه المؤرخون الاسلاميون ان حاطبا قوبل مقابلة حسنة فى مصر ، وان المقوقس اكرم مثواه ، واعاده مع هدايا الى المدينة . ويزيد بعضهم فيقول ان المقوقس ضم كتاب النبي الى صدره وجعله فى حق عاج ، ودعا كاتبا له يكتب بالعربية ،

فكتب كتابا رقيقا ، يوردون خلاصته ، ولا يثبتون نصه وقد جاء فيه انه قال «علمنا ان نبيا قد بقي وانه سيخرج بالشام »

شخصية المقوقس

وبين المؤرخين الاسلاميين ومؤرخي القبط الذين عاصروا الفتوحات الاسلامية او جاءوا بعدها بزمن غير بعيد والمستشرقين الذين عكفوا فى الازمنة المتأخرة على دراسة تاريخ الاسلام ، ونبشوا دفائن المكتبات الاوربية ، اختلاف كبير على شخصية المقوقس فقد اثاروا حولها كثيرا من الشبهات ، وخلاصة ما ذهب اليه الاكثرون منهم :

١ ـ ان المقوقس الذى تلقى كتاب النبي هو غير المقوقس الذى فتح عمرو بن العاص مصر فى زمنه ، وتسلمها منه . وان المقوقس كان عند العرب لقبا لمن يحكم مصر كما كان كسرى لقبا عندهم لمن يملك فارس وقيصر لمن يملك الروم

٢ ـ ان المقوقس الذى هاجم المسلمون مصر فى زمنه ، عين حاكما عاما لمصر بعد جلاء الفرس عنها وبعد عقد الصلح بينهم وبين الروم . وان هركليوس ارسله بحرا فى شتاء سنة ٦٢٨ ـ ٦٢٩ ليتسلم مصر من الفرس وليعيدها الى الدولة الرومية ويتولى تنظيمها الادارى والمالى

ويقول هؤلاء استنادا الى مصادر تاريخية موثوقة ان اسمه الصحيح هو « قيرس » [1] لا المقوقس ويؤكدون انه كان روميا لا قبطيا ، وكان اسقف مدينة فاسيس فى القفقاس وان امبراطور الروم اختاره لهذا المنصب العظيم لما خبره فيه من الكفاءة والذكاء بعد ما رقاه وقلده السلطتين المدنية والدينية ، فهو البطريرك رئيس

---

(١) اثبت ذلك ساويرس بن المقفع صاحب تاريخ بطاركة الاقباط فى ترجمة للبطريرك بنيامين وقد كتب كتابه فى القرن العاشر المسيحى وهنالك وثائق خطية قديمة اخرى فى خزانة المكتبة القبطية تؤيد ذلك

السلطة الدينية وهو الحاكم الادارى العام رئيس السلطة التنفيذية وممثل الدولة الرومية فى البلاد ونائب امبراطورها العظيم

ويحمل المستشرقون الذين درسوا التاريخ الاسلامى ـ ولا سيما تاريخ فتح العرب لمصر ، وكتبوا فيه الكتب والمقالات والبحوث ـ حملات عنيفة على المقوقس هذا (قيرس) ويتهمونه بالخور والضعف والجبن ، ويصمونه بوصمة الخيانة العظمى لوطنه ودينه وقومه ، لانه سهل فتح البلاد للمسلمين باضطهاده القبط ومحاولته حملهم على تغيير عقيدتهم المذهبية ، ولانه لم ينظم الدفاع عن مصر التنظيم المطلوب حينما شعر بقرب مهاجمة المسلمين لها ولم يتخذ الاحتياط اللازم لصدهم عن الحدود ومنعهم من دخول البلاد ، ولانه سلم اليهم الاسكندرية ، وعقد معهم صلحا غير شريف مع انه لو اراد لصدهم وردهم ولقاومهم سنوات ، ولحال دون استيلائهم على ذلك الثغر العظيم ، وما كان فى امكانهم اقتحام اسواره والتغلب عليها ، وكانت سفن الروم تقصده وتلجأ اليه ، وكانت المواصلات البحرية بينه وبين العاصمة الكبرى (القسطنطينية) على احسن ما يرام

وليس من شأننا هنا ان نثير بحثا تاريخيا عويصا مبهما كهذا البحث ولا ان نناقش هؤلاء ونجادلهم ولا ان ندافع عن قيرس وقد مات من ثلاثة عشر قرنا فأمر ذلك يطول فضلا عن كونه لا يدخل فى نطاق بحثنا كما اننا لا نعرف باى منطق يطلب هؤلاء العلماء من قائد من قواد الدولة الرومية ، ان يقف وحده امام المسلمين ، ويقاتلهم ويردهم بعد ما عجز الامبراطور نفسه عن الوقوف امامهم فى الشام ، وكان يملك من القوى ما لا يقل عن ربع مليون جندى ، وارتد الى عاصمته مهزوما ، وكان ذلك شأن امبراطورية الفرس ، فلم تستطع ثباتا فى وجههم ، ولا منعهم عن احتلال عواصمها وثغورها ، وكان ذلك قبل مسيرهم الى مصر بزمن غير قصير ، فقد ظلوا يضربون فيها حتى قضوا عليها وبسطوا سلطانهم عليها كما بسطوه على اقاليم الشام وفلسطين وكيليكية وكانت من اعظم اقاليم الدولة الرومية ، وكان للروم فيها من الحصون والمعدات والمراكز العسكرية ما لا تذكر فى

جانبه قواهم ومراكزهم فى مصر ، وما كان لهم فيها سوى ثلاثة مراكز كبرى وهى :

١ ـ حصون الاسكندرية وكانت اعظمها شأنا

٢ ـ حصن نقيوس (المنوفية)

٣ ـ حصن بابليون (مصر القديمة ـ القاهرة)

وما كان جندهم يزيد هنا فى جميع أدوار النضال عن مائة الف جندى ، وهو عدد قليل بالنسبة للقوى التى حشدها الفرس والروم فى ميدانى الشام والعراق

واذا قيل لنا ان عدد القوى التى سيرها المسلمون الى فتح مصر كانت اقل من القوى التى سيروها الى الشام والعراق نجيب ان الجيش الذى سار به عمرو الى مصر ما كان يزيد كثيرا عن عدد الجيش الذى سار به الى فلسطين يوم قصدها لفتحها ، كما انه ما كان يزيد كثيرا عن عدد الجيوش الاخرى التى سيرها ابو بكر لفتح الشام والعراق .

وتلك كانت خطة المسلمين العسكرية فى سنى الفتح الاولى ، فما كانوا يسوقون قوات كبيرة الى البلاد التى يحملون عليها ، بل كانوا يرسلون قواهم تدريجيا ، و بعبارة اخرى انه لم يكن لديهم جيش قوى نظامى ، يسوقونه من مكان الى آخر كما كان شأن الروم والفرس ، وانما كانوا يجمعون قواهم من القبائل ، وكلما اقبلت قبيلة ارسلوها الى ميدان القتال بلا ابطاء ، لان وسائل التموين لم تكن معروفة عندهم حتى ذلك الوقت . ومن يقابل بين عدد الجيوش التى سيرها ابو بكر الى الشام ، وما كان مجموعها يزيد عن ١٨ الف جندى و بين ما وصلت اليه يوم اليرموك اذ بلغت اربعين الفا يجد هذه الحقيقة ظاهرة فقد نما عددها وازداد بفضل النجدات التى كانت ترسل اليها بدون انقطاع من ابناء القبائل العربية ، وكانوا يستنفرونها من سائر انحاء الجزيرة

واتبع المسلمون هذه الخطة ايضا فى فتح مصر فقد انجد الخليفة قائد جيشه

بنجدات قوية يبلغ عـددها ٨ آلاف مقـاتل و باضافتها الى القوى التى جاءت مع عمرو يبلغ المجموع اثنى عشر الف مقـاتل ، علاوة على نجـدات اخرى جاءت فيما بعـد حتى قدر عددهم فى الآخر بعشرين الف جنـدى او نحو نصف جيش اليرموك ، وهو على كل حال رقم كبير لا يستهان به ولا نظن انه كان فى استطاعة قيرس ان يفعل غير ما فعله ، وفى تسليم قيسارية بعد حصار دام سبع سنوات وكان يدافع عنهـا ابن الامبراطور بالذات ما ينقض دعوى المستشرقين ويبرهن على تحاملهم على قيرس وعدم انصافهم اياه ، فانه رغم اتصالها (قيسارية) بالعاصمة اتصال الاسكندرية ، ورغم وجود ابن هركليوس نفسه يدافع عنها وهو غير متهم عند هؤلاء بالخيانة ، ورغم كون جيشها اعظم من جيش الاسكندرية عـددا وقد قدره بعضهم بمئة وخمسين الفا ، نقول رغم ذلك كله فقد اضطرت الى الاستسلام والخضوع فى آخر الامر لان اتصالها بالعاصمة بحرا لم يغن عنها شيئا ولم يكشف عنها ضرا ولم يحل دون تغلب المسلمين عليها . والفرق الوحيد بينها و بين حصون الاسكندرية ان حصار هذه لم يزد على سنة ، وحصارها امتد سبع سنوات وقـد خضعت فى آخر الامر ودخلت فى حوزة المسلمين بعد ما فقدت الالوف المؤلفة من ابنائها . ولا نشك فى ان قيرس حقن بعـمله دم ابرياء وصان بلاده من الخـراب والدمار ووقاها شرا كبيرا بتصرفه الحـكيم فما كان فى الامكان المحافظة عليها بعـد ما سقطت كل حصون الروم وانهارت امبراطوريتهم

١٤

قوات الروم فى مصر

كانت حكومة الروم فى مصر منفصلة عن حكومتهم بالشام ومثل ذلك قواتهم العسكرية فلم يك ثمة اى صلة ادارية او عسكرية بينهما الا كونهما يتبعان امبراطورية واحدة يسبحان فى فلكها ، ويدوران فى دائرة ابراجها ، وكانت الاسكندرية وهى عاصمة الديار المصرية فى العهد اليونانى ثم الرومى تتصل بالقسطنطينية مباشرة ، ويتلق حاكمها العام التعليمات والاوامر منها ، ويرسل اليها الاموال . وكان جندها منفصلا ايضا عن جند الشام ، طبقا للخطة التى كان الروم يسيرون عليها فى ادارة ممالكهم وهى تشبه من وجوه الخطة التى يسير عليها الانكليز اليوم مع المستعمرات المستقلة (الدومنيون) فكان لكل اقليم منها استقلال ادارى (داخلى) تقريبا ، واطالما اغرى هذا الاستقلال قواد الروم بالانفصال عن دولتهم او بالاستيلاء على عرشها ، واطالما جمعوا الجموع لنزالها ، وتجهزوا لقتالها طلبا للعرش ، وكان هركليوس نفسه ، آخر من مثل هذا الدور ، قبل الفتح الاسلامى ، فقد جمع الجموع واستكثر من الانصار والاعوان حينما كان حاكما على افريقية الرومية ، ثم خرج على الامبراطور فوكاس ، سيده ومولاه ، فاستولى على مصر نفسها ، ثم غادر الاسكندرية الى القسطنطينية بحرا بما انضم اليه من سفن الاسطول الرومى ، فنزل سلانيك واتخذها قاعدة لاعماله ، وعكف على اعداد جيش قوى وعلى تجهيز اسطول بحرى يقتحم به الدردنيل

وغادر قاعدته (سلانيك) فى سنة ٦١٠ قاصدا الدردنيل ، وسرت انباء مسيره فى العاصمة الكبرى فثار الرعاع على الامبراطور ، كما جاهر انصاره والمتصلون

به سرا من رجال الدولة بالانضمام اليه وخلع طاعة الامبراطور وتخلى الجند عن سيدهم فى ساعة الشدة وخذله ضباطه وكبار رجاله وانفضوا من حوله ، ولذلك لم يلق هركليوس مقاومة ، فدخل العاصمة دخول الفاتحين ، وقبض بعض انصار الثورة على الامبراطور السابق (فوكاس) و وضعوا الاغلال والسلال فى عنقه ويديه ورجليه ، ومزقوا ثيابه وقادوه وهو على هذه الحال الى الميناء ، فعرضوه على الجيش المنتصر ليزداد حماسة وابتهاجا ، ثم نقلوه الى بيعة من بيعهم فاجتمع رجال الدولة وكبارها لمحاكمته على الذنوب التى اقترفها كما قالوا . ولما تلى عليه « قرار الاتهام » خاطبه هركليوس قائلا :

ـ اهذا سبيل حكمك

ـ وهل انت من يحكم بخير من هذا

وانتهت المحاكمة « الصورية » بالحكم عليه بالاعدام ونفذوا حكمهم فورا فقطعوا يديه ثم ذراعيه ثم شوهوا وجهه ثم بتروا رأسه ثم جروا جسده على الارض حتى ميدان السباق فعرض على الانظار ثم نقلوه الى سوق الثيران ثم احرقوه وذروا رماده فى الهواء زيادة فى التشفى والانتقام . اما الرأس فقد وضعوه على قضيب وعرضوه فى اعظم شوارع مدينتهم

وامتدت يد الانتقام الى بعض رجال فوكاس وقواده ففتك بهم العامة فخلا بذلك الجو لهركليوس فلبس التاج وتقلد الصولجان ، فكان عمله اسوأ مثال لقواد تلك الامبراطورية الواسعة ، وان لم يكن اولهم ، فقد سبقه غيره ، وتلك كانت الوسيلة الوحيدة لارتقاء العرش عندهم فى بعض العهود

ولقد اردنا من هذا الاستطراد التاريخى ، ان نقيم الدليل على ان روح التمرد والعصيان كانت منتشرة فى الجيش الرومى ، ولا سيما بين حامية مصر ، فقد اشترك بعضها فى مؤامرة هركليوس ، وقاومها البعض و وقعت وقائع ودارت معارك بين الفريقين انتهت بفوز الهركليوسيين واستيلائهم على هذا الاقليم ، فجاءه هذا واخرمنه

الى سلانيك واتخذها قاعدة لاعماله العسكرية على المنوال الذى وصفناه . وكافأ الامبراطور الجديد ، بعد فوزه ، رجال هذه الحامية بما يستحقون

بين الشام ومصر

واذا صح ما رواه مؤرخو الدولة الرومية فتكون قوات الروم العسكرية فى الشام اكبر واعظم ، فقد كان لهم فيه جيش يزيد عدد رجاله كثيرا على عدد حامية مصر كما ان حصونهم وقواعدهم العسكرية هنالك كانت اكثر منها هنا ، ويلوح لنا ان مصدر ذلك اختلاف الوضع الجغرافى بين البلادين وتباينه ، فقد كانت الامبراطورية الرومية تحاد الفرس فى شرقى الشام وفى شرقيها الشمالى ، كما كانت تحاد بلاد العرب من الجنوب والجنوب الشرقى . ويجب ان لاننسى عداء يهود فلسطين للامبراطورية لكثرة ما اضطهدتهم وآذتهم ، ولطالما حدثت مذابح فى هذا الاقليم كان اليهود ضحيتها . وبديهى ان وضع مصر الجغرافى كان يختلف عن هذا الوضع فكانت تحاد بلاد الامبراطورية فى الشرق والغرب (اى من جهة برقة والشام) وكانت للروم السيطرة المطلقة على البحار ، وما كان هنالك اى خطر من الحدود الجنوبية . ومعنى ذلك انها كانت فى امن وامان من جهة حدودها . واذا استثنينا فتنا داخلية كانت تحدث من آونة الى اخرى بين القبط وبين قوات الحكومة فالحالة كانت ساكنة مستقرة ، فى هذا الوادى المبارك ، وما كان هنالك خطر عسكرى يهدده فى ناحية من نواحيه ، لا من جهة الفرس ، ووصولهم اليه يكلفهم كثيرا من المشاق والمصاعب ، ولم يبلغوه سوى مرتين : الاولى فى عهد قمبيز ، والثانية فى عهد خسرو الاول ، وفيما عدا ذلك كانوا يكتفون بغزو الشام ولطالما بلغوا انطاكية واتجهوا منها الى الشمال قاصدين العاصمة

ويجب ان لايؤخذ من هذا ان الروم اهملوا شأن مصر من الوجهة العسكرية ، ولم ينشئوا فيها من الحصون والاستحكامات ما يدرأ عنها اخطار المهاجمات الخارجية المفاجئة فقد انشأوا حول الاسكندرية ، حاضرة البلاد ، سلسلة من

الحصون والاستحكامات العسكرية ، كفيلة برد المهاجمين من اى ناحية جاءوا كما انشأوا حصونا اخرى فى شتى المناطق

ويبالغ مؤرخو الدولة الرومية فى وصف عظمة هـذه الحصون ، و يسهبون فى الكلام عن خطورتها ، وقد سخرت مرتين فى خلال فترة قصيرة ، فقد استولى عليها القائد الفارسى سالار شاهين حينما غزا مصر سنة ٦١٧ ونصب عليها راية دولته بعد حصار لم يدم اكثر من بضعة اشهر . ثم خضعت بعد ذلك فى سنة ٦٤٠ للمسلمين صلحا بعد ما حاصروها ١٣ شهرا

ومما يستوقف النظر بوجه خاص ان القوتين العسكريتين اللتين حملتا على وادى النيل فى ذلك العهد وانتزعتاه من ايدى الروم ، كانتا غير مسيحيتين ، ولئن تم للروم اجلاء الفرس عن الوادى بعد احتلاله فقد عجزوا عن ذلك مع المسلمين الذين ما زالوا يطاردونهم و يحملون عليهم حتى استولوا على عاصمتهم ، واستصفوا بلادهم ، ويزعم المستشرقون من كتاب تاريخ مصر ان الاسكندرية ذهبت ضحية الغدر فى المرتين و يصبون جام غضبهم على رأس شاب من اهل البحرين اسمه بطرس كان فى الاسكندرية حين حصار الفرس لها ، يطلب العلم فى مدارسها و يقولون انه هو الذى ساعد الفرس وهيأ لهم سبل الاستيلاء عليها كما يصبون جام غضبهم على قيرس نفسه سواء بسواء فالاثنان متهمان بالنذالة لانهما ساعدا على اخراج هـذه الحصون من ايد مسيحية الى ايد غير مسيحية

١٥

حصون مصر

يؤخذ مما لدينا من الاخبار انه كان للروم فى مصر ثلاثة مراكز عسكرية كبيرة وهى :

١ ـ حصون الاسكندرية

٢ ـ حصن بابليون (القاهرة)

٣ ـ حصن نقيوس

وكان لهم مراكز عسكرية اخرى اقاموا فيها حامياتهم العديدة ونحن نذكر ما عرفناه من اخبارها

١ ـ حصن كريون

٢ ـ حصن سمنود

٣ ـ حصن دمياط

٤ ـ حصن الفيوم

٥ ـ حصن البهنسا (المنيا)

هذا بعض ماوصل الينا من اخبار مراكز الروم العسكرية فى هذا الوادى ومع انها مما لا يستهان بها ، الا انها دون حصون الشام فى القوة والمنعة ، لاختلاف الوضع الجغرافى كما قدمنا ولان تلك واقعة فى قلب الامبراطورية تحاد دولة كانت تنافس الروم وتحاول الاستيلاء على بلادهم وتملك جيشا قويا مدربا منظما ، يحسب حسابه ويخشى جانبه ، وما كان هنالك شىء من ذلك بالنسبة لمصر . ولا نشك فى انه لو تطوع احد الجهابذة العسكريين ونقب عن اخبار حصون الروم فى الشام ولا سيما

حصون قيسارية ، واجنادين ، و بيت المقدس ، وقنسرين ، ودمشق ، لعرف الناس انها ما كانت تقل عظمة وفخامة وتنظيما عن حصون الاسكندرية و بابليون لان حاجة الروم الى اتقانها هنالك اكثر بسبب الوضع العسكرى الخاص كما قلنا

وما يقال فى عدد الحصون وخطوط الدفاع وكثرتها فى الشام وقلتها فى مصر ، يقال ايضا فى عدد الجند ، فالنسبة تكاد تكون واحدة تقريبا . فقد كانت قواهم هنا اقل منها هنالك . وما زادت فى هذا الميدان من اول الحرب حتى آخرها عن مئة الف مقاتل ، اقيمت فى مراكز متعددة ، فى حين انهم جمعوا لليرموك وحدها ما لا يقل عن مئتى الف مقاتل ، وكذلك حشدوا قوات كبيرة اخرى قاتلت المسلمين فى كل مكان او على كل شبر

ويجب ان نذكر أيضا ان المواصلات كانت سهلة بين الشام والقسطنطينية مما اتاح للروم حشد قواهم الكبرى ، وكانوا يأتون بها من الاناضول وارمينية وقفقاسيا وسائر انحاء مملكتهم الواسعة ، وما كان هذا يتيسر لهم بمصر ، فقد اودت حروب الشام ودارت قبل حروب مصر بزهرة جيشهم ، واستنفد معظم قواهم ومعداتهم . ولذلك ما كان فى استطاعتهم ان ينجدوا مصر ، ولا ان يرسلوا اليها قوى كبيرة لصد المهاجمين الذين كانوا سكارى بخمرة الانتصارات العظيمة التى نالوها فى ميادين فلسطين والشام والعراق وايران ، بعكس عدوهم ، فقد زلزله انتصار المسلمين ، زلزالا شديدا وأضعف قواه المعنوية ، وعليها قبل القوى المادية المعول فى الحروب اذا لم نقل انهم كانوا يحسون فى انفسهم العجز عن لقاء العرب او الوقوف فى وجههم بعد ما هزموا جيوش الامبراطورية كلها

١٦

حصون الروم فى مصر

نعود بعد هـذا التعميم الى التخصيص فنصف حصون الاسكندرية وبابليون وبقية المراكز الاخرى فلا يخلو ذلك من فائدة :

١ ـ حصون الاسكندرية

يقول الامير عمر طوسن فى رسالتـه (يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢) ان الاسكندرية كانت فى عهدها القديم مدينة منيعة ، حصينة ، غاية الحصانة ، مشهورة باسوارها العديدة وخنادقها العميقة وابوابها المحكمة ، وابراجها الكثيرة الباذخة ، وحصونها العديدة الشامخة

ويقول الدكتور بطلر فى كتاب فتح العرب لمصر ان اسوار الاسكندرية كانت منيعة تحميها الآلات القوية وكانت الاقوات وافرة تزيد على حاجة حامية المدينة وكانت تقدر بخمسين الفا من الجند وكان فيها مجانيق قوية كانت ترمى من فوق الاسوار وابلا عظيما من الحجارة

« وكان البحر يحميها من الشمال وترعة النيل وبحيرة مريوط يحميانها من الجنوب وكانت من اعظم الحصون والقلاع فى ذلك العصر وقد بذل الروم جهدا كبيرا فى تحصينها »

ولقد دكت اسوار مدينة الاسكندرية ، دكها المسلمون فى زمن خلافة عثمان بن عفان على اثر ثورة ثارها الروم للقضاء على السلطة الاسلامية ومحوها ثم جددوها بعد

ذلك على منوال آخر ثم دمرت ولا تزال بقية منها انشئت فى عهد الخديوية العلوية قائمة حتى الآن

٢ - حصن بابليون

كان سمك سور هذا الحصن ١٨ قدما ، وهو مبنى بالحجارة والآجر طبقة من هذا وطبقة من تلك . وكان محيط الاسوار على شكل مربع غير منتظم ولا تعرف حتى الآن مساحته بالضبط . وانما تقدر مساحة الحصن بنحو نصف كيلو متر مربع

وكان له اربعة ابراج تمتد من الجنوب الى الشرق

وكان علو الاسوار يبلغ ٦٠ قدما فى بعض الامكنة

وكان للحصن بابان : البـاب الجنوبى وهو الاكبر وهو باب كنيسة المعلقة فى الوقت الحاضر ، وباب آخر تجاه النهر . وكان الحصن على جانب النهر يتجه اليه على طول جانبه وقد افردنا لوصفه فصلا خاصا

وكانت جزيرة الروضة كذلك وهى غربى بابليون ذات حصون ومنعة وكانت تزيد فى قوة حصن بابليون وخطره الحربى بانها كانت فى وسط نهر النيل تملك زمامه

٣ - حصن نقيوس

نقيوس هى اليوم قرية ابشادى وهى فى الشمال الغربى من منوف . وكانت ذات شأن عظيم وكان حصنها قويا وهى على الشاطئ الشرقى لفرع النيل الغربى وتقع على مسافة ٨٦ كيلو مترا من بابليون و ١٠ كيلو مترات من منوف

٤ - حصن كريون

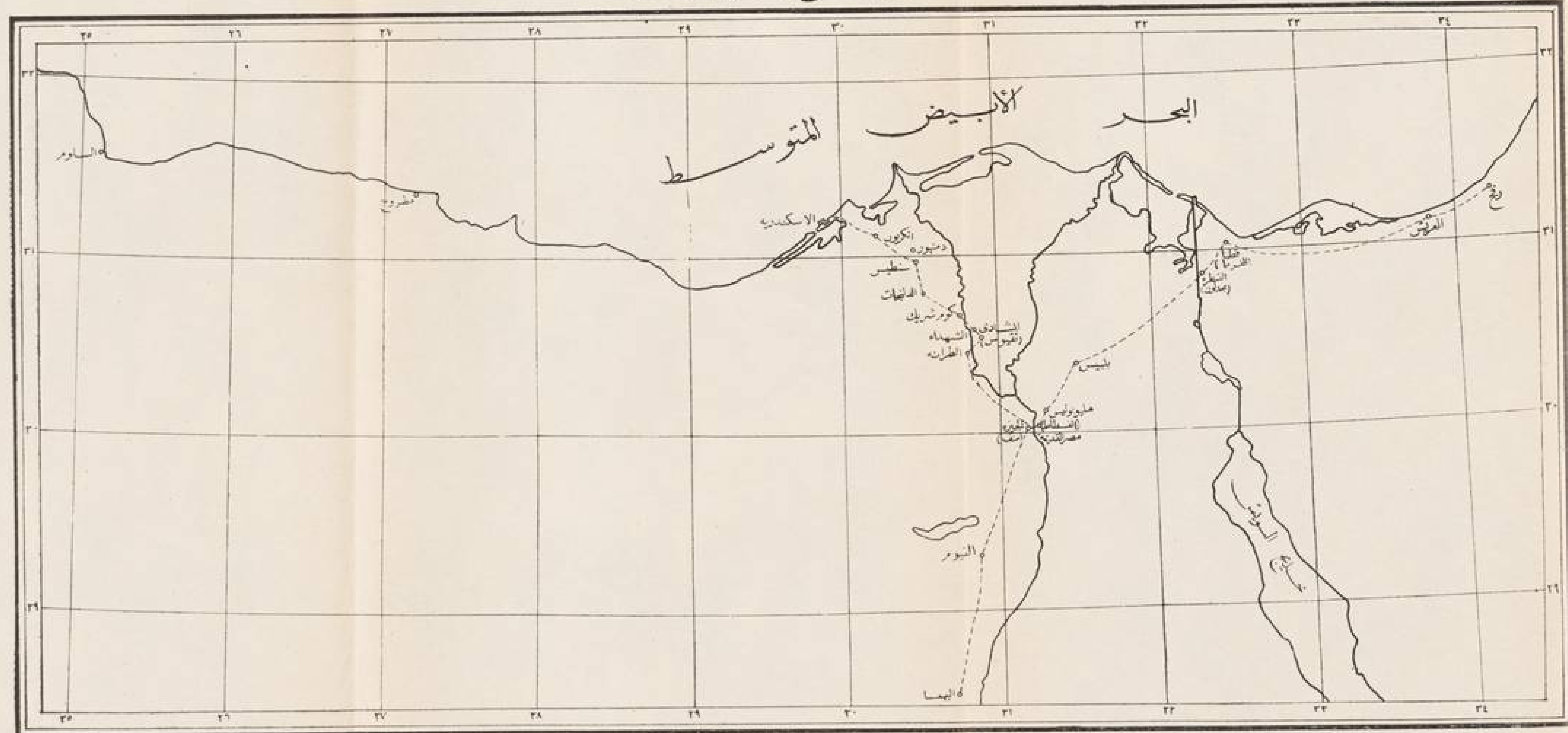
رمم الروم حصون هذه المدينة ، وكانت تؤلف خط الدفاع الاول عن الاسكندرية للقادم اليها برا من جهة الجنوب ، عندما بدأ المسلمون حركاتهم العسكرية فى وادى النيل ،

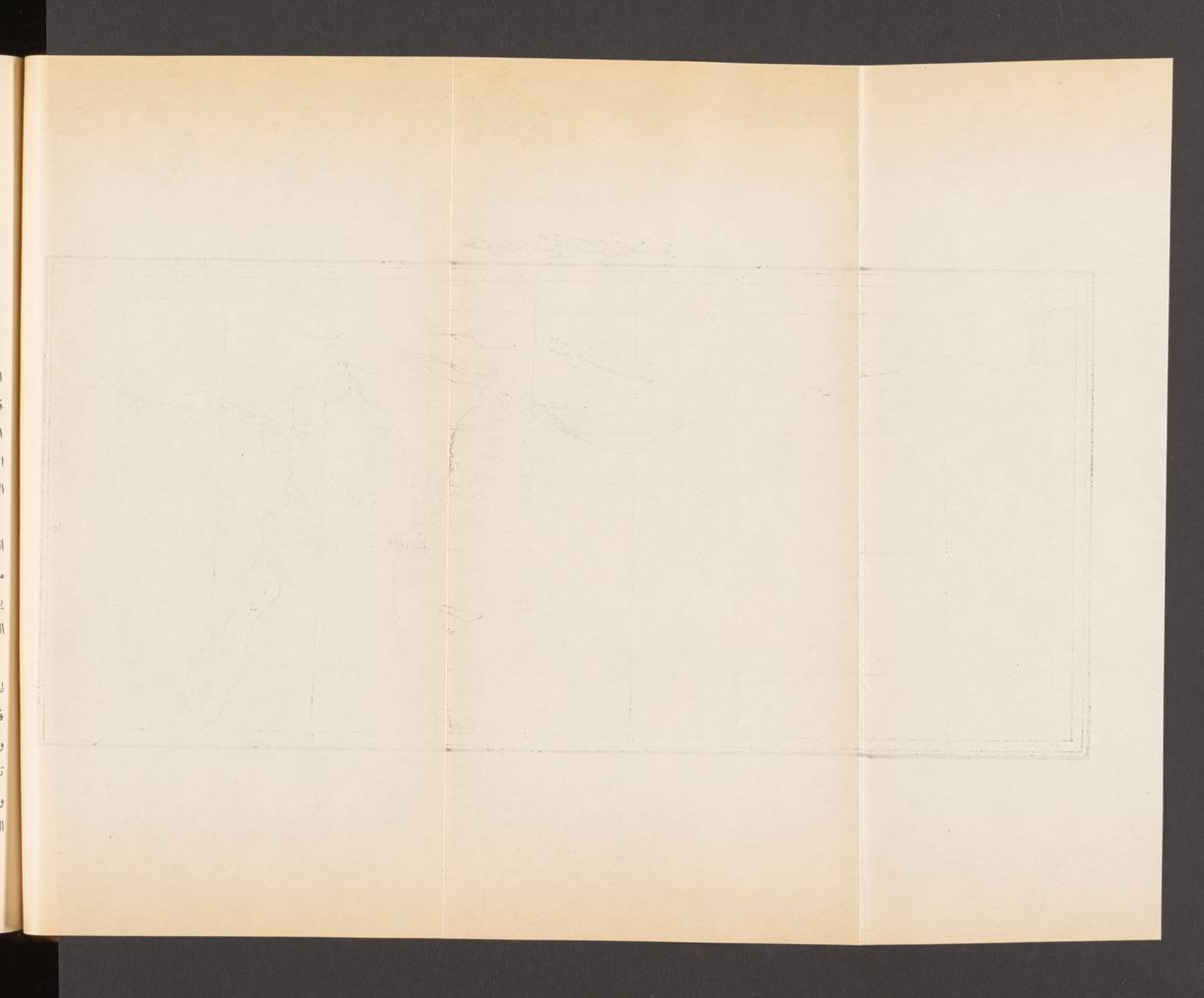
وشحنوها بالمقاتلة واعدوها اعـدادا مناسبا ولئن لم يكن لهـا ماللحصون الاسكندرية وبابليون من المنعة الا انهـا كانت من الحصون المعدودة فى ذلك العهد وتبعد (الكريون) ٣٦ كيلو مترا عن الاسكندرية فقط وهى معروفة الآن فى مديرية البحيرة

٥ ــ حصون اخرى

وكانت هنالك ايضا حصون ومراكز عسكرية اخرى منبثة فى انحـاء القطر ويدل وجودها على عناية الروم بامر الدفاع عن هذا القطر وعلى انهم لم يهملوا امره وانهم غلبوا وخضعوا للقوة القاهرة التى هاجمتهم

خريطة الفتح العربي بمصر





١٧

الروم يستعدون

لئن جهل ولاة امور الروم فى مصر خبر الحملة الصغيرة التى تم الاتفاق على اعدادها سرا بين الخليفة وقائد جيشه العام فى ميدان الشام ، ولئن جهلوا خبر مغادرتها قيسارية ، وقد فصلت عنها ليلا فلم يدر احد بسفرها ، وما كان رجالها يعرفون الى اين يسيرون ، ولئن جهلوا خبر دنوها من الحدود المصرية ، فان نبأ اقتحامها هذه الحدود واستيلائها على رفح ثم على العريش لم يعد سرا من الاسرار ولا خبرا من الاخبار التى تكتم ولا تنشر

ويلوح لنا ان ولاة الأمور العسكريين فى مصر فوجئوا بدنو الجيش العربى مفاجأة ما كانت تخطر لهم ببال ولعل هذا افضل تفسير يفسر عدم اتخاذهم شيئا من التدابير لصده و وقفه فى الصحراء او فى مناطق الحدود على الاقل ولعل هؤلاء كانوا يظنون ان بجيش الروم الكبير فى الشام القدرة على مقاومة العرب فارتاحوا الى هذه العقيدة وناموا ملء اجفانهم

وتبدل الموقف حينما وصل عمرو الى العريش وظهر انه يقصد مصر ويسعى للاستيلاء عليها و بترها من جسم الامبراطورية الرومية ، كما بتر جارتها فلسطين ، فاضطرب ولاة الامور حينما سمعوا ناقوس الخطر يقرع وادركوا ان ما وقع فى الشام وفلسطين والبلقاء وحوران واقع بهم ، وان مصيرهم سيكون مصير اخوانهم ، والامور تقاس باشباهها ونظائرها ، ولكنهم تجلدوا وعزموا على استنفاد الجهد فى النضال والمقاومة ، ولا بد لنا من الاعتراف هنا بان الروم ابدوا بسالة زائدة فى حروبهم العديدة مع العرب واتوا بالخوارق من ضروب الشجاعة ، ولئن لم يوفقوا الى اتقاء

الخطر الذى احدق بهم وجرفهم فالذنب ليس بذنبهم ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها

ويقول مؤرخو الدولة الرومية ، ان قيرس (الحاكم الرومى العام لوادى النيل يومئذ) غادر مقره فى الاسكندرية وجاء الى حصن بابليون مسرعا لينظر فى اعـداد المعدات العسكرية وليتخذ من التدابير ما تقضى الحاجة باتخاذه ، فلا يستولى العدو على البـلاد بسهولة ولا تسلم اليه بلا ثمن . ويقولون انه كان فى مقدمة ما عمله انه اصـدر الأوامر بارسال قوة عسكرية كبيرة الى الفرما (قاطية) وتؤلف خط الدفاع الاول عن بابليون من جهة الشرق ، فارسلت اليها ، وعكف رجالها على تحصينها واعدادها للقاء الغزاة فلا يقتحمونها

١٨

الفرما

واصل عمرو التقدم من العريش متجها الى الجنوب فبلغ مدينة الفرما وتبعد عن العريش ١٢٠ كيلو مترا وتقع فى جنوبيها وعن القنطرة ٣٥ كيلو مترا وتقع الى شماليها فنزل حولها وضرب الحصار عليها

ويقول الجغرافيون فى وصف الفرما انها كانت مدينة قديمة بين العريش والفسطاط وشرقى تنيس على ساحل البحر الابيض

اما الفرما اليوم فهى تل ينزله بعض البدو ويسمونه قاطية وهو قريب من خط سكة حديد فلسطين

ونحن فى غنى عن القول ان حملة عمرو الصغيرة ما كانت تملك شيئا من معدات الحصار التى لا بد من الاستعانة بها فى ضرب الحصون واخضاعها ، ولقد قلنا فى ما سبق ان العرب ما كانوا يعرفون هذا الضرب من ضروب الفنون الحربية

وضرب عمرو نطاقا حول الفرما واقام يرقب حركة الحامية ودعاها الى النزال فخرجت اليه ودارت معارك ليست بذات شأن كان الروم يسرعون بعدها الى دخول حصنهم

واغتنم احد ابطال العرب واسمه اسميقع بن وعلة السبأى فرصة اشتباك العرب والروم فى قتال ، فاندفع نحو باب الحصن فاقتحمه ، وحال بين الروم و بين الرجوع الى الحصن ، حينما ارتدوا بعد المعركة ، واسرع بعض اخوانه فانضموا اليه فوقعت الحامية الرومية بين نارين فاستسلمت ، واستولى العرب على المدينة

وحصونها ، وكان هذا اول فوز عسكرى نالوه فى هذا الميدان

والمؤرخون مختلفون فى تحديد زمن حصار الفرما ، فيجعله بعضهم شهرا واحدا ويعده آخرون شهرين . وعلى كل فقد شجع فتح الفرما فى خلال هذه المدة القصيرة العرب ، مع خلو ايديهم من ادوات الحصار فاندفعوا الى الامام واستبشروا

وكتب عمرو بن العاص من الفرما الى الخليفة يبشره بما حازه من نصر فى العريش والفرما ويطلب اليه ان يوافيه بالنجدات الكافية ، لان عمرا ما كان يجهل عظمة حصون مصر ومناعتها وكثرتها ، كما انه ما كان يجهل ان احتلال قطر عظيم كمصر لايتيسر باربعة آلاف جندى مهما اوتوا من الشجاعة والقوة والنجدة ولكل شىء حد وقياس

١٩

بلبيس

لم يطل عمرو الاقامة فى الفرما بل واصل زحفه ، فبلغ مدينة مجدول (القنطرة اليوم) ثم سار الى القصاصين فوادى الطميلات وظل يمشى بدون مقاومة حتى بلغ بلبيس وهى مدينة معروفة اليوم فى القطر المصرى ومن اعمال مديرية الشرقية تقع فى طرف الصحراء الشرقية الغربى على الطريق بين القاهرة والسويس وتبعد عن الاولى ٥٥ كيلو مترا فقط وتمر بها سكة حديد تسير من القاهرة حتى المنصورة وتبعد عن الفرما ١٤٥ كيلو مترا منها ٣٥ الى القنطرة و١١٠ من هذه الى بلبيس

وزار كاتب هذه السطور بلبيس للبحث عما قد يكون هنالك من آثار فألفاها قائمة فى نفس المكان الذى كانت تقوم فيه بلبيس القديمة يؤيد ذلك وجود كثير من الاحجار الرومية والفرعونية منبثة فى ارجائها ، ولمصلحة الآثار المصرية خفراء لمراقبة الحفر ومصادرة ما قد يعثر عليه السكان من آثار قديمة

ومما عثر عليه فى اثناء بحثه مقبرة قديمة يزورها سكان المدينة المسلمون للتبرك ويقولون انها مقبرة القتلى الذين سقطوا فى معركة بلبيس بين عمرو والروم ويسمونها « مقبرة السادة » ويحوطونها بالرعاية والاحترام

وكذلك ارشد الى ضريح آخر يقولون انه ضريح سيدى عبد الله امير الجيش ويصفونه بانه كان من قواد جيش عمرو وانه سقط فى تلك المعركة فدفن هنالك وقبره محترم ، وبقربه مسجد للصلاة ويزوره المسلمون للتبرك . والضريحان : ضريح السادة وضريح سيدى عبد الله واقعان فى وسط البلدة الحاضرة وهما الاثران الوحيدان الباقيان من آثار تلك الغزوة الكبرى

استعداد الروم فى بلبيس

وكان الروم قد استعدوا للقاء عمرو فى بلبيس وحشدوا فيها قوات كبيرة ، املا بان يتسنى لهم درء الخطر الذى يهدد مركزهم فى وادى النيل ومعنى ذلك ان القوة التى اقاموها هنا تؤلف خط الدفاع الثانى عن حصن بابليون بعد ما سقط خط الدفاع الاول فى الفرما ولم يقو على الثبات امام المهاجمين

ويقول بعض المؤرخين ان اريطبون قائد الروم الاكبر فى فلسطين كان يقود قواهم فى هذا الميدان ، فقد خرج هذا على رأس القوة الى بلبيس محاولا ان يثأر لنفسه وقومه من العرب الذين هزموه فى فلسطين واضطروه ان يلجأ الى مصر فدارت عليه وعلى جيشه الدائرة ، وكان اريطبون نفسه من جملة القتلى واستولى عمرو على بلبيس بعد حصار امتد نحو شهر وبذلك فتح طريق بابليون (مصر) امامه ولم يبق عائق يعوق تقدمه اليها ، وذلك فوز لايستهان به ، ناله المسلمون بعد معركتين خاضوهما مع الروم وهزموا جيشين كبيرين من جيوشهما يفوقانهم اضعافا مضاعفة فى العدد والعدد ، وقد لانعدو الصواب اذا قدرنا الجيش الذى استقبلهم فى سهول بلبيس بعشرات الالوف ، وما كان الروم ليجازفوا بارساله لولا وثوقهم من قدرته على المقاومة والثبات

٢٠

عمرو يستميل القبط

يقول ابن كثير وهو من ثقات المؤرخين الاسلاميين انه لما بلغ عمرو بن العاص باب مصر لقيه جند ارسله المقوقس فلما تصافوا قال لهم عمرو لاتعجلوا حتى نعذر اليكم ليبرز الى ابو مريم وابو مريام فبرزا اليه فقال لهما :

انتما راهبا هذه البلاد فاسمعا :

ان الله بعث محمدا بالحق وامره به وامرنا به محمد وأدى الينا كل الذى امر به ، ثم مضى وتركنا على الواضحة ، وكان مما امرنا به الاعذار الى الناس ، فنحن ندعوكم الى الاسلام ، فمن اجابنا فمثلنا ، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية ، وبذلنا له المنعة ، وقد اعلمنا اننا فاتحوكم واوصينا بكم حفظا لرحمنا منكم . وان لكم ان اجبتمونا بذلك ذمة الى ذمته ، ومما عهد الينا اميرنا « استوصوا بالقبطيين خيرا » فان رسول الله اوصانا بالقبطيين خيرا لان لهم ذمة ورحما »

ـ مرحبا بك واهلا وامنا حتى نرجع اليك

ـ ان مثلى لا يخدع ، ولكننى امهلكما ثلاثا ، لتنظرا ولتناظرا قومكما ، والا ناجزتكم

ـ زدنا

ـ ازيدكم يوما

ـ زدنا

ـ ازيدكم يوما

فرجعا الى المقوقس ، فابى اريطبون ان يجيبهما ، وامر بمناهدتهم ، وقال لأهل مصر : اما نحن فانا نجتهد ان ندفع عنكم

تلك هى خلاصة ما اورده ابن كثير فى تاريخه ، دون بعض المؤرخين الآخرين ، وما نقلنا هذه الرواية الا لانها تتفق اجمالا والخطة التى كان المسلمون يسيرون عليها فى حروبهم فما كانوا يهاجمون بلدا من البلدان الا بعد ان ينذروا اهله ويدعوهم الى الاسلام فان ابوا فالجزية والا فالقتال

وعلى كل فالعلاقات الودية بين القبط والعرب قديمة ، وكان فى مكة كما يؤكد بعض الباحثين جالية قبطية يحوطها العرب بالعناية والرعاية ، وكذلك فيجب ان لاننسى ان السيدة مارية وهى قبطية ولدت للرسول نجله الوحيد ابراهيم ولم يعش طويلا

ولما كان من عادة العرب ، ان يحرصوا على صلة النسب ويرعوا حرمتها ، فقد اوصى الخليفة عمر بن الخطاب قائد حملته الى مصر بالقبط لان لهم صلة ورحما . وقد نوه عمرو فى حديثه مع رسولى المقوقس (قبرس) بهذه الصلة ويقول اصحاب السير ان هاجر ام اسماعيل جد العرب كانت قبطية

وعامل العرب القبط معاملة حسنة عند ما تم لهم فتح مصر فاعادوا البطريرك بنيامين الى رئاسة كنيسة القديس مرقس ، كما اعادوا رؤساء الابرشيات الآخرين وازالوا الاضطهاد الدينى ، واستعانوا بالقبط فى ادارة مصالح الحكومة واصطفوهم وقربوهم ، ويقول يعقوب نخلة روفيله فى كتاب « تاريخ الامة القبطية » ص ٥٤ ما نصه « ولما ثبت قدم العرب فى مصر ، شرع عمرو بن العاص فى تطمين خواطر الاهلين واستمالة قلوبهم اليه ، واكتساب ثقتهم ، واول شىء فعله من هذا القبيل استدعاؤه بنيامين البطريرك وقد سبق القول بانه كان مختفيا ، وكتب امانا وارسله الى جميع الجهات يدعو فيه البطريرك للحضور ولا خوف عليه ولا تثريب . ولما حضر وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع اكرمه ، واظهر له الولاء ، وأقسم له بالايمان

على نفسه وعلى رعيته ، وعزل البطريرك الذى كان اقامه هركليوس ، ورد بنيامين الى مركزه الاصلى معززا مكرما ، وكان بنيامين هـذا موصوفا بالعقل والمعرفة حتى سماه بعضهم بالحكيم ، وقيل ان عمرا لما تحقق ذلك منـه قربه اليـه ، وصار يدعوه فى بعض الاوقات ، ويستشيره فى بعض الاحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها ، وقد حسب القبط هذا الالتفات منة عظيمة وفضلا جزيلا لعمرو ، الى ان قال :

«ثم اخذ عمرو فى تنظيم البلاد ، ولما كان يعلم ان صاحب الدار ادرى بما فيها ، استعان بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة ، تضمن راحة الاهالى والوالى معا ، فقسم البلاد الى اقسام يرأس كلا منها حاكم قبطى له اختصاصات وحـدود معينة ينظر فى قضايا الناس ، ويحكم بينهم ، ورتب مجالس ابتدائيـة واستئنافيـة مؤلفة من اعضاء ذوى نزاهة واستقامة ، وعين نوابا مخصوصين من القبط ومنحهم حق التدخـل فى القضايا الخاصـة بابناء طائفتهم ، والحكم فيهـا بمقتضى شرائعهم الدينية والاهليـة فكانوا بذلك فى نوع من الحرية والاستقلال المدنى وهى مزية جردوا منهـا فى ايام الدولة الرومانية . ولذلك لم يجعلوا الحكومة فى راحة بال كما تقدم

« وضرب الخراج على البلاد بطريقة عادلة وولى عليها متوليا من ذويه يقبضه على اقساط فى آجال معينة حتى لايتضايق اهل البلاد

« ورتب الدواوين فاختص القبط بمسك الدفاتر وسائر الاعمـال الكتابيـة والحسابية ، وكانت كلها تجرى باللغة القبطية ، وبلغ ما جباه من الخراج فى السنة اثنى عشر مليونا من الدنانير ، مع ان الذى كان يجبيه المقوقس فى ايام الروم لم يكن اقـل من ثمانية عشر مليونا . وبالجملة فان القبط نالوا فى ايام عمرو بن العاص راحة لم يروها منذ ازمان ــ اهـ

وفى كتب التاريخ الاسلامى كثير من الاخبار والروايات الدالة على ان القبط كانوا يعطفون على العرب ويعجبون بهم وبالاعمال التى عملوها ، ويرون فيهم منقذين من ظلم الروم الذين جاروا عليهم واقصوهم عن الوظائف الحكومية بامر الامبراطور هركليوس كما تقدم ، ومنعوا استخدامهم واضطهدوهم دينيا ، وحاولوا حملهم على تغيير

مذهبهم وعقيدتهم مما اضطر البطريرك نفسه ورؤساء الابرشيات الى الاختفاء تخلصا من الاضطهادات كما ارهقوهم بالضرائب

ويحاول بعض المستشرقين جحد هذه الحقائق ، مناديا بان القبط كانوا ضالعين مع الروم وانه لا صحة لكل ما يرويه المؤرخون عن عطفهم على العرب وتأييدهم لهم ويأتى بادلة وهمية ، استقاها من مصادر يونانية او رومية كتبت بعد الحوادث بزمن بعيد ، ولا يمكن اقامة برهان مادى على صحتها ، فغير طبيعى ان يقف القبط الى جانب الروم فى نضالهم ذاك وهم يشاهدون الامبراطورية الرومية تنهار وتتداعى ويشاهدون العرب ويطاردون الروم فى كل مكان ، ويقتحمون الممالك ، ويكتسحون الامصار ، ويحملون مصباح العدل والمساواة والاخاء الحقيق ، ويأتون لانقاذهم من الذين ظلموهم ، وجاروا عليهم ، واضطهدوا رؤساءهم ، وانتهكوا حرمة كنائسهم وديارهم وصادروها ، واخرجوهم من مناصبهم وعاملوهم اسوأ معاملة ، ثم يقفون فى جانبهم ، وهم يعرفون ان امرهم الى زوال وفناء لاجرم ان المنطق السليم ينكر هذا ولا يقره

وخلاصة القول اننا نعتقد ان المستشرقين الذين يحاولون فيما يكتبونه عن فتح العرب لمصر جرح ما يرويه المؤرخون الاسلاميون من عطف القبط على العرب وتطوع بعضهم فى خدمتهم ، وتمنيهم الفوز والنجاح لهم ، لينقذوهم من ظلم الروم واضطهادهم الدينى والسياسى والادارى ، يرمون الى اغراض مضمرة بانكار تلك العلاقات التاريخية الوثيقة بين هذين الشعبين ، واظهار القبط بمظهر المقاوم للفتح العربى ، الكاره له ، مع ان العرب لم يعتدوا عليهم كما اعتدى غيرهم من الفاتحين ، بل اطلقوا لهم الحرية الدينية وقربوهم منهم عملا بتعليمات خليفتهم ، فقد اوصاهم بالقبط خيرا ، حينما وجههم الى مصر لما بينهم وبين المسلمين من صلة ورحم ، وامتثالا لأوامر نبيهم وقد قال لهم قبل وفاته « ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لهم ذمة ورحما »

وجاء فى حديث آخر « اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير اجناد الارض »

وجاء فى حديث آخر « استوصوا باهل مصر خيرا فان لهم نسبا وصهرا »

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول « اهل مصر (القبط) اكرم الاعاجم كلها ، واسمحهم يدا ، وافضلهم عنصرا ، واقربهم رحما بالعرب عامة ، وبقريش خاصة »

٢١

الازبكية

استحر القتال بين المسلمين والروم فى منطقة بلبيس ودارت معارك شديدة بينهما فقد جمع هؤلاء جموعا كثيرة بقيادة اريطبون ، وصمموا على المقاومة والنضال حتى النفس الاخير ، املا بان يردوا العرب من حيث جاءوا . فلم يغن عنهم ثباتهم شيئا ، بل هزمهم عمرو وشتتهم ففروا مذعورين تاركين ثلاثة آلاف اسير . وبديهى ان جيشا يترك مثل هذا العدد من الاسرى يضاف اليهم الف قتيل لايقل عدده عن بضعة عشر الفا على اقل تقدير ، فى حين ان جيش المسلمين ما كان يزيد على ثلاثة آلاف ، اذا استثنينا الذين قتلوا فى المعارك التى دارت او الذين فقدوا او مرضوا او تخلفوا ولا يخلو الامر من ذلك عادة فى الجيوش زمن الحرب

واثر فى نفوس المصريين انتصار العرب فى بلبيس وكانت تعد من المراكز الكبرى فى المنطقة الشرقية ، وكان الروم يعتمدون على الجيش الذى حشدوه فيها واوقع الذعر والاضطراب فى صفوفهم ، وكانت اخبار الفتح الاسلامى فى الشام والعراق وفارس ، تملأ الدنيا دويا ، والآذان طنينا ، وكانت حديث الناس فى خلواتهم وجلواتهم ، فازدادوا للعرب تبجيلا وتعظيما ، والناس مفطورون على احترام الشجاعة والفروسية ، وعلى حب الشجاع الباسل ، يهتفون له ويحدبون عليه مهما كان دينه وجنسه ، ويحتقرون المغلوب الذليل ، ويزدرونه مهما كان قريبا منهم محببا اليهم

الى الخانكة

وبعد ما استراح عمرو فى بلبيس ودفن قتلاه ورتب صفوفه واعد عدته ، اصدر الاوامر الى قواده بالزحف فسار ملتزما جانب الصحراء الشرقية ، غير مبتعد عنها ، حتى بلغ الخانكة وتبعد عنها ٣٠ كيلو مترا ومنها تقدم الى المطرية وتبعد عن حصن بابليون ١٧ كيلو مترا فقط ، ولم يلق ادنى مقاومة فظل مواصلا التقدم حتى ام دنين وكانت فيها حامية للروم اعدت لمقاومة عمرو ومنازلته

احتلال ام دنين

وام دنين هذه كانت قرية صغيرة على ضفة النيل الشرقية فى شمال حصن بابليون بادت واندثرت وقام فى مكانها حى الازبكية وهو الآن فى قلب القاهرة وكانت تسمى المقس ايضا ، وكان الروم قد جمعوا فيها جموعا غفيرة لملاقاة عمرو وكانت بمثابة الخط الامامى لحصن بابليون

ووقف عمرو فى ام دنين لمناجزة الروم ، وكانوا بقيادة الجنرال تيدور قائد الروم العام فى مصر وقد جاء الى هذا الميدان ليدير حركة القتال بالذات ، وكان هنالك ايضا قيرس الحاكم الادارى العام

وكان ثمة نشاط مشهود بين ولاة الامور الروم ، وقد اقلقهم تقدم العرب وايغالهم فى البلاد ، وكانوا يحشدون القوى من هنا وهنالك ويجندون الانصار ويتخذون من التدابير مايظنون انه يدرأ الخطر وينقذهم منه

وحفر الروم الخنادق فى منطقة ام دنين وانشأوا الحصون للدفاع وملأوها بالمقاتلة ، واثاروا الحماسة والغيرة فى صدور جندهم

ولم ترهب استعدادات الروم فى ام دنين عمرا ولم تزعجه ولم تحمله على تغيير شىء من خططه ، لانه الف منهم ذلك ، والف ان يهزمهم ويشتت جموعهم فقد انتصر

عليهم فى جميع المعارك التى دارت بينه و بينهم ، ولم يفوزوا عليه فى معركة واحدة

ودارت بين عمرو والروم معارك فى هذا الميدان انتهت بما جرت العادة ان تنتهى به المعارك التى تدور بينهم و بينه اى بهزيمتهم وتشتيت جموعهم والاستيلاء على هذا المركز العسكرى الكبير ، فكان اول فرضة على النيل تدخل فى حوزة العرب ، وقد اتخذها عمرو وازعا عسكريا لجيشه فى تلك الفترة العصيبة من فترات حربه مع الروم

٢٢

حصار بابليون

تدل بقايا حصن بابليون الماثلة اليوم فى مصر القديمة ويثبت الرسم الذى وضعناه له انه كان من امنع حصون الروم فى وادى النيل بعد الاسكندرية ومن اعظم مراكزهم العسكرية فى مصر الوسطى

وحشد الروم فى هذا الحصن وفى الاماكن المجاورة له قوى عظيمة ولوها كبار قوادهم وضباطهم وملأوا ابراجه وشرفاته بالجنود والمقاتلة استعدادا للدفاع والنضال

وواصل عمرو زحفه بعد ما احتل ام دنين الى حصن بابليون لمحاصرته اذ لم يبق هنالك عائق يعوق تقدمه بعد ما هزم الروم وانتصر عليهم فى بلبيس وام دنين

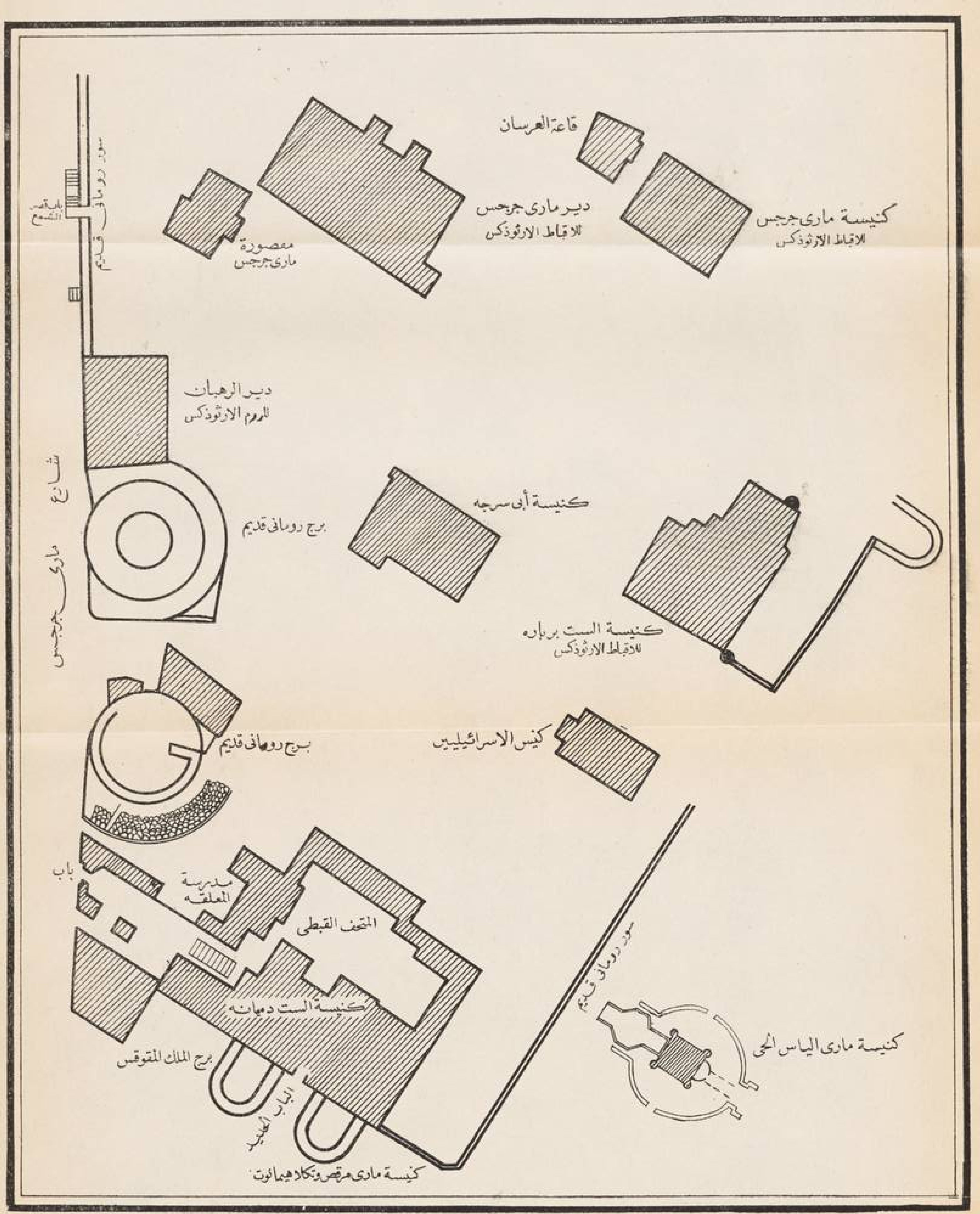
وكان على عمرو ـ بعدما بسط سلطانه على الجانب الشرقى من مصر السفلى واستولى على تلك المنطقه الواسعة الممتدة من رفح حتى العريش فالقنطرة فبلبيس فام دنين (الازبكية) ولا يقل طولها عن ٣٣٠ كيلو مترا ـ ان يختار احدى خطتين فاما ان يهاجم الحصن ويضايقه ويعمل للاستيلاء عليه فاذا نجح وفاز خضعت له مصر العليا مع الجزء الاكبر من مصر الوسطى حتى حدود الساحل ، فيسير بعد ذلك الى الاسكندرية وكانت عاصمة القطر العسكرية والسياسية والادارية ويهاجم حصونها واما ان يقصدها (اى الاسكندرية) مباشرة ويهاجمها فاذا تم له الاستيلاء عليها خضع له الوادى بخضوعها

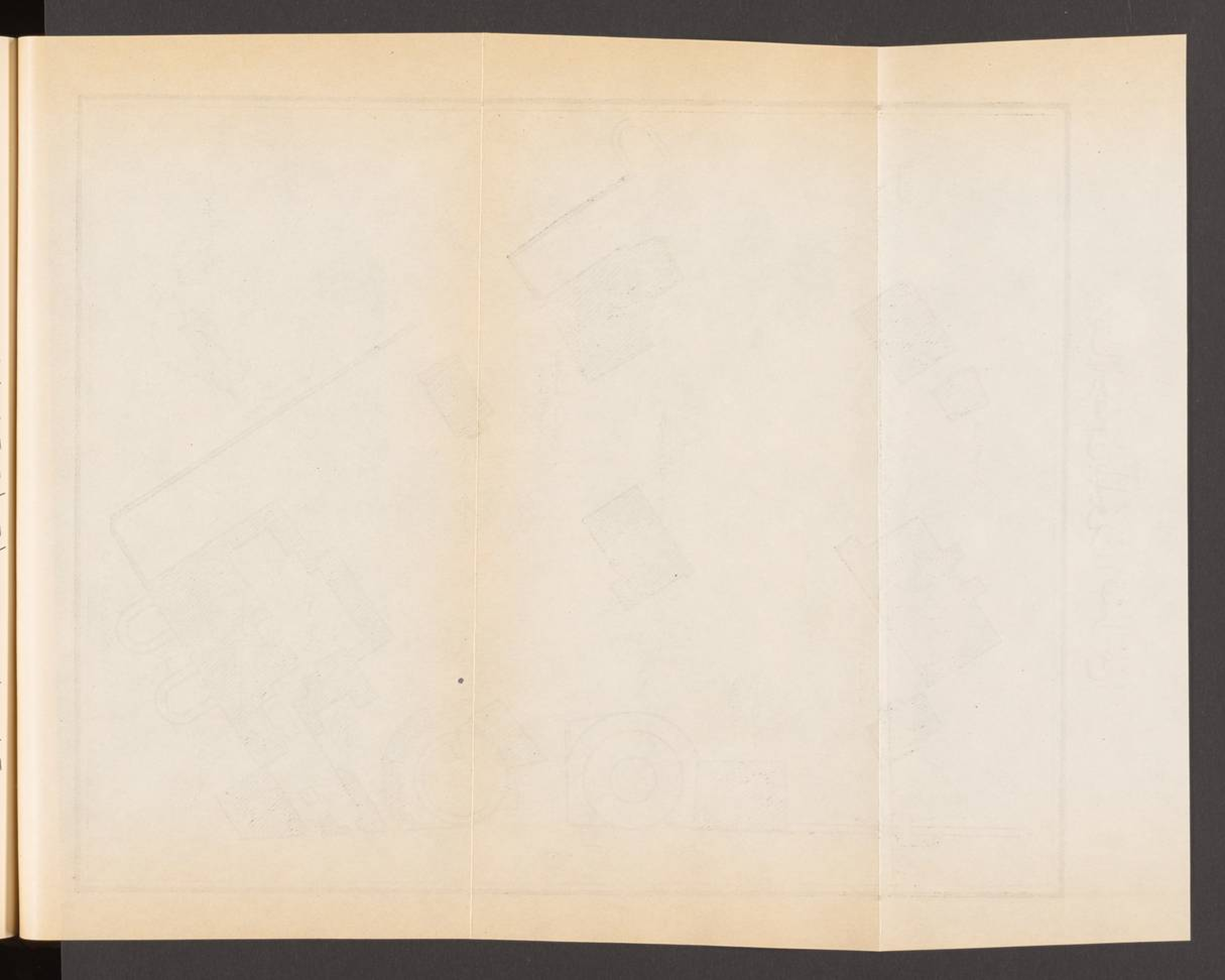
واختار عمرو الشق الاول لانه اسلم واسهل وفضل البدء بمهاجمة الحصن على

ان يسير بعد ذلك سيرا طبيعيا هادئا الى الاسكندرية فيحاصرها ويفتحها كما فتح غيرها من العواصم والمراكز فليست مما يستعصى عليه او يقف فى سبيله . ويكون خط رجعته فى هذه الحالة مضمونا ، وتكون مواصلاته مع الشام والحجاز مصونة ، بعكس ما لو سار الى الاسكندرية وترك الروم وراءه فى الحصن فلا يضمن خط رجعته وعدم مهاجمتهم له من الوراء

ورأى عمرو بعد ما استقر قراره على تنفيذ هذه الخطة ان يعبر النيل من الضفة الشرقية الى الضفة الغربية فعبره بالسفن التى وضع يده عليها حينما استولى على ام دنين ، وقام بجولة عسكرية فى مصر الوسطى لارهاب عدوه وازعاجه وحمله على تجزئة قواه الكبرى المحشودة فى الحصن قبل ان يتقدم لخوض المعركة الكبرى ، وكان ينتظر ورود النجدات التى طلب من الخليفة ان يمده بها لاتمام فتح وادى النيل . على ان بعض المؤرخين يزعم ان عمرا ارتفع بجنده بعد معركة ام دنين الى الجبل الاحمر فى طرف العباسية الشرق الشمالى ، ولئن كان ذلك معقولا لان الجيش حينئذ يكون فى مأمن من غارات الروم فاننا نرجح ان يكون بدأ بكرته على الجيزة والفيوم ثم عاد فاتخذ هذا الجبل مقرا له ، وتعد كرته تلك من اعظم المناورات العسكرية كما تدل على جرأته وسعة حيلته وقد اورد حنا النقيوسى تفصيلاتها فى تاريخه

بقايا حصن بابليون (قصر الشمع)





٢٣

الجيزة والفيوم والبهنسا

نفذ عمرو خطته العسكرية بجرأة ومهارة فعبر النيل الى الضفة الغربية بعد ما اقام حامية فى ام دنين للمحافظة عليها ولصيانة خط مواصلاته مع بلاده ، وواصل تقدمه حتى مدينة ممفيس (عاصمة الفراعنة القدماء) وقد بادت واندثرت اليوم وقامت فى مكانها مدينة البدرشين من مديرية الجيزة وتبعد عن العاصمة نحو ٢٠ كيلو مترا الى الجنوب ، وكانت عامرة نامية ذلك العهد ، فاستولى عليها بدون عناء ثم اتجه نحو الغرب قاصدا اقليم مدينة الفيوم . وتبعد مدينة الفيوم عن مصر القديمة نحو ١٠٠ كيلو متر بطريق الصحراء (الجبل) وقبل ان يبلغها جاءته الاخبار بان الروم فى الفيوم استعدوا للقائه فقرر عدم الاشتباك معهم وقصد البهنسا وتبعد عن الفيوم نحو ١٠٠ كيلو مترا

البهنسا

ولقد بادت مدينة البهنسا القديمة واندثرت اليوم وكانت تقوم فى البر الغربى للنيل على بعد ١٦ كيلو مترا من الشاطىء فى سفح الجبل الغربى واحتلها من دون مقاومة

وفى مركز بنى مزار من اعمال مديرية المنيا تل اسمه تل البهنسا وهو مثبت فى خرائط مصلحة المساحة والى جانبه اسمه بالرومية (اوكسيرنختوس) ويظن انه البهنسا القديمة

عمرو ينازل الروم

واتصل بعمرو وهو فى البهنسا ان قائد الروم فى الفيوم واسمه حنا يسير وراءه بقوة قليلة فكر عليه ، فاضطرب هذا وحاول الرجوع الى معسكره فى ابو يط (غير معروف اليوم ويرجح ان يكون مركزها شرق اللاهون) فأدركه وحاصره وفتك به ومزق قواه

وحشد الروم قوات كبيرة على الأثر فى ابو يط وعززوا حامياتهم فى اقليم الفيوم ولكن بعد فوات الوقت ، لان عمرا ارتد الى الشمال ، بعد ما القى الرعب فى مصر الوسطى (الجيزة والفيوم وبنى سويف) وحمل الروم على القيام بتعبئة جديدة ، ولا بد لنا من القول ، انه مع قلة عدد جيشه ، بالنسبة لجيش الروم ومع انه كان يعمل فى ارض عدوه ، فقد كان ينفذ حركاته العسكرية بجرأة ومهارة واقدام ، ويسير شرقا وجنوبا وغربا غير حاسب لعدوه كبير حساب ولا عابىء بما يعده من معدات ويحشده من قوى ، وقد لانكون مبالغين اذا قلنا انه كان للروم يومئذ فى منطقتى القاهرة والفيوم ما لايقل عن ٦٠ الف جندى يستندون الى سلسلة منيعة من خطوط الدفاع والابراج الحصينة ، ولديهم كل ما يحتاجون اليه من المعدات العسكرية والميرة علاوة على انهم يقاتلون فى وسط بلادهم ، فى حين ان جيش عمرو ما كان يزيد حتى ذلك الوقت اى حتى غزوه للجيزة والفيوم وبنى سويف على ثلاثة آلاف مقاتل ، لا يكادون يملكون شيئا من معدات الحرب يهاجمون بلادا يعدون غرباء فى اراضيها ، ولا يعرفون سوى القليل من شؤونها واخبارها ، فلسانهم غير لسانها ، ودينهم غير دينها ، والميزة الوحيدة التى كانوا يمتازون بها على الروم ــ وقد ضمنت لهم التفوق ــ هى القوة الادبية او الروحية او قوة الايمان الصحيح وقد ملأت صدورهم وملكت شعورهم وحواسهم فاندفعوا بقوتها فدكوا الحصون والخنادق ، وفتحوا العواصم والثغور ، لا يقف حصن فى سبيلهم ، ولا تستطيع قوة مهما كبرت ان تصدهم ، ففعلوا فى خلال بضع سنوات ما لايزال يرن صداه فى اذن التاريخ

وعملوا من الاعمال العسكرية ما يعد خارقة الخوارق ومعجزة المعجزات ، فهدم امبراطوريتين عظيمتين وكانتا تمتلكان اعظم جيوش العالم ليس من الحوادث التى يسهل تعليلها ، والخوارق والمعجزات لا تعلل ولا تدخل فى دائرة المحسوسات

٢٤

هيليوبوليس

استغرقت مظاهرة عمرو العسكرية اسابيع فى مديريات الجيزة والفيوم وبنى سويف ، وتحاد بعضها بعضا وتتصل اتصالا وثيقا ، فقد ابتدأت فى اواخر شهر مايو سنة ٦٤١ وانتهت فى اواسط شهر يونيو ، وعاد عمرو بعدها الى ام دنين لاستقبال النجدات العسكرية التى ارسلت اليه ، ولم يجد مشقة فى عبور النيل ولم يحاول الروم ان يقطعوا خط رجعته ، ويحولوا بينه و بين الاتصال بالنجدات الجديدة التى وصلت اليه ، وقد كان ذلك فى امكانهم واستطاعتهم لو ارادوه لكثرة جيشهم ، ولو فعلوا لازعجوا العرب وضايقوهم على الاقل ولحالوا دون اجتماع قواهم وتكاملها وفى اجتماعها الخطر كل الخطر عليهم

ولم يطل عمرو المكث فى ام دنين بل قصد برجاله هيليوبوليس (عين شمس او المطرية اليوم وتعد من ضواحى القاهرة وتبعد عنها ١٠ كيلو مترات وتقع فى شماليها الغربى وتتصل بالصحراء اتصالا وثيقا) فنزل فيها واتخذها مقرا له وقاعدة لأعماله العسكرية فى المرحلة الجديدة ، لان ماءها كثير ولانها متصلة بالصحراء وواقعة على طريق الشام والحجاز

النجدات الجديدة

وفى هيليوبوليس التقى عمرو بن العاص بالزبير بن العوام قائد النجدة التى ارسلها الخليفة اليه من الشام وعدد رجالها اربعة آلاف مقاتل ، وجاءت بعد ذلك قوة

اخرى عددها اربعة آلاف ايضا اى ان مجموع المدد كان ثمانية آلاف جاءوا ارسالا اى متتابعين

ويقول بعض المؤرخين ان عدد المدد ١٠ او ١٢ الفا والرأى الاول هو الارجح وكان فى جيش مصر من المهاجرين الزبير بن العوام وعبد الله بن عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوى وعبد الله بن عمر بن الخطاب وقيس بن ابى العاص السهمى والمقداد بن الاسود وعبد الله بن سعد بن ابى سرح العامرى ونافع بن عبد القيس الفهرى ، وابو رافع مولى رسول الله ، وابن عبدة ، وعبد الرحمن وربيعة ابنا شرحبيل ابن حسنة وورد ان مولى عمرو بن العاص

وكان فيه من الانصار عبادة بن الصامت ، ومحمد بن مسلمة الانصارى ، ومسلمة ابن مخلد الانصارى ، وابو ايوب زيد بن خالد الانصارى ، وابو الدرداء عويمر بن عامر ، وقيل عويمر بن زيد

كبار رجال القبائل

واشترك فى هذا الجيش من رجال القبائل ابو ذر جندب بن جنادة الغفارى ، وابو بصرة وقيل ابو نضرة بن بصرة الغفارى ، وهبيب بن مغفل

٢٥

معركة العباسية

استقر عمرو فى المطرية (هيليو بوليس) وعكف على تنظيم قواه بعد وصول الامدادات الجديدة ، استعدادا للمعركة الفاصلة التى قرر ان يخوضها لاحتلال بابليون وانجاز امر الروم فى هذا الميدان

والدلائل متوفرة على انه كان يميل الى التأنى والى جر الروم واغرائهم بالخروج الى لقائه فينازلهم فى معركة ميدان ، بدلا من ان يسير اليهم ويهاجمهم حول حصنهم ، لان الفوز فى الحالة الاولى اضمن ، ولانه يرجو ان يوفق الى ضربهم ضربة قاضية تمزق صفوفهم

وسارت الحوادث طبق ما اشتهاه وامله . فقد جاءته الاخبار وهو فى مقره بالمطرية بان الروم كرهوا المقام وراء حصنهم ، وانهم قرروا ان يخرجوا بقيادة تيدور لقتاله بقواهم الكبرى املا بان يتم لهم التغلب عليه ، قبل وصول نجدات اخرى اليه ، ويقول مؤرخو الدولة الرومية انه كان للروم فى داخل الحصن ٥٠ الف مقاتل ، خرج تيدور على رأس ٤٠ الفا منها وترك العشرة الباقية للمحافظة عليه فلا يفاجئه مفاجئ

كمين عمرو

ووضع عمرو خطة عسكرية محكمة ، للقاء الروم القادمين نفذها وقواده بمهارة واتقان ، ومدارها وضع العدو بين ثلاث نيران ، بعد خروجه من حصنه وقطع خط رجعته ثم تمزيقه والقضاء على جيشه

وعملا بما تقضى به هـذه الخطة ، سير عمرو قوتين من رجاله : الاولى الى ام دنين فى الغرب . والاخرى الى ثنية الجبل فى الشرق (قرب موضع قلعة القاهرة اليوم) وامر قائديهما بان يهاجما جناحى جيش الروم و يضربا مؤخرته اذا تسنى لهما ذلك ، كما نهض هو بمن بقى معه من القوى وسار الى لقاء تيـدور سالـكا طريق العباسية الحالى بين المطرية والقاهرة

و واصـل الروم زحفهم وهم آمنون مطمئنون حتى بلغوا مـكانا يظن انه حى العباسـية ، فالتقوا بعمرو قادما للقائهم فوقف الجيشان وتصافا ثم تقاتلا ودارت بينهما معركة حامية ، وكان جند العرب مستبسلا فى النضال وامنية كل واحـد من رجاله ان يسبق غيره فينال الشهادة و يفوز باجر الشهداء

واستقتل الروم واستبسلوا ، وثبتوا وقاوموا ، لانهم ادركوا ان خذلانهم هنا يتبعه القضاء على سلطانهم فى وادى النيل ، وسقوطهم فى ايدى المسلمين

واقبلت ــ والمعركة دائرة ــ القوة التى كانت تـكمن فى الجبل بقيادة خارجة بن حذافة تنحدر انحدارا ، وحملت على مؤخرة الروم واختلطت بجناحهم الايمن فأوقعت فيه الذعر والاضطراب ، فاتجـه نحو اليسار اى الى ناحيـة ام دنين فاستقبلته القوة الاخرى التى كانت تـكمن هنالك ، وهكذا وضع العرب جيش الروم بين ثلاث قوات وانقضوا عليـه يمعنون فى رجاله قتـلا وجرحا فتمزق شمله ، وتشتت رجاله ، وفروا لا يلوون على شئ ، ولاذ من استطاع النجاة منهم بحصن بابليون . واغلقوا عليهـم الابواب واحكموها ، وغـنم العرب غنائم عظيمة ، وامتلـكوا سلاحا ومعـدات ، وسيطروا على المنطقة الممتدة من هيليو بوليس حتى الحصن نفسه وكان من نتائج هذا النصر ان جلت الحامية الرومية عن الفيوم وابو يط فأرسـل عمرو كتيبة فاستولت عليهما

٢٦

مفاوضات الصلح الاولى

استغل عمرو نصر العباسية على احسن منوال ، فأرسل جنده الى الجنوب والشمال والغرب يجوس خلال الديار ، فاستولى على الفيوم والجيزة ومنف وأتريب والمناطق المجاورة ، ونشر نفوذ العرب فى كل مكان

ويقول المؤرخون ان الفترة بين معركة العباسية – وقد حدثت فى اواسط شهر يوليو – وبين حصار بابليون امتدت اسابيع شغل عمرو فيها بفتح الاقاليم الوسطى فلما اتم فتحها جاء يضرب نطاقا حول الحصن وكان ذلك اوائل شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ ويقولون ان قوات الروم فى داخله ما كانت تزيد على بضعة آلاف ، فقد افنت المعارك التى دارت ، معظم رجالهم ، وشتتهم ، وكانت عندهم كميات كبيرة من الذخائر والميرة وادوات الحرب والقتال

وتولى الدفاع عن الحصن القائد تيدور ، قائد الروم العسكرى العام فى مصر ، وكان قيرس الحاكم الادارى العام ونائب الملك الى جانبه ، وكان الجميع فى خوف ووجل من العرب الذين حالفهم التوفيق و بسم لهم الحظ ففعلوا العجائب وأتوا بالمعجزات

ورأى قيرس ان خير ما يفعله لانقاذ البلاد ، ودفع ويلات الحرب ، هو السعى عند عمرو لعقد صلح ينهى النضال ويحقن الدم . وبديهى انه ما كان فى استطاعة قادة الروم ان يفعلوا غير ذلك ، بعد ما استنفدوا الجهد فى الكر والفر ، يضاف الى هذا ان حالة الامبراطورية فى المناطق الاخرى ولا سيما فى الشام وكيليكية

ما كانت تساعد على ارسال نجدات قوية الى القطر المصرى تدرأ عنه الخطر المحدق به ويتفاقم يوما بعد يوم

وفاتح قيرس من حوله من القادة وذوى الرأى واقترح السعى لانهاء هذه الحالة ، وعقد صلح مع العرب يعيد الى البلاد سلمها وامانها ، وقال لهم انه لا امل هنالك ولا رجاء فى الفوز عليهم وطردهم بعد ما دانت لهم معظم البلدان ، وهابهم الناس ، و بعد مافنى معظم قوات الروم سيما وحكومة الامبراطورية فى شغل منهم شاغل فلا تستطيع ان تمدنا ولا ان تساعدنا ، فلذلك يجب علينا ان ننظر فى الامر مليا وان نفعل ما نرى ان المصلحة تقضى بفعله ولا بد للعرب من التغلب على هذا الحصن واخذه مهما طال المطال فكل محصور مأخوذ

وأصغى هؤلاء الى بيانه و وافقوا على الاخذ برأيه وأجازوا له ان يتصل بالعرب ويسعى لعقد صلح ملائم ينهى حالة الحرب و يعيد السيوف الى اغمادها . وتم الاتفاق على ان يذهب قيرس سرا الى جزيرة الروضة (بطريق النيل) فيفتح المحادثات معهم ويبذل جهده لارضائهم بالمال ، واجلائهم عن البلاد سلما وصلحا فتعود الى حضن الامبراطورية كما كانت

وفد قيرس فى الفسطاط

وارسل قيرس من مقامه فى الروضة وفدا الى عمرو ، وكان يقيم فى الفسطاط ، وكان فيها مخيم الجيش العربى ، فاستقبلهم فى مخيمه واكرم وفادتهم ثم سمع اقوالهم ، وكان المتكلم منهم اسقف بابليون فقال لعمرو :

« لقد ولجتم بلادنا ، والححتم فى قتالنا ، وطال مقامكم فى ارضنا ، وانما انتم عصبة صغيرة ، وقد اظلتكم الروم ، وجهزوا اليكم ، ومعهم العدة والسلاح ، وقد احاط بكم هذا النيل . وانما انتم اسارى فى ايدينا ، فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله ان يأتى الامر فيما بيننا على ما تحبون ونحب ، و ينقطع عنا وعنكم القتال قبل

ان تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم تندمون ان كان الامر مخالفا لطلبكم ورجائكم . فابعثوا الينا رجالا من اصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء »

شروط عمرو

ورد عليهم عمرو ردا مختصرا فقال لهم :

ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث :

١ ـ اما ان تدخلوا في الاسلام فتكونوا اخواننا لكم مالنا وعليكم ما علينا

٢ ـ واما ان تدفعوا الجزية عن يد وانتم صاغرون

٣ ـ واما ان نجاهدكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين

وفد الروم يصف العرب

ويقول المؤرخون العرب ان عمرا استبقى وفد الروم فى معسكره يومين وليلتين ، واباح لهم حرية التجول فى انحائه ، خلافا لما تقضى به القواعد العسكرية ، وانه اراد بذلك ان يشاهدوا حالة جنده ويدرسوها عن كثب ، فتلقى الرعب والخوف فى صدورهم فادرك ما اراد ، فقد اجاب الوفد قيرس حينما سأله عن حالة العرب وجيشهم بما يأتى :

« رأينا قوما الموت احب الى احدهم من الحياة ، والتواضع احب اليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ، ولا نهمة ، وانما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، واميرهم كواحد منهم ، لايعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف احد عنها منهم ، يغسلون اطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم »

وفد العرب فى معسكر الروم

ولبى عمرو اقتراح قيرس فأرسل اليه وفدا من رجاله قوامه عشرة اشخاص وزوده حين سفره بالتعليمات الآتية وقد حدد بها مهمته واختصاصاته قال :

١ ـ يتولى رئاسة الوفد عبادة بن الصامت

٢ ـ يكون له وحده حق الكلام

٣ ـ ليس لعبادة ، ان يخرج فى محادثاته عن منطوق اوامر الخليفة وتعليماته ولا ان يتجاوز دائرة الطلبات الثلاثة وقد عهد الى فى تنفيذها فاما الاسلام واما الجزية واما الحرب وليس هنالك غير ذلك

الجلسة الاولى للمفاوضة

واستقبل قيرس وفد العرب واكرم مثواهم ووفادتهم ولما اراد عبادة الكلام ، وكان اسود اللون ، هابه هذا وطلب تنحيته واقصاءه ، فأجابوه انه رئيسهم والمقدم فيهم ، وانه هو وحده الذى يملك حق الكلام

ـ اذن تكلم

ـ لقد سمعت مقالك . وان فيمن خلفت من اصحابى الف رجل ، كلهم مثلى واشد سوادا منى ، وافظع منظرا ، ولو رأيتهم لكنت اهيب لهم منى ، وانا قد وليت وادبر شبابى ، وانى مع ذلك والحمدلله ما اهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعا وكذلك اصحابى . وذلك انما رغبتنا وهمنا الجهاد فى الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدوا ممن حارب الله لرغبة فى الدنيا ولا لحاجة للاستكثار منها ، الا ان الله عز وجل قد احل لنا ذلك وجعل ما غنمنا لنا حلالا ، وما يبالى احدنا أكان له قناطير من ذهب ام كان لايملك الا درهما ، لان غاية احدنا من الدنيا اكلة يسد بها جوعة ليلته ونهاره ، وشملة يلتحفها ، وان كان احدنا لايملك الا ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب انفقه فى طاعة الله تعالى ، واقتصر على هذا الذى بيده ، ويبلغه ما كان فى الدنيا لان

نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاؤها ليس برخاء ، انما النعيم والرخاء فى الآخرة ، بذلك امرنا الله وامرنا به نبينا وعهد الينا به الا تكون همة احدنا فى الدنيا الا ما يمسك جوعته ، ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضاء ربه ، وجهاد عدوه »

ورد عليه قيرس قائلا :

لقد سمعت مقالتك ، وما ذكرت عنك وعن اصحابك ، ولعمرى مابلغتم ما بلغتم الا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتكم عنها

لقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لايحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة ، ممن لايبالى احدهم من لقى ولا من قاتل ، وانا لنعلم انكم لن تقدروا عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم . وقد اقمتم بين اظهرنا اشهرا ، وانتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم . ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم ، وقلة ما بأيديكم ونحن تطيب انفسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم ما لاقوة لكم به

عبادة يرفض اقتراحات قيرس

واجاب عبادة بالرد والرفض وكرر طلباته الاولى وقال له مهددا ومنذرا ، شأن القوى الواثق من نفسه ومن رجاله

يا هذا :

لاتغترن بنفسك واصحابك . اما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لانقوى عليهم ، فلعمرى ما هذا الذى تخوف به ، ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه

ان كان ما قلتم حقا فذلك والله ارغب ما يكون فى قتالهم واشد حرصا عليهم لان ذلك اعذر لنا عند الله ، واذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا ، كان امكن لنا من رضوانه وجنته ، وما من شئ اقر لاعيننا ولا احب الينا من ذلك ، وانا منكم

حينئذ على احدى الحسنيين ، اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم ، او غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ، وانها لأحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا ، وان الله عز وجل قال لنا فى كتابه « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين »

وما منا من رجل الا ويدعو ربه صباحا ومساء ان يرزقه الشهادة والا يرده الى بلده ولا الى ارضه ولا الى اهله وولده ، وليس لأحد مناهم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه اهله وولده ، وانما همنا ما امامنا . واما قولك اننا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا ، فنحن فى اوسع السعة ، لو كانت لنا الدنيا كلها ما اردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن فيه ، فانظر الذى تريد فبينه لنا ، فليس بيننا وبينك خصلة تقبلها منك ، ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثلاث ، فاختر ايها شئت ، ولا تطمع نفسك فى الباطل ، بذلك امرنى الامير ، وبها امر امير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله من قبله الينا

فاما اجابتكم الى الاسلام الذى هو الدين الذى لايقبل الله غيره وهو دين نبينا وانبيائه ورسله وملائكته ، صلوات الله عليهم ، امرنا الله تعالى ان نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه ، فان فعل كان له مالنا وعليه ما علينا ، وكان اخانا فى دين الاسلام

فان قبلت ذلك انت واصحابك فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة ، ورجعنا عن قتالكم ، ولم نستحل اذاكم ، ولا العرض لكم

وان ابيتم الا الجزية فأدوا لنا الجزية عن يد وانتم صاغرون نعاملكم على شئ نرضاه نحن وانتم فى كل عام ، ابدا مابقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناوأكم ، وعرض لكم فى شئ من ارضكم ودمائكم واموالكم ، ونقوم بذلك عنكم اذا كنتم فى ذمتنا وكان لكم به عهد علينا ، وان ابيتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة الى السيف حتى نموت عن آخرنا او نصيب ما نريد منكم

هـذا ديننا الذى ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا و بينه غيره فانظروا لانفسكم »

ورد قيرس فقال انا لن نقبل هذه الطلبات فانظروا لنا قاعدة اخرى غير هذه القاعدة تدور عليها المفاوضات ، فقال عبادة ليس عندنا غير ما قلت

قيرس يستشير اصحابه ويرفض الشروط

واستشار قيرس اصحابه وقال لهم هـذا رأى القوم فهم يأبون تساهلا ولينا فما هو رأيكم و بما ذا نجيب ؟ فاتفقت كلمتهم على رفض شروط العرب لشدتها وفداحتها وقالوا ان الموت ايسر واسهل

ولما رأى هـذا اصرار اصحابه على الرفض قال لعبادة لقد رأيت اصرار القوم فارجع الى صاحبك فكلمه

وغادر الوفـد العربى على الأثر الحصن الى المخيم فأبلغ عمـرا ما رآى ، وحدثه بما سمع

٢٧

العرب ومفاوضات الصلح

على هذا المنوال انتهت مفاوضات الصلح الاولى ، وهى اول مفاوضات رسمية تدور بين الغزاة العرب والمستعمرين الروم . وقد حاول فيها هؤلاء هنا ـ كما حاول اخوانهم من قبل فى اليرموك ـ ان يسترضوا العرب بمال يدفع لهم فيكفوا عن الحرب ويرجعوا الى بلادهم متخلين عما فتحوه واستولوا عليه . ولقد حدد قيرس فى اثناء المفاوضات المبلغ الذى يدفع لهم فقال ان نصيب الجندى سيكون دينارين ونصيب القائد مائة دينار وللخليفة الف دينار ، يقبضها العرب ويعودون الى بلادهم فيحسم الخلاف ، وتضع الحرب اوزارها

ورفض المفاوض العربى ، هذه الاقتراحات وابى ان يدخل فى مناقشة تدور على اساسها ، وقال لقيرس انه يخيره فى الاخذ بواحدة من ثلاث : الاسلام او الجزية او الحرب

وحاول هذا عن طريق التهديد والوعيد ، اقناع المفاوض العربى ، بتعديل الاساس ، فلم يوفق وكرر هذا عليه بانه لا مناقشة ولا جدل فاما رفض واما قبول ولا وسط هنالك

وقد كشفت هذه المفاوضات الغطاء عن بصر الروم فتبينوا ان العرب ما جاءوا طامعين فى مال او نوال ، ولا راغبين فى سلب او نهب ، بل جاءوا لأعظم من هذا واسمى ، وانهم لن يرجعوا الا اذا ادركوا اغراضهم او غلبوا على امرهم واستشار قيرس اصحابه واقطاب دولته ، واطلعهم على شروط المفاوض العربى وذكر تصلبه وسألهم عما يفعل وهل يقبل او يرفض ، فاتفقوا على الرفض لفداحة المطالب وشدتها ، ولان معناها

القضاء على سلطان الروم فى مصر ، واجمعوا كلهم على مواصلة النضال حتى النفس الاخير ، فاما ان يخرجوا العرب و يعيشوا كراما واما ان يغلبوا فيموتوا كراما و ينصفهم التاريخ ، ويذكرهم الناس بالخير

ولا بد لنا من التنبيه الى امر خطير ، نرى انه كان من جملة العوامل التى ساعدت العرب فى حروبهم مع الامبراطورية الرومية ومكنتهم من القضاء عليها ، ونعنى به استهانة قواد الروم بشأن العرب ، فقد دل سير الحوادث على ان رجال الدولة الرومية فى مصر وقعوا فيما وقع فيه زملاؤهم بالشام اى انهم استهانوا بالعرب عند قدومهم واعتقدوا ان امرهم ينتهى اما بارسال حملة قوية تطردهم او ببذل قليل من المال لهم ، وذلك لما رسخ فى آذانهم وهو ان هؤلاء ضعفاء فقراء لاقدرة لهم على الصدام ولا معرفة لهم بأساليب الحرب ، وانهم ما خرجوا من جزيرتهم الا طمعا فى الحصول على المال ، فمتى نالوه ينتهى امرهم ، و يمتنع خطرهم ، ولقد بذله قيرس لهم بعد ما عجز عن طردهم حربا و بعد ما هزموه فى معارك عدة ، فلم يجده ذلك ولم يغن عنه شيئا

ولا يخفى ان قادة الروم فى الشام عملوا نفس هذا العمل ، فحاول تيدور قبل اليرموك و بعد ما اوغل العرب فى البلاد وذاقوا لذة النصر ، ان يصالحهم على نصف غلة الشام ، فلم يتم له ذلك ، ويقال ان ذلك كان رأى الامبراطور نفسه فقوبل اقتراحه بالرفض هنالك كما قوبل هنا ، ومن تحصيل الحاصل القول ، بان قادة الجيش العربى ، ما كانوا على استعداد للدخول فى اى مفاوضة تدور على هذا الاساس ولو بذلوا لهم كل ثروة الامبراطورية ، لانهم جاءوا لغير هذا ، جاءوا لنشر الدين لا لاكتساب المال ، ولا للفتح والاستعمار ؛ وبديهى ، انه لو كان المال وحده مطلوبهم ، لدارت عليهم الدائرة ، ولما استطاعوا تخطى الصحراء فضلا عن الاستيلاء على أثمن اجزاء الامبراطورية الرومية ، لان شأنهم فى تلك الحالة ، يختلف عن شأنهم ، وهم يحاربون فى سبيل الله وفى سبيل نشر دينهم و رجاء الحصول على مرتبة

الشهادة . وما سعى وراء الدرهم والدينار ساع الا كان مصيره الفشل والاخفاق ، وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغيره انقطع وانفصل

وانتهت مفاوضات « الروضة » بما انتهت به مفاوضات اليرموك ، ووقف عبادة هنا موقف ابى عبيدة هنالك (انظر ص ١١٦) وكان رئيس الوفد العربى لمفاوضة الروم ، فقد رفض كل منهما الدخول فى اى مناقشة مع المفاوض الرومى وقال له ، الاسلام او الجزية او الحرب ويحكم الله بيننا وبينكم

ووقف المغيرة بن شعبة هذا الموقف ايضا فى القادسية حينما زار رستم قبل المعركة مفاوضا (انظر ص ٣٠٣ من المجلد الاول) وقال له لاصلح ولا سلام حتى تقبلوا احد شروطنا الثلاثة المعروفة ، وكان المسلمون يعرضونها على كل بلد يحملون عليه قبل القتال اعذارا له ، فمن قبل اولها او ثانيها صالحوه ، ومن اجاب بالرفض نازلوه وحكموا السيف بينهم وبينه ، وكانت الغلبة لهم فى كل المعارك تقريبا ، لانهم كانوا يقاتلون عن عقيدة صحيحة ، وايمان راسخ ، لا يبغون عرضا دنيويا ، ولا ينشدون غرضا ماديا ، ومن كان هذا شأنه فلا بد من انتصاره وفوزه ، فالانتصار والغلبة فى كل زمان ومكان لأصحاب المبادىء الصحيحة ، ولذوى الايمان الثابت الراسخ

٢٨

الهدنة

حبطت مفاوضات الصلح وانقطعت وصار الحكم للسيف بعد ما رفض الروم قبول مقترحات العرب ، واعلنوا انهم يأبون التسليم وانهم سيدافعون حتى النفس الاخير

ورأى عمرو بن العاص بعد ما وصلت الحالة الى هذا الحد ، وبعد ما انقطع كل امل فى حقن الدم ، ان يعجل بالعمل العسكرى ، وقد اوقف بعد معركة العباسية ، وان يوجه عنايته فى هذه المرحلة ، الى الاستيلاء على الحصن وانتزاعه من يد حاميته ، فاحتلاله معناه انهيار الحكم الرومى فى مصر الوسطى والعليا

وبينما كان عمرو يعد المعدات العسكرية ويهيء صفوفه لمباشرة القتال تلقى اقتراحا من قيرس يطلب فيه عقد هدنة لمدة شهر واحد فأجاب بالرفض ، لان مصلحته كانت فى التعجيل لا بالمطاولة ، وقال لهم انه يمهلهم ثلاثة ايام فقط ، فاذا قبلوا فى خلالها احد شرطيه عادت السيوف الى اغمادها ، والا فلا مناص من الحرب ، ولا رجاء فى العودة الى المفاوضة

٢٩

الروم يهاجمون العرب

اول معركة حول الحصن

وقبل ان يتلقى عمرو جواب الروم على رده ، وقبل ان يبت فى اقتراح الهدنة وقبل ان تنقضى الايام الثلاثة التى اعلنهم انه يمهلهم اياها ، خرجوا بقضهم وقضيضهم من الحصن ، يتسابقون الى قتال العرب ونزالهم ، ويرجون ان ينالوا منهم غرة ، فيهزموهم

والظاهر ان الروم استعدوا لهذا الهجوم فى داخل الحصن ، ورتبوه على افضل منوال ثم خرجوا وهم يرجون ان يأخذوا العرب على غرة وينكلوا بهم ، فلم تجر سفن الاقدار بما كانوا يشتهون ، فقد كان هؤلاء على مثل اهبتهم ، فلقوهم وصمدوا لهم ، وقاتلوهم وانتهت المعركة بانهزام الروم فى المساء فلاذوا باكناف حصنهم ، وعادوا اليه واحكموا غلق ابوابه و وقفوا فوق الشرفات للدفاع عنه

وغنى عن البيان ان انكسارهم فى هذه المعركة ، اضعف عزيمتهم ، واخمد ثورة الحماسة فى نفوسهم ، وجعلهم يعتقدون بانه لا قبل لهم بمقاومة العرب ولا بالوقوف فى وجوههم ، ولم يفوزوا عليهم فى معركة واحدة ، فكثر بينهم الداعون الى السلام والراغبون فيه لانهم ادركوا انه الوسيلة الوحيدة لانقاذهم وصيانة ارواحهم ، ولا فائدة من بذلها فيما لايفيد ولا يجدى ، فرجحت كفة السلم كفة الحرب ، واخذوا يتحدثون فى المعسكرين عن مفاوضات جديدة واقتراحات جديدة

٣٠

وقف الحرب حول الحصن

الجزية عند العرب

كان الروم هم الذين طلبوا الدخول فى مفاوضات الصلح ايضا ، ولكن لاعلى غير اساس ، ولا على امل ارضاء العرب بالمال ، بل على قاعدة قبولهم للشرط الثانى اى دفع الجزية ، والدخول تحت حماية دولة العرب الجديدة

واجاب عمرو حينما وصل اليه اقتراح قيرس بانه على اتم استعداد لوقف رحى الحرب وعقد الصلح متى اعلنوا قبولهم لأحد مطلبيه فأبلغه قيرس انه يقبل الشرط الثانى اى الجزية ، او الحماية ، وهو المعنى الشرعى او القانونى الذى يجب ان تفسر به ، فقد كان المسلمون يأخذون مال الجزية ، من البلاد التى تفتح لهم سلما مقابل حمايتهم لها ، وبذلهم الامان الخارجى لسكانها ، فضلا عن الامن الداخلى ، وقد بسط ذلك عبادة بن الصامت بجلاء فى مفاوضاته الاولى مع قيرس ، كما طبقها ابو عبيدة عمليا فى حمص حين فتحها للمرة الاولى (انظر ص١٠٤) فأعاد الى اهلها الجزية حينما قرر الجلاء عنها ، والذهاب الى اليرموك للاشتراك فى المعركة الفاصلة ، ولما حادثه سكانها فى الامر ، قال لهم ما معناه « اخذنا منكم هذا المال مقابل حمايتكم والدفاع عنكم . وحيث اننا شغلنا عنكم الآن ، وليس فى استطاعتنا ان نؤدى هذا الواجب الذى اخذناه على عاتقنا ، فنحن نعيد مالكم اليكم ، فاذا رجعنا ثانية اخذناه والا فهو لكم وانتم احرار فى التصرف فيه »

نعم هكذا كان قادة الجيش الاسلامى يفهمون معنى الحماية وهكذا كانوا يفسرونها ، فهم يتناولون مال الجزية باسم الحماية ، او باسم الاشتراك فى نفقات الدفاع العسكرى ، ولا بد لكل بلاد من جيش يحميها ، ويصون حدودها ، ويدافع عنها ، وقد كان العرب يقومون بهذه المهمة فى البلاد التى يفتحونها او تدخل فى عهدهم وحمايتهم

٣١

معاهدة الصلح بين العرب والروم

وقفت رحى الحرب حول الحصن ، حينما اعلن قيرس قبوله الجزية واستؤنفت المفاوضات بين المعسكرين فتم الاتفاق على الشروط الآتية وهى اول معاهدة تعقد بين العرب والروم فى مصر ، وقد علقوا تنفيذها على اقرار امبراطور القسطنطينية لها وهى :

١ – تصالح مصر على الجزية (الحماية)

٢ – يعلق نفاذ هذا الصلح على اقرار الامبراطور له

٣ – يلغى هذا الصلح اذا رفضه الامبراطور

٤ – تقف رحى الحرب لمدة شهر ويلزم كل جيش مواقفه ولا يتعداها

ولما تم الاتفاق ووقعت شروطه غادر قيرس الحصن عائدا الى الاسكندرية على الفور ، وكتب الى الامبراطور بما حدث وبسط له الحالة ، وذكر له الشروط التى اتفق عليها مع عمرو وطلب اقرارها لانه ليس فى الامكان الحصول على افضل منها كما انه ليس فى الاستطاعة التغلب على الغزاة واخراجهم من البلاد

دعوة قيرس الى العاصمة

ويقول مؤرخو الدولة الرومية ان الامبراطور ارسل يدعو قيرس اليه لسماع رأيه فى الصلح ، وللوقوف على امور غمت عليه ، ويقولون ايضا ان هذا لبى الدعوة وسافر على عجل ، وان سفره كان فى شهر نوفمبر سنة ٦٤٠ كما يقولون ان صلح بابليون كان فى شهر اكتوبر من تلك السنة

وقابل قيرس الامبراطور ، و بسط له العوامل والاسباب التى بعثته على عقد الصلح ، وقال ان العرب قد يحملون بواسطته على الخروج الى مصر ، وان الجزية التى تدفع اليهم ، تجبى بسهولة من تجار الاسكندرية ومن مموليها ، فلا تخسر خزينة الامبراطورية بذلك شيئا ويكون الشعب هو الذى دفع ، ويروى انه قال للامبراطور ما نصه :

« لو رأيت هؤلاء العرب و بلاءهم فى القتال ، لعرفت انهم قوم لايغلبون ، فليس لنا من سبيل خير من الصلح قبل ان يفتح عمرو حصن بابليون عنوة وتصبح البلاد غنيمة لهم »

٣٢

الامبراطور يرفض الصلح

ويعزل قيرس وينفيه

يغتنم بعض مؤرخي الدولة الرومية فرصة سفر قيرس الى القسطنطينية لمقابلة الامبراطور فيحملون عليه حملات قاسيات ويتهمونه بالجبن ويرمونه بالخيانة ويقولون ان الامبراطور انبه واسمعه كلاما مرا وحكم عليه بانه « مرتكب مجرم » واسلمه الى محافظ العاصمة فشهره واهانه ثم نفاه من البلاد وطرده منها

ويعلق هؤلاء على تصرف الامبراطور معربين عن ارتياحهم اليه ومنادين بانه كان جزاء وفاقا لاقاه قيرس على تصرفاته وعلى ما اظهره من الجبن وخور العزيمة والعجز عن طرد العرب الذين غزوه باثنى عشر الف مقاتل ، مع ان رجاله ما كانوا يقلون عن مائة الف ، وفات هؤلاء ان جيش الامبراطور العظيم فى الشام استهدف لما استهدف له جيش قيرس فهزم يوم اليرموك وشتت ومزق مع ان عدد العرب ما كان يزيد عن اربعين الفا لقوا مائتى الف من الروم او يزيدون اى ان النسبة تكاد تكون واحدة تقريبا. يضاف الى هذا ان حامية الروم فى مصر لم تجتمع كلها لقتال العرب ، كما جرى فى اليرموك بل كانت متفرقة بين الاسكندرية وبابليون وعلى طول الطريق بينهما ، فكانت هنالك حاميات كبيرة فى نقيوس وسمنود وكريون ودمياط ، وما كان فى استطاعة القيادة العامة للجيش الرومى زجها كلها فى المعركة الكبرى لعدم جواز اخلاء هذه المناطق من الوجهة الحربية الفنية

والامر المتفق عليه عنـد معظم هؤلاء ان قـيرس لم يعـد فى تلك الحقبـة الى الاسكندرية بل حل محله القائد مارنيوس ، وكان الامبراطور قد ندبه من قبل فسافر اليها ليشترك مع قيرس فى اعداد معدات الدفاع وتنظيمه ، وقبض هذا على مقاليد الحكم حينما دعى قيرس وقام مقامه

٣٣

الرجوع الى القتال

وبينما كان عمرو يترقب رجوع قيرس من القسطنطينية لينفذ شروط الاتفاق ابلغ ان الامبراطور عزله ونفاه وعين قائدا عسكريا مكانه ونقض الشروط التى تم الاتفاق عليها وان الروم عازمون على مواصلة الحرب والكفاح ، فأمر باتخاذ التدابير اللازمة لاستئناف القتال وكان ذلك فى اواخر سنة ٦٤٠

ووقعت معارك عديدة بين المسلمين والروم ، وكان هؤلاء يخرجون الى قتالهم ، فى فترات متقطعة املا بان يصيبوا منهم غرة ، او ينالوا منهم منالا ، فيهزمون و يعودون الى ملجأهم خاسرين ، فأثر تتابع الهزائم فى نفوسهم كما آلمها انقطاع الامل من وصول امدادات جديدة تنقذهم ، وتفرج كربهم . فكفوا عن الخروج واكتفوا بالوقوف وراء الاسوار

وشدد عمرو الحصار عليهم واكثر من مضايقتهم ، ليحملهم على الاستسلام والخضوع ، وكان يود الاسراع ليحمل على الاسكندرية فتم له ما اراد فما لبث المحصورون ان جنحوا للسلم فاستولى على الحصن وكان فتحه فتحا عظيما

٣٤

كيف سلم الحصن

استغرق حصار الحصن نحو سبعة اشهر ، وهنت فى خلالها قوى المحصورين وزاد فى وهنها عدم وصول نجدات جديدة من البحر تمدهم بها حكومة القسطنطينية ، وكانت فى شغل شاغل عنهم ، وما كان فى استطاعتها ، ان ترسل اليهم سوى كلمات التشجيع ، تثير بها حماستهم ، وتضرم نار الغيرة فى صدورهم

ومما ضاعف فى آلامهم ، ما عرفوه فى مطلع فصل الربيع من شهور سنة ٦٤١ ، عن وفاة امبراطورهم (هركليوس) فقد اصيب بخبل فى عقله ، وضعف فى جسمه ، لم يعش معهما طويلا ، والظاهر ان المصائب التى اصيبت بها الامبراطورية فى عهده ، اثرت فى قواه فمات فى شهر مارس من شهور تلك السنة مخلفا امبراطوريته فى اسوأ حال

واستقر قرار العرب ، على القيام بهجوم عام على الحصن ، ينجزون به امره ، فعكفوا على اعداد المعدات وتأهبوا للعمل العظيم الذى اعتزموا الاقدام عليه فاكتموه تحت ستار الكتمان

ومثل الزبير بن العوام ، فى فتح الحصن ، الدور الذى مثله خالد بن الوليد فى فتح دمشق ، وعمل هذا هنا ماعمله ذاك هنالك ، فقد اختار نفرا من شجعانه الابطال وتقدم فى الليلة التى تقرر ان يبدأ فيها الهجوم ، الى جدران الحصن ، ومعه السلالم ، فردم جانبا من الخندق ، ثم نصبها وصعد عليها حتى بلغ رأس الحصن والروم غافلون عنه فكبر وكبر الذين معه ، فاضطرب اهل الحصن ، وذهلوا ، ومشى الزبير والذين معه الى داخل الحصن تحت حماية الرماة وكانوا يقومون مقام المدفعية تقريبا فى حروب

هذه الايام ، فقد شدد هؤلاء الحماة على الروم ليشغلوهم عن الزبير وكان يحاول بلوغ الباب فيفتحه لاخوانه

وادرك قادة الحصن وولاة اموره العسكريون انه لا مناص من الاستسلام ، فاجتمعوا على الفور وارسلوا الى عمرو فى الصباح الباكر ان يصالحهم على الامان للذين ظلوا منهم احياء فقبل وتم الصلح فورا على الشروط الآتية :

١ ـ تسليم الحصن

٢ ـ الامان لحاميته

٣ ـ تغادر الحامية الحصن فى خلال ثلاثة ايام بالنيل مع ما تحتاج اليه من ميرة لبضعة ايام فقط

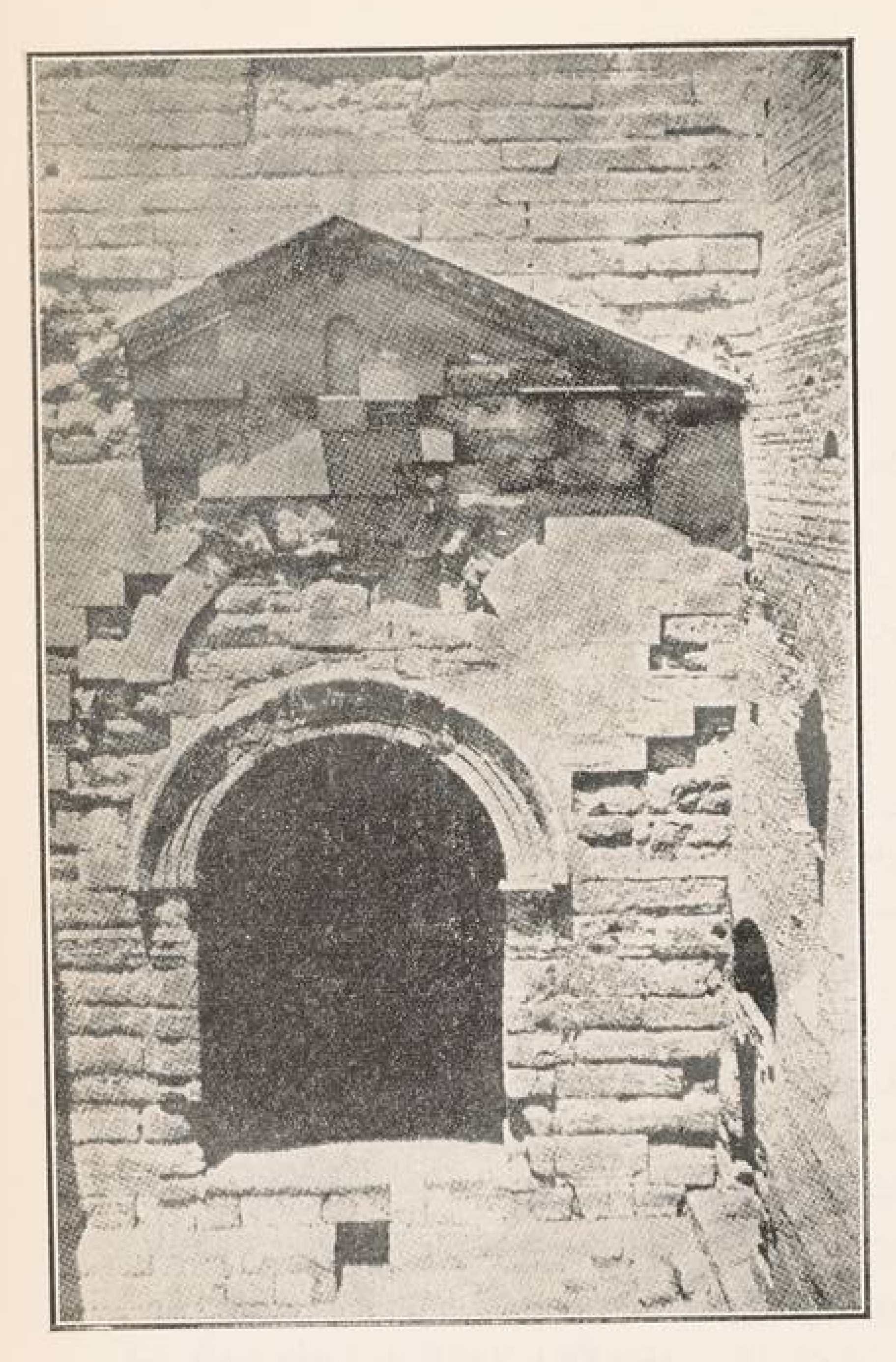
٤ ـ يسلم الروم للعرب كل ما فى الحصن من امتعة وذخائر وغيرها من آلات الحرب والقتال

٥ ـ يؤدى السكان الجزية

تلك هى الشروط التى اتفق عليها صبح ليلة الهجوم بين عمرو وجورج قائد الحصن ، ويقول بعض المؤرخين ان الزبير عارض فى اقرارها ، وقال لعمرو « لو صبرت قليلا ، لنزلت الى السور وفتحت الابواب ولكان الامر على ما تشتهى »

وبين المؤرخين خلاف فى وصف المكان الذى وضع فيه الزبير سلمه ، فالمقريزى وابو المحاسن يذكران انه كان قرب الموضع الذى كان يعرف بسوق الحمام فى ايامهما . ويقول ياقوت « انه كان بقرب الموضع الذى بنى فيه فيما بعد « بيت ابى صالح الحرانى ، بقرب حمامات ابى نصر السراج ، بجوار سوق الحمامات » ويقول ابن بطريق انه كان بجوار سوق الحمام فى الجانب الجنوبى من الحصن

ويقول البلاذرى انه عند اختطاط الفسطاط بنى الزبير لنفسه بيتا ، واحتفظ بالسلم بداخله وورثها ابنه من بعده ، وظلت السلم محفوظة فى منزل بسوق وردان بالفسطاط حتى احترقت سنة ٣٩٠ هـ مع المنزل



الباب القبلي لحصن بابليون بمصر القديمة

٣٥

حصن بابليون فى القديم والحديث

لقد آن لنا ان نقول كلمة عن هذا الحصن العظيم الذى استولى عليه العرب بسيوفهم وامتلكوه بفضل شجاعتهم واخلاصهم

انشأ هذا الحصن الرومان فى زمن حكمهم لوادى النيل واختاروا له نقطة عسكرية خطيرة ، فهو يسيطر على طريق الصحراء شرقا ، وعلى طريق النيل المؤدية للوجهين القبلى والبحرى وعلى مدينة بابليون نفسها (مصر القديمة) وكانت من المدن الكبرى فى العهد القديم

ولا يعرف تاريخ انشائه بالضبط ، لان اللوح الرخامى الذى كان يعلو بابه الجنوبى ويظن انهم نقشوا عليه تاريخ انشائه مفقود كما يرى من الصورة الفوتوغرافية المنشورة هنا وقد شاهد مؤلف هذا الكتاب مكان اللوح خاليا حين زيارته لهذا الحصن والراجح انه اسس فى عهد الامبراطور تراجان فى القرن الثانى للميلاد

وتدل حجارة الحصن وهى ضخمة على انها مأخوذة من مبان فرعونية قديمة ، يؤيد ذلك وجود نقوش هيروغليفية على بعضها . ومساحته غير معروفة بالضبط ولا تقل فى كل حال عن نصف كيلو متر مربع . ولم يبق منه الآن سوى بابه الجنوبى . يكتنفه برجان كبيران يبلغ ارتفاعهما نحو عشرين مترا وسمك جدرانهما مترين . وهنالك قناة لتصريف ماء المطر الى النيل بنيت فى وسط الدهليز الداخلى . وارض هذا الدهليز مرصوفة بالحجارة وينزل اليه بسلالم ولا يقل عمقه عن ١٠ امتار تقريبا من مستوى سطح الشارع الخارجى

ولا تزال بقايا سور الحصن قائمة فى الجهات الشرقية والجنوبية الغربية .

وهنالك ايضا برجان مستديران يعلوان السور : احـدهما امام المتحف القبطى الحالى وقد انشئ فى سـنة ١٩٢٠ والآخر مقابل له ويمتلـكه الروم الارثوذكس من القديم وقد انشأوا على قمته كنيسة باسم القديس مارجورجيوس

وتقوم فى داخل الحصن ـ عدا كنيسة الروم ودار المتحف القبطى ـ ست كنائس للقبط وهى : المعلقة ، وابو سرجه ، والست بربارة ، ومار جرجس ، وقيصرية الريحان ، وكنيسة دير البنات

وفيه ايضا كنيسة لليهود وكنيسة للروم الكاثوليك الملكيين وقد أثبتنا ذلك فى الرسم الذى وضعناه لهذا الحصن التاريخى العظيم

وبين المؤرخين اختلاف ايضا على اسمه فيسميه بعضهم قصر الشمع ، ويسميه آخرون بابليون وقلعـة بابليون ، ويقول المقريزى انه سمى بقصر الشمع لان العادة جرت ان توقد فى اعلى ابراجه الشموع ليلة انتقال الشمس من برج الى آخر . ويرى غيره ان كلمة الشمع محرفة من الكلمة القبطية كامى ومعناها قصر مصر . ويقولون ان بابليون او باب اليون مشتقة من الهيروغليفية « برهابى ان اون ـ بيت الله ـ مدينة الشمس » ووصـفه المقريزى فقال فى وصـفه « هو الحصن الذى يعرف اليوم بقصر الشمع واقـع فى ارض فضاء ومزارع فيما بين النيـل والجبل الشرق ويرى مطلا على النيل ، وتصل السفن فى النيل الى بابه الغربى الذى يعرف بباب الحديد » ولا اثر لشئ من هذا اليوم تقريبا فالنيل يبعد عنه مسافة تبلغ نحو كيلو متر . ويقال ان النيل ظل يمر تحت اسواره الغربية حتى سنة ١٨٠٠ ثم ابتعد عنه تدريجا الى مكانه الحالى

وللحصن الآن بابان الباب الغربى وكان على النيـل والباب الشرقى ويظن ان العرب دخلوا منه وهو فى منخفض عن ارض الشارع

وبالاجمال فان بقايا هـذا الحصن لا تزال ناطقه بعظمته وهو لا يكاد يختلف فى شئ عن بقية الابراج والحصون الباقية من العهد الرومانى فى الضخامة والاتساع

٣٦

الطريق الى الاسكندرية

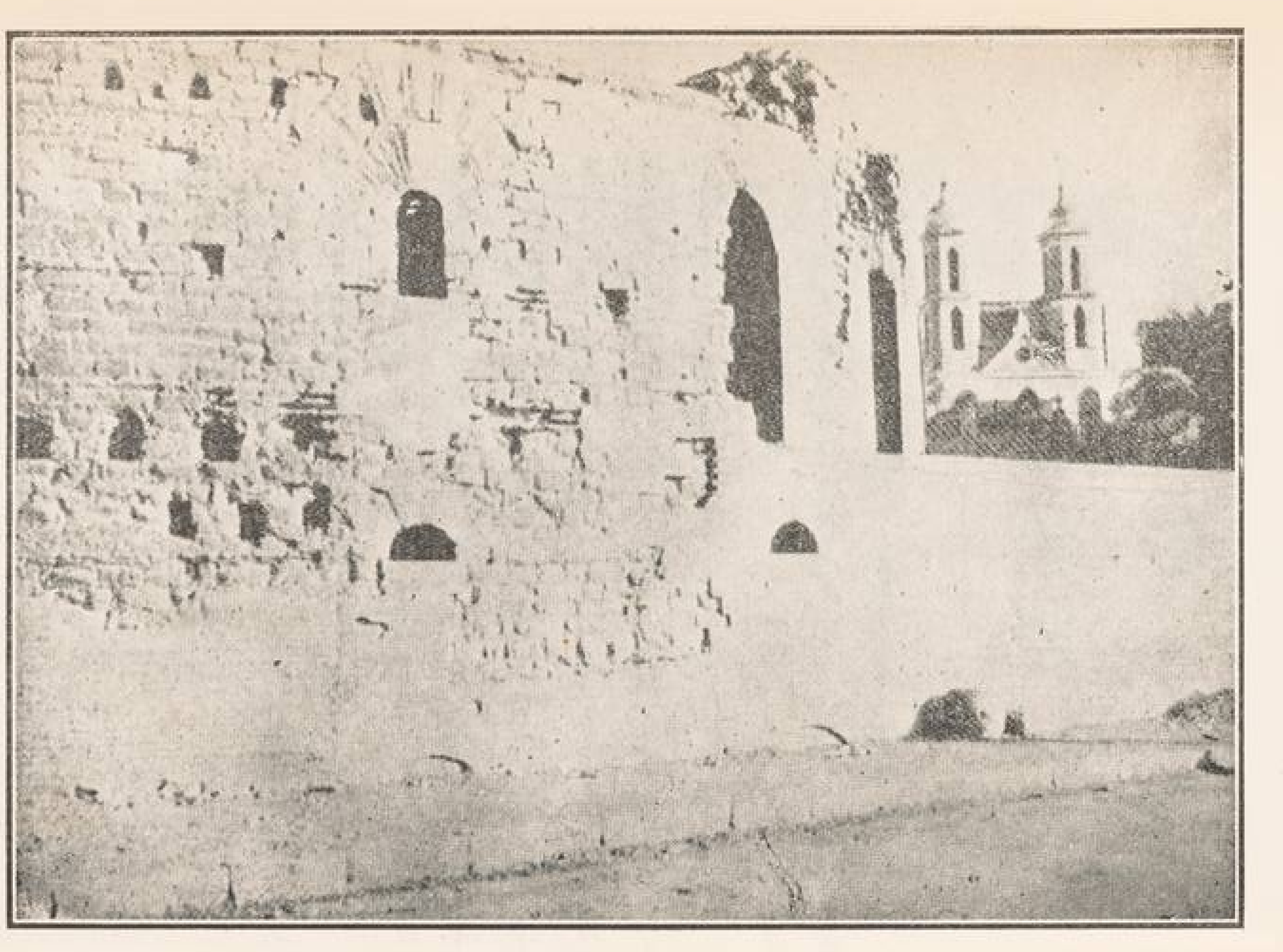
خفقت راية الاسلام على حصن بابليون فى صباح يوم الجمعة ٦ ابريل (نيسان) سنة ٦٤١ ، بعد حصار استمر سبعة اشهر تقريبا ، فدخله العرب وانبثوا فى ارجائه ، وقضى الروم ايام الجمعة والسبت والاحد فى الخروج بحرا وسلموه نهائيا يوم الاثنين ٩ منه

وامر عمرو باقامة جسرين على النيل بين الحصن والروضة و بين الروضة والجيزة فوصل بذلك بين الشاطئين ، وسيطر على حركة النقل ، كما ارسل السرايا الى هيليو بوليس والبلاد المجاورة لها يدعوها الى الدخول فى الصلح الذى صالح عليه اهل الحصن فدخلت ودفعت الجزية ، ودفعها سكان الاقاليم المجاورة ، ولا ريب ان الاستيلاء على الحصن زاد فى نفوذ العرب وهيبتهم وادى الى خضوع الاقاليم الوسطى ، واذا اضفنا الى ذلك خضوع المنطقة الشرقية عرفنا ان فتح الحصن كان معناه دخول معظم اجزاء القطر فى سلطان العرب ، وانه لم يبق هنالك سوى الجانب الغربى من مصر السفلى مع القسم الساحلى و بعض مناطق مصر العليا

ولم يطل عمرو الاقامة فى الحصن ، الا ريثما رممه واعاده الى ماكان عليه ثم غادره بعد ما اقام فيه حامية بقيادة عبد الله بن حذافة السهمى ، وهو قرشى من بنى سهم ومنهم عمرو بن العاص نفسه ، وعينه محافظا له

ولم يدخل شهر مايو حتى كان عمرو يسير على رأس جيشه الى الاسكندرية

بطريق الصحراء الغربية ، بعد ما كتب الى الخليفة ، يصف له فتح الحصن ، ويذكر ما لقيه من نجاح وتوفيق ، ويطلب اليه ان يوافيه بنجدات جديدة يستعين بها فى اخضاع حصون الروم الاخرى ولا سيما حصون الاسكندرية



احد برجي حصن بابليون كما يظهر الآن والى يمينه كنيسة المعلقة بمصر القديمة

٣٧

الى الطرانة

سلك عمرو فى سيره الى الاسكندرية طريق الصحراء الغربية فسار من الفسطاط الى امبابة ومنها الى عزبة المناشى فالطرانة اى انه لم يسلك الطريق السلطانى المعتاد وان كان اقرب وايسر

وتبعد الطرانة نحو ٨٠ كيلو مترا عن بابليون ولا تزال قائمة فى مكانها القديم بمديرية المنوفية ثم قصد نقيوس (ابشادى اليوم) وتبعد عنها نحو ٢٠ كيلو مترا وكانت نقيوس حصنا منيعا للروم فى المنطقة . ومن نقيوس سار الى الدلنجات والمسافة بينهما ٣٨ كيلو مترا ومن الدلنجات الى سنطيس وتبعد عنها ١٨ كيلو مترا ومن سنطيس الى الكريون وتبعد عنها ٦٨ كيلو مترا ومن الكريون الى الاسكندرية (الانفوشى) والمسافة بينهما ٣٦ كيلو مترا ومجموع ذلك ٢٦٠ كيلو مترا

وقد استغرقت رحلته هذه بضعة اسابيع (مايو - يونيو) اشتبك فى خلالها مع الروم فى المواقع الآتية :

١ - الطرانة

٢ - نقيوس

٣ - سنطيس

٤ - كوم شريك

٥ - الكريون

فانتصر فيها كلها وهزم القوى التى اعدها الروم لقتاله و بلغ حصون الاسكندرية فنزل حولها وضرب خيامه امامها ، وظل يطاولها حتى استولى عليها واخضعها كما ستقرؤه مفصلا

٣٨

المعارك على طريق الاسكندرية

ما كان عـدد الجيش الذى قاده عمرو الى الاسكندرية يزيد عن بضعة آلاف مقاتـل من العرب ، يضاف اليهـم عـدد من الروم والقبط الذين انضموا الى العرب وتطوعوا فى جيشهم كما يقول حنا النقيوسى فى كتابه وقاتلوا معهم

ومشى هـذا الجيش من بابليون سالكا طريق الصحراء الغربيـة ومتجها الى الشمال فظل يتقدم حتى بلغ الطرانة او طرنوط . وقد اثبتنا اسمها على الخريطة ومكانها وهى قرية من اعمال مركز الشهداء (مديرية المنوفية) وتبعد عن بابليون ٨٠ كيلو مترا وتقع على ضفة النيل الغربية وكانت فيها فرضة لا بد للمسافر الى الاسكندرية من المرور بها والعبور منها

١ — معركة الطرانة

واقامت القيادة العامة للروم قوة عسـكرية فى الطرانة لتعرقل زحف عمرو وتعوق تقدمه الى الشمال ، فهاجمها وهزمها فلجأ الذين سلموا من رجالهـا الى نقيوس (قرية ابشادى اليوم) وكانت فى الجانب الشرقى من النيل وكانت حصينة ايضا وكان للروم فيها حامية كبيرة بقيادة الجنرال (دومنتيايوس) اعدت لمقاومة العرب

٢ — معركة نقيوس

ولم يتردد عمرو فى عبور النهر من الضفة الغربيـة الى الضفة الشرقيـة وخاف الجنرال الرومى العاقبة حينما رأى الجيش العربى يعبر النيل فركـب سفينة الى

الاسكندرية فوقع الذعر والاضطراب فى جيشه واغتنم العرب الفرصة فاستولوا على الحصن بدون مقاومة . وكان ذلك يوم الاحد ١٣ مايو وكان فتحها فتحا مبينا

٣ — معركة كوم شريك

وجاءت الاخبار الى عمرو وهو فى نقيوس (ابشادى) بان الروم جمعوا قوات كبيرة فى كوم شريك (قرية فى مديرية البحيرة بين ابو حمص وكفر الدوار وتبعد عن ابشادى نحو ٣٠ كيلو مترا وتقع غربى النيل) فوجه شريكا احد قواده لمطاردتهم فدارت معركة بينه و بينهم استمرت ثلاثة ايام انجد فيها عمرو شريكا بقوات كثيرة فهزم الروم واضيف المكان اليه وسمى باسمه

الى الدلنجات

وسار عمرو من ابشادى ، بعد انتهاء معركة كوم شريك ، الى الدلنجات وهى من اعمال مديرية البحيرة اليوم وتقع على الضفة الغربية ، اى انه عبر النيل ثانية امام ابشادى فبلغ الدلنجات واستولى عليها من دون مقاومة وتبعد ٣٨ كيلو مترا عن ابشادى

٤ — معركة سنطيس

وحاول الروم مرة اخرى ان يعترضوا الجيش العربى فى زحفه الى الشمال ، فجاءوا بقوات جديدة جمعوها من هنا وهنالك و وقفوا فى سنطيس وهى قرية فى جنوبى دمنهور معروفة الآن وقد اثبتناها على الخريطة وتبعد عن الدلنجات ١٨ كيلو مترا فصدمهم عمرو ، ففروا امامه حتى وصلوا الى حصن الكريون ، وكان من حصونهم الكبرى ، و يؤلف الخط الدفاعى الاول عن مدينة الاسكندرية من الشمال

٥ — معركة الكريون

وصمم تيدور قائد جيش الروم المنسحب ، على ان يقف للعرب فى الكريون ، وينازلهم فى معركة فاصلة ، وكانت الكريون مدينة كبيرة فى ذلك العهد ، وكان لها شأن عظيم فى التجارة ، وكانت تشرف على الترعة التى كان عليها جل اعتماد الاسكندرية فى طعامها وشرابها ، وتبعد عنها نحو ٣٦ كيلو مترا الى الشمال كما تبعد سنطيس عنها نحو ٣٠ كيلو مترا الى الجنوب

ودارت فى الكريون ، (وقد عفا اثر هذه المدينة الآن وقامت مقامها قرية صغيرة تسمى باسمها) معارك شديدة . اتفق مؤرخو العرب والروم والقبط على انها من اعظم المعارك التى دارت فى حروب الفتح ، فقد خاض الروم الميدان بجنود جديدة ، جاءوا بها من الاسكندرية ومن البلاد الساحلية لم تفقد قواها الادبية ، ولم يسبق لها ان قاتلت العرب وخبرتهم ، وعرفت شدة بأسهم ، علاوة على انها كانت تستند الى سلسلة قوية من الحصون ، وكانت على صلة تامة بمدينة الاسكندرية وقد لايبعد ان يكون بعض حامية الاسكندرية نفسها اشترك فى القتال وكان للروم فيها يومئذ ما لايقل عن ٥٠ الف مقاتل

ولقى العرب عناء شديدا فى معارك الكريون فقد استبسل فيها الروم وحشدوا لها كل ما استطاعوا حشده من قوى وجند ومعدات ، وكانوا يعرفون ان انتصار العرب فيها معناه استيلاؤهم على الاسكندرية والاستيلاء عل هذا الثغر معناه خروج مصر من يد الامبراطورية الرومية وانهيار ملكهم فى افريقية فلن تقوم لهم قائمة

ولم يغن عن الروم ثباتهم وشجاعتهم ، ولم تغن عنهم كثرتهم ، ولا معداتهم ، ولم تفدهم استماتتهم . فواصل عمرو قتالهم ونضالهم حتى انهك قواهم وشتت جموعهم ، فتفرقوا تاركين الكريون وحصنها بين يديه ، مع المعدات والغنائم والاسلاب . ففرح المسلمون وابتهجوا وبديهى ان معارك الكريون ـ ويبالغ المؤرخون فى

وصفها ـ كانت خاتمة المعارك الكبرى التي خاضها العرب ، فقد فتحت لهم طريق الاسكندرية كما القت اليهم مقاليد مصر السفلى

ولم يضيع عمرو شيئا من الوقت ولم يطل الاقامة هنا ، الا ريثما استراح جنده واعد معداته ، فواصل الزحف حتى اسوار الاسكندرية العظيمة ، فحط رحاله امامها ، وعكف على وضع الخطط التي تضمن له فتحها واخضاعها

٣٩

حول اسوار الاسكندرية

المعول عليه من اقوال المؤرخين ان معركة الكريون كانت فى اوائل يونيو سنة ٦٤١ وان عمرا تابع سيره بعدها حتى بلغ منطقة الاسوار ، وكانت واسعة تمتد الى مسافات واسعة فى الجنوب والشرق والغرب ، وكانت حصون الاسكندرية تعد من اعظم الحصون العسكرية وافخمها فى ذلك العصر ، وكان ذلك شأن المدينة نفسها ، فكانت من اعظم المدن ، وافخمها واكبرها ، وكانت تأتى بعد رومة فى العظمة والفخامة ، اى انهم كانوا يفضلونها على القسطنطينية من جهة العمران واتساع الرقعة وفخامة المبانى

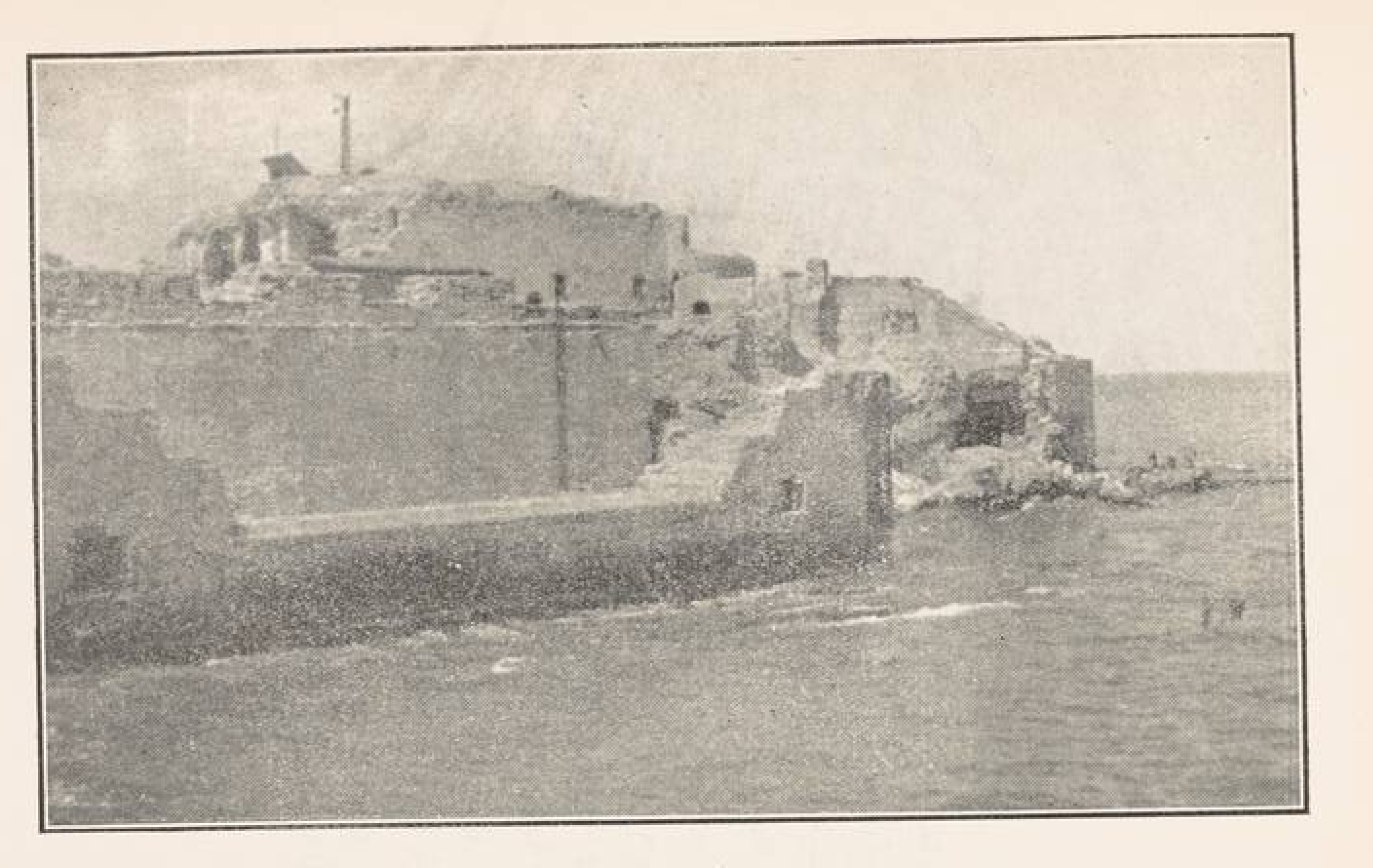
وكانت قوات الروم فى الاسكندرية لاتقل عن ٥٠ الف مقاتل لديها السلاح الوافر ، والمعدات الزائدة ، والميرة الكثيرة ، يحميها البحر من الوراء ، والاسوار من الامام والجناحين ولذلك كانت مهمة غزوها اشق من مهمة غزو حصن بابليون ، والحصون الاخرى ، ويشبه موقف عمرو الجديد امام الاسكندرية من وجوه كثيرة موقف معاوية امام قيسارية ، وقد اشترك عمرو نفسه فى حصارها ، فاستعصت على المسلمين سبع سنوات ولم يفتحوها الا بعد عناء شديد ، لانها كانت تتصل ـ كالاسكندرية بالقسطنطينية بحرا فتأتيها النجدات بدون انقطاع

ولا بد لنا من الاعتراف بانه لم يكن هنالك حصار برى على الاسكندرية بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، وانما كانت هنالك « مضايقة » ، ولا يخفى ان امتداد زمن الحصار او المضايقة ، يزعج السكان ويقلقهم ويشل الحركة الاقتصادية ويعطل التجارة ، وكان الاسكندريون يعولون فى معائشهم عليها ، فمدينتهم هى المركز

التجارى الكبير وثغر القطر المصرى العظيم . فضلا عن ان سكان المدينة نفسها ما كانوا يقلون عن ٣٠٠ الف فى تلك الايام ، يستوردون معظم حاجياتهم من الداخلية ؛ فانقطاع المواصلات بينهم و بينها ، يرهقهم و يضطرهم الى الخضوع والاستسلام لان الاسوار وحدها لا تنقذهم ، ما دامت القوى المرابطة وراءها لا تكفى لطرد العدو المرابط امامها واخراجه من البلاد

وما يقال فى الحصون ومهمتها يقال ايضا فى المواصلات البحرية ، فما كان فى استطاعة الاسطول الرومى ، ان يضرب العرب من البحر ولا ان يعرقل حركاتهم العسكرية ، وكانت مهمته فى ذلك العصر ، تنتهى عند حد ضمان النقليات العسكرية وحمل النجدات وما كان لدى الامبراطورية يومئذ قوات كبيرة زائدة تستطيع ارسالها الى مصر ، وكان المسلمون يحاربونها فى كيليكية وفى جبال طوروس

وخلاصة القول ان الاسكندرية وان لم تكن محصورة ماديا فقد كانت محصورة ادبيا ، فالعرب حولها يحدقون بها من جهاتها الثلاث ، والمواصلات مقطوعة بينها و بين مدن القطر الاخرى و بنادره ، والدولة عاجزة عن ارسال نجدات كبيرة اليها لانقاذها ورد عادية المغيرين عنها



بقايا حصون الاسكندرية (قلعة قايتباى)

٤٠

المعركة الاولى

بلغ عمرو حصون الاسكندرية فى اواخر شهر يونيو بعد ما هزم الروم على طول الطريق من حصن بابليون حتى شمالى الكريون واحتل مراكزهم وحصونهم فلجأوا وحدانا وزرافات الى حصون الاسكندرية . ويقول حنا النقيوسى فى تاريخه ان مدينة الاسكندرية ازدحمت فى تلك الايام بوفود المهاجرين الذين تدفقوا من جميع انحاء القطر

وضرب عمرو مخيمه فى مكان لا تبلغه قذائف منجنيقات الروم ولا تصل اليه نبالهم ثم قام بحركة هجوم بسيطة على الحصون ليعجم عودها ويعرف موضع الضعف والقوة منها ، فأصلاه الروم نارا حامية ، وصبوا عليه الاحجار من افواه منجنيقاتهم فارتد الى الوراء وابى المجازفة

وانصرف عمرو فى الايام الاولى الى تنظيم قواه وترتيب جنوده استعدادا للحصار لانه ما كان يجهل عظمة هذه الحصون ووفرة القوى التى اعدت خلفها

ويقول بعض المؤرخين انه تلقى وهو على اسوار الاسكندرية نجدات جديدة ارسلها اليه عمر بن الخطاب فازعج وصولها الروم وزاد فى مخاوفهم

٤١

قيرس فى الاسكندرية

اعتزل الامبراطور هركليوس العمل ، على اثر رجوعه من الشام فى سنة ٦٣٦ لخلل اصيب به فى قواه العقلية فأقام فى خلقيدونية (احدى جزر اليونان القريبة من الدردنيل) مستشفيا ، فاسترد جانبا من صحته وقواه ، فقصد الى عاصمة ملكه ، يزاول عمله ، ويسوس دولته ويسعى لانقاذ مصر من ايدى الغزاة العرب

وكان من جملة التدابير التى نفذها فى هذه المرحلة استدعاؤه قيرس ، خليفته فى مصر وتعيينه ماريتوس مكانه وقد كان يرجو تحسين الحالة بعد وصول هذا الى مقر عمله وتسلمه زمام الامر ، وجرت الرياح بما لم يشتهه الامبراطور ، ومات فى سنة ٦٤١ اى بعد انقضاء ٣١ سنة على صعوده العرش ، والعرب يحاصرون حصن بابليون ، فزاد موته فى اضطراب الروم وفى تبلبلهم ، كما شجع العرب ، وزادهم اقداما فاكتسحوا الحصون التى كانت واقفة امامهم واخضعوا معظم انحاء القطر ، واقبلوا حتى نزلوا على ابواب الاسكندرية يحاصرونها من البر ، ويرجون ان تفتح لهم وان تلقى مقاليدها اليهم

وقام بالامر بعده ولداه قسطنطين وهو الاكبر وهركلوناس وهو الاصغر وجعلت الامبراطورة مرتنيه والدة الثانى شريكة لهما وترسم اقطاب الدولة الجديدة ، خطوات الامبراطور فى العمل لانقاذ مصر

وبدأ قسطنطين فدعا اليه تيدور قائد الروم العام فى الاسكندرية فجاء على عجل ، كما ارسل فاستقدم قيرس من منفاه ، وقد نفى بأمر الامبراطور نفسه كما تقدم ليستشيرهما فيما يجب عمله لانقاذ وادى النيل

وكان من رأى تيدور عـدم ترك مصر للعرب والدفاع عنها ، وارسال القوى والنجدات اليها ؛ فان للروم هنالك مراكز منيعة قادرة على صـد العـرب متى تلقت نجدات كبيرة ، فـلا تخرج من حضن الامبراطورية

واستمال تيدور الامبراطور بحسن بيانه ، فوعده بارسال حملة فى فصل الصيف ولم يلبث الموت ان عاجله فتوفى فى شهر مايو من تلك السنة ، لاحقا بأبيـه ، فقبضت على زمام الامر الامبراطورة مرتنيه بالنيابة عن ابنها الصغير

واعاد الامبراطور الجديد (هركلوناس) قيرس الى منصبه القديم ، بعدما زوده بسلطان واسع ، واباح له ان يصالح العـرب ، وينهى القتال ، ويعمل على توطيد سلطان الروم فى مصر ، فغادر العاصمة الى الاسكندرية بحرا ، وارسـل الامبراطور حملة جديدة الى مصر ، لمواصلة الحرب اذا لم يتم الصلح ولم يقبل العرب الاقتراحات التى تعرض عليهم

ونزل قيرس الاسكندرية فى شهر سبتمبر سنة ٦٤١ ، وعاد اليها فى الوقت نفسه ايضا ، الجنرال تيدور قائد الروم فى القطر ، فاستقبل الاول بالحفاوة الزائدة ، ورحب به الروم وعدوه منقذا ومحررا

٤٢

الصلح بين العرب والروم

اسرع قيرس بعد نزوله الاسكندرية فركب النيل سرا فى اواخر شهر اكتوبر الى الفسطاط ليجتمع بعمرو بن العاص ، وكان ينزله فى تلك الايام ، تاركا جنده وقواده حول الاسكندرية لمضايقتها ، وصد الحامية اذا حاولت الخروج ، فرحب به واكرم وفادته ، واحسن استقباله

ودارت مفاوضات بين القائدين لعقد صلح ، ينهى حالة الحرب ، ويعيد السلام والاستقرار الى القطر وينقذ الاسكندرية من ضيقها ، استمرت اياما وانتهت يوم ٨ نوفمبر سنة ٦٤١ بالاتفاق على الشروط الآتية كما يرويها حنا النقيوسى فى كتابه :

١ ــ تعقد هدنة بين الفريقين لمدة احد عشر شهرا

٢ ــ يبقى العرب فى اماكنهم مدة الهدنة ، معتزلين وحدهم ولا يسعوا اى سعى لافتتاح الاسكندرية

٣ ــ يكف الروم عن القتال

٤ ــ ترحل حامية الاسكندرية الى بلادها بحرا ، ويحمل جندها متاعهم على ان يدفع من يريد الرحيل برا ، جزءا معلوما فى كل شهر ما دام فى ارض مصر

٥ ــ لا يعود جيش الروم الى مصر ولا يسعى لردها

٦ ــ يكف المسلمون عن اخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا فى امورها الدينية

٧ ـ تدفع الجزية عن كل من دخل فى العقد

٨ ـ تباح لليهود الاقامة فى الاسكندرية

٩ ـ يسلم الروم رهائن للعرب ١٥٠ ضابطا و ٥٠ من السكان لضمان تنفيذ العقد

هـذا ما يقول حنا النقيوسى ان الاتفاق تم عليه بين عمرو وقيرس . اما المؤرخون العرب فيذكرون ان الصلح تم بعد فتح حصن بابليون ويقولون ان عمرا كتب الى اهل مصر العهد الآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم ، وملتهم ، واموالهم ، وكنائسهم ، وصلبهم ، وبرهم ، وبحرهم لايدخل عليه شئ من ذلك ولا ينتقض ، ولا تساكنهم النوبة

وعلى اهـل مصر ان يعطوا الجزية ، اذا اجتمعوا على هـذا الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف ، وعليهم ماجنى لصوتهم (لصوصهم) فان ابى احد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم ، وذمتنا ممن ابى بريئة ، وان نقص نهرهم عن غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثـل ما عليهم ، ومن ابى منهـم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه او يخرج من سلطاننا

عليهم ما عليهم اثلاثا ، فى كل ثلث جباية ثلث ماعليهم على مافى هذا الكتاب ، عهد الله وذمة رسوله ، وذمة الخليفة امير المؤمنين وذمم المؤمنين

وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا رأسا ، وكذا وكذا فرسا ، على الا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة »

شهد عليه الزبير وعبد الله ومحمد ابناه ، وكتب وردان وحضر

نعم : هـذا ما اتفق المؤرخون العـرب على ايراده وتسميته بالشروط التى

فتحت بهـا مصر ، وهو يتفق فى جوهره مع الشروط التى يوردها مؤرخو الدولة الرومية وحنا النقيوسى وقد عاصر تلك الحوادث ودون اخبارها وتختلف عنــه من نواح اخرى فلم يرد فى النص الاسلامى اى ذكر لليهود ، ولا ذكر للهدنة ايضا ، ولم يرد فيه اى بحث عن حامية الروم فى الاسكندرية وجلائها ، ولعل ذلك مما اتفق عليــه شفاها بين عمرو وقيرس حين اجتماعهما بالفسطاط ، والواقـع ان المؤرخين العرب القدماء لم يعنوا بتدوين اخبار فتح مصر العناية الكافية وما اوردوه عنها فى ثنايا كتبهم لا يروى غليلا ، ولا يشفى عليلا

٤٣

ابلاغ الاتفاق الى المدينة والقسطنطينية

حمل قيرس ، الشروط التي تم الاتفاق عليها في الفسطاط الى الاسكندرية وعاد اليها سرا ، كما برحها سرا ، وارسلها الى الامبراطور مع كتاب وصف فيه الحالة واقترح اقرار العقد الذي عقده لانه ليس في الامكان الحصول على افضل منه ، لمن كان في حالتهم فجاءه الجواب بالموافقة

وانتدب عمرو معاوية بن خديج الكندي احد رجاله ، للسفر الى المدينة وابلاغ الخليفة ما حصل ، فطلب اليه ان يكتب اليه كتابا ، فقال له :

ـ الست امرأ عربيا تقدر على وصف امر شهدته

ـ نعم

ـ اذن فسر

واناخ معاوية ناقته عند باب المسجد حينما وصل الى المدينة ، ودخل وكان الوقت ظهرا ، فخرجت جارية من بيت عمر ، فاستوقف نظرها ، فسألته عن اسمه فقال انه رسول عمرو بن العاص ، فرجعت الى المنزل وابلغت عمر ماسمعت ثم عادت مسرعة وامرته ان يتبعها فتبعها حتى دخل على الخليفة فلما رآه قال له ما وراؤك ؟

ـ خير يا امير المؤمنين ، لقد فتح الله علينا الاسكندرية

ـ ولماذا لم تبادر الى ابلاغي ذلك عند وصولك

ـ لقد وصلت وقت القيلولة وظننت انك نائم فلم اشأ ان ازعجك

ـ بئس ما قلت ، وبئس ما ظننت ، لئن نمت في النهار لاضيعن الرعية ، ولئن نمت في الليل لاضيعن نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين

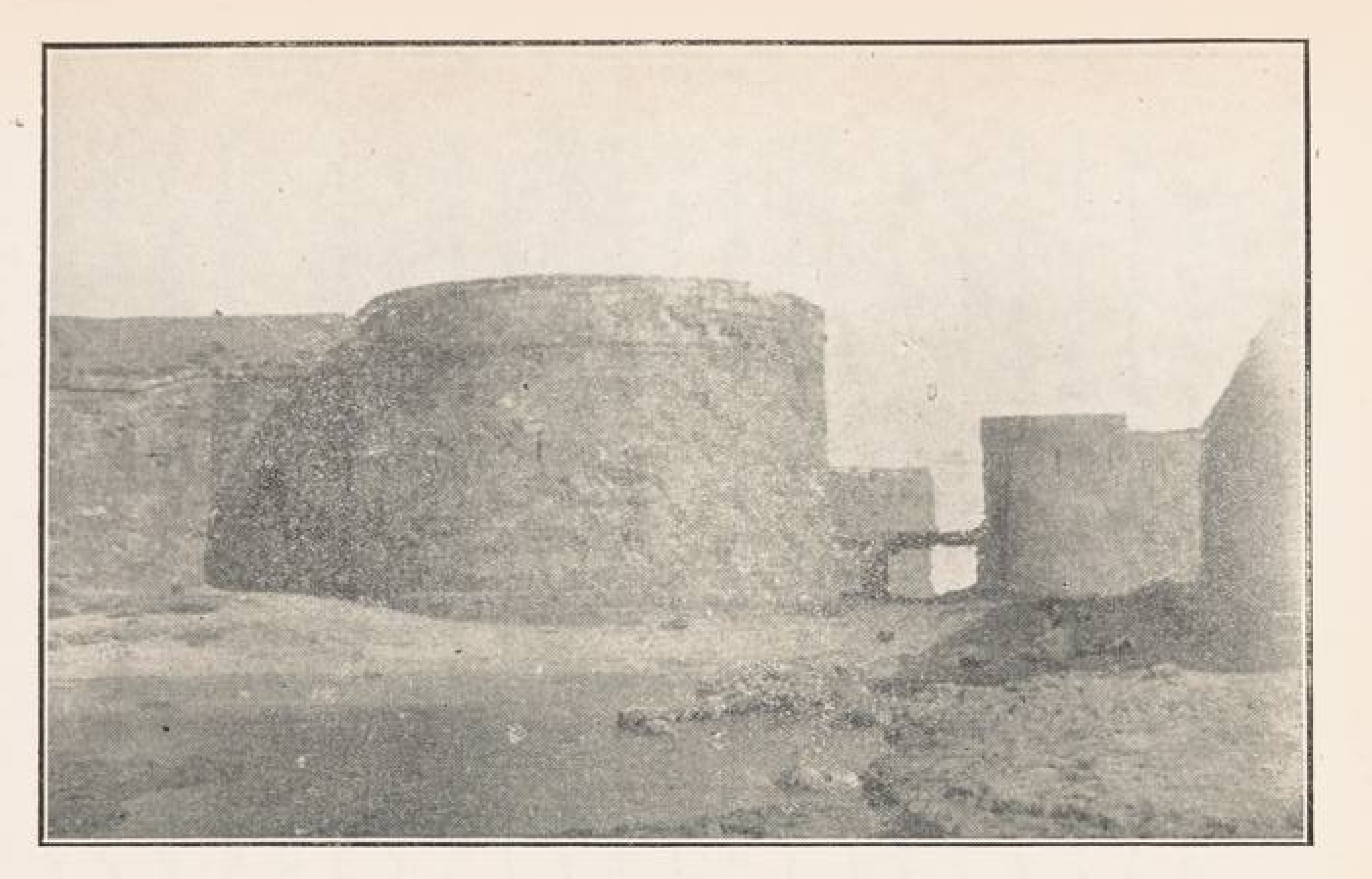
عمر يبشر بالفتح

واسرع عمر الى المسجد وامر بالأذان فاقبل المسلمون فصعد المنبر و بعد ماحمد الله واثنى عليه بشرهم بفتح الاسكندرية ودخولها فى عهد المسلمين

عمرو يصف مصر

ويقول المؤرخون ان عمر كتب الى عمرو يسأله ان يصف له مصر فقال : « اعلم يا امير المؤمنين ان مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها جبل اغبر ، ورمل اعفر . يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له اوان يدر حلابه ، ويكثر فيه دبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى اذا ما اصلخم عجاجه ، وتعظمت امواجه ، فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا فى صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كانهن فى المخايل ، ورق الاصائل .

فاذا تكامل فى زيادته نكص على عقبيه كاول ما بدا فى جريته ، وطما فى درته ، فعند ذلك تخرج اهل ملة محقورة ، وذمة مخفورة ، يحرثون بطون الارض ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ماسعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدهم فاذا احدق الزرع واشرق ، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى ، فبينما مصر يا امير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، اذا هى عنبرة سوداء ، فاذا هى زمردة خضراء فاذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقر قاطنيها فيها ، الا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، والا يستأدى خراج ثمرة الا فى اوانها . وان يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها . فاذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل »



بقايا حصون الاسكندرية (حصن نابليون بأبي قير)

كيف اذيع الخبر في الاسكندرية

كان تيدور قائد جيش الروم العام ، فى مقدمة الذين عنى قيرس بابلاغهم خبر العقد الذى عقده فى الفسطاط ، مع ان اللياقة ـ اذا لم نقل الواجب ـ كانت تقضى عليه بان يطلعه مقدما على ما نواه وقرره بصفته القائد الاعلى ولان المسألة من اختصاص رجال الجيش فى جملتها ، والظاهر ان قيرس ما كان يقيم لهؤلاء وزنا منذ ما تحقق عجزهم ، وادرك انهم لا يستطيعون ان يدفعوا عن البلد ضيما ، فعكف على معالجة الازمة بالطرق الديبلوماسية لانها افضل واجدى لمن كان فى مثل حالتهم من الضعف والعجز وفقد الحيلة

واعتزم قيرس تنفيذ الاتفاق الذى عقده مع عمرو ، بلباقة وكياسة اى انه لم يشأ ان يفاجئ الجمهور ، فيثور ويضطرب ، وقد تنتهى ثورته واضطرابه برفض العقد فيحيق به الفشل والاخفاق ، ولم ينس ما اصيب به فى المرة الاولى حينما عقد صلح بابليون . فاحتاط للامر الاحتياط اللازم ، واخذ يتدرج فى اتمام عمله وكان يعتقد ان فيه ضمانا لمصلحة مصر ، ولمصلحة الروم انفسهم ، فشتان بين ان تخرج حاميتهم باسلحتها وعددها ومعداتها ، وبين ان تقتل وتمزق ، وتفقد كل شئ ، كما انه شتان بين حالة جالية الروم ، وما كان عددها فى القطر المصرى يقل حين الفتح الاسلامى عن ٣٠٠ الف اذا فتح المسلمون البلاد بالقوة ، وبين حالها فى التسليم صلحا ، فتصان لها كنائسها واديارها ، ويمتنع الاذى عنها ، وتستطيع البقاء اذا ارادت

والخلاصة اننا من الذين يرون ان قيرس لم يفعل سوى ما اعتقد ان مصلحة قومه تقتضى فعله ، بعد ان عرف ماعرف من اضطراب شؤون الدولة ، وبعد ان خبر ماخبره من عجزها وضعفها ، ونضوب مواردها ، وفراغ خزائنها ، وبعد ان شاهد ماشاهده من فعال العرب واقدامهم وجرأتهم ، وتحقق انه لابد لهم من الاستيلاء على

الاسكندرية فى آخر الامر كما استولوا على قيسارية والحصون الاخرى ـ ففضل الصلح والسلام من باب اختيار اهون الشرين رجاء ان يخفف وقع الكارثة على قومه بقدر جهده واستطاعته

الروم يقرون الصلح

وما كاد قيرس ينتهى من « تمهيداته » السرية ويستوثق من تأييد رجال الدولة فى الاسكندرية له وفى مقدمتهم كبار القواد العسكريين حتى دعا الى اجتماع عام تصدره وحضره بعض كبار القوم واعيانهم وكثير من اولى الرأى والوجاهة ، فلما تكامل الجمع ، خطبهم خطبة طويلة ، وصف فيها حالة الدولة الرومية وما تطرق اليها من ضعف ووهن ثم تكلم عن غزو العرب لمصر واستطرد فاشار الى الصلح الذى عقده مع قائدهم واسهب فى وصف البواعث التى بعثته على عقده ونوه بما فيه من مزايا ، ودعا الى اقراره وتنفيذه لانه افضل ما يستطاع الحصول عليه لمن كان فى حال كحالهم ، فاقر الحاضرون عمله ووافقوا عليه ، وكتبوا بذلك الى الامبراطور فاقره وأمر بتنفيذه

٤٤

كيف سلمت الاسكندرية

لم يبق مانع يمنع تنفيذ عقد الصلح ، بعد ماوقعه الحاكم العام وارتضاه الامبراطور واقره ، ووافق عليه اقطاب الحكومة الرومية فى مصر مع ممثلى السلطة العسكرية الذين عكفوا منذ ما اتصل بهم خبره على اعداد جندهم لقبوله ، فلا يؤخذ على غرة ، ولا يثور عليه ، ويطلب نقضه

ولما انتهى كل شئ ، وذللت العقبات وازف الموعد المضروب للتنفيذ اتصل ولاة الروم فى داخل المدينة ، بولاة الامور العرب المرابطين حولها ، واتفقوا سرا على ان تقترب كتيبة عربية من الاسوار فيفتح لها فتدخلها ، وتتسلم المدينة والجزء الاول من مال الحماية (ضريبة الجزية وقد نص فى العقد على ان تدفع على ثلاثة اقساط)

ودنت الكتيبة العربية من الاسوار فى الوقت المعين وشاع ذلك فى المدينة ، وما كان العامة يعرفون ماهنالك ، وما اهتم ولاة الامور باطلاعهم على تفاصيل الاتفاق ، فاسرع الناس الى الابراج ليروا ماذا يكون بين العرب وبين الحامية ، وما كان اشد دهشتهم حينما رأوا اولئك ، يدنون من الابواب فتفتح لهم فيدخلونها فى امن وسلام

وهاج الناس وماجوا ، حينما عرفوا بان الامر انتهى ، وبان صلحا عقد ، وبان العرب جاءوا لتسلم اول قسط من اقساط الجزية ، ونادى مناديهم هيا بنا الى قصر الحاكم العام فنستوضحه الامر ونعرف ماجرى

وازدحم الناس حول القصر واقبلوا من كل حدب وصوب ، وقد علا ضجيجهم

وثار ثائرهم . فخرج اليهم قيرس ، واشار اليهم بالسكون فسكنوا ثم خطبهم خطبة بليغة ، سكنت روعهم ، وخففت من ثائرتهم ، فبسط لهم الموقف ، وقال « انه انما اراد من العقد الذى عقده مصلحة قومه ، ودفع الاذى عنهم ، فالعرب قوم اقوياء ، لا يصدهم صاد ، ولا يعوقهم عائق ، ولا تنفع معهم المقاومة

« لقد اراد الله ان يملكوا مصر ، ولاراد لقضائه ، ولذلك كان على الروم ان يصالحوهم فان لم يفعلوا تغلبوا عليهم وجرت الدماء انهارا ونهبت الاموال و زهقت الارواح ، وخسر الذين يبقون فى قيد الحياة ما يملكونه من ثروة وعاشوا اذلاء مشتتين مشردين

« لقد ضمن الصلح للناس فى الاسكندرية حياتهم وامنهم على اموالهم ، وحفظ لهم دينهم ، فمن اراد ان يعيش فى ارض مسيحية كان له ذلك ورحل ومن اراد البقاء بقى » ثم بكى وابكى الجمهور واشهد الله على انه لم يفعل مافعله الا خدمة لامته وحرصا على مصلحتها

وأثرت اقواله ، كما اثرت دموعه فى النفوس ، فارتاح الجمهور اليها وتفرق الناس ، وسكنت الضجة وعاد كل الى عمله ، وعكف ولاة الامور من الفريقين على معالجة الشؤون التى يجب ان يعالجوها بالاشتراك

ولما تم جمع المال المطلوب ، وضع فى سفينة غادرت الاسكندرية من الباب الجنوبى الى المعسكر العربى وكان قيرس بين ركابها فسلم المال المطلوب ويقال ان الروم زادوا عليه مقدارا كبيرا من الذهب . وكان ذلك يوم اول المحرم سنة ٢١ للهجرة و١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ وهو يوم استيلاء العرب رسميا على الاسكندرية ، اما تسليمها نهائيا فتم يوم ٢٩ سبتمبر اى يوم انتهاء الهدنة ، ففتحت لهم ابوابها ودخلها عمرو ابن العاص على رأس جيشه وقبض على زمامها

٤٥

غابر الفسطاط وحاضره

كان على عمرو بعد ما احتل الاسكندرية واصبح سيد وادى النيل وصاحب السلطان فيه ان يتخذ له عاصمة ينزلها جنده على مثال الطريقة التى اتبعت فى البصرة وفى الكوفة

ومال عمرو الى اتخاذ الاسكندرية عاصمة للدولة الجديدة والى النزول فى منازل الروم والجلوس فى مجالسهم فكتب الى الخليفة يستأذنه فى ذلك وارسل الكتاب الى المدينة مع رسول خاص

وسأل الخليفة الرسول قائلا : هل يحول بينى و بين المسلمين ماء ؟

ـ نعم : اذا جرى النيل

فكتب الى عمرو يقول : «انى لا احب ان تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى و بينهم فى شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بينى و بينكم ماء متى اردت ان اركب اليكم راحلتى حتى اقدم عليكم قدمت »

واستقر قرار عمرو على اختيار السهل الذى نزل فيه حينما حاصر حصن بابليون مقرا لمعسكره فعهد الى معاوية بن حديج الكونى وشريك بن سمى الغطيفى وعمرو بن قحزم الغطفانى وحيويل بن ناشرة المعافرى بتخطيط المعسكر الجديد او المدينة وذلك فى سنة ٢١ ثم شرع فى بناء المسجد الجامع (جامع عمرو المعروف فى مصر القديمة)

واطلقوا على المدينة الجديدة اسم الفسطاط ، والكلمة يونانية الاصل . قالوا وسبب تسميتها بذلك ان عمرا لما تحول من مقره حول حصن بابليون الى الاسكندرية

امر بنزع فسطاطه (خيمته) فاذا فيها يمامة قد فرخت فأمر عمرو بعدم ازعاجها وتركها
فى مكانها وقال « لقد تحرم منا بمتحرم »

ولما عاد العرب من الاسكندرية قالوا اين ننزل فقيل لهم فى فسطاط عمرو فنزلوا
فيه وغلب عليه اسم الفسطاط

و وصف المقريزى الفسطاط فقال « ان موضع الفسطاط الذى يقال له مدينة
مصر اليوم كان فضاء ومزارع فى ما بين النيل والجبل الشرقى (جبل المقطم) ليس
فيه من البناء سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع بالقلعة ينزل به شرطة المتولى
فى مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية ويقيم فيه
ما يشاء ثم يعود الى دار الامارة »

الفسطاط اليوم

هذا وصف ما كان عليه الفسطاط فى العهد القديم اما الفسطاط اليوم فهو سهل
واسع فى منطقة مصر القديمة يمتد حتى قرب سفح جبل المقطم شرقا وجهة فم الخليج
شمالا وقناطر السباع وجبل يشكر غربا حتى النيل وساحل اثر النبى جنوبا

ومنطقة الفسطاط مهملة خربة وتكثر فيها الفواخير انشئت جنوبى جامع
عمرو والمقابر فى شماله وفيها حفر واخاديد . وكل ما فيها يشهد باهمالها وانصراف
الناس عنها

٤٦

جامع عمرو امس واليوم

انشأ عمرو هذا الجامع فى سنة ٢١ اى حين انشاء الفسطاط وكان فى مكانه خان لقيسبة بن كلثوم التجيبي ابو عبد الله فاقترح عليه عمرو ان يبيعه اياه فيجعله مسجدا فقال انى اتصدق به

وكان طول الجامع حين انشائه ٥٠ ذراعا فى عرض ٣٠ ويقولون انه وقف على اقامة قبلته ٨٠ صحابيا منهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وابو ذر الغفاري وابو بصرة الغفاري وغيرهم

وكان للمسجد (حين انشائه) بابان يقابلان دار عمرو و بابان فى بحريه و بابان فى غربيه ، وكان الخارج من زقاق القناديل يجد ركن الجامع الشرقى محاذيا لركن دار عمرو الغربى وكان طوله من القبلة الى البحرى مثل طول دار عمرو وسقفه منخفضا جدا ولا فناء له وكان الناس يصطفون بفنائه ، وكان بينه و بين دار عمرو سبعة اذرع وكان الطريق محاطا به من جميع جوانبه

واتخذ عمرو به منبرا فبلغ ذلك امير المؤمنين عمر فكتب اليه يأمره بأن يكسره فكسره

واول من زاد فى الجامع مسلمة بن مخلد الانصارى امير مصر فى عهد معاوية (سنة ٥٣) فزاد فيه من بحريه وجعله رحبة فى البحرى و بيضه و زخرفه ولم يغير البناء القديم ولا احدث فى قبليه ولا غربيه شيئا . وقيل انه زاد فى شرقيه حتى ضاق الطريق بينه و بين دار عمرو بن العاص وفرشه بالحصر وكان مفروشا قبل ذلك بالحصباء

ثم ان عبد العزيز بن مروان هدمه سنة تسع وسبعين وزاد فيه من ناحية الغرب وادخل فيه الرحبة التى كانت فى بحريه ولم يجد فى شرقيه موضعا يوسعه به وامر عبد العزيز هذا برفع سقفه وصنع له منبرا

وهدمه قرة بن شريك العبسى بن قيس عيلان فى سنة ٩٢ بأمر الوليد بن عبد الملك وجدده ونصب فيه منبرا جديدا بدلا من منبر عبد العزيز بن مروان

وجدد بناءه عبد الله بن طاهر بعد ذلك فى ايام الدولة العباسية فظل قائما حتى جاء مراد بك الكبير فجدده فى سنة ١٢١٢ هـ واصلح سقفه و بنى فيه منارتين وميضأة جميلة ثم خرب على عهد الحملة الفرنسية ثم اصلح فى عهد الخديوى اسماعيل

الجامع اليوم

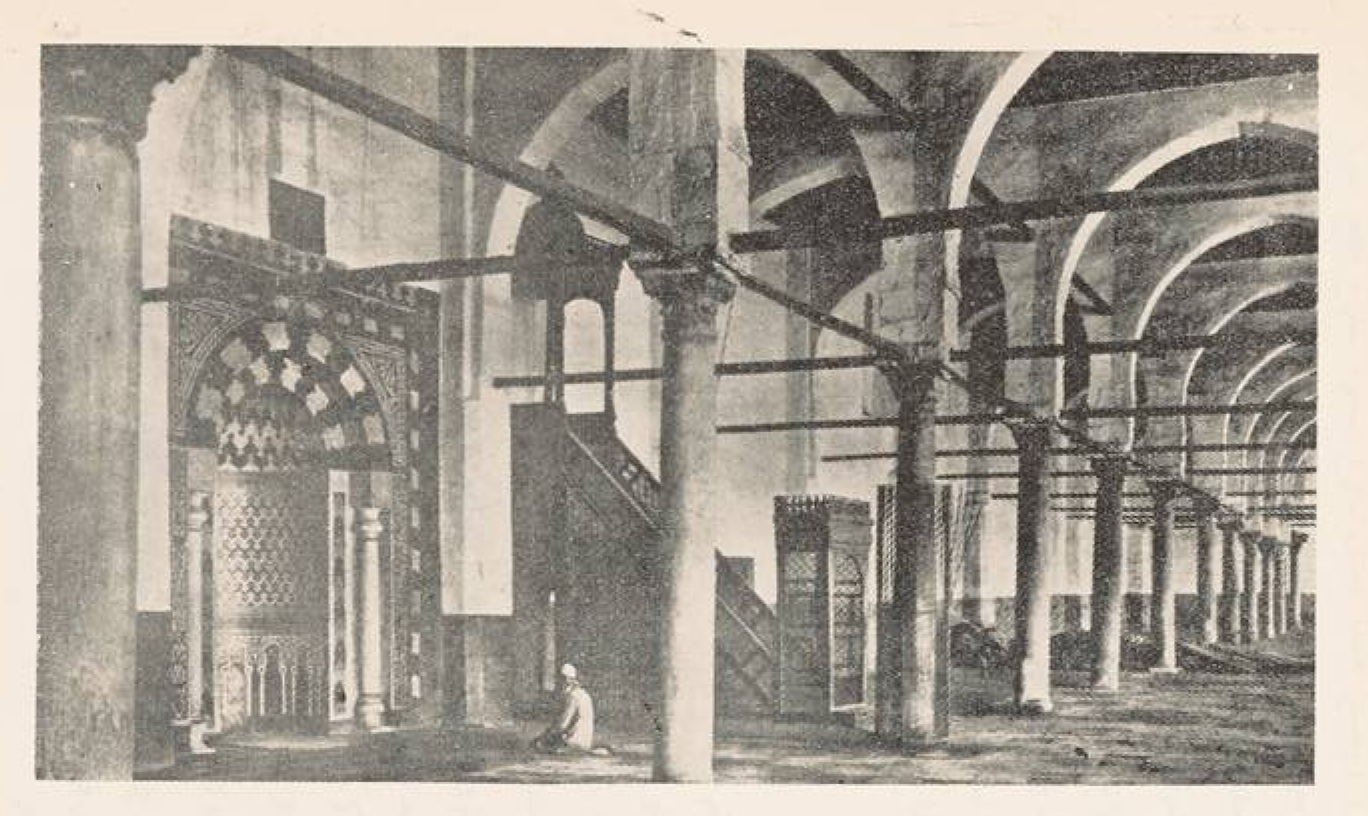
هذا موجز تاريخ هذا المسجد الاسلامى وقد زاره كاتب هذه السطور ويتألف من جزأين : داخلى للصلاة ، ولا تقام فيه سوى صلاة واحدة فى الاسبوع هى صلاة الجمعة . اما فى ايام الاسبوع الاخرى فهو شبه معطل ومغلق

وخارجى ويؤلف الفناء (الصحن) وهو اكبر واوسع من ذاك . ولا فاصل بينهما الا ان الجزء الداخلى مسقوف والصحن غير مسقوف وتبلغ مساحة الجامع نحو ٩٠ مترا طولا فى مثلها عرضا

ويقوم السقف على اعمدة وهى مصفوفة على شكل هندسى مستطيل فكل ١٥ منها فى صف واحد ويبلغ عدد اعمدة الصف الواحد طولا ٢١ عمودا و ٦ من الداخل عرضا وقد نشرنا رسمه الشمسى

وفى وسط حائط المسجد الداخلى المحراب والى جانبه المنبر ، وفى الزاوية القبلية الشمالية من الجزء الداخلى ضريح يقولون انه ضريح عبد الله بن عمرو بن العاص وقد ولى مصر بعد وفاة ابيه وتجدد كسوته كل سنة . وهنالك محراب صغير فى الجانب الشمالى عند اول الجزء المسقوف يقولون ان السيدة نفيسة كانت تتعبد فيه

وللجامع ثلاثة ابواب متجهة الى الشمال وامامه ميدان فسيح يسمونه ميدان



القسم الداخلى المعد للصلاة من جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة ويظهر المنبر فى وسطه

جامع عمرو ويتصل هذا الميدان بشارع يسمونه شارع جامع عمرو ويمتد من الجامع حتى يتصل بالطريق السلطانى بين القاهرة ومصر القديمة

وللجامع منارتان الاولى فوق ركن الباب الغربى . والثانية فى مقابلها بانحراف الى جهة الشرق و يغلب على الظن انهما المنارتان اللتان بناهما مراد بك الكبير . والجامع مهمل اهمالا شائنا يبعث على الاسى والاسف فالفواخير فى غربيه تفسد جوه . ولولا ان العادة جرت بان يؤدى فيه الجالس على عرش مصر صلاة آخر جمعة من شهر رمضان فى كل سنة لباد واندثر . وهو الاثر الوحيد الباقى فى القطر المصرى تذكارا لغزو العرب وفتحهم هذا الوادى المبارك

خطبة لعمرو فى الفسطاط

ونختم هذا الفصل باثبات خطبة منبرية خطبها عمرو فى الفسطاط على اثر انشاء مسجده التاريخى وتناقلها الرواة لما فيها من المعانى السامية ولانها تدل على عظيم اهتمام عمرو بامر القبط قال

يا معشر الناس :

اياكم وخلالا اربعة فانها تدعو الى النصب بعد الراحة ، والى الضيق بعد السعة ، والى الذلة بعد العزة

اياكم وكثرة العيال ، واخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل والقال ، فى غير درك ولا نوال

ثم انه لابد من فراغ يؤول اليه الرد فى توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه و بين شهواتها ، ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الاقل ، ولا يضيع المرء فى فراغه نصيب العلم من نفسه ، فيحور من الخير عاطلا ، وعن حلال الله وحرامه غافلا

يامعشر الناس :

انه قد تدلت الجوزاء ، وذكت الشعرى ، واقلعت السماء ، وارتفع الوباء وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر (١)

فحى لكم على بركة الله الى ريفكم تنالوا من خيره ولبنه ، وخرافه وصيده ، واربعوا خيلكم واسمنوها ، وصونوها ، واكرموها ، فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وانفالكم

استوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا ، واياكم والمشمومات والمعسولات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم

حدثنى عمر امير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم منهم صهرا وذمة » فكفوا ايديكم ، وعفوا فروجكم ، وغضوا ابصاركم ، ولا اعلمن ما اتى رجل قد اسمن جسمه ، واهزل فرسه

واعلموا انى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن اهزل فرسه من غير علة حططت من فريضته قدر ذلك

واعلموا انكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم ، وتشوق قلوبهم اليكم ، والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع ، والبركة النامية

حدثنى عمر امير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير اجناد الارض فقال له ابو بكر ولم يارسول الله قال لانهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة»

---

(١) يظهر ان الخطبة كانت عند ابتداء فصل الربيع

فاحمـدوا الله معشر الناس على ما اولاكم ، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم ، فاذا يبس العود ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوح البقل ، وانقطع الورد من الشجر فحى الى فسطاطكم على بركة الله ، ولا يقدمن احد منكم ذو عيال على عياله الا ومعه تحفة لعياله على ما اطاق من سعته او عسرته . أقول قولى هذا واستحفظ الله عليكم »

٤٧

فتح اجزاء القطر الباقية

كانت المدة ، بين ابتـداء حصار الاسكندرية و بين اعلان الهدنة اربعة اشهر (يونيو - سبتمبر) لم يشأ الجيش العربي ان يقضيها بدون عمل ، فقد اثبت المؤرخون ان عمرا قسم رجاله الى قسمين : ابقى جانبا منهم حول الاسوار لمحاصرتهـا ، وقطع الاتصـال بينها و بين الداخليـة ، وسار بنفسه على رأس القسم الآخر ، فجاب اقليم الغربية ، الواقع شرقى النيل ولم يك المسلمون قد طرقوه ، وقام بمظاهرة عسكرية فى تلك المنطقة الواسعة فقد مشى من الاسكندرية حتى الكريون ومنهـا الى دمنهور ، ثم اتجه الى الشرق ، حتى بلغ مدينة سخا وهى شمالى مدينـة طنطا وكانت قاعـدة مديرية الغربيـة ، قبـل المحلة الكبرى ، وقد خلفت طنطا المحـلة الكبرى من نحو سبعين سنة وكانت من مراكز الروم العسكرية الحصينة ، ثم واصل سيره نحو الجنوب الى طوخ القليوبية ومنها الى ميت دمسيس . ولا تزال سخا وطوخ وميت دمسيس على حالها ثم اتجه الى الفسطاط فقضى فيه اسابيع ، ثم سار منه الى الصعيد ، على رأس قوة صغيرة لاتمـام فتحه ، وانجـاز امره ، وظل يتقـدم بلا عناء ولا مقاومة حتى بلغ انطنوية المعروفة الآن باسم (انضا) وكانت اذ ذاك عاصمة اقليم طيبة . وكان للروم بقيـة جنـد هنالك ، فانسحبت بطريق الصحراء الى الاسكندرية ، عند ما علمت بقرب وصـول العرب ، ولم تجسر على الوقوف فى وجوههم او مقاومتهم وكان ذلك فى شهر اكتوبر سنة ٦٤١ وهكذا فتح الصـعيد وخضع للغزاة من دون ان يشهروا فى افتتاحه سيفا او يريقوا قطرة دم

ومما يجب التنويه به هنا ما رواه مؤرخو الدولة الرومية انفسهم ، وهو ان السكان فى اقليم الفيوم ، هاجموا البقية الباقية من جند الدولة الرومية وذبحوه ، حينما وصل العرب الى بلادهم ، انتقاما منهم ، لما الحقوه بهم من المظالم وانزلوا بهم من الاضطهادات والمغارم

وما كاد عمرو يعود من رحلته الى الصعيد وقد ضمنت له خضوع الاقاليم العليا والوسطى ، حتى وافاه قيرس الى الفسطاط فعقد معه الصلح و وضع قواعد المدنة على المنوال الذى بسطناه آنفا . فارتاح باله من هذه الجهة فعكف على وضع الخطط التى تضمن له فتح الساحل والمناطق الاخرى فى شمال الدلتا ، وما كانت مما يخشى منه بعد ان فتحت الحصون والمراكز الكبرى فسار على رأس قوة من رجاله فى ربيع سنة ٦٤٢ الى مدينة إخنا (بادت الآن ولا يعرف مقرها بالضبط) وكانت قاعدة اقليم اسمه (الجوف الغربى) فنزل بقربها وارسل الى حاكمها الرومى ، كتابا يطلب اليه فيه ان يصالح على الشروط التى صالح عليها قيرس و يدخل فى عهد المسلمين ، فارسل يطلب الاجتماع الى عمرو فاجابه الى طلبه

وسأله حينما اجتمعا عن مقدار الجزية فاجابه جوابا لم يرضه ، فاعلن المقاومة ، فهاجم المسلمون المدينة واضطروها الى التسليم

وسار العرب من اخنا الى بلهيب ، وكانت مدينة منيعة فى جنوبى رشيد (ربما كانت مطوبس او ديبى فى الوقت الحاضر) فاخضعها وخضعت ايضا البرلس ورشيد وهى من مدن السواحل وصالحت على ما صالحت عليه المدن الاخرى وكذلك صالحت دمياط ودخلت فى طاعة العرب بلا مقاومة

ويقول البلاذرى ان عميرة بن وهب الجمحى ، هو الذى ارسل الى هذا الاقليم ، ففتحه سلما وبذلك خضع القطر للعرب ولم تبق سوى رقعة صغيرة فى الساحل الشرقى تحصن اهلها بموانع طبيعية من بحيرات وغيرها كأهل المنزلة وقد سامت

تدريجا ولم تنقض سنة ٢٢ للهجرة (سنة ٦٤٢) حتى زالت سيطرة الروم عن القطر المصرى زوالا ابديا ، وتسلم العرب مقاليده وانصرفوا الى انشاء نظام حكم جديد بدلا من النظام القديم الذى زال وانهار

٤٨

تسامح عمرو

من القواعد التى سار عليها المسلمون فى ابتداء نهضتهم وطبقوها فى فتوحاتهم (وهى تشبه شرائع الحرب فى عصرنا) قاعدة تقسيم البلاد المفتتحة الى قسمين :

١ ـ قسم يفتتح حربا

٢ ـ قسم يفتتح سلما

فالبلاد التى تفتتح حربا يكون للمسلمين مطلق التصرف فى شؤونها وفى تقرير مصيرها ، والقصد من ذلك ارهاب الامة التى يحملون عليها او يسيرون لفتحها والقاء الرعب فى قلوب ابنائها ، فلا تقاومهم ولا تأبى الدخول فى طاعتهم

اما البلاد التى تستسلم صلحا ، وتأبى قتالهم ، وشهر السيف فى وجوههم ، فمعاملتهم لها تختلف باختلاف حالها ، فاذا دخلت فى الاسلام ، فيكون لاهلها ماللمسلمين وعليهم ما عليهم بلا تفضيل او ميزة ، فالاسلام ينكر نظام الطبقات والفوارق الاجتماعية ، ويجعل الكل متساوين امام الشرع والدين ، لافضل لعربى على اعجمى الا بالتقوى

واما اذا ارادت الاحتفاظ بدينها ، وعدم الخروج عنه فلها ذلك بشرط ان تدفع الجزية ، وتخضع للشرائع الاسلامية ، وتتقيد باحكامها

ولقد تكلمنا من قبل عن ضريبة الجزية ، التى كانوا يتقاضونها من البلاد التى

تسلم صلحا وتحتفظ بدينها ، وقلنا انهم كانوا يعتبرونها اجرا يتقاضونه مقابل ضمان امنها الخارجي ، فهي اشبه ما يكون بضريبة الدم او الضريبة العسكرية فى هذا العصر ، وقد جبوا هذه الضريبة فى مصر باعتبار دينارين عن الشخص الواحد ولا يخفى ان بعض قواد المسلمين اعاد هذه الضريبة فى الشام الى اصحابها حينما جلا عن بلدهم قائلا انه تناولها منهم باسم الدفاع عن امنهم وسلامتهم ، وبما انه شغل عنهم واصبح غير قادر على الاضطلاع بهذا العبء فهو يعيد اليهم اموالهم

وفعل عمرو بن العاص فى مصر اكثر من هذا فقد رضى ان يعوض عن القبط من سكان بعض قرى مصر السفلى خسارة نزلت بهم بسبب ثورة الاسكندرية حينما جاءوا اليه مطالبين بان يعوض بيت المال عليهم ماخسروه وحجتهم انه لولا اهمال المسلمين فى اتخاذ التدابير اللازمة للدفاع لما كانت الثورة ولما نكبوا فاقر وجهة نظرهم وعوضهم وطيب خاطرهم

وفضلا عن ذلك فما كان خلفاء المسلمين يتمسكون كثيرا بالشق الثانى من القاعدة ، فكثير من المدن التى لم تخضع الا حربا وبعد مقاومة شديدة ، عوملت - بامر الخليفة نفسه - معاملة البلاد التى سلمت صلحا - او صالحت بحسب اصطلاحهم - رحمة بها ورأفة بسكانها وصيانة لها من الخراب والدمار ، اذا طبق عليها نظام البلاد المفتتحة حربا . وفى مقدمة المدن التى فتحت حربا وعوملت معاملة البلاد المصالحة دمشق وذلك بامر الخليفة عمر بن الخطاب نفسه مع ان المسلمين قضوا نحو ستة اشهر حول اسوارها وذاقوا الامرين فى سبيل الاستيلاء عليها ، اما القدس فقد سلمت بعقد وعهد ، وعوملت معاملة البلاد المصالحة مع انها لم تخضع الا للقوة ولم تستسلم الا حينما رات انه لا قبل لها بالمقاومة ، وحينما تقطعت بها الاسباب وتحققت عجز الامبراطورية عن انقاذها .

وما حدث فى القدس حدث حين تسلم حصن بابليون فى مصر ، فقد علا المسلمون اسواره بعد حصار طالت مدته ، وامتد زمنه ، فاسقط فى يدى حاميته ،

فاسرعت تطلب الصلح ، وتقدم الطاعة والخضوع مع انها رفضت هـذا الصلح حينما عرض عليها بواسطة عبادة بن الصامت ، ولم يتردد عمرو بن العاص فى مصالحتها ، ومنحها الامان فابحرت لاحقة بالاسكندرية من دون ان تصاب باذى او تفقد من متاعها شيئا

وسار عمرو على هذه القـاعدة ، فى فتوحاته بالقطر المصرى ، فعامل النـاس بالرحمـة والرأفة ولم يأخذهم بالقسوة والشدة ، مع ان بعضهم قاومه ، فلا يكون الفتح الاسلامى اداة للخراب والدمار ، يؤيد ذلك مارواه الامام احمد كما جاء فى تاريخ ابن كثير عن عتاب عن عبد الله بن عقبة عن يزيد بن ابى حبيب عن عبد الله بن المغيرة ابن ابى بردة قال سمعت سفيان بن وهب الخولانى يقول : لمـا افتتحنا مصر بغـير عهد ، قام الزبير بن العوام فقال :

ـ يا عمرو بن العاص اقسمها

ـ لا اقسمها

ـ والله لتقسمنها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر

ـ والله لا اقسمها حتى اكتب الى امير المؤمنين

وكتب الى عمر فاجابه اقرها حتى يغزو منها حبل الحبلة (يريد حتى يغزو منها اولاد الاولاد ويكون عاما فى النـاس والدواب ، اى يكثر المسلمون فيها بالتوالد فاذا قسمت لم يكن قـد انفرد بها الاباء دون الاولاد ، او يكون اراد المنع من القسمة حيث علقه على امر مجهول)

وعلى كل فقد عوملت مصر معاملة البلاد التى صـالحت وقبل منها الفاتحون الجزية ، وبذلوا لاهلها الامان وعاملوهم بالرأفة والاحسان

ولا بد لنا من القول ان شرائع الحرب الرومية كانت اقسى واشد من شرائع الحرب التى وضعها المسلمون ، فالاسلام يساوى بين اتباعه وبين الذين يدخلون فى دينهم من اهل البلاد التى يفتحونها ويزيل كل فارق وحاجز ، بخلاف شرائع الروم الحربية

والمدنية فما كانت الجنسية الرومية تمنح لابناء البلاد المفتوحة ، ولو دخلوا فى دين الفاتحين وسلكوا سبيلهم واندمجوا فى جامعتهم ، الا طبقا لانظمة وقواعد خاصة لابد من مراعاتها فى منح الجنسية ، علاوة على انهم كانوا يختصون ابناء قومهم بامتيازات خاصة فى هذه البلاد تميزهم وتفضلهم على ابنائها الاصليين ، وتشبه معاملتهم لها المعاملة التى يعامل بها المستعمرون بعض البلدان الشرقية فى هذه الايام فهم يحتقرونهم ويزدرونهم و يعملون على استئصالهم وابادتهم . وقد اتبع الاميركيون هذه القاعدة فابادوا العنصر الهندى الاصلى واستأصلوه تقريبا ، ولا يقر الاسلام هذا المبدأ

وفضلا عن ذلك فان ضريبة الجزية نفسها ، لم تك مرهقة ، ولم تك مما لا يطاق ولا يحتمل ، وكانوا فى ابتداء امرهم يجبونها على ثلاثة اقساط ، يبلغ كل قسط ٣٣ قرشا صاغا بعملة هذه الايام او بمعدل ٨ قروش صاغ فى الشهر ، وهو مبلغ غير كبير ، يسهل دفعه . ومع اننا لانعرف بالضبط ، ما كان يصيب المكلف فى العهد الرومى وما كان يدفعه لخزينة الامبراطورية الا اننا لا نرتاب فى ان الضريبة التى فرضها العرب على المصريين كانت اقل كثيرا من ضرائب الروم لان نفقات العرب الادارية والعسكرية اخف ، ولان خطتهم كانت تقوم على اصطناع الناس واستمالتهم ، لا ارهاقهم بالضرائب والرسوم ، وطالما ولدت كثرتها ثورات وفتنا ، وثلت عروشا وممالك ، وبديهى ان سياسة التساهل واللين التى سار عليها عمرو فى ابتداء الفتح ومعاملته الناس بالرأفة والحلم ، هى التى مكنت له فى مصر ، وجعلت المصريين يقبلون عليه ، ويلتفون حوله ، ويساعدونه فى محاربة الروم ، فضلا عن انه خفض الضرائب والرسوم وقد ارهق الروم بها عاتق المصريين ولا ريب ان نفقات الادارتين المدنية والعسكرية التى انشأهما عمرو لاتكاد تذكر فى جانب نفقات الروم وكانوا يملكون حامية كبيرة ولهم قواد وحكام يتقاضون مرتباتهم ونفقاتهم من مال البلاد ، وكان الحاكم العام مضطرا الى مد خزينة الامبراطورية بالاموال بدون انقطاع لانفاقها فى

للصالح العديدة، ويسلم مؤرخو الدولة الرومية ان ارهاق الروم للناس بكثرة الضرائب في السنوات التي تقدمت الغزو العربي ، كان من جملة العوامل التي نفرت الناس منهم وجعلتهم ينضمون الى العرب ويوالونهم لما خبروه من عدلهم وصدقهم واخلاصهم وحبهم للمساواة ، ولما امتازوا به من الشجاعة والاقدام والجرأة والعدل وهي الخصال المحببة الممدوحة في كل آن وزمان ، وما تحلى بها شعب الا فاز وساد وامتلك القلوب

٤٩

نظرة فى اعمال العرب العسكرية

على هـذا المنوال المنظم اتم عمـرو بن العاص فتح القطر المصرى ، فانتزعه من الامبراطورية الرومـيـة واهداه الى الدولة العربية الجديدة ، فكان ذلك مقدمة لانتشار الاسـلام فى ربوعه ، وذيوع اللغة العربيـة فى ارجائه ، فحلت محـل اللغتين اللتين كانتا معـروفتين فى ذلك الزمن وهما القبطية والروميـة وصارت ولا تزال اللغة الرسمية لأبناء هـذا القطر كله ، كما صار (القطر) من اعظم مراكزها القوية وحصونها المنيعة

وما يقال عن انتشار اللغة العربية ، لغة الفاتحين ، يقال ايضا عن انتشار دينهم ، فقد اقبل الناس على الدخول فيه افواجا ، وما زال عددهم ينمو ويزداد حتى صاروا يؤلفون القسم الاعظم من السكان

وممـا لا ريب فيه ان الدين الاسلامى واللغة العربية هما من مخلفات عمرو بن العاص الخالدة فى هـذه الديار فهو الذى جاء بهما ونشرهمـا ، وسار خلفاؤه سيرته فاستقرت قواعدها ، ورسخت اركانهما ، وصارا على تمادى الايام من مقومات الحياة الاجتماعية بل من اعظم دعائمها واركانها

لقـد استغرق فتح مصر سنتين وشهرين (ذو الحجة سنة ١٩ ـ المحرم سنة ٢٢) اى منذ دخول جيش عمرو بن العاص العريش اول حدود مصر الشرقية حتى فتح دمياط والمنطقة الساحلية وشمالى الدلتا ، وقد فتحت فى خلال سنة واحدة تقريبا بعد فتح الاسكندرية ، وهى مدة غـير طويلة فيما نعتقد . ويقـر الذين درسوا

الفن العسكرى او تذوقوه على الاقل بصحة هـذه النظرية ، فقد كان هنالك بون شاسع بين القوتين اللتين كانتا تتنازعان السيادة على وادى النيل ، قوة العرب المهاجمة وقوة الروم المدافعة

ولا يخفى ان من مقتضى القواعد العسكرية ان يكون عدد الجيش المهاجم اكثر من عدد الجيش المدافـع ، وان تكون قواه المادية اوفر واغزر ، لان مهمة المهاجم اشق من مهمة المدافع واصعب ، ولان مهمة الدفاع نفسها لاتحتاج الى كثير من القوى ، وخصوصا متى كان المدافع يأوى الى حصون منيعـة ، واسوار قوية عظيمة ، وابراج شامخـة عاليـة ؛ كما كان الامر فى مصر يوم هاجمهـا العرب فما عرف التاريخ ان قائدا عسكريا مشى الى بلاد لفتحها والاستيلاء عليهـا ولا تكاد قـواه المـادية تذكر فى جانب القوى المدافعـة عنها ، الا كان نصيبه الفشل والاخفاق ، ولا يستثنى من ذلك الا الجيش العـربى الذى قاده الصحابة الى الشام ومصر والعراق وايران ، فقد نازل قوى عظيمة لاتـكاد تذكر فى جانبها قواه المادية ، وقد لا نبالغ اذا قلنا ان نسبة الجند العربى لاتـكاد تبلغ نسبة واحد الى سبعة من جند الروم والفرس الذين نازلهم فى هذين الميدانين فهزمهم وورث ارضهم وديارهم

لقـد اتفق جميع المؤرخـين من قبط وروم يونانيين ومسلمين من الذين كتبوا تاريخ مصر على ان مجموع القوى التى مشى بهـا عمرو بن العاص الى القطر المصرى واقتحم بها حدوده الشرقية ما كانت تزيد عن اربعـة آلاف مقاتل ويجعلها بعضـهم ثلاثة آلاف وخمسمائه فقط ، كما اتفقوا على ان مجموع رجال الحاميـة الرومية فى مصر من روم وقبط ، وكانت هنالك فرق محلية قبطية يجندها الروم ويعتمدون عليها فى صيانة الامن الداخـلى ـ ما كانت تقل عن مائة الف جندى بثت فى انحاء القطر ، من الاسكندرية حتى الصعيد ، ومن الفرما حتى الفيوم علاوة على شبكة واسـعة النطاق من الاستحكامات والحصون وخطوط الدفاع وصفناها من قبـل فلا نعود اليها

هـذا من جهـة ، اما من الجهـة الاخرى ، فان عمرا جاء يغزو بلادا يـكاد

يكون كل شىء فيها غريبا عنه ، فدينه غير دينها ، ولغته غير لغتها ، وعاداته غير عاداتها ، ونظم بلاده غير نظمها ، وحالته الاقتصادية غير حالتها ، وقواه المادية غير قواها . بل كان كل شىء فى مصر خصما لعمرو ، وعدوا له ، وغريبا عنه . ويجب ان لا ننسى ما بذله اقطاب الكنيسة المسيحية ورجالها فى مصر — وكانوا ذوى نفوذ عظيم — من مجهود فى مقاومته ، فهم لم يدخروا وسعا فى تشويه سمعة المسلمين ، وفى بث الدعوة لمقاومتهم ، وفى اثارة الناس عليهم وحضهم على نزالهم

واذا قيل لنا ان الفاتحين الذين جاءوا بعد ذلك لغزو مصر من افريقية او من آسيا لم يلقوا ما لقيه عمرو من مقاومة ولم يقضوا من المدة ما قضاه فى فتحها نجيب ان هنالك بونا شاسعا وفرقا عظيما بين حالة هؤلاء وحالة عمرو ، فاما المسلمون منهم ، فقد كانوا يدخلون بلادا اسلامية ، يستقبلهم سكانها بالترحاب وينزلونهم فى منازلهم وبيوتهم لانهم من ابناء دينهم وذوى رحمهم ، اى انهم ما كانوا ينظرون اليهم نظرهم الى الاعداء الذين جاءوا لاخراجهم من دينهم ، وتبديل عقائدهم ، وظلمهم واضطهادهم وقد صور الاكليروس الرومى المسلمين بأبشع الصور يوم غزاها عمرو ، وهذه كتب المؤلفين من ابناء ذلك العصر وما قرب منه ككتاب حنا النقيوسى وسعيد بن البطريق والاول عاصر الفتح تقريبا والثانى جاء بعده بنحو قرنين ، مشحونة بالطعن فى العرب والاسلام ، وكان ذلك مما يستسيغه ذلك العصر ولا ينكره ، علاوة على ان الفريقين كانا فى نضال عنيف وفى حرب ممات او حياة ، تبيح لهما العمل بكل ما يعتقدان ان فيه مصلحة لهما . والضرورات تبيح المحظورات

ويختلف غزو الحملة الفرنسوية فى اواخر القرن الثامن عشر لمصر ، عن غزو عمرو لها فى اواسط القرن السابع فقد جاءت بحرا ولم تأت من طريق البر ، وطريق البحر ايسر واسهل واقرب ، فاحتلت الاسكندرية بدون كبير عناء ، لان مدافعها ومعداتها كانت اقوى من مدافع حصون الاسكندرية . وقصدت القاهرة

مباشرة والمسافة بينهما ٢١٥ كيلو مترا فقط فى حين ان المسافة من العريش الى موضع القاهرة لا تقل عن ٣٦٠ كيلو مترا

ولم يكن فى مصر من الحصون والخنادق ومعدات الدفاع يوم هاجمها الفرنسويون ما كان فيها يوم هاجمها العرب ، كما انه لم يكن فيها من القوى العسكرية المنظمة ما كان يومئذ ، فقد مشى اليها نابليون بحملة عسكرية منظمة قوية ومدربة ، وما كان فى مصر يومئذ جيش مدرب منظم يقف فى وجهها ، بل كانت هنالك شراذم ضعيفة ليست بذات قيمة عسكرية كبيرة ، والمقاومة التى لقيها نابليون كانت من الشعب المصرى نفسه ، ومع ان الفرنسويين قضوا فى مصر سنتين فلم يخضعوا القطر كله ولم يستولوا عليه ، مع تفوقهم فى العدد والمعدات والوسائل المادية والادبية ايضا ، فقد كانت فرنسا يومئذ فى نهضة فكرية عظيمة

وحال الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ يختلف عن حال الاحتلال العربى ، فقد دخل الانكليز هذا القطر باسم حماية العرش والدفاع عنه ، وبالاتفاق مع ربه وصاحبه بعد ما اعلنوا وادعوا ان احتلالهم ينتهى عند ما تستقر الامور وتهدأ الاحوال وانه لاغاية لهم ولا مطمع . ولولا هذه الاعتبارات للقى الانكليز عناء ، ولاضطروا الى خوض معارك كثيرة

وسيظل عمل الحملة العربية التى قادها عمرو بن العاص الى هذا القطر ، من الاعمال الفذة الخالدة فى التاريخ العسكرى ، لا شبيه له ولا مثيل ، ولا يدانيه فى العظمة سوى تلك الاعمال الخارقة الاخرى التى عملها زملاء عمرو فى اليرموك واجنادين والقادسية ونهاوند وجلولاء ولم يعرف التاريخ العسكرى الى الآن لها نظيرا ، ولم يزل كبار القواد فى هذا العصر يدرسون الخطط العسكرية التى ابتكرها قواد العرب فى تلك المعارك فضمنت لهم التفوق والانتصار على جيوش كانت من ارقى جيوش العالم فى زمنها بل من اعظم الجيوش التى دون التاريخ العسكرى اخبارها

والخلاصة اننا من الذين يعتقدون بان فتح عمرو بن العاص لمصر ، وما تخلله

من الاعمال العسكرية الباهرة ، وما نفذ فيه من الخطط الحربية المتقنة ، يعد من اعظم الاعمال العسكرية التى شهدها هذا الوادى من فجر التاريخ الى يومنا هذا ، فلم يسبق لفاتح من الفاتحين ان اغار عليه بقوة ضئيلة ضعيفة ، مجردة من جميع الوسائط والوسائل المادية تقريبا ، كتلك التى اغار بها عمرو ، فقاتل وكافح مدة سنتين قوات عسكرية عظيمة تفوقه اضعافا مضاعفة ، وما زال بها حتى فتح الوادى كله ، و يوشك ان يكون قاتل على كل شبر من الفرما الى الفسطاط ومن هذا الى الاسكندرية ونشر فيه دينه ولغته ، اى انه لم يكتف بالقضاء على حكم الروم السياسى والعسكرى بل قضى على لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وشرائعهم ونظمهم ، واحل محلها لغة بلاده وعاداتها وتقاليدها ونظمها ودينها وذلك هو الفتح الحقيقى المبين

وسيرى الناس عجبا متى قام احد الجهابذة العسكريين فدرس الخطط العسكرية التى وضعها عمرو وطبقها فى فتح مصر ، وتوصل الى رسم مصور خاص لحصون الروم وقواهم العسكرية فى ارجائه وجاء باحصاء دقيق لما كانوا يملكونه من قوى مادية عظيمة ، فيعرف الناس ان فتح مصر لايقاس به فتح آخر ، وان نجاح قادة العرب فى هذا الوادى كان عظيما ، وان ما بذلوه فى الاستيلاء عليه وانتزاعه من ايدى الروم يشبه ان يكون من اعمال الجبابرة ، وخارقة الخوارق ، ومعجزة المعجزات . والمعجزات والخوارق لاتتكرر كل يوم فالدهر بها ضنين

٥٠

فتح السودان

كانت حدود مصر الجنوبية فى العهد الرومانى ، هى تقريبا نفس حدودها فى عهدنا الحالى ، اى انها كانت تنتهى جنوبى مدينة اسوان

وكان السودان ـ ويسميه مؤرخو العرب بلاد النوبة ـ منفصلا عن مصر ، وقد اعتصم سكانه بجبالهم وادغالهم ، ولاذوا بها ، ولم يخضعوا خضوعا حقيقيا للدول العديدة التى تعاقبت على وادى النيل ، لبعد ديارهم ، ولانه ليس فيها ما يغرى ، ولا يزال الفتح منذ اقدم ازمنة التاريخ عملية تجارية ، يقدم عليها المقدمون طمعا فى الربح والمغنم ، ويتجنبها المتجنبون هربا من الخسارة ، الا اذا كانت هنالك ضرورة عسكرية ، او سياسية ، اوكان هنالك غرض دينى وهو ما كان العرب يرمون اليه

وكان من دأب قبائل السودان النازلة وراء الشلال وفى المناطق المجاورة له ـ وتبعد منازلها عن الاسكندرية ، وكانت عاصمة الروم فى العهد الرومى ، نحو ١٥٠٠ كيلو متر او ١٣٠٠ اذا كانت العاصمة الفسطاط او منف ـ ان تغير على حدود مصر الجنوبية للسلب والنهب وابتزاز الاموال

النوبة فى صلح مصر

ولما صالح عمرو اهل مصر وكتب لهم عهده (انظر ص ٣٠١) ورد فيه عن النوبة قوله « ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثل

ما عليهم . ومن ابى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه او يخرج من سلطاننا عليهم ما عليه اثلاثا

« وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا فرسا على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة »

هذا ما ورد فى العهد وهو يحدد العلاقات بين السلطة العربية الاسلامية الجديدة والرعايا السودانيين فى مصر تحديدا صريحا فيمنحهم :

١ ـ حق الدخول فى عقد الصلح والاقامة فى مصر اذا شاءوا . على ان يعاملوا نفس المعاملة التى يعامل بها قبط مصر اى انه ساواهم بالقبط وجعلهم والروم سواء ، باعتبارهم رعايا غير مصريين

٢ ـ منح الذين يريدون منهم الخروج وعدم الخضوع للسلطة العربية الجديدة الامان حتى يبلغوا بلادهم

٣ ـ حدد الجزية التى يجب على اهل النوبة الذين يدخلون فى عقد الاسلام بمقدار معين من الخيل

٤ ـ منع هؤلاء من الغزو والغارة ، ومن الاعتداء على السابلة وعرقلة طرق التجارة ، وكان هذا شأنهم والغاية من هذا التدبير هو ضمان الامن على حدود مصر الجنوبية وتأمين سير قوافل التجارة بين مصر واواسط افريقية

٥١

العرب فى السودان

يقول المقريزى ان عمرا بعث عبد الله بن سعد بن ابى سرح بعشرين الفا الى النوبة فمكث فيها زمنا وصالح اهلها وقرر عليهم شيئا من المال

وعاد عبد الله نفسه فغزاهم فى سنة ٢٥ اى بعد ما صار اميرا وظل يتقدم حتى بلغ دنقلة فحاصرها وقاتل اهلها لانهم نقضوا الصلح

ثم رجع عبد الله الى مصر بعد ما اخضع السودان ، على ان فتحه نهائيا تم بعد ذلك على يد عقبة بن نافع الفهرى فى زمن ولاية عتبة بن ابى سفيان على مصر كما سيأتى

ومنذ ذلك اليوم استقرت العربية واستقر الدين الاسلامى فى تلك الربوع

٥٢

ثورة الاسكندرية

ما كاد عمرو بن العاص يستقر فى الفسطاط بعد رجوعه من غزوه فى المغرب وقد ختم بافتتاح برقة وطرابلس حتى وقعت الكارثة العظمى بمقتل عمر بن الخطاب وتقلد عثمان بن عفان الحكم خلفا له وذلك فى اواخر سنة ٢٤

وعملا بالخطة التى سار عليها هذا من اقصاء عمال عمر وقواده وابدالهم بغيرهم من الذين يثق بهم او من ذوى قرباه ورحمه أقال عمرو بن العاص من عمله فى مصر وما كان رأى عثمان بن عفان ــ كما تدل بعض الروايات التاريخية ــ يتفق مع رأى عمر بن الخطاب ، فيه وكان هذا يعجب به و بمزاياه ، فى حين ان ذاك كان يجد عليه اشياء ، ولذلك لم يتردد فى اقالته رغم ما اداه من خدم جليلة لقومه ودينه ، وابدله بعبد الله بن سعد بن ابى سرح ، وهو شقيقه فى الرضاعة ، وكان من امراء جيش عمرو فقد قاد جناحه الايمن فى زحفه من قيسارية حتى حصن بابليون . ثم كان رئيس الجباية (وزير ماليته) ثم كان اميرا للفيوم والصعيد

واغتنم بعض روم الاسكندرية (وكانوا يحنون الى العهد القديم) فرصة خروج عمرو ، وخلو العرين من الاسد ، فأوفدوا سرا الى القسطنطينية وفدا من زعمائهم قابل الامبراطور قسطانزا و بسط على مسامعه تعلق الاسكندريين بعرش بيزانطية وذكر له ان قوات العرب ضئيلة جدا فى القطر المصرى وان امرهم الى انحطاط خصوصا بعد استدعاء عمرو ، وان فى الامكان انتزاع القطر منهم على اهون سبيل ، لان حاميته قليلة ، وما كان للمسلمين فى الاسكندرية يومئذ اكثر من الف جندى ، وان السكان سيهبون هبة واحدة ، متى طلعت سفن الروم

وأثر في نفس الامبراطور ما سمعه من هؤلاء ، وظن ان في الامكان انتزاع القطر من فاتحيه فمال الى اجابة مطلبهم ونسى أن هنالك عهدا مقطوعا بينه وبينهم، تنازل فيه لهم عن حقه في وادى النيل ، وانه لم يبد من هؤلاء ما يدل على نقضهم له

الروم يحتلون الاسكندرية

وعملا بأوامر الامبراطور اعد في القسطنطينية اسطول كبير يبلغ عدده ٣٠٠ سفينة اقل حملة عسكرية كبيرة غادرت القرن الذهبي في خريف سنة ٦٤٥ بقيادة البطريق مانويل و واصلت سيرها حتى ميناء الاسكندرية فدخلته ليلا والقت مراسيها فيه واحتلت المدينة عسكريا بتأييد السكان الروم الذين انضموا اليها . وكانت فيها جالية كبيرة وقتل معظم رجال الحامية العرب ولم ينج منهم الا القليل

وزحف مانويل بعد استيلائه على الاسكندرية وقد اتخذها قاعدة له الى الضواحي والاطراف ، فاستولى عليها بتأييد الروم وانصارهم ، فقد انضموا اليه ونصروه . ووقف القبط في جانب المسلمين ، لما خبروه من عدلهم وانصافهم ، لا سيما وقد كانت العلاقات الودية بين رجال الفتح والكنيسة المرقسية على ما يرام ، فقد قرب عمرو في زمن ولايته البطريرك بنيامين وادناه منه وكان يستشيره في كثير من الاحيان

عمرو يعود الى مصر

وارتفعت الاصوات في كل مكان تنادى بوجوب اعادة عمرو الى مقامه في الفسطاط ، لعظيم هيبته وكفاءته ، وكتب كثيرون من امراء العرب الى الخليفة يقترحون عليه ذلك ويلحون بتنفيذه عاجلا لاتقاء خطر الروم

فتلقى عمرو امر الخليفة وهو في مكة بالسفر الى مصر فغادر الحجاز الى الفسطاط

وقبض على مقاليد الامور فهدأت النفوس واطمأنت ، وعكف على وضع الخطط العسكرية لمنازلة الحملة الرومية والقضاء عليها

المعركة الاولى

ويلوم بعض مؤرخي الدولة الرومية البطريق مانويل (قائد الحملة) ويقول انه اضاع فرصا ثمينة باهماله وضعف رأيه فهو بدلا من ان يسير مباشرة الى حصن بابليون ويقتحمه ويستولى عليه ، ويقبض على هذا المركز الحربى الكبير ، فيسيطر بذلك على مصر السفلى كلها ، شغل نفسه بامور ثانوية فى المناطق المجاورة للاسكندرية ، وترك للعرب وقتا كافيا ، جمعوا فيه شملهم واعادوا تنظيم قواهم ، واستقدموا فيه قائدهم الداهية الاكبر ، فأثر وصوله فى الرأى العام المصرى ، فمال الى جانب العرب ، وانضم اليهم ، ويعترف هؤلاء ايضا بان مانويل جار على القبط ونهب اموالهم واغتصب حلالهم ويقرون بان القبط مالوا الى العرب و وقفوا الى جانبهم فى هذه المرة ، لانهم ادركوا ان مصلحتهم هى فى تأييدهم وزادت اعمال مانويل وقد صب على القبط البلاء فى البلاد التى اكتسحها فى كرههم للروم

لماذا تربص عمرو

ومع ان خارجة بن حذافة قائد بابليون ومحافظه العسكرى الح على عمرو بان ينهض لقتال الروم ويسير اليهم قبل ان يسيروا اليه ، فيكتسحوا البلاد ويضعفوا مركز العرب العسكرى ، الا ان عمرا كان يرى غير رأيه فقال له : « سادعهم حتى يسيروا الى مامنهم فيصيبوا من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض » وقد جاءت الحوادث مؤيدة لرأيه فقد انتقض القبط على الروم ومالأوا المسلمين وساعدوهم وعلى رأسهم البطريرك بنيامين ورجال الاكليروس القبط

ونحن فى غنى عن القول ان القبط لم يقفوا هذا الموقف من الروم الا لانهم

ظلموهم وجاروا عليهم ، ولم يؤيدوا العرب الا لانهم عرفوا عدلهم وهذا يؤيد النظرية التى طالما رددناها وهى انه لولا عدل العرب وتسامحهم ، وحسن معاملتهم لابناء البلاد التى دخلوها ، واحترامهم لعاداتهم وتقاليدهم ، وعدم الاعتداء عليهم لما استقرت لهم قدم ، ولا خرجوا منها كما اخرج الروم ، ولثار عليهم الناس وقاتلوهم

حول نقيوس

وجاءت الاخبار الى الفسطاط بان الحملة الرومية تتقدم فى اتجاه بابليون وانها توشك ان تدنو من حصن نقيوس فنهض عمرو للقائهم يقود جيشا يقدره بعضهم بخمسة عشر الف مقاتل ، فالتقى بهم حول نقيوس ، وليس هنالك مايدل على ان الروم استولوا على هذا الحصن ودارت بينهما معركة عنيفة جدا ، وحارب عمرو بين الصفوف ، وعقر فرسه تحته فقاتل راجلا وانتهت المعركة بهزيمة الروم فولوا الادبار يقصدون الاسكندرية ولجأوا الى اسوارها وتحصنوا وراءها

وسار عمرو فى أثرهم ، وواصل مطاردتهم والمؤرخون المسلمون ومؤرخو الدولة الرومية والقبط مجمعون ، على ان القبط من سكان القرى القائمة على طول الطريق بين نقيوس والاسكندرية وتبلغ المسافة نحو ١٦٠ كيلو مترا ، بذلوا اعظم مساعدة للجيش العربى فى زحفه ، واعانوه فى نصب الجسور ، وقدموا له عن طيبة خاطر كل ماسلم لهم من ايدى الغزاة الروم

فتح الاسكندرية الثانى

وبلغ عمرو بن العاص اسوار الاسكندرية وحاصرها للمرة الثانية وآلى ليهدمن اسوارها ان مكنه الله منها فلا يتركن للروم سبيلا اليها

ونزل العرب فى الجانب الشرقى من المدينة وضربوا مخيمهم وباشروا الحصار ، وجاءوا بادواته فى هذه المرة فرموا الاسوار فزلزلوها و بين المؤرخين خلاف فى اسباب تسليمها ، فبعض مؤرخى العرب يقول ان احد بوابيها واسمه ابن بسامة او ابن بسام

اقترح على عمرو ان يؤمنه على نفسه واهله وارضه على ان يفتح له الباب فلم يتردد عمرو فى ان يبذل له ما طلبه . ويقول آخرون ان عمرا اقتحمها حربا

ويلوح لنا ان الرأى الثانى هو الاصوب فقد ثبت ان العرب اخذوها عنوة ودخلوها يضربون ويقتلون حتى بلغوا وسطها فامرهم عمرو ان يرفعوا ايديهم

وبنى فى هذا المكان المسجد المسمى (مسجد الرحمة) تذكارا لهذا الحادث .

وقتل مانويل قائد الحملة فيمن قتلوا فى ذلك اليوم ولجأ الذين سلموا من رجالها وهم الاقلون الى السفن فامتلأت بهم وكانت نكبة عظيمة ، نكب بها الروم ونكبت بها الاسكندرية نفسها ، فقد ذهبت الفتنة بكثير من منازلها ومغانيها ، كما دك عمرو بعد ذلك اسوارها الشرقية وابراجها واستقر العرب فيها ، وكان ذلك فى صيف سنة ٦٤٦ م

وادب عمرو ايضا بعد ذلك العمال الروم الذين استبقاهم فى مناصبهم لانهم انضموا الى رجال الفتنة وكانوا من اعوانها وقبض على عدد من زعمائهم وارسلهم الى المدينة فعفا عنهم الخليفة عثمان واعادهم الى بلادهم ، وامر بالمحافظة على عهد الصلح القديم وبان يعاملوا معاملة اهل الذمة وبعدم الاسراف فى العقوبات جريا على طريقة التساهل التى امتاز بها العرب فى عهد الفتح

٥٣

فتح العرب لمصر

كما يصفه تاريخ البطارقة الاقباط

رأينا ان نتبع ما كتبناه عن فتح العرب لمصر بهذا الفصل الذى لخصناه من سيرة البطريرك بنيامين المنشورة فى كتاب تاريخ بطارقة الكنيسة القبطية وقد حافظنا على الاصل بقدر الامكان واغفلنا فقرات دينية لاصلة لها بموضوعنا قال :

« ولما ملك هرقل بعد انتصاره على الفرس اقام الولاة فى كل موضع وانفذ واليا الى ارض مصر يدعى قيرس ليكون بطريركا و واليا معا فلما وصل الى الاسكندرية اعلم الاب بنيامين (البطريرك) ملاك الاب وامره ان يهرب لان شدائد عظيمة تنزل بهم ومدتها ١٠ سنوات فكتب الى جميع الاساقفة فى كرسيه ليخفوا (يختفوا) حتى يجوز غضب الرب فدبر الاب بنيامين حال البيعة و رتبها وتقدم الكهنة والشعب واوصاهم بالتمسك بالامانة المستقيمة حتى الى الموت ثم كتب الى سائر اساقفة كورة مصر بان يختفوا . و بعد هذا خرج من طريق مربوط وهو ماش على رجليه ليلا ومعه اثنان من تلاميذه حتى وصل الى المنى ومن هناك مضى الى وادى هيب وكان الرهبان هنالك قليلا لانه عقب الخراب الذى كان فى ايام دميانوس البطريرك وكانت البربر لاتدعهم يكثرون هنالك . ثم انه خرج من الديارات بوادى هيب ومضى الى الصعيد واقام مختفيا هناك فى دير صغير فى البرية الى كمال عشر سنوات كما قال له ملاك

الرب وهى السنون التى كان فيها هرقل والمقوقس مسلطين على ديار مصر ولعظم البلاء والضيق والعذاب الذى انزله بالارثوذكسيين لكى يدخلوا فى الامة الخلقدونية ودخل جماعة منهم لا يحصى عددها : قوم منهم بالعذاب وقوم بالهدايا والتشريف وقوم بالسؤال والخداع حتى ان قيرس اسقف نقيوس و بقطر اسقف الفيوم وكثيرا مثلهم خالفوا الامانة

« ومن بعد ايام يسيرة ثار رجل من العرب من نواحى القبلة من مكة وضواحيها اسمه محمد بن عبد الله فرد عباد الاوثان الى معرفة الله وحده وان يقولوا ان محمدا رسول الله . وكانت امته مختونة بالجسد لا بالناموس و يصلون الى الجهة القبلية مشرقين الى موضع يسمونه الكعبة وملك دمشق والشام و بحر الاردن وسادومه وكان الرب يخذل جيش الروم قدامه لاجل اماتتهم الفاسدة والحروب التى حلت بهم لاجل مجمع خلقدونية من الاباء الاولين ، فلما علم هرقل ذلك جمع جيشه من مصر الى حدود اسوان ومكث يدفع القطيعة التى سأل حتى يقررها على نفسه وعلى جميع جيوشه ثلاث سنين للمسلمين وكانوا يسمون المقرر القطر اى انه يقط رؤوسهم الى ان دفع لهم معظم ماله ومات كثير من الناس من التعب الذى كانوا يقاسونه

فلما تمت عشر سنين من مملكة هرقل والمقوقس وهو يطلب بنيامين البطريرك وهو هارب منه من مكان الى مكان مختفيا فى الحصينة انفذ ملك المسلمين سرية مع امين من اصحابه يسمى عمرو بن العاص فى سنة ٣٥٧ لديقلاديانوس قاتل الشهداء فنزل عسكر الاسلام الى مصر بقوة عظيمة فى اليوم الثانى عشر من بؤنة وهو السادس من يونيوس من شهور الروم وكان الامير عمرو قد هدم الحصن واحرق المراكب بالنار واذل الروم وملك بعض البلاد وكان مجيؤه بالبرية فاخذوا الخيل الجبل حتى دخلوا الى قصر بالحجارة بين الصعيد والريف يسمى بابليون فضربوا خيمهم هنالك حتى ترتبوا لمقاتلة الروم ومحاربتهم ثم انهم سموا ذلك الموضع اعنى القصر بلغتهم

بابليون الفسطاط وهو اسمه الى الآن . و بعد قتالهم ثلاث دفعات غلب المسلمون الروم فلما رأى رؤساء المدينة هذه الامور مضوا الى عمرو واخذوا امانا على المدينة لئلا تنهب وهذا العهد الذى اعطاهم اياه محمد رئيسهم سموه الناموس يقول فيه كورة مصر تستقر مع اهلها ومع الخراج لكم وان تعبد لسلطانكم عاهدوهم ولا تظلموهم ومن لايرضى ذلك و يخالفكم انهوهم واسيروهم فلذلك مسكوا ايديهم عن الكورة واهلها واهلكوا جنس الروم و بطريقهم المسمى ماريانوس ومن سلم منهم هرب الى الاسكندرية واغلقوا ابوابها عليهم وتحصنوا فيها . وفى سنة ٣٦٠ لديقلاديانوس فى شهر وكيزيوس من بعد ان ملك عمرو مصر بثلث سنين ملك المسلمون مدينة الاسكندرية وهدموا سورها واحرقوا بيعا كثيرة و بيعة مارى جرجس

وعرف سانوتيوس التكس المؤمن فى الاسكندرية عمرا بسبب الاب المجاهد بنيامين البطريرك وانه هارب من الروم خوفا منهم فكتب عمرو الى عمال مصر كتابا يقول فيه الموضع الذى فيه بنيامين بطريرك النصارى القبط له العهد والامان والسلامة من الله فليحضر آمنا مطمئنا و يدبر حال بيعته وسياسة طائفة . فلما سمع القديس بنيامين هذا عاد الى الاسكندرية بفرح عظيم بعد غيبته ١٣ سنة منها ١٠ سنوات لهرقل الرومى الكافر وثلث سنوات قبل ان يفتح المسلمون الاسكندرية لابسا اكليل البصر وشدة الجهاد الذى كان على الشعب الارثوذكسى من الاضطهاد من المخالفين فلما ظهر فرح الشعب وامر الامير عمرو باحضاره بكرامة واعزاز ومحبة فلما رآه اكرمه وقال لاصحابه وخواصه ان فى جميع الكور التى ملكناها الى الآن مارأيت رجل الله يشبه هذا وكان الاب بنيامين حسن المنظر جيد الكلام بسكون و وقار

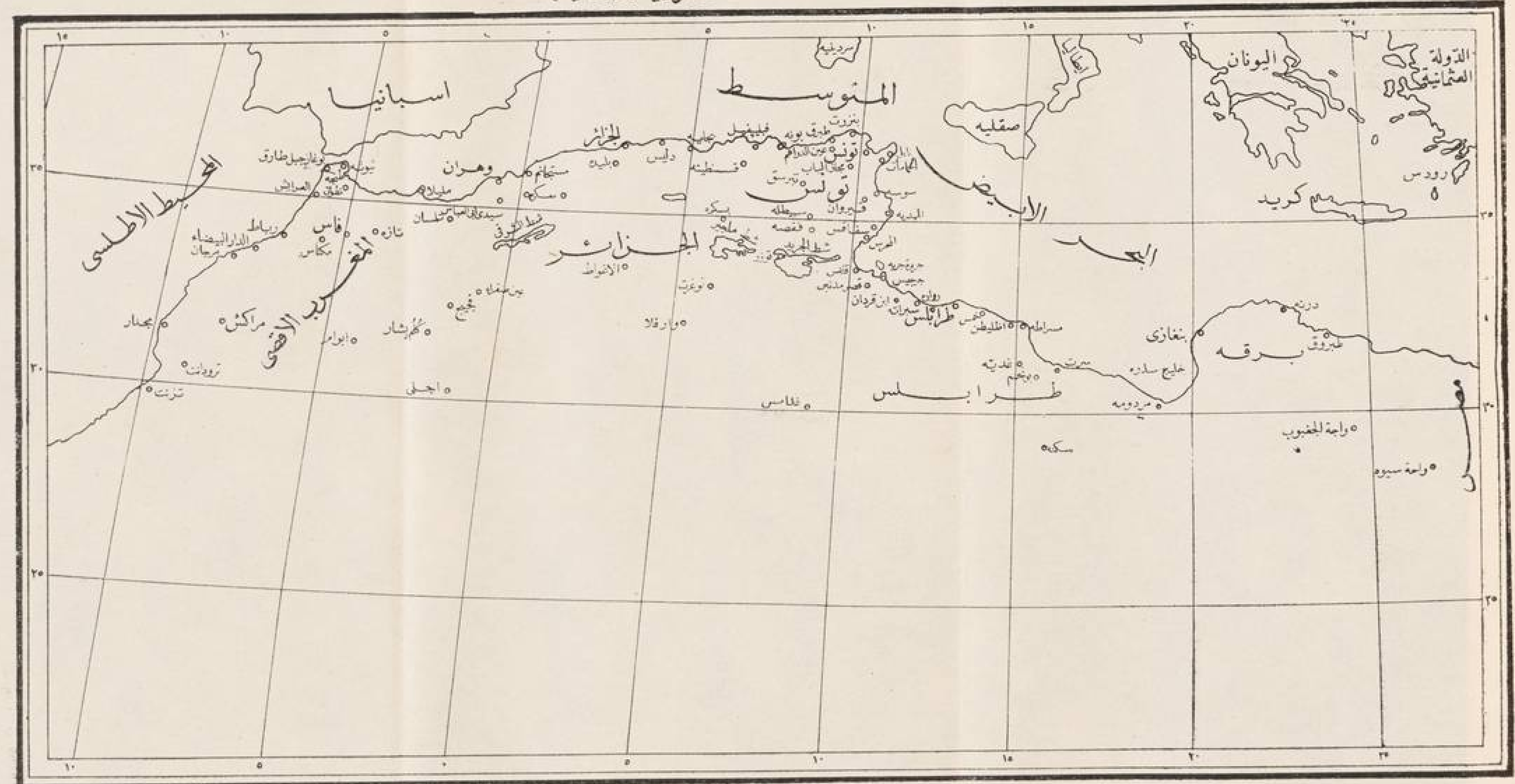
ثم التفت عمرو اليه وقال جميع بيعك و رجالك اضبطهم ودبر احوالهم . واذا انت صليت على حتى احضر الى المغرب والخمس مدن[1] واملكها مثل مصر واعود

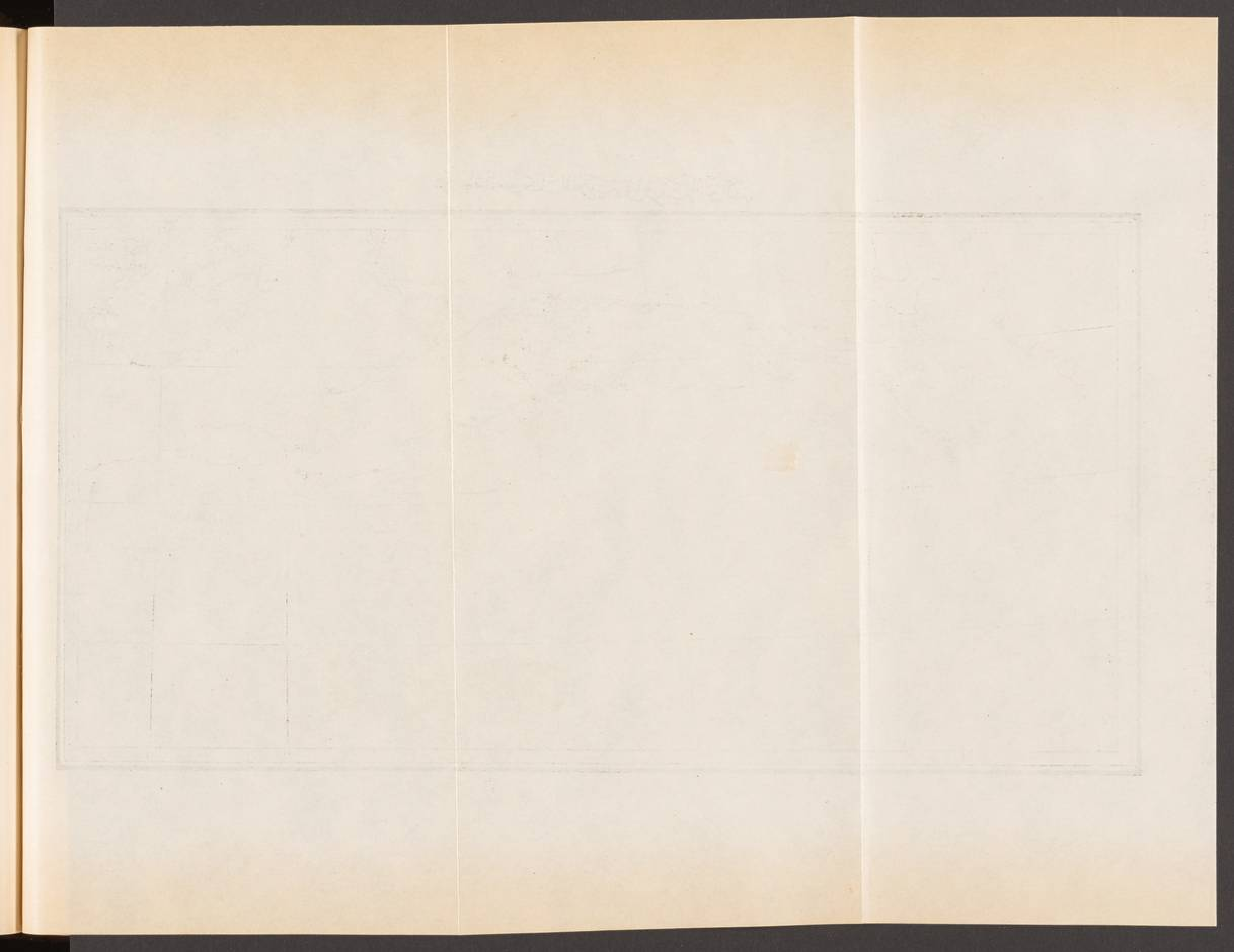
---

(١) المدن الخمسة هى : برقة وفزان والقيروان وطرابلس الغرب وافريقية والحبشة والنوبة

اليك سالما بسرعة فعلت لك كلما تطلبه منى فدعا له القديس بنيامين واورد له كلاما حسنا
اعجبه هو والحاضرين عنده فيه وعظ وربح كثير لمن يسمعه وادى اليه باشياء
وانصرف من عنده مكرما مبجلا . وكاما قاله الاب للامير عمرو وجده صحيحا لم يسقط
منه حرف واحد الخ

خريطة الفتوحات العربية فى افريقية الشمالية





فتح برقة



برقة

معلومات جغرافية موجزة

برقة مقاطعة عربية تقع غربى مصر يحدها من الشرق القطر المصرى ومن الغرب طرابلس الغرب ومن الشمال البحر الابيض ومن الجنوب الصحراء

ويطلقون اسم برقة على المنطقة الممتدة من غربى السلوم حتى نهاية خليج سرت على شاطىء البحر الابيض فى مكان يقال له المقطاع وهى بلاد برقة الحقيقية واسمها بالرومية (Ciranica)

وعاصمتها السياسة فى الوقت الحاضر مدينة بنغازى وقد بنيت على انقاض مدينة برنيق القديمة ، وهى تشغل قسما كبيرا من مكانها . والمدينة العربية المسماة برقة هى المرج

وتبلغ مساحة برقة السطحية ٣٤٥ الف كيلو متر مربع ، ويقدر سكانها بربع مليون كما تقول دائرة المعارف البريطانية وهم عرب مسلمون

١

برقة

يطلق الجغرافيون القـدماء اسم بنطابولس (Pentapolos) ومعناه المدن الخمسة على الاقليم الواسع الواقع غربى طرابلس الغـرب وشرقى خليج السـلوم ، بين البحر المتوسط شمالا والصحراء جنوبا

والمدن الخمسة التى تعنيها الـكلمة اللاتينية هى :

١ ـ برنيق (نفس مدينة بنغازى الحاضرة)

٢ ـ طوكرة

٣ ـ المرج

٤ ـ سوسة

٥ ـ فرنة

وتبعد برنيق او بنغازى عن الاسكندرية ١١٠٨ كيلو مترات منها ٦٩٧ من الاسكندرية حتى آخر حدود مصر تقريبا والباقى الى بنغازى نفسها

ولقد انتزع الرومان هذه المقاطعة مع مقاطعة طرابلس المجـاورة لها من ايدى القرطاجنيين سنة ١٤٦ للميلاد وظلوا يسيطرون عليها حتى سنة ٤٣٥ م فانتزعها منهم جنسريك ملك الفندال وقد جاءها غازيا من الغرب وعاد اليها الرومان بعد ٩٨ سنة أى سـنة ٥٣٧ على يد قائدهم (بيليساريوس) وظلوا فيها حتى جاء الاسلام فانتزعها منهم و بسط سلطانه عليها ، فدخلها العرب بدخوله واستوطنوها وتغلبوا عليها وصارت جزءا من اجزاء الوطن العربى الاسلامى ، ولم تزل الدول الاسلامية تتعاقب عليها حتى اغار الايطاليون عليها فى شهر سبتمبر ١٩١١ ـ شهر شوال سنة ١٣٢٩ هـ فقاومهم ابناؤها واستماتوا فى الدفاع عن حوزتهم



مدينة بنغازى (عاصمة برقة) كما ترى اليوم

٢

من بنطابوليس الى القسطنطينية

كان هركليوس ــ وهو الامبراطور الذى غزى العرب فى عهده الامبراطورية الرومية وانتزعوا منها ممتلكاتها الجنوبية من جبال طوروس حتى اقصى حدود افريقية الشمالية ــ قائدا من قواد هذه الدولة العسكريين ، وقد امتاز ببلائه فى حروب الفرس على عهد الامبراطور موريق ، فكافأه بان عينه حاكما لاقليم بنطابوليس (برقة) وكان من الاقاليم الكبرى الزاهرة فى ذلك العصر

وطمحت نفس هركليوس الى عرش القياصرة ، ووضع نصب عينيه بلوغه ، وكانت الامبراطورية يومئذ تتردى فى هاوية الانحلال والاضمحلال ، وكانت الثورة هى الواسطة الوحيدة لبلوغ العرش ولبس التاج ، وقد قفز كثيرون من صفوف الجيش الى عرش الامبراطورية ، وكان آخرهم الامبراطور فوكاس وهو الذى ثار هركليوس عليه ، فقد كان فى ابتداء امره جنديا عاديا

واستطاع هركليوس ان يجمع حوله بضعة آلاف من الانصار بعضهم من البربر و بعضهم من الروم استمالهم بالمال كما يقول حنا النقيوسى وسلحهم بالسلاح الكامل ، ثم نقض بيعة الامبراطور وخلع طاعته ، فجاء قائد الروم العسكرى فى طرابلس الغرب لقتاله ، فهزمه وصار سيد هذين الاقليمين المتجاورين : طرابلس وبرقة ، وانضم الى هركليوس « نيقتاس » نائبه فى الحكم وصديقه فاقتسما العمل فسار الاول على رأس قسم من الانصار الى سلانيك بحرا فنزلها واستقر فيها واتخذها قاعدة لأعماله ، وعكف يعد المعدات لمهاجمة القسطنطينية بحرا واختراق الدردنيل والقضاء على حكم فوكاس

وسار الثانى الى الاسكندرية فانضم اليه حاكم مريوط الرومى فى الطريق .
وحاول قائد الاسكندرية صد الثوار فهزموه وقتلوه وقصعوا رأسه وجعلوه على سنان رمح ، وفتحت لهم المدينة على الأثر ، فاشتد ساعدهم واتسع نطاق حركتهم ، واستولوا على معظم اجزاء القطر الاخرى

٣

عمرو بن العاص فى برقة

ماكانت مطامع عمرو بن العاص تقف عند حد ، وما كانت همته تضعف او تكل ، وما كان من الرجال الذين تعرف الراحة سبيلا الى انفسهم ، او يعرفون الى الراحة سبيلا ، فأمنيته العظمى ان يقارع الابطال ويفتح الاقطار ، وينازل الجيوش ، ويمزق الصفوف ، ويفوز بالنصر ، ويحظى بالظفر

ويلوح لنا ان البواعث التى بعثته على فتح برقة وغزوها ، هى نفس الاسباب التى بعثته على فتح مصر ، فقد اتجهت همته الى فتح مصر ، وكان قد زارها وجاس خلالها ـ بعد مافتح فلسطين ، وقال للخليفة انه لايأمن ان يأتى الروم من جانب الحدود الجنوبية اى من مصر فيجب ان يحمل عليهم وينهض لقتالهم قبل ان ينهضوا لقتاله ، وان يهاجمهم قبل ان يهاجموه ، واقر الخليفة هذه الخطة بتحفظ وشروط ولم يسعه حينما رأى اقدام عمرو الا ان يجاريه ، فأرسل اليه الامدادات والنجدات فكان الفتح وكان النصر

ولئن استأذن عمرو الخليفة ونال موافقته مقدما على غزو مصر ، فالروايات التى رواها المؤرخون العرب ومؤرخو الدولة الرومية والقبط تدل على انه لم يستأذنه فى غزو برقة جارة مصر الغربية ، مع انها كانت قطرا مستقلا عن مصر فى ادارتها الداخلية والعسكرية ، ومع انها تبعد عنها مئات الكيلو مترات . ولعل عمرا اراد من عمله ان يجعل الخليفة امام امر واقع ، لانه ما كان يخشى معارضته ، بعد ما هزم الروم فى القطر المصرى وقضى على نفوذهم العسكرى والسياسى ، يضاف الى هذا ان رجال الدولة الاسلامية فى مصر ـ كما تدل المكاتبات التى دارت بينهم

و بين المدينــة ـ ما كانوا يعدون مصر و برقة وطرابلس الغـرب من افريقية ، بل كانت حـدود افريقية عندهم تنتهى عند انتهاء حـدود طرابلس الغربيـة ، وابتداء حدود تونس (قرطاجنة) يؤيد ذلك ما كتبه عمرو بن العاص الى الخليفة عمرو بعد افتتاحه طرابلس و برقة ، فقد ارسل يستأذنه فى فتح ما اسماه افريقية ، فأجابه بعـدم الموافقة وامره بالرجوع وهذا نص الكتابين اللذين تبادلاهما :

« من عمرو بن العاص الى عبد الله امير المؤمنين

« ان الله قـد فتح علينا طرابلس وليس بينها و بين افريقية الا تسعة ايام فان رأى امير المؤمنين ان يغزوها و يفتحها الله على يديه فعل »

من عبد الله عمر امير المؤمنين الى عمرو بن العاص

« لا . انها ليست افريقية ولـكنها الفرقة ، غادرة مغدور بها ، لايغزوها احد ما بقيت »

٤

من الاسكندرية الى برقة

بين برقة و بين القطر المصرى طريقان للمواصلات يسلكهما السالكون من اقدم عصور التاريخ :

١ ـ طريق البحر الابيض

٢ ـ طريق الساحل و يمتد من الاسكندرية حتى برقة على ساحل البحر الابيض وهو الطريق السلطانى بينهما ، كما هو طريق الحج ، فقد كان الحجاج المسلمون القادمون من افريقية يسلكونه فى ذهابهم الى الحج وايابهم منه قبل عصر البخار

طريق الساحل

و بديهى ان المسلمين فى سيرهم الى برقة سلكوا الطريق الثانى طريق الساحل لانهم ما كانوا حتى ذلك العهد يملكون اسطولا يعتمدون عليه فى غزواتهم ومواصلاتهم البحرية وكان الروم يسيطرون فى ذلك العصر على البحر الابيض وكان يعد بحيرة رومية

وصف هذا الطريق

و يبلغ طول هذا الطريق ١١٠٨ كيلو مترات كما قلنا و ينقسم الى خمس مناطق فى الوقت الحاضر وهذا وصفها :

١ ـ منطقة الاسكندرية ـ فوكا وتصل بينهما سكة حديد طولها ٢٣٥ كيلو مترا تبتدئ من محطة الاسكندرية الكبرى و يسمى هذا الخط خط مريوط ـ الحمام

٢ ــ منطقة فوكا ــ مرسى مطروح والمسافة بينهما ٧٥ كيلو مترا

٣ ــ منطقة مرسى مطروح ــ السلوم والمسافة بينهما ٢٠٠ كيلو مترا وتنتهى خدود مصر غربى السلوم ، وتبتدئ حدود برقة او حدود ايطاليا فى الوقت الحاضر ، وتفصل بينهما صحراء واسعة تنتهى عند طبروق والمسافة بين السلوم وطبرق ٩٠ كيلو مترا

٤ ــ طبروق ــ درنه ١٦٨ كيلو مترا

٥ ــ درنه ــ بنغازى ٢٥٠ كيلو مترا

هذه هى المناطق التى يتألف منها الطريق بين الاسكندرية وبرقة ، واكثرها غير معبد وتسير عليها السيارات بصعوبة ومعظم هذا الطريق غامر ولا سيما الجزء الممتد من مريوط حتى طبرق فدرنه

وصف هذا الطريق فى العهد الرومى

ويقول مؤرخو الدولة الرومية ان هذا الطريق كان عامرا فى اواخر العهد الرومى ، قامت على جانبيه الحدائق والبساتين وما كان الطراق يلقون عناء ولا نصبا فى اجتيازه

ويقول هؤلاء المؤرخون ان سهولة هذا الطريق وعمرانه كانت فى مقدمة الاسباب التى اغرت عمرا باجتيازه ، و بعثه على سلوكه من دون استئذان الخليفة لانه ما كان يرى داعيا لذلك ، سيما وانه كان يرمى من وراء عمله الى صيانة حدود مصر الغربية فلا يهدده الروم منها ، ولا يسير قوادهم الى الاسكندرية من هذه الناحية كما سار اليها نقتاس ، حليف هركليوس وصديقه فى اثناء ثورتهما المشتركة سنة ٦٠٩ م

ويؤكد بعض المؤرخين ان حدود مصر فى ذلك العهد كانت تنتهى حيث يبتدئ اقليم قرنه « قيرين » وتنتهى عند الجانب الشرقى لمدينة درنه « دارنيس »

ومن ثم يبدأ اقليم مار ماريكا ، وكانت « اكسياس » و « پالوفياس » و بطراقس وانتيبرجوس من مدن هذا الاقليم

اما اقليم لوبيا فكان يبتدئ من مدينة پانورموس ومن مدنه المعروفة قطابتموس وسيلنوس واموينا او بريطونيوم وكانت قاعدة الاقليم

وكانت قاعدة اقليم مريوط مدينة اسمها مارية وهى مريوط نفسها فى الوقت الحاضر ، ومن مدنه المعروفة پلينطين وتاپسوريس وغيرها

وعلى كل حال فان ذكر اسماء هذه المدن وقد ورد بعضها محرفا فى كتب المؤرخين العرب ، يدل على ان هذه المنطقة كانت عامرة لاغامرة كما هى اليوم ، كثيرة الاشجار والماء ، مما يسهل مهمة الجيش الزاحف فلا يلقى فى اجتيازها تعبا ولا نصبا

٥

البربر

كان اقليم برقة يوم قصده ابن العاص مأهولا بعنصرين كبيرين : البربر وهم سكان البلاد الاصليون ، والروم وهم الجالية المستعمرة من ابناء الدولة الفاتحة ، ويحاط هؤلاء عادة بالرعاية الزائدة ، ويمنحون من الامتيازات الاقتصادية والادارية والسياسية ما يكسبهم التفوق ويجعلهم سادة البلاد الحقيقيين ، ويجعل سكانها الاصليين خولا لهم وعبيدا ، يخدمونهم ويحملون اليهم خيرات بلادهم ، ويجبون اليهم ثمراتها ، شأن الاستعمار والمستعمرين فى جميع ادوار التاريخ ولا سيما فى العهد الرومانى فالبيزانطى وفى القرون الوسطى وفى العصر الحاضر

ولا بد لنا من القول بهذه المناسبة ان اقطاب اوربا المستعمرة يستثيرون دفائن تاريخ الاستعمار الرومانى ، ويبحثونه فصلا فصلا وبابا بابا ، ليقتدوا بالرومان ويأخذوا باساليبهم وخططهم فى ادارة البلاد التى كتب عليها ان تكون تحت نيرهم الاستعمارى الثقيل ، وفى اذلال ابنائها وسكانها ، اى انهم يحاولون الرجوع فى ادارة مستعمراتهم ١٦ قرنا الى الوراء ، مع ان العالم يسير الى الامام ويعمل على الغاء النظام الاستعمارى الظالم القاسى

اصل البربر

ولقد بحثنا مليا فيما لدينا من الكتب العلمية عن اصل هذا الشعب ونشأته فألفينا اضطرابا وتباينا فى الروايات والاقوال عن اصله ونشأته ، ونحن ننقل ماعثرنا عليه فى شتى المصادر من عربية وافرنجية.

قالت دائرة المعارف البريطانيـة : يطلق اسم البربر عـلى الجنس الليبى الذى استوطن منـذ فجر التاريخ المنطقـة الواقعـة بين البحر الابيض المتوسط والصحراء الـكبرى ، والبقعة التى تمتد من مصر الى الاوقيانوس الاطلانطيكى

واصل اسمهم مشكوك فيه فكان المصريون يسمونهم « لابو » « وشوشا » وغير ذلك من الاسماء ودعاهم الروم « نوميدين » و « المور »

والبربر شعب ابيض ، لم يؤثر عليهم احد من الفاتحين تأثير العرب . ومع ذلك فلم يمتزج هذان الشعبان امتزاجا تاما

وقرية البربرى هى دولته ، والحكومة عبارة عن الجماعة واعضاء القرية يقررون ما ينبغى عمـله فى الداخـل او فى الخارج ، ومع ان كل قرية مستقلة استقلالا داخليا فقد تتحد احيانا قريتان او اكثر فتؤلف قبيلة ويؤلف عدد من القبائل اتحادا

ومع ان لغة البربر تدل على وجود صلة بينها و بين اللغات السامية الا انها مستقلة عنها . ولهم كتابة خاصة بهم قديمة جدا ، تدل على وجودها الآثار القديمة الباقيـة فى افريقية الشمالية

وجاء فى دائرة المعارف العربية للبستانى فى مادة « بربر » ماخلاصته :

« بربر » اسم اطلقه العرب عـلى كل القبائل التى كانت مواطنهـا بلاد المغرب بافريقية على حدود المملكة الرومانية القديمة هنالك . وقيل ان هـذا الاسم مأخوذ من لفظة برباري الذى كان القدماء يسمون به القبائل المغربية ولم يكن فى الاصل مختصا بامة واحدة . ولفظة فرفاروس باليونانيـة كلفظة بليوس باللاتينية مأخوذة من اللفظ او الصوت الذى يصدره الالثغ . ثم صار عند اليونان يراد به كل من يتكلم بلغة تختلف عن لغتهم ، ولذلك سموا ايطاليـا بربار يا ثم استعمل الرومان هـذه الكلمة فدلت فى زمان الجمهورية المتأخرة وفى السنين الاولى من دولتهم على كل الطوائف التى ليست يونانية ولا ايطالية

ولمـا اخضع الامبراطرة قبائل وشعوبا صاروا يطلقون اسم رومانى عـلى كل

تبعتهم من اى طائفة كانوا ، واسم بربرى على من لم يخضع لهم من الامم ولذلك سميت كل بلاد لم تخضع للرومان او خضعت ثم عصت وخرجت عن طاعتهم باسم برباريكوم اى بلاد البربر

وقيل ان بربارى تولد منها لفظة بربار يكوم و بربار يكوم تولد منها لفظة بربار يسى التى كانوا يسمون بها احيانا البرابرة الساكنين خارج حدود مملكتهم . والذين سكنوا برضى الامبراطرة فى الولايات الرومانية كانوا يسمونهم برابرة لطفاء ، ومن ذلك سميت قبيلة فى سردينيا باسم بربار يسنى او برباجيا وهى موجودة الى الآن ، والناحية التى يسكنونها تسمى مستعمرة مغربية وهذه القبيلة نقلها الفنداليون الى هناك ولم تخضع للرومان

وكذلك كانوا يسمون بحر الهند بالبحر البربرى ، لانه لم يكن يتصل ببلاد الرومان او هو خليج عدن . وسموا بربار يكوم امبر يوم فرضة على مصب نهر الهند . وسموا بربارى مدينة ذكر بطليموس انها كانت فى وسط الدلتا . وسموا بابار باس سواحل المانيا وما على ضفاف الدانوب لان الالمان استولوا عليها فسموا اذن باباريا القسم الواقع جنوبى مصر من افريقية

وفى قوانين كنيسة افريقية ان اسم فرفار يكون ، كان يطلق على الذين كانوا فى حدود مور يتانيا . واما العرب فلما كان مركزهم الجغرافى يؤذن باتصالهم بأهل افريقية الشمالية بواسطة الرومان اقتضى ان يسموهم بالاسم الذى اطلقه الرومان . فيكون اسم بربر عند العرب يطلق على الذين كانوا على حدود مملكة الرومان اى الذين الى جنوبى مصر وهم البربر الاثيوبيون والذين الى جنوبى وغربى ولايات افريقية القديمة وهم البربر الغربيون او الاطلانطيكيون

ويقول ابن خلدون فى تاريخه وهو مغربى الاصل ، ان اسم البربر مأخوذ من رطانة لغتهم وان افريقس بن قيس بن صيفى من ملوك التبابعة لما غزا افريقية وقتل الملك جرجيس و بنى المدن والامصار ، و باسمه كما زعموا سميت افريقية ، سمع رطانة

هـذا الجيل من الاعاجم و وعى اختلافها وتنوعها فتعجب من ذلك وقال ما اكثر بربرتكم فسموا بالبربر

ويقول الاستاذ فيفيه ان كل هذه الالفاظ يظهر انها مأخوذة من در و را باللغة السنسكريتية ومعناها غريب

وقال غيره من العلماء الافرنج ان اسم بربر لا يطلق على امة مخصوصة والبرهان على ذلك كون برابرة المغرب لم يكونوا يعرفون بهذا الاسم فكان اسمهم « امازيغ » ومعناه عندهم حر او سيد و يظهر انهم كانوا يفتخرون منذ القديم بانهم حافظوا على لغتهم واستقلالهم بين الامم الغربية . وقال شهاب الدين الفاسى ان وفد البربر لما حضر امام الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتح مصر قال له انهم من اولاد امازيغ الذين كانوا دائما اصحاب البلاد الواقعة بين خليج العرب والبحر المتوسط . قالوا وقبل عهد العرب كان اسم مازيس يطلق على شعب قوى اقلق الرومان كثيرا بثوراته . وذكر بطليموس ان هـذا الشعب لم يكن الا فى قسم من موريتانيا . واما اسطفانوس البيزنطى واتيكوس وكثير غيرهما من المؤلفين القدماء فقد لوحوا ان اسم مازيس يطلق على اهل افريقية وهذا مما ينفى الريب فى كون الامة العظيمة التى كانت فى شمالى افريقية كانت تسمى فى عهد الرومان بنفس اسم لامازيغ . وكل هذا الاختلاف فى الاسماء والآراء وما ذكروه بعد ذلك لا ينافى اتفاق العرب على كون اسم « بربر » اختص بهذه الامة فى شمالى افريقية ، وان كانوا قد اطلقوه على الامة الأثوبية

اقوال علماء النسب من البربر

ويقول ابن خلدون ان علماء النسب من البربر مجمعون على انه يجمعهم جدان عظيمان : وهما برنس ومادغيس ويلقب هـذا بالابتر ويقال لشعوبه البتر ، ويقال لشعوب برنس البرانس وهما من ابناء بر . وبين النسابين خلاف هـل هما لاب واحد فابن حزم يقول انهما لاب واحد

وقال سالم بن سليم الحطماطى وصابى بن مسرور الكوجى وكهلان بن ابى لو وهم نسابة البربر ان البرانس بتر وهم من نسل مازيغ بن كنعان والبر بنو بربر بن قيس بن عيلان الخ

واختلف النسابون ايضا فى نسب هذه الامة والى اى اصل يرجع من الاصول فمنهم من قال انهم من العرب وانهم من اولاد قيس بن عيلان ، وهو قول غير صحيح على انه لاخلاف فى ان كتامة وصنهاجة من حمير بقوا هنـاك لافريقش حينما غزا المغرب

وقيل ان البربر اخـلاط من كنعان والعماليق وانهم من بقيـة قوم جالوت الجبارين الذين قاتلهم داود وطالوت فلما قتل جالوت دخلوا المغرب فحلوا فى جبالها وقاتلوا اهل بلادها ثم صالحوهم على شىء يأخذونه منهم واقاموا فى الجبـال الحصينة . وقيل لما قتل جالوت وكانت منازلهم فى فلسطين تفرقوا فى البلاد ونقلهم افريقش من سواحل الشام واسكنهم افريقية وسماهم بربرا . وقيل هم من ولد فازان بن عمليق بلعم بن عامر بن اشيلخ بن لاوذ بن سام بن نوح ، وقيل من ولد حام بن نوح بن بربر بن تملا بن مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح . وقيل من ولد بربر بن كسلاجم ابن مصرايم بن حام بن نوح ، وقيل من ولد بربر بن تمـلا بن مارب بن فاران المذكور ، وقيل هم من ولد ابراهيم وقيل اوزاع من اليمن من غسان وغيرهم ، تفرقوا عند ما كان سيل العرم . وقيل تخلفهم ابرهة ذو المنار بالمغرب . وقيل من لخم وجذام وكانت منازلهم فلسطين فاخرجهم منها بعض ملوك فارس فلما وصلوا الى مصر منعهم ملوك مصر النزول فعبروا النيل وانتشروا فى البلاد . وقيل هم من ولد النعمان ابن حمير بن سبأ وان النعمان هذا استدعى ابناءه وقال لهم اريد ان ابعث منكم الى المغرب من يعمره فراجعوه فى ذلك فـلم يقبل الا ما قصد وبعث منهم لمت ابا لمتونه ومسفو ابا مسفورة ومرطا ابا هسكورة واطال ابا صنهاجة ولمط ابا لمطة وايلان ابا هيلانة فنزل بعضهم بجبل درن ، وبعضهم بالسوس ، وبعضهم بزرعة ، ونزل لمط عند كزول وتزوج ابنته ونزل جانا وهو ابو زناتة بوادى شلف ، ونزل بنو مرتجين ومغراو

باطراف افريقية من جهة المغرب ، ونزل مقرونة بمقرته من طنجه

وقال بعضهم : البربر قبائل شتى من حمير ومصر والقبط والعمالقة وكنعان وقريش تلاقوا بالشام ولغطوا فسماهم افريقش البربر لكثرة كلامهم وانه استجاشهم لفتح افريقية

والارجح على ماذكر مؤرخو اليونان والعرب واليهود انهم من فلسطين او الجزيرة جالية هاجرت من آسيا على طريق افريقية الى المغرب ، او كما ذكر البكرى والمسعودى انهم فروا بعد ما قتل جالوت الى مصر فاجلتهم القبط فسكنوا برقة وافريقية والمغرب بعد حرب الافرنج والافارقة واجازوهم الى صقلية وسردينيا وميورقة بالاندلس . ثم اصطلحوا على ان المدن للافرنج وهم يسكنون القفار فى الخيام . وانتجعوا الامصار من الاسكندرية الى البحر والى طنجة والسوس حتى جاء الاسلام . وكان منهم من تهود ومن تنصر ، وآخرون بقوا مجوسا يعبدون الشمس والقمر والاصنام ولهم ملوك ورؤساء

هذا ما اردنا اثباته من اقوال متقدمى العلماء ومتأخريهم من عرب واوربيين فى اصل البربر ونشأتهم ، والذى عليه المعول هو انهم شعب مستقل ، وانهم من ولد كنعان بن حام بن نوح وان اسم ابيهم مازيغ وانهم هاجروا من فلسطين على اثر حروبهم مع الاسرائيليين الى افريقية الشمالية وتديروها ولا يزالون فيها حتى الآن . وقد دخلوا فى الاسلام حينما وصل المسلمون الى بلادهم ، وساعدوا فى فتح الاندلس واسبانيا وسنفصل ذلك فى مكانه

٦

الاسلام والبربر

لم تكن هنالك صلات مادية او ادبية او اقتصادية تصل بين العرب والبربر ، لاختلاف الدار و بعدها ، ولصعوبة المواصلات وقلتها ؛ فهؤلاء ينزلون فى شمالى افريقية وهؤلاء يقطنون فى غرب آسيا ، و بينهم شاسع المسافات ، ومئات الاميال

وتبدل الحال حينما احتل المسلمون الشام وفلسطين وامتلكوا مصر و بلغوا حدود برقة ، وهى اول بلاد البربر ، والمتفق عليه ان حدود بلادهم كانت تمتد من اقصى حدود مصر الغربية حتى المحيط الاطلسى وتشمل مقاطعات هذا الاقليم الخمسة وهى : برقة (بنغازى) وطرابلس الغرب ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الاقصى ، فقد كانت باديتها وجبالها و بعض مدنها مأهولة بابناء هذا العنصر ، وكانت هنالك بالطبع جالية رومية كبيرة تقطن العواصم والمدن الكبرى ، ولا يخلو الامر من جالية يهودية صغيرة وكان الروم يسيطرون على هذه البلاد ، وقد فصلوا بين اجزائها سياسيا واداريا ، على الطريقة التى يتبعها الفرنسيون والطليان الآن فى ادارة هذه لاقاليم ، فكان لكل مقاطعة منها حاكم ادارى يرجع الى القسطنطينية مباشرة ، فلبرقة حاكم ولطرابلس الغرب حاكم ، ولتونس حاكم . والقصد من ذلك تمزيق وحدة الشعب البربرى ، فلا يجتمع ولا يتفق . و يسير الفرنسيون ايضا على هذا المنوال فى حكم الاقطار الخاضعة لهم بافريقية الشمالية ، فلكل قطر منها ــ وهى الجزائر وتونس والمغرب الاقصى ــ حكومة مستقلة قائمة بذاتها ، ومنفصلة عن جارتها انفصالا تاما . ويرجع حكام هذه المقاطعات الى باريس و يتلقون التعليمات منها مباشرة . وانشأ الايطاليون حكومة مستقلة فى طرابلس الغرب ولهم مثلها فى بنغازى مع تجاور المقاطعتين

وقد وافق مجلس وزراء ايطاليا فى اكتوبر سنة ١٩٣٤ على مشروع يقضى بتقسيم البلاد الى اربعة اقاليم فى كل واحد منها حاكم مستقل وهذه الاقاليم هى طرابلس ، مصراته ، بنغازى ، درنه

والمرة الاولى التى اتصل فيها الاسلام بالبربر ، كانت حينما زحف عمرو بن العاص الى برقة فاخضعها واخضع طرابلس الغرب ، واقام فيهما حامية عسكرية واستأذن عمرو من مقامه فى طرابلس الغرب الخليفة فى الزحف الى تونس وفتحها فعارضه وامره بالرجوع كما تقدم فتوقف بذلك الفتح العربى فى عهد عمر على انه مالبث ان استؤنف فى عهد عثمان كما يأتى فاتحد الشعبان العربى والبربرى تحت راية الاسلام وصاروا ولا يزالون من جنده المخلصين

٧

البربر فى آخر العهد الرومى

كانت الشرائع الرومية هى الشرائع النافذة فى افريقية الشمالية اى فى المقاطعات الخمس وهى : برقة ، وطرابلس الغرب ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الاقصى ، عند ظهور الاسلام

وكان لكل مقاطعة من المقاطعات الثلاث الاول حاكم رومى يمثل حكومة القسطنطينية وينفذ شرائعها وتعليماتها ، ويرسل اليها الاموال اى انه لم تكن هنالك صلة مباشرة بين هؤلاء الولاة

وكان البربر وهم الاكثرية المطلقة فى هذه الاقاليم يسكنون الجبال والصحارى والمدن الداخلية ، اما الاجانب من روم واسبانيين ويهود فكانوا ينزلون المدن الساحلية بقرب ممثلى الحكومة والجند ، وكان عدد الذين يوغلون فى الداخل منهم او ينزلون الجبال قليلا

ويرى بعض مؤرخى الدولة الرومية ان قبائل البربر كانت تتمتع بشبه استقلال داخلى ، وكانت تدير شؤونها طبقا لاعرافها وتقاليدها ، فلا يتدخل ولاة الامور الا عند الحاجة ، ويقولون ايضا ان النظم الداخلية لهذه القبائل ما كانت تختلف كثيرا عن النظم الداخلية للقبائل العربية ، فهنالك كما هنا قبائل وافخاذ و بطون و زعامات وشياخات ينقادون اليها و يلتفون حولها

ولقد اصاب سكان هذه الاقليم فى اواخر عهد الدولة الرومية من الظلم والاضطهاد وسوء الادارة ما اصاب سكان المقاطعات الاخرى من رعايا تلك الامبراطورية

الواسعة الاكناف ، فجار عليهم العمال واضطهدوهم ، واسرفوا فى فرض الضرائب وابتزاز الاموال ، فنفر الناس منهم ، وفى جملتهم البربر ومقتوهم ، وملوا حكمهم ، ولم يجد المسلمون كبير عناء فى افتتاح اقليمى برقة وطرابلس حينما زحفوا عليهما . ودارت بين المسلمين والبربر فى خلال فتح تونس و بعده ولا سيما فى العهد الاموى معارك سيأتى وصفها

٨

البربر والاسلام وفرنسا

نريد بهذه المناسبة ان نقول كلمة عن حالة البربر اليوم وعن الصلات القائمة بينهم وبين الحكومة الفرنسوية ، وهى تحتل المقاطعات الثلاث : تونس والجزائر والمغرب الاقصى وتسيطر عليها سياسيا وعسكريا فقد لايخلو ذلك من فائدة

بدأ الاحتلال الفرنسوى فى افريقية الشمالية سنة ١٨٣٠ فقد اغار الفرنسويون على ذلك الاقليم العربى متذرعين ببعض الاسباب فقاومهم سكانه مقاومة عنيفة فتغلبوا عليهم واخضعوهم وفى سنة ١٨٨٢ احتلوا تونس وسيطروا عليها وفى سنة ١٩١٢ اتبعوا بهما المغرب الاقصى

وكان فى مقدمة المشروعات التى فكر الفرنسويون فى تنفيذها بعد الاحتلال مشروع يقوم على احياء القومية البربرية وبعثها من مرقدها ، ونشر اللغة البربرية القديمة ، واحياء التقاليد البربرية البالية

وبديهى ان الغاية من هذا التدبير ، هو التفريق بين العرب والبربر وفصلهما بعضهما عن بعض ، واستمالة العنصر البربرى لانه الاضعف فعدد نفوسه فى الاقطار الثلاثة لايزيد على الاربعة ملايين — كما يؤكد بعض الباحثين من المغاربة — يسكنون الجبال فى المغرب الاقصى والبادية فى الجزائر ، ومعظمهم اميون ، فى حين ان سكان المقاطعات الثلاثة لا يقلون عن ١٩ مليونا ، هذا بيان تقريبى عنهم :

١٠	المغرب الاقصى
٥	تونس
٤	الجزائر
١٩	

على ان هنالك من يدعى ان عدد النفوس فى هـذه الاقطار اكثر مما ذكرنا
ويقاوم العرب المسلمون فى الجزائر والمغرب الاقصى ـ حيث يقطن البربر ، وعددهم قليل فى تونس كما يظهر ـ هـذه السياسـة مقاومة شـديدة ويعملون على احباطها ، لانهم ادركوا مراميها وعرفوا ان الغاية منها تمزيق الوحدة الوطنية فى بلادهم وتفريق كلمتهم ، واقصاء اخوانهم فى الدين والوطنية عنهم

لقد بدأت فرنسا عملها من سنة ١٨٥٩ ، اى بعد استيلائها على الجزائر باحدى عشرة سـنة فقط ، فأصـدرت قانونا يقضى بمنع القبائل البربرية من الخضوع لأحكام الشريعة الاسلامية ، مع انهم مسلمون قلبا وقالبا

وثارت القبائل البربرية فى سنة ١٨٧١ على الفرنسويين بقيادة سيدى المقرانى وكانت فرنسا خارجة من حربها مع المانيا مهيضة الجناح ، فأصلتها نارا حامية ، وهزمتها فى معارك كثيرة ، وحاصرت الفرنسويين فى معسكراتهم فجاءوا بقوات كبيرة من فرنسا اخضعت القبائل وصادرت اراضيها وممتلكاتها ووزعتها على المهاجرين الفرنسويين الذين جاءوا من الالزاس واللورين

واصدرت فرنسا فى سنه ١٨٧٤ قانونا جديدا يقضى على القبائل البربرية بان تحتكم الى قضاة من الفرنسويين ، يولون للحكم بينها ، باسم قضاة الصلح ، ويطبقون عليها « العوائد البربرية » فيما يتعلق بالاحوال الشخصية والمواريث والعقود المدنيـة او التجارية والعقارات ، ومع ان هـذا القانون كان يلزم القاضى الفرنسوى ان يستعين باحد البربر فى اصدار احكامه الا ان قانونا آخر صـدر فى سنة ١٨٩٩ فحدد هـذه المساعدة وضيق نطاقها وحصرها فى الاحوال الشخصية ، فأصبح الفرنسويون

بذلك يسيطرون على القضاء ويخضعون هـذه القبائل للشريعـة الفرنسوية بدلا من الشريعة الاسلامية وهى دينهم ومذهبهم

وماكاد الفرنسويون يحتلون المغرب الاقصى فى سنة ١٩١٢ حتى عكفوا على احياء القومية البربرية وتطبيق الخطط التى طبقوها فى الجزائر فأنشأوا مدرسة اسمها « مدرسة اللغة العربية واللهجات البربرية » ثم استصدروا فى سنة ١٩١٤ مرسوما من سلطان المغرب الاقصى جاء فى مقدمتـه « نظرا الى ان قبائل جـديدة تنضم يوما فيوما الى الامبراطورية المغربية ، ونظرا الى ان هذه القبائل من الجنس البربرى لها قوانين وعادات خاصـة ، تستعمل من القديم ولها بها تعلق شديد ، ونظرا الى انه يلزم لخير رعايانا وطمأنينة ايالتنا السعيدة رعاية الحالة العرفية التى تدبر هذه القبائل اصدر جلالة السلطان امره بما يأتى :

المـادة الاولى ـ قبائل العرف البربرى تـكون محـكومة ومنظمة طبق قوانينها واعرافها الخاصة ، تحت مراقبة السلطات وتبقى محكومة ومنظمة كذلك

المـادة الثانية ـ تصـدر قرارات من وزيرنا الاكبر (رئيس الوزراء) بالاتفاق مع الـكاتب العام للحكومة الشريفية تعين شيئا فشيئا وحسب الحاجة :

١ ـ القبائل التى تدخل فى دائرة الوطن البربرى

٢ ـ نصوص القوانين والتنظيمات التى تطبق على قبائل العرف البربرى

وكان صـدور هـذا المرسوم اول نجاح ادركته السياسة الفرنسوية فى تنفيذ خطتها القائمة على التفريق بين العـرب والبربر ، كما كان اول مرسوم سلطانى ينطوى على الاعتراف بالقوميـة البربرية ، وقـد انقضت القرون والدهور والبربر يحكمون بأحكام الشريعة الاسلامية ويخضعون لها

وفى سـنة ١٩١٥ الف المارشال ليوتى ممثل الحكومة الفرنسوية فى المغرب الاقصى وهو الذى تم على يده احتلال هذا الاقليم لجنة للمباحث البربرية مهمتها جمع المعلومات المتعلقة بالقبائل البربرية من جهة اطراف المغرب واستخراج نتائج عملية من هـذه المعلومات تساعد على تنظيم هذه القبائل وادارتها على منوال يتفق مع المصلحة

الفرنسوية ، وقد ادت هـذه اللجنة مهمتها و وضعت تقارير مطولة ، وكان من نتائج ابحاثها انشاء « جماعات بر برية » و وضع انظمة قضائية لها ، و يبلغ عدد هذه الجماعات الآن نحو ٨٩ جماعة فى المغرب الاقصى ، تقضى فى ٤٠ مركزا من المراكز الادارية وجهزت كل جماعة من هـذه الجماعات بكتاب فرنسويين اختاروهم من بين الضباط العسكريين او الضباط المترجمين . ثم صدر فى سنة ١٩١٥ قرار يقضى بان تكون اللغة الفرنسوية هى اللغة الرسمية لهذه الجماعات تكتب بها القرارات وتسجل العقود

وكانت الخطوة الكبرى التى خطاها الفرنسويون ، استصدارهم فى سنة ١٩٣٠ مرسوما سلطانيا آخر جاء فى المادة الاولى منه « ان جميع المخالفات التى يرتكبها المغاربة فى القبائل ذات العوائد البربرية والتى ينظر فيها القواد «المحافظون والمديرون» فى نواحى مملكتنا السعيدة يفصل فيها رؤساء القبائل انفسهم

وجاء فى المادة الثانيـة : ان القضايا المدنيـة والتجارية والمختصـة بالعقارات والمنقولات تنظر فيها محاكم خصوصية تدعى بالمحاكم العرفيـة ابتدائيا او نهائيا طبقا للحدود التى يجرى تعيينها بقرارات وزارية كما تنظر هـذه المحاكم نفسها فى جميع القضايا المتعلقة بالاحوال الشخصية او بامور الارث وتطبق فى كل هذه الاحوال العوائد المحلية

وجاء فى المادة الرابعة : ان المحاكم الاستئنافية العرفيـة تنظر فى القضايا الجنائية ابتدائيا ونهائيا ، وتنظر كذلك فى جميع المخالفات التى يرتكبها اعضاء المحاكم العرفيـة التى فى دائرة اختصاصاتها الاعتيادية رئيس القبيلة

وجاء فى المـادة الخامسة : انه يجعـل لدى كل محكمة عرفية ابتدائيـة او استئنافية مندوب مفوض من قبل الحكومة الفرنسوية بالناحية التى يرجع اليها امر المحكمة

وجاء فى المادة السادسة : ان المحاكم الفرنسوية التى تفصـل فى القضايا الجنائية طبقا للقوانين الخاصة بها لها الحق فى نظر الجنايات التى ترتكب فى النواحى البر برية ، كيفما كانت حالة مرتكب الجناية

ولقد اثار نشر هـذا المرسوم ضجة شديدة فى المغرب الاقصى وهزه هزا عنيفا فاحتج الناس عليـه . ولا يزال النضال دائرا بين المسلمين المغاربة و بين الفرنسويين على مصـير البربر ، فهؤلاء يحاولون انتزاعهـم من الاسـلام مستعينين على ادراك اغراضهم بما يملكون من قوى مادية و بطوائف المبشرين الـكاثوليك وقـد انتشروا فى كل مكان و بما يتخذونه من تدابير تشريعية وقضائيـة وادارية يظنون انها كفيلة بتحقيق ما يصبون اليه ، و يعمل العرب جهدهم لاحباط هذه السياسة وهى فى نظرهم مخالفة لجميع القواعد المدنيةوالسياسية وللاتفاقات المعقودة بين حكومة المغرب وفرنسا

٩

عمرو فى برقة

المتفق عليه بين المؤرخين ان غزو برقة كان فى اواخر سنة ٢٢ واوائل سنة ٢٣ اى بعد فتح الاسكندرية الاول وقبل ثورة مانويل ، فقد اعد عمرو عدته لغزوها بعد اجلاء الروم نهائيا عن مصر وفراغ الجيش الذى كان يحاصر الاسكندرية من كل عمل عسكرى

ويدل سير الحوادث على ان عمرا عاد الى الفسطاط من الاسكندرية بعد ما نظم امورها ، واقام فيها حامية للمحافظة على حصونها ، ولم يطل الاقامة هنا بل سار على رأس حملة الى جهات مصر السفلى فأخضع المدن المقيمة على عهد الروم كما اخضع بعض مدن الدلتا الشمالية ، ثم قصد برقة لعدم وجود عائق يعوقه بعد ما خضعت البلدان الواقعة على حدودها وقدمت الطاعة

ولا يخفى ان المسافة بين منتهى حدود مصر الغربية و بين برقة غير بعيدة فهى لا تزيد على ٥٠٠ كيلو متر تقريبا ، اى انها لا تحتاج الى معدات خاصة للاستيلاء عليها ، ولم تكن فيها — كما تدل الدلائل — حامية رومية كبيرة ، فقد غادرت الحامية الاصلية مقرها فى اثناء فتنة هركليوس الاولى ، واستقرت فى الاسكندرية بعد ما حاربت انصار الامبراطور فوكاس فى القطر المصرى ونازلتهم فى معارك كثيرة فهزمتهم وانتزعت القطر منهم ، وجاء الفرس بعد ذلك فانتزعوه منها ، وشتتوا شملها ، ويكاد يكون من المحقق ان الفرس وصلوا فى غزوهم غربا الى برقة ، مدة احتلالهم للقطر المصرى نخضعت لهم وانقادت اليهم ، ثم عاد الروم فاستولوا عليها بعد جلاء الفرس وانشأوا حكومة جديدة هى الحكومة التى قضى عليها عمرو حين زحفه

ولم يكن فى مقاطعتى برقة وطرابلس الغرب من الحصون وخطوط الدفاع ما كان فى الشام وفلسطين ومصر لانهـا واقعة فى وسط ممتلكات الروم ، ولانه ما كانت هنالك دولة محادة لهما يخشى من غارة تغيرها

ويستثنى من ذلك مدينـة طرابلس الغرب فقـد كانت محصنة بعض تحصين ومدينـة برقة عاصمة هـذا الاقليم ، فقـد وصفها المؤرخون بانها كانت محصنـة كجارتها وشقيقتها

١١

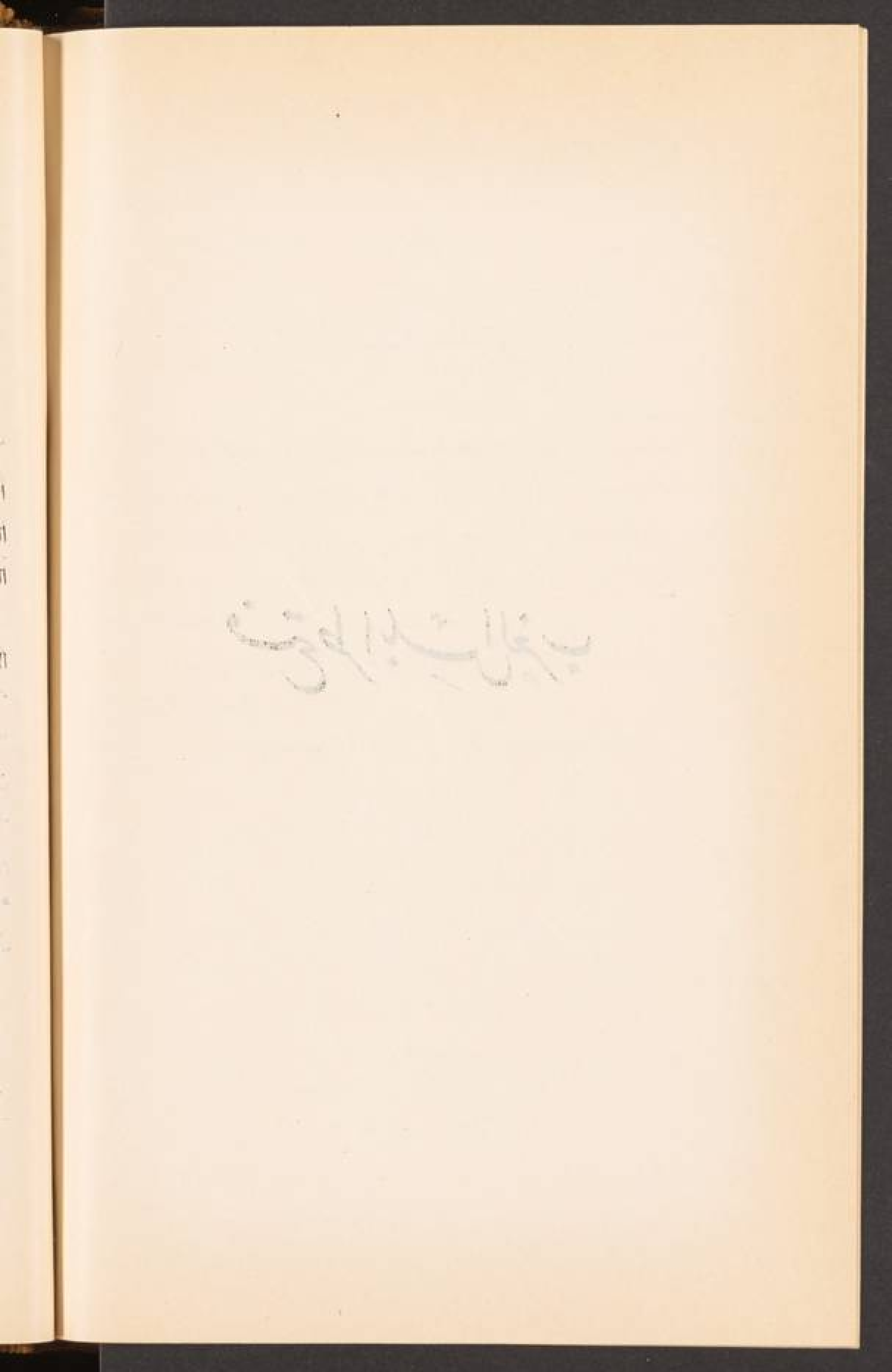
برقة تستسلم

لانظن ان عدد الجيش الذى زحف به عمرو الى برقة زاد عن بضعة آلاف سلك بهم طريق الساحل ، فبلغ برقة من دون عناء فلم يلق مقاومة فى الاستيلاء على هذا الاقليم كما يقول المؤرخون العرب ومؤرخو الدولة الرومية والقبط ، ولم يشهر سيفا ، بل اسرع حاكمها الرومى فصالحهم على الجزية ، ومما نص عليه فى شروط الصلح :

١ – ان يحمل هؤلاء الجزية الى مصر ويدفعوها الى خزينتها ، فلا يتولى جباة المسلمين جمعها مباشرة

٢ – ان يباح لهم بيع اولادهم ليتداركوا الجزية المضروبة عليهم

فتح طرابلس الغرب



طرابلس الغرب

معلومات جغرافية موجزة عنها

طرابلس الغرب احدى مقاطعات افريقية الشمالية يحدها من الشمال البحر الابيض ومن الغرب تونس وافريقية الغربية الفرنسوية وافريقية الاستوائية الفرنسوية ، ومن الشرق برقة ، ومن الجنوب الصحراء ، ومساحتها السطحية ٤٩٠ الف كيلو متر

وسكانها فى الوقت الحاضر ٥٥٠ الفا وهم عرب مسلمون . وقد هاجمها الايطاليون فى سنة ١٩١١ واخرجوا منها الترك ، واستولوا عليها

١

الرومان فى طرابلس

طرابلس او اطرابلس مدينة قديمة فى افريقية الشمالية ، عاصمة الاقليم المعروف باسمها ، ويقال انها كانت تسمى اوايات وهو لفظ بربرى ، حرفه الروم الى (اوا) ومعناه بالاغريقية واللاتينية المدن الثلاث والمقصود بها طرابلس نفسها وسبراتا ويسميها العرب صبرة واسمها البربرى زواغة ، وليبدس وتسمى الآن لبدة ، ولم يبق منها الا آثار ماثلة هنا وهناك

ولقد خضعت طرابلس للفينيقيين (حكومة صور) وانتظمت فى عداد مستعمراتهم ثم ضمت الى ممتلكات قرطاجنة حينما نشأت هذه سنة ٨٤٦ قبل الميلاد ، ولما غلبت روما قرطاجنة ودوختها سنة ١٤٦ ق . م ضمت اليها طرابلس نخضعت لها حتى سنة ٤٣٥ ميلادية اى حتى غزوة جنسريك ملك الفندال فقد جاءها من اسبانيا واستولى عليها وعلى برقة واقام فيها الفندال حتى سنة ٥٣٣ م فهاجمها القائد بيليساريوس واستولى عليها كما استولى على برقة وانضمت بعد ذلك الى حكومة الروم البيزانطية حتى جاء العرب هذا الاقليم فاستولوا عليه بدون مقاومة تذكر فى سنة ٢٣ هـ و ٦٤٦ م فدخلها بدخولهم الاسلام وانتشرت فيها اللغة العربية ولا تزال لغتها ولا يزال الاسلام دينها

٢

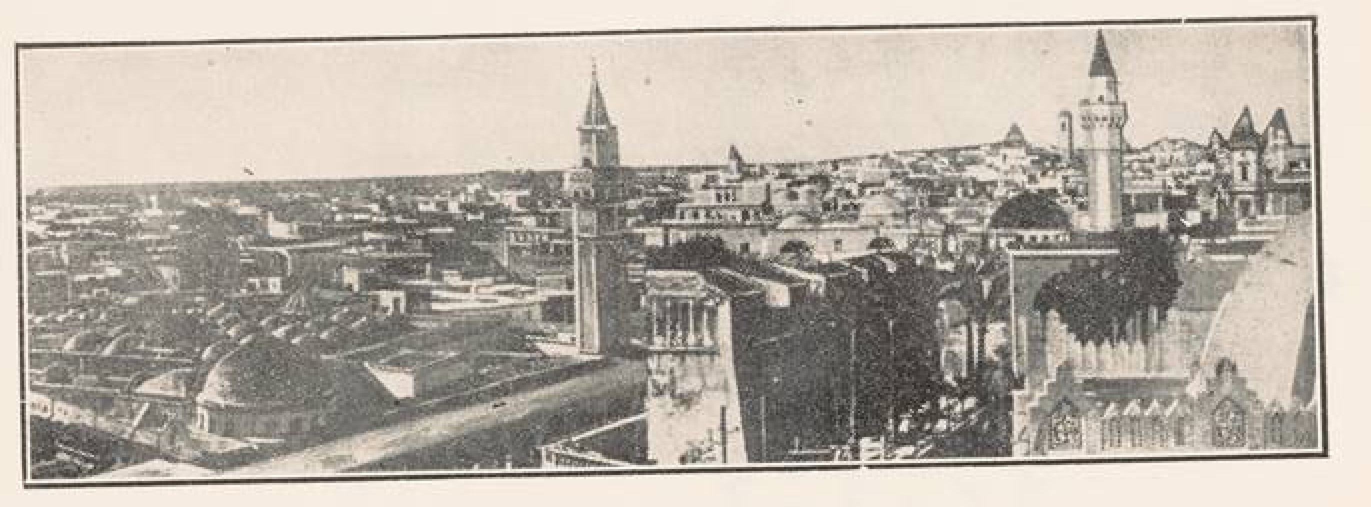
عمرو يفتح طرابلس الغرب

واصل عمرو الزحف بجيشه نحو الغرب بعد ما فتحت له برقة واستسلمت اليه فقصد طرابلس الغرب ، وهى جارتها وشقيقتها ، وحدودهما متصلة وتبعد مدينة برقة عن مدينة طرابلس ١٢٠٠ كيلو مترا

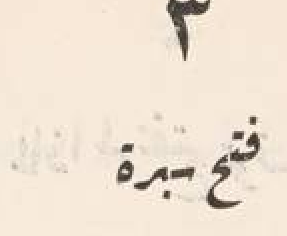
وسلك عمرو فى سيره الى طرابلس طريق الساحل طبعا ، لانها الاسهل والاقرب فسار الى سرت ومنها الى عين تاورغا فمصراته وزليطن والخمس وترهونة وتاجوراء وهى آخر مراحل هذا الطريق . وبلغ طرابلس بدون حادث وكان للروم فيها حامية عسكرية كما تدل الدلائل ، وكانت ذات حصون وابراج ، فلجأت الحامية الى الحصون واغلقت الابواب

وضرب عمرو الحصار على المدينة ونزل حول اسوارها من الشرق والغرب والجنوب ، ولم يكن له سبيل الى حصارها بحرا ، وبين المؤرخين خلاف فى تحديد مدة الحصار فبعضهم يقول انها شهر ويقول آخرون انها ثلاثة اشهر ، ونزل عمرو فى شرق المدينة واقام يتحين الفرص لافتتاحها ، وخرج يوما من المعسكر العربى رجل من مدلج يتصيد ومعه ستة من اخوانه فمضوا غربى المدينة حتى امعنوا فى البعد عن المعسكر ثم رجعوا فأصابهم الحر فأخذوا على ضفة البحر ، وكان البحر لاصقا بالمدينة ، ولم يكن بينهما سور ، وكانت سفن الروم شارعة فى مرساها الى بيوتهم ، فنظر المدلجى واصحابه

فاذا البحر قد غاض من ناحية المدينـة ، ووجدوا مسلكا لها من الموضع الذى انحسر عنه ، فدخـلوا حتى اتوا من ناحية الـكنيسة وكبروا فلجأ الروم الى سفنهم وابصر عمـرو اصحابه الستة فى جوف المدينة فأقبـل بجيشه فلم يفلت الروم الا بما خف فى مراكبهم وغنم العرب ما كان فى المدينة واستولوا عليها



مدينة طرابلس الغرب كما ترى اليوم



٣
فتح سبرة

وما كاد عمرو يتم فتح مدينة طرابلس حتى جهز سرية سارت الى سبرة واسمها الآن صبرة وهى الى غربى طرابلس على الطريق بينها و بين زوارة وتبعد عنها ٦٠ كيلو مترا وكانت محصنة فبلغتها خيله واهلها غافلون لا يعرفون شيئا عن مصير طرابلس فدخلتها ، واستولت عليها ، وهدمت سورها

وارتحل عمرو بعد فتح طرابلس الى شروس (مدينة قديمة فى جبل نفوسه ـ الجبل الغربى) ففتحها ومعنى ذلك انه كان يسير غربا فى اتجاه تونس

٤

لماذا لم تفتح تونس؟

اتم عمرو فتح برقة وطرابلس الغرب وصبرة واحتـل شروس وهى مدينـة فى جبل نفوسه (الجبل الغـربى) بينها و بين طرابلس ١٥٠ كيلو مترا وخرب سورها ، ووجه عمرو حينما كان ببرقة عقبة بن نافع الى زويلة فافتتحها بصلح . وارسل وهو يحاصر طرابلس بشر بن ارطاة الى ودان فافتتحها وهى قلعة حصينة

واراد عمرو بعد ما تم له اخضاع هذين الاقليمين الكبيرين العظيمين ، ولم يلق فى احتلالهما عناء ولا نصبا ، ان يحتل تونس والجزائر و بقية اقطار افريقية الشماليـة والغربيـة فكتب الى الخليفة من مقامه فى طرابلس ـ وهو ما نرجحه ـ يستأذنه فى الزحف على افريقية ويريد بها الاقطار الواقعـة غربى طرابلس ، وما كان رجال ذلك العصر يعدون طرابلس و برقة من افريقية كما تدل كتبهم وآثارهم . لانه ادرك ان مثل هذه الحركة تحتاج الى اجازة خاصة ، وليست كغزو طرابلس و برقة ، فاباها الخليفة عليه وامره بان يكف عنها فلم يسعه سوى الاذعان والخضوع

٥

فتوحات عمرو بن العاص

كان فتح هـذين الاقليمين العظيمين آخر فتوحات عمرو بن العاص ، فهو لم يفتح بعدهما بلادا ، اذا استثنينا ثورة الاسكندرية ، وقد وقعت بعد فتحهما ، وقد ابلى البلاء الحسن فى اطفائها كما تقدم

واذا اضفنا فتح هـذين الاقليمين الى فتوحات عمرو الاخرى علمنا انه فتح الاقطار الآتية :

١ ــ فلسطين فقد فتحت على يده وكان قائد اول جيش اسلامى وجه اليها وقد استمر خمس سنوات يقاتل فيها

٢ ــ مصر وقد تم فتحها على يده

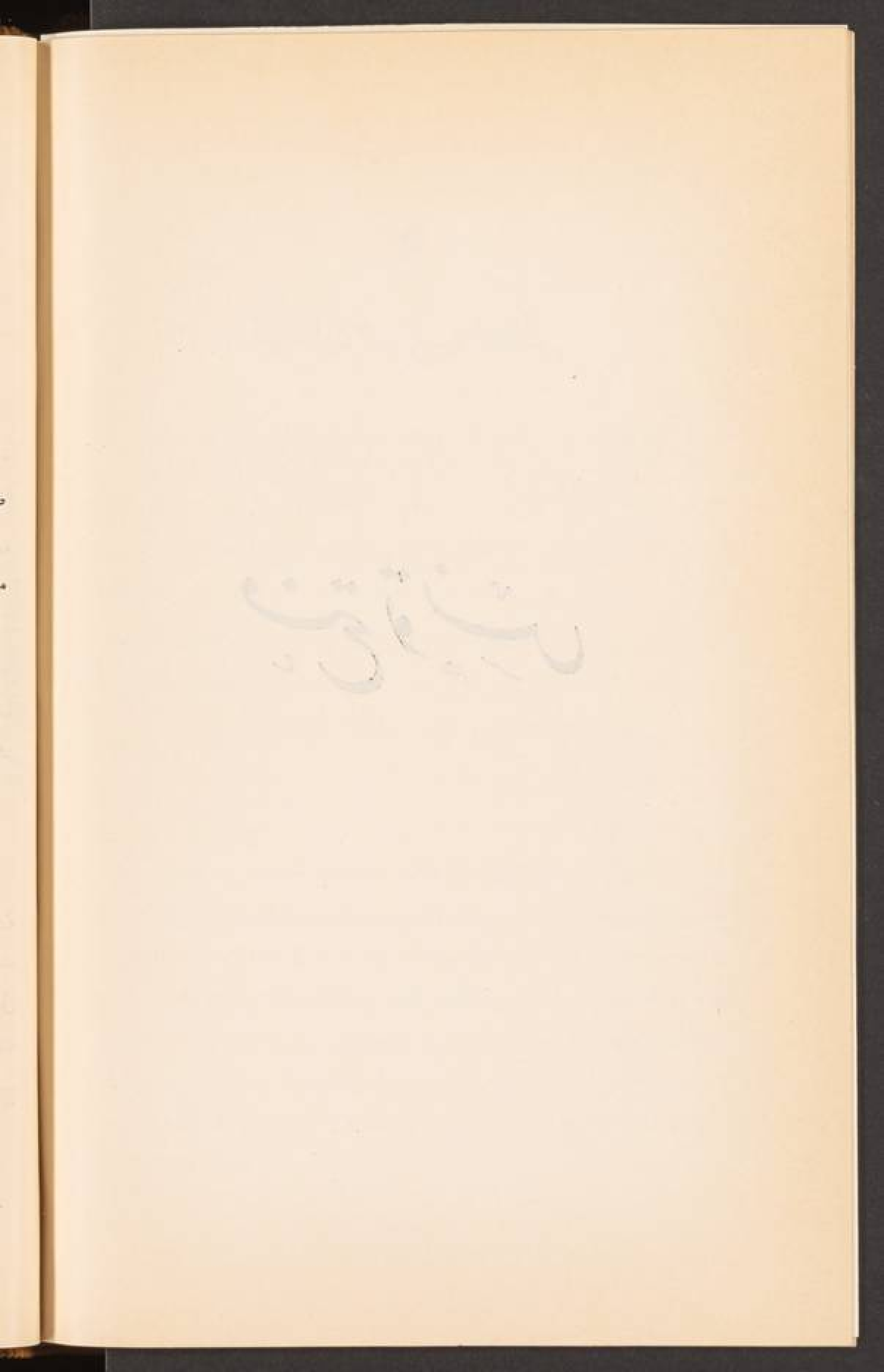
٣ ــ برقة

٤ ــ طرابلس الغرب

٥ ــ السودان

وفضلا عن ذلك فقد اشترك فى معركة اليرموك الكبرى وكان قائد جناح العرب الايمن وقام بحركة التفاف على جناح الروم الايسر عجلت فى هزيمتهم وسن سنة فتح افريقية ، ولا نشك فى انه لو اجاز له الخليفة مواصلة الزحف غربا لما وقفت خيله الا على شواطىء المحيط الاطلسى اى فى نهاية المغرب الاقصى ، وهو ما تم بعد ذلك على يد عبد الله بن ابى سرح وعقبة بن نافع ، وبالاجمال فان عمرو بن العاص هو اول من نبه اذهان المسلمين الى فتح مصر والى فتح افريقية الشمالية ففتحت هـذه الاقطار كلها بعد ذلك كما فتحت الاندلس وايطالية وجنوبى فرنسا وانتشر الاسلام فى تلك الربوع


فتح تونس

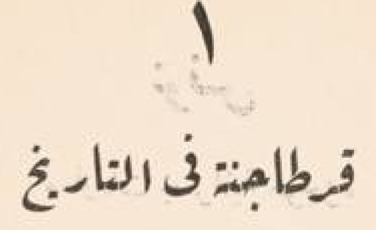


تونس

معلومات جغرافية موجزة

تونس قطر عربي اسلامي يقع على شواطئ افريقية الغربية الشمالية تحده طرابلس شرقا والصحراء جنوبا والجزائر غربا والبحر الابيض شمالا

ومساحة هذا القطر السطحية اليوم ١٦٧٤٠٠ كيلو متر وعدد سكانه خمسة ملايين من المسلمين العرب



١

قرطاجنة فى التاريخ

لم تكن مدينة تونس الحاضرة ـ وهى عاصمة هذا الاقليم اليوم ـ ذات شهرة لا فى العهد الفينيقى ولا فى العهد الرومانى ، وانما كانت قرطاجنة ـ ولا تزال آثارها بقرب تونس ، عاصمة البلاد ـ وكان نفوذها يشمل المنطقة الممتدة من شرق طرابلس الغرب حتى المحيط الاطلسى اى انها كانت تضم فى ذلك الوقت تونس والجزائر والمغرب الاقصى ، وهى الآن مقاطعات عربية كبيرة تخضع لفرنسا وتستظل برايتها

ولا بد للباحث فى تاريخ تونس القديم من الالمام بتاريخ قرطاجنة لانه تاريخها فقد بسطت نفوذها على الاقاليم المجاورة لها فى ابتداء امرها ثم تغلب عليها الرومان ودمروها تدميرا ثم جددوا بناءها بعد ذلك فظلت قائمة حتى جاء العرب من المشرق فقهروها واستولوا عليها

ولقد قسمت دائرة المعارف البريطانية تاريخ قرطاجنة الى خمسة ادوار :

الدور الاول : وهو دور الانشاء والتأسيس

وخلاصة ما يقال فى هذا الدور ان الفينيقيين من سكان صور (مدينة صغيرة الآن فى جنوبى سورية من اعمال بيروت كانت عاصمة فينيقية الكبرى) ويكاد علماء التاريخ الحديث يجمعون على ان اصل الفينيقيين عرب هاجروا من البحرين (شرق جزيرة العرب الشمالى) الى جنوبى سورية وتديروها واسسوا فيها تلك النهضة العظيمة ومعنى ذلك ان فينيقية العربية هى التى انشأت مستعمرة قرطاجنة فى خليج تونس سنة ٨١٣ ـ ٨١٤ قبل الميلاد بعد مادمر نبوخذ نصر الكلدانى عاصمتها



مدينة قرطجنة اليوم – تونس

ونمت قرطاجنة نموا عظيما فى هذا الدور واصبحت سيدة البحر المتوسط و بسطت نفوذها على ساحل اسبانيا وساحل صقلية والجزر المجاورة للساحل الاسبانى و بلغت منتهى العظمة والسؤدد

٢ – الدور الثانى : هو دور النزاع مع اثينا و يبدأ هذا الدور فى سنة ٥٥٠ قبل الميلاد وفيه بدأت الحروب بين قرطاجنة واليونان واستمرت حتى سنة ٢٦٥ قبل الميلاد ، فتغلبت قرطاجنة على الاغريق ، واحتلت جزيرة صقلية وفى سنة ٥٠٩ عقد اول اتفاق سياسى بين قرطاجنة و روما ضمت بموجبه افريقية للاولى وايطاليا للثانية ، و بذلك صارت جزيرة صقلية منطقة حياد بين هاتين الحكومتين و بسط القرطاجنيون نفوذهم فى هذا الدور على اسبانيا

٣ – الدور الثالث : وهو دور النزاع مع روما . اشتد النزاع فى هذا الدور بين روما وقرطاجنة وقد ابتدأ فى سنة ٢١٥ ق . م وانتهى سنة ١٤٠ بسقوط قرطاجنة تحت اقدام روما وقد امتاز فى هذا الدور هنيبال القائد القرطاجنى الشهير وأبلى فى الدفاع عن وطنه بلاء حسنا ومع انه انتصر فى حملاته الاولى على ايطاليا الا ان الرومان فازوا عليه فى النهاية فاحتل القائد سيبو الرومى قرطاجنة بعد معركة دموية . وفر هنيبال الى الشرق

وتنازلت قرطاجنة لروما بموجب المعاهدة التى عقدت فى عاصمتها واملاها القائد الرومانى المنتصر عن اسطولها كله وعن سائر مستعمراتها لروما ، ولم يبق لها الرومان سوى ممتلكاتها فى افريقية اى انها اضاعت فى تلك الحرب اسبانيا والجزر المجاورة لها و بعض سواحل ايطاليا

٤ – الدور الرابع : وهو دور سقوطها

استأنف القرطاجنيون الحرب فى هذا الدور وقاتلوا الروم قتالا شديدا محاولين استرداد ما فقدوه فتغلب هؤلاء عليهم وهزموهم واحتل الروم قرطاجنة للمرة الثانية فى سنة ١٤٦ ق . م ودمروها وحرثوا مساكنها ودورها ، ايذانا بانتهائها والقضاء عليها ، فلا تحدث اهلها نفوسهم بالثورة والانتقاض

على ان مجلس شيوخ روما عاد فقرر فى سنة ١٢٢ ق . م انشاء مستعمرة رومانية على انقاض مدينة قرطاجنة القديمة يرسل اليها الذين لايملكون ارضا و يقطعون الاراضى فنزح اليها كثيرون من الرومانيين وغيرهم وجددوا بناءها فنمت وتقدمت ، وعادت الى بعض ما كان لها من الازدهار والعمران

وعبر الفنداليون جبل طارق فى سنة ٤٢٩ م واحتلوا قرطاجنة وانتزعوها من الرومان واصبحت مركزا من مراكزهم حتى جاءت بيزانطية فى سنة ٥٥٣ فاستولت عليها واخضعتها ثم جاء العرب فانتزعوها منها

٢

قرطاجنة فى آخر العهد الرومى

يلوح للباحث فى التاريخ السياسى لقرطاجنة ان نفوذها الادارى كان عند ظهور الاسلام يشمل الجزائر وهى واقعة وراء حدودها الغربية والمغرب الاقصى ايضا ، فكان هذان الاقليمان يخضعان لحاكم قرطاجنة الرومى الاعلى ويتلقيان منه التعليمات والاوامر وهو يرجع الى حكومة القسطنطينية فاذا صح ذلك فيكون الروم جمعوا هذه الاقاليم الثلاثة لقرطاجنة وانشأوا منها حكومة واحدة ، بخلاف ما كان عليه الامر فى مصر وبرقة وطرابلس الغرب

ومع اننا لا نملك تفاصيل وافية عن قوات الروم العسكرية فى هذه المناطق الا ان دلائل الحال ، تدل على انهم ما كانوا يملكون قوى عظيمة ، حينما هاجم العرب تلك الربوع ، يؤيد ذلك اعتزام عمرو بن العاص اقتحامها ببضعة الآلاف الذين جاء يقودهم من مصر بعد افتتاح الاسكندرية . ولا نشك فى انه ما كان يحجم عن اقتحامها لو أجاز الخليفة خطته العسكرية الجديدة

وفضلا عن ذلك فقد اجمع المؤرخون على ان القوات التى سار بها عبد الله بن أبى سرح لاحتلال افريقية (قرطاجنة) لم تزد على عشرة آلاف ، فاخضعها بها

٣

عبد الله بن ابى سرح

هو عبد الله بن سعد بن ابى سرح بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن نصر ابن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى ابو يحيى العامرى القرشى

اسلم فى مكة وهاجر الى المدينة مع المهاجرين وتولى الكتابة للرسول ، ثم عاد الى مكة يعلن ارتداده عن الاسلام ورجوعه الى دين الجاهلية ، ويطعن فى الاسلام فهدر النبى دمه فى جملة الذين هدر دمهم يوم الفتح (انظر ص ١٤٠ ك ١)

ولجأ الى عثمان بن عفان ، وكان اخاه فى الرضاعة ، يسأله ان يشفع له عند الرسول ، ويستأمن له فاخفاه اياما حتى هدأت الامور ثم جاء به الى الرسول وقال له امنه يا رسول الله وكرر هذه الجملة ثلاثا والرسول مغض عنه واخيرا بسط اليه يده فبايعه

والتفت الرسول الى اصحابه بعد البيعة فقال : اما كان فيكم رجل رشيد يقوم الى هذا حيث رآنى كففت يدى عن مبايعته فيقتله فقال له عباد بن بشر الانصارى « فهلا اومأت الينا »

وتطوع عبد الله بعد ما جدد اسلامه فى الجيش العربى الذى وجه الى الشام وانضم الى جيش عمرو بن العاص وكان بين الذين اختارهم حين زحف على مصر فقاد مقدمته ثم قاد جناحه الايمن واشترك فى جميع المعارك التى دارت بين العرب والروم فى هذا الوادى وكان من كبار قواد الجيش العربى واركانه

ولما تم فتح مصر عينه عمر بن الخطاب واليا على الصعيد فى سنة ٢٣ للهجرة اى ان عمر فصل بين جزئى القطر فاختص عمرا بالوجه البحرى واختص عبد الله بن

ابى سرح بالخراج (مديرية المالية) مع ولاية الصعيد وكان يقيم فى شطنوبا الفيوم فلم يرق هذا التدبير فى عين عمرو بن العاص ، فقصد المدينة فى ابتداء خلافة عثمان بن عفان ، وسأله عزل عبد الله عن الصعيد وارجاعه الى ما كان عليه فابى عليه ذلك وعقد لعبد الله على مصر كلها ، وذلك فى سنة ٢٥ للهجرة فاعتزل عمرو السياسة وانزوى بمنزله فى مكة

واستأذن عبد الله بن ابى سرح عثمان بعد ولايته على مصر فى غزو افريقية فاذن له ، واشترط فى الاذن الصادر ان يكون له خمس الخمس من الغنيمة نفلا ، فسار اليها فى سنة ٢٨ واخضعها ثم عاد الى مقره فى مصر

واستمر عبد الله فى عمله بمصر ١٠ سنوات وهى مدة ولاية عثمان فقد ذكروا انه غادر الفسطاط فى السنة الخامسة والثلاثين الى المدينة ، وكانت الفتنة الداخلية فى ابان شدتها واستخلف مكانه عقبة بن عامر الجهنى فوثب عليه العلويون وانتزعوا منه السلطان فى سنة ٣٦ وولى على بن ابى طالب قيس بن سعد بن عبادة مكانه ، ويقال انه حاول الرجوع الى مصر فمنعه العلويون ، فقصد عسقلان وهى مدينة صغيرة فى جنوبى فلسطين قرب غزة فاقام فيها

وتوفى فى تلك السنة (٣٦) وهو الارجح

وانشأ عبد الله فى اثناء ولايته بمصر اسطولا لصد عدوان الاسطول الرومى ومنازلته وكان يضايق المسلمين ويغزو سواحلهم ويغير عليها

وحارب عبد الله حروبا كثيرة وكان من العاملين على توسيع حدود الدولة الجديدة ومن بناة مجدها

٤

من الفسطاط الى سبيطلة

شاء الله ان يحال بين عمرو بن العاص و بين فتح افريقية وان ينال هذا الشرف عبد الله بن ابى سرح العامرى القرشى ، وان يقرن اسمه باسمها

و يؤخذ من التفصيلات التى لدينا ان عثمان بن عفان لم يتردد فى اصدار الاوامر الى عامله الجديد فى مصر عبد الله بن ابى سرح ، فى مهاجمة قرطاجنة او « افريقية » كما كانوا يسمونها ، حينما سأله ذلك . ولا نشك ان ذلك جرى بعد القضاء على ثورة الاسكندرية التى اوقدها مانويل الرومى ، وانتدب عمرو بن العاص لاطفائها ، فلما اخمدت وزال كل خطر من ناحية الروم ، عاد عمرو الى مقامه بمكة ، وتسلم الامر عبد الله بن ابى سرح ، فاخذ يتأهب لغزو افريقية وافتتاحها . ولما اتم اهبته زحف عليها

ولا تقل المسافة بين الفسطاط و بين قرطاجنة عن ثلاثة آلاف كيلو متر وكسور مقسمة على المنوال الآتى :

كيلو متر	
٢١٥	من الفسطاط الى الاسكندرية
١١٠٨	من الاسكندرية الى برقة
١٢٠٠	من برقة الى طرابلس
١٧٠	من طرابلس حتى حدود تونس
٥٠٠	من حدود تونس حتى سبيطلة وهو المكان الذى وصل اليه
٣١٩٣	ابن ابى سرح

تلك هى المسافات للذين يسلكون طريق الساحل . اما الذين يسلكون طريق الصحراء فتختلف حالتهم وتقصر الطريق امامهم . و يؤخذ من بعض الروايات ان عبد الله سلك الطريق الصحراوى لانه اقرب وايسر فسار من الفسطاط الى السلوم مباشرة ومن السلوم الى غدامس فظهر امام سبيطلة و بذلك وفر على جيشه كثيرا من العناء والمشقات

٥

افريقية الشمالية فى العهد الرومى

كانت افريقيــة الشمالية حسب اصطلاح الروم تتألف من مقــاطعات : قرطاجنة (تونس) والجزائر والمغرب الاقصى . وكانت حدودها تمتد من غربى طرابلس حتى طنجة . وكانت تحت حاكم واحد ، يتبع القسطنطينية مباشرة و يستمد منها النفوذ ، وكانت مدينة قرطاجنة عاصمة تلك المقاطعة العظيمة الواسعة الغنية

و وصف ابن عذارى المراكشى فى الجزء الاول من كتاب (البيان المغرب فى اخبار المغرب) هــذا الاقليم وصفا ينطق بما كان عليــه من عمران فى ابان الفتح العربى فقال :

« ان افريقية كانت ظلا واحد من طرابلس الى طنجة وقرى متصلة ومدائن منتظمة حتى لم يكن فى اقاليم الدنيا اكثر خـيرا ولا اوصل بركات منها ولا اكثر مدائن وحصونا ، طولها مسيرة الفى ميل فى مثلها »

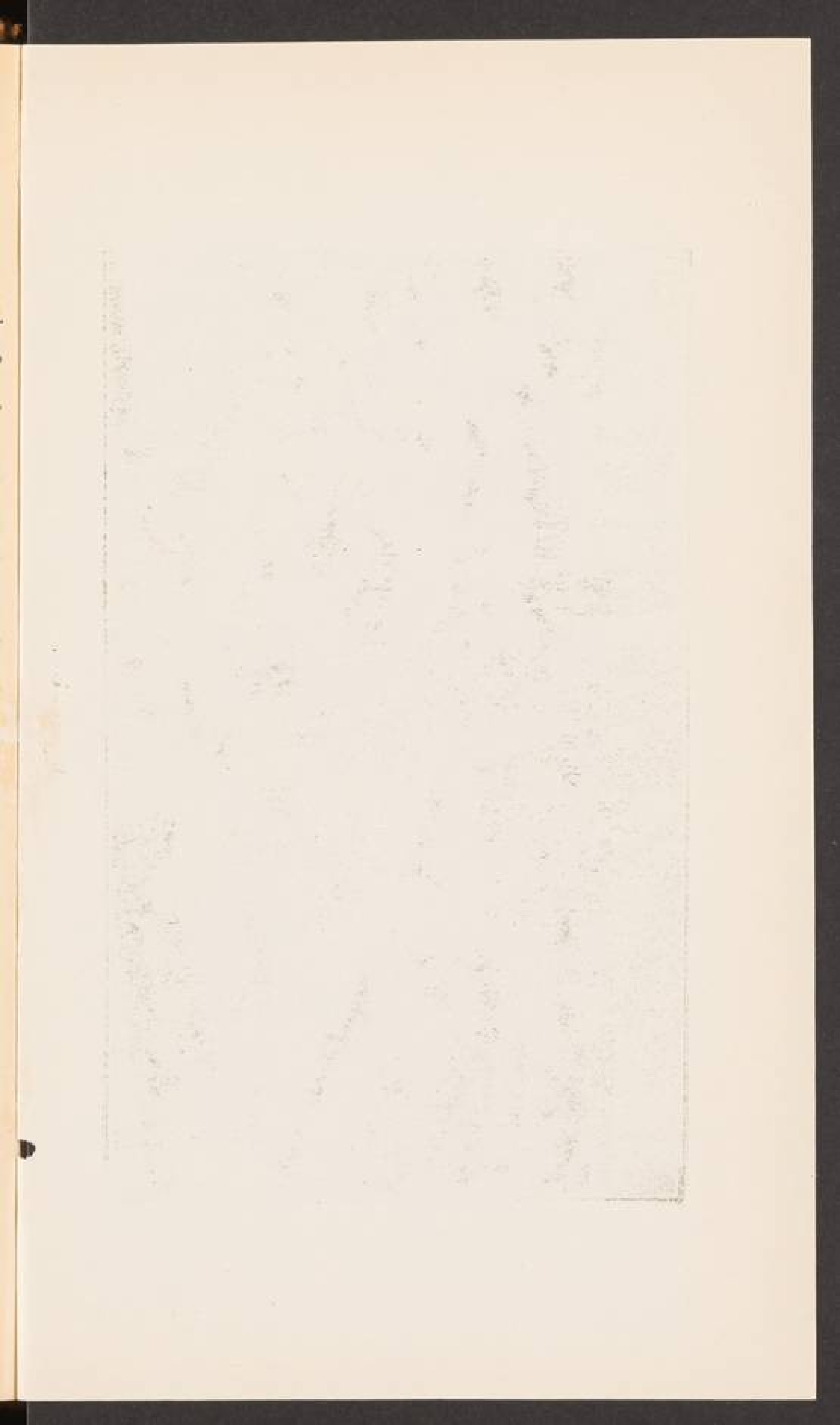
ويقول هذا المؤرخ ايضــا ان غريغوار ويسميه مؤرخو العرب (جرجير) ـ وكان قائد الروم فى افريقية الشمالية ـ سار بقوة عسكرية كبيرة لقتال عبد الله بن ابى سرح بلغ عددها ١٢٠ الف مقاتل حشدها من هنا وهنالك

قائد العرب يحتاط

ويؤخــذ من بعض التفاصيل ان عبــد الله بن ابى سرح لم يوغل فى الزحف خوف المفاجآت ، بل سار على حــذر فـكان يبث سراياه لسبرغور قوى الروم واستطلاع حالتهم فتوافيه بالاخبار وتحمل اليه المعلومات



مدينة صفاقس اليوم



غريغوار يزحف لقتال العرب

ولما ازمع غريغوار الزحف لقتال العرب ارسل مناديا ينادي في جيشه بان من يقتل ابن ابي سرح ازوجه ابنتي واهبه مئة الف دينار واستعمله على بلاده . واتصل ذلك بعبد الله فامر مناديا ينادي في جيشه بان من قتل غريغوار نفلته مئة الف دينار وزوجته ابنته وعينته على عمله

٦

المعركة الكبرى

بدأت المعركة الكبرى عند الضحى قرب سبيطلة (مدينة معروفة اليوم فى شرق تونس الجنوبى ولا تزال قائمة فى مكانها القديم وقد اثبتناها على الخريطة التى وضعناها لافريقيه الشمالية) بين العرب والروم وكان عدد هؤلاء يفوق عدد العرب اضعافا مضاعفة مما جعل بعض هؤلاء يحسب حساب العواقب ، بيد ان الذى شجعهم وقوى عزائمهم وصول نجدات ارسلها اليهم عثمان ، قبل المعركة اشتركت فيها ، وثبت الروم ثباتا عظيما ، وقاتلوا قتالا شديدا ، وابطأ الفتح على المسلمين فاشار ابن الزبير على ابن سعد بان يترك جماعة من ابطاله متأهبين للحرب ويقاتل العدو بباقى رجاله حتى يضجر هذا فيحمل عليه بالآخرين على غرة

وآنس ابن الزبير والمعركة دائرة غرة من قائد الروم غريغوار وكان على رابية مرتفعة يركب برذونا وحوله ابنته وعدد من حاشيته ، ففكر فى قتله فيكفى قومه شره ، فقصد ابن سعد فلما رآه ناداه وقال له ماجاء بك يا ابن الزبير ؟

ـ لقد رأيت عورة من عدونا فرجوت ان تكون فرصة هيأها الله لنا وخشيت الفوت . ثم اخبره الخبر فخرج عبد الله الى خارج المخيم على الفور فرأى مارآه ابن الزبير فنادى فى رجاله قائلا :

ايها الناس :

انتدبوا مع ابن الزبير الى عدوكم

فتسارع اليه القوم فاختار منهم رجالا ثم حمل بهم بعد ما قال لهم : اصرفوا عن ظهرى من ارادنى وانا اكفيكم ما امامى

قال ابن الزبير :

« وحملت فى الوجه الذى فيه غريغوار وحمل الذين انتدبوا (تطوعوا) معى واتبعونى حتى خرقت صفوف الروم و وصلت الى ارض فضاء وقفت فيها فما حسب الا انى رسول اليه حتى رأى مابى من اثر السلاح فقدر انى هارب اليه فلما ادركته طعنته فسقط فرميت نفسى و راءه واجهزت عليه و رفعت رأسه على رمحى ، وحمل المسلمون فى ناحيتى وظفروا وانهزم الروم وقتلهم المسلمون كيف شاءوا وثارت الكمائن من كل جهة ومكان وسبقت خيول المسلمين و رجالهم الى حصن سبيطلة فمنعوهم من وصوله ، و ركبهم المسلمون يمينا وشمالا فى السهل والوعر فقتلوا انجادهم وفرسانهم و اكثروا فيهم الاسار حتى لقد كنت ارى فى موضع واحد اكثر من الف اسير »

هذا ماتحدث به ابن الزبير نفسه ونقله عنه المؤرخون وهو يلقى نورا على اخبار تلك المعركة الكبرى التى كانت اول معركة انتصر فيها العرب فى افريقية ، كما كانت اول انتصار لابن ابى سرح على الروم . وقد نفل القائد ابن الزبير بنت غريغوار فتزوجها

٧

الصلح مع الروم

استقر عبد الله بن ابى سرح فى سبيطلة بعد انتصاره واتخذها قاعدة لجيشه واخذ يبث السرايا فى انحاء البلاد شمالا وجنوبا وشرقا فبلغت خيوله قصور قفصة وسبت وغنمت وسار ابن الزبير على رأس قوة الى الساحل فهاجم سوسة وافتتحها

الروم يطلبون الصلح

ولجأ الروم الى الجبال وتحصنوا فيها وخاف عقلاؤهم العواقب فاقترحوا على عبد الله ان يقبل منهم ٣٠٠ قنطار من الذهب على ان يكف عنهم ويخرج من بلادهم فقبل الاقتراح مبدئيا ثم جرت مفاوضات وانتهت بعقد صلح بين الفريقين على القواعد الآتية :

١ ـ يدفع الروم غرامة حربية قدرها ٣٠٠ قنطار من الذهب (او مليونين ونصف مليون و ٢٠ الف دينار كما يقول الواقدى)

٢ ـ يكف المسلمون عن البلاد و يجلون عنها

٣ ـ ما اصابه المسلمون قبل الصلح فهو لهم وما اصابوه بعد الصلح ردوه

تلك هى الشروط التى وصلت الينا عن الاتفاق الذى عقد بين عبد الله بن ابى سرح وولاة الامور الروم فى افريقية الشمالية ، ويفهم منها ان العرب جلوا عن تلك البلاد بعد الصلح من دون ان يتركوا فيها حاميات عسكرية كما كانوا يفعلون فى المناطق الاخرى التى افتتحوها فى مصر والشام والعراق وايران . على ان ابن خلدون يقول ان ابن سرح عين عليهم واليا منهم

بشرى الفتح

وارسل ابن ابى سرح من مقامه فى افريقية ابن الزبير الى المدينة يبشر عثمان بما افاء الله على المسلمين ، وقد اختص عبد الله نفسه بخمس الخمس و بعث بأربعة اخماسه الى عثمان وقسم اربعة اخماس الغنيمة فى الجيش فاصاب الفارس ثلاثة آلاف ، دينار والراجل الف دينار

عبد الله يعود الى مصر

ورحل عبد الله بن ابى سرح بجيشه عن افريقية الشمالية عائدا الى الفسطاط ، مقر عماله ، وقد استغرقت غزوته ١٤ شهرا

٨

الرجوع الى افريقية

لم نعثر فى كل ما اطلعنا عليه من اخبار فتوحات العرب فى افريقية الشمالية ، على تعليل معقول لحادث جلاء عبد الله بن ابى سرح عن افريقية بعد ما انتصر على حاميتها الرومية وهزمها واخضع جزءا كبيرا من القطر التونسى و بعث الرعب فى قلوب سكانه وابنائه

ولا يكاد الباحث فى تاريخ تلك الحقبة يقع على حادث مماثل لهذا الحادث تقريبا . فقد حاول ولاة الامور الفرس والروم فى المناطق الاخرى اغراء قواد العرب بالمال حينما هاجموهم لحملهم على وقف القتال او الجلاء عن البلاد ، كما فعلوا مع عبد الله بن ابى سرح فكانوا يجيبون على مثل هذه المقترحات بالرفض والرد لانهم ما جاءوا لكسب المال ، وانما جاءوا لنشر الدين واذاعته

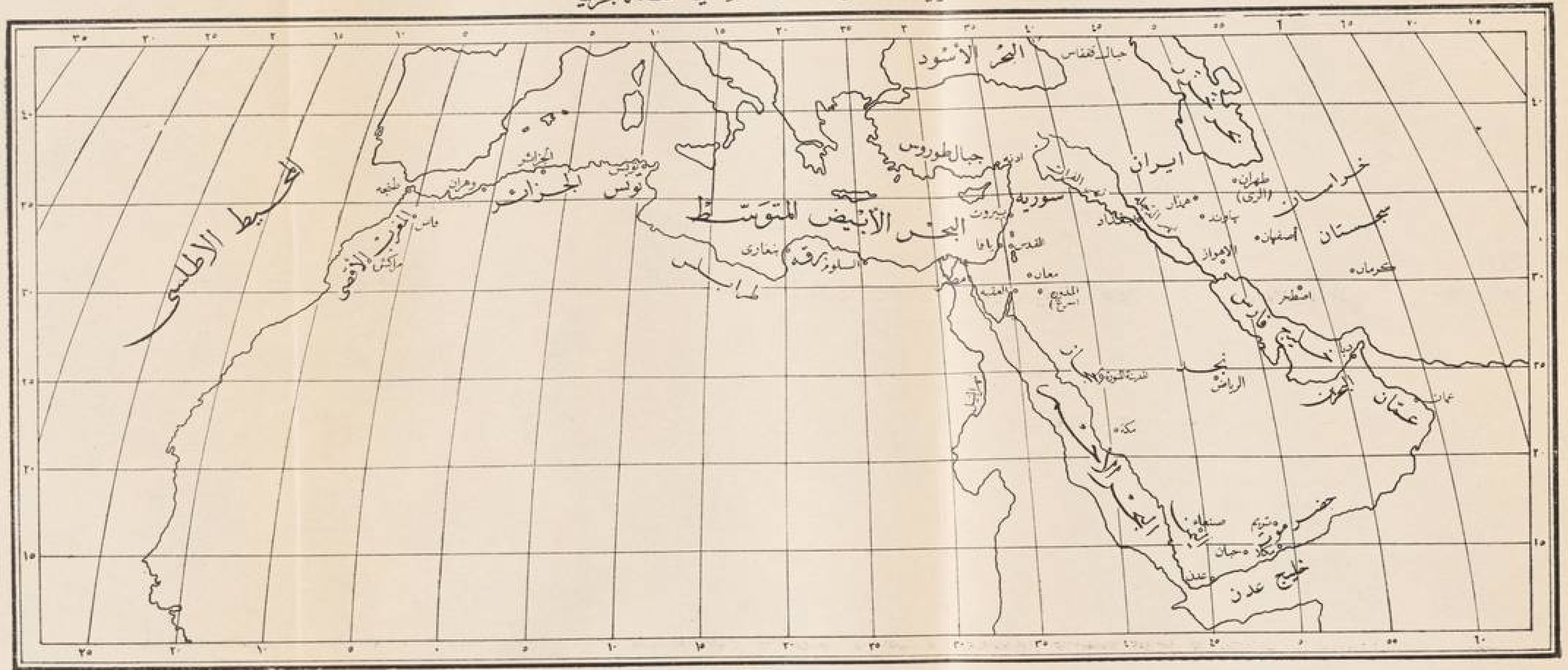
ويلوح لنا ان ابن ابى سرح طمع فى المبلغ العظيم الذى عرضه عليه الروم وهو مليونان ونصف مليون دينار كما رأيت ، يبلغ نصيبه منه مئة الف دينار وكسورا (فقد كان له اربعة فى المئة من مجموع المبلغ اى خمس نصيب بيت المال) فأخذه وقبل شرطهم بالكف عنهم وتركهم وشأنهم وقد نفذ هذا الشرط تماما فجلا عن البلاد وتركها لأهلها بعد ما قبض المال وعاد مثقلا بالغنائم مخالفا بذلك تقاليد الاسلام . ولئن كنا لا نعرف ما كان لعمله هذا من الأثر فى نفوس قومه لان المؤرخين القدماء لم يعنوا ببحثه وتحليله الا ان الذى نعرفه من المصادر الصحيحة هو ان عبد الله نفسه عاد ثانية فى سنة ٣٣ اى بعد الغزوة الاولى بثلاث سنوات ونيف ، الى افريقية فافتتحها ثانية . ويقول مؤلف كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة حينما

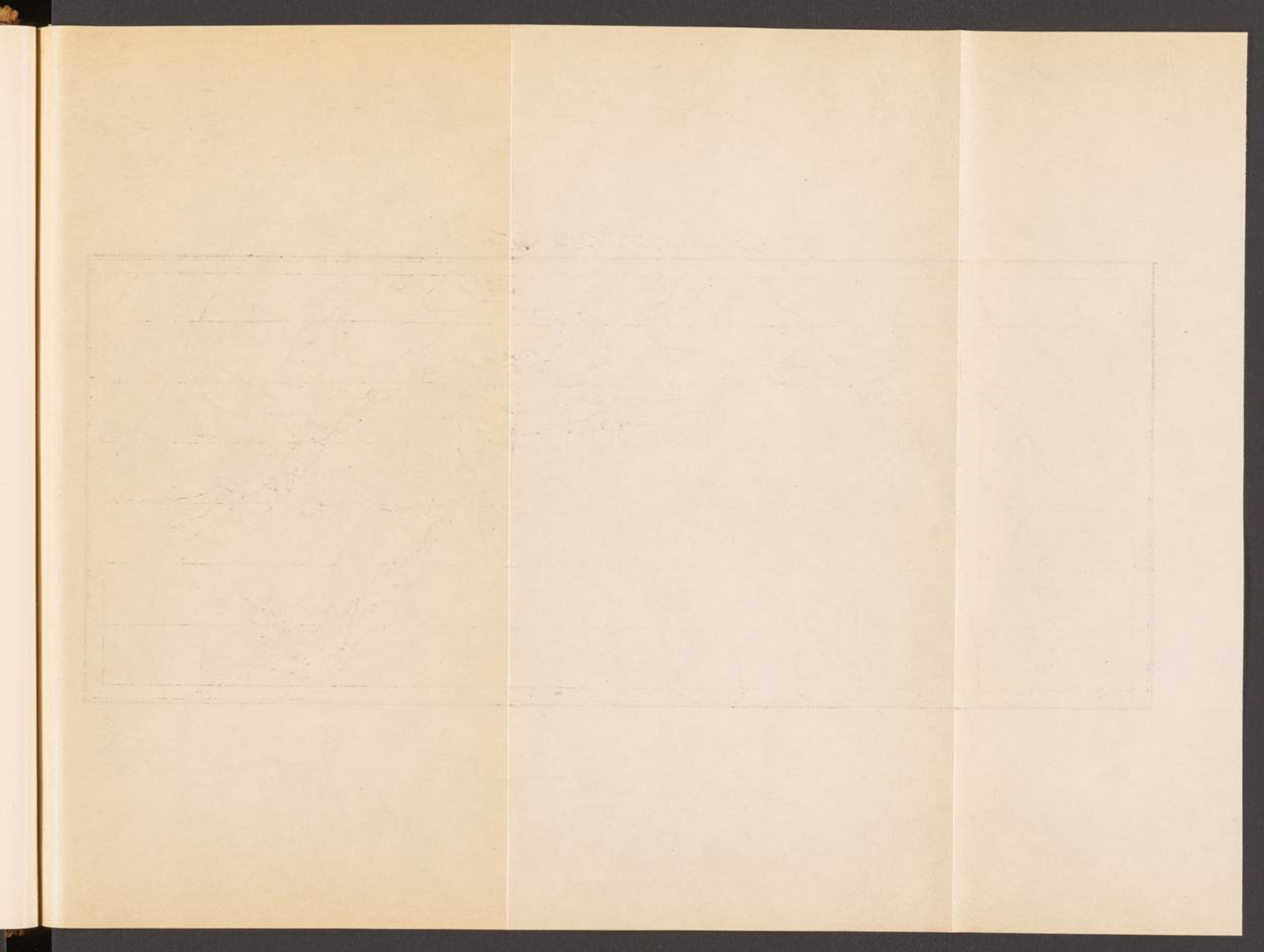
ترجم لعبد الله انه غزا افريقية ثانية سنة ٣٣ حينما نقض اهلها العهد حتى اقرهم على العهد والجزية واستشهد معه فى هذه المرة بافريقية جماعة منهم معبد بن العباس بن عبد المطلب وغيره . ومعنى ذلك انه اخضعها ثانية لسلطان الدولة العربية الجديدة

انتهاء الحروب

على هذا المنوال انتهت حروب الاسلام والامبراطورية الرومية فى عهد الخلفاء الراشدين ، فقد انتزعوا منها ممتلكاتها فى الشرق من جبال طوروس حتى طنجة وهى منطقة عظيمة جدا تضم مقاطعات كيليكية وسورية ولبنان وشرق الاردن وفلسطين ومصر وبرقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر والمغرب الاقصى ، ونشروا لغتهم ودينهم فيها

خريطة الدولة الاسلامية سنة ٣٥٠ هجرية





تلخيص وتعليق



اثبتنا فى هذا الكتاب اخبار النضال الذى دار بين دولة الخلفاء الراشدين ودولة الروم البيزنطية وقد ابتدأ فى السنة الخامسة للهجرة (سنة ٦٣٦ م) بالحملة التى قادها الرسول بالذات الى دومة الجندل (الجوف) وكانت مشمولة بنفوذ الروم فى الشام واستمر الى سنة ٣٣ ﻫ سنة ٦٥٥ اى حتى اواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، فقد شغل العرب بالفتنة الداخلية عن متابعة الحروب

ويظهر للباحث فى هذه الغارات والحروب انها امتدت ٢٧ سنة : ست فى عهد مؤسس الدولة واثنتان فى عهد الخليفة الاول ابى بكر الصديق واحدى عشرة فى عهد عمر بن الخطاب وثمانى فى عهد عثمان بن عفان ومرت فى ادوار خمسة :

١ ـ الدور الاول : وقد امتد من السنة الخامسة حتى سنة ١٣ فقد ابتدأ بالغارة على دومة الجندل (الجوف) وانتهى بمعركة اليرموك الفاصلة وقد فتحت ابواب الامبراطورية الرومية فى وجه العرب فدخلوها واوغلوا فى احشائها

٢ ـ ويبتدىء الدور الثانى : بمعركة فحل سنة ١٣ وينتهى سنة ١٦ بفتح فلسطين ولبنان وسورية حتى حدود مقاطعة كيليكية الحاضرة

٤ ـ الدور الرابع : وقد ابتدأ فى سنة ١٩ وانتهى سنة ٢٤ وفيه فتحت كيليكية ومصر وبرقة وطرابلس الغرب ولولا معارضة عمر فى فتح المغرب الاقصى لما وقفت خيول عمرو بن العاص الا على شاطىء الاطلس

٥ ـ الدور الخامس : وقد ابتدأ فى سنة ٢٥ وانتهى سنة ٣٣ وفيه هاجم عبد الله بن ابى سرح افريقية الشمالية واخضعها . وتم فى هذه الفترة انشاء اصطول عربى ضخم حارب الروم ونافسهم على سيادة البحر الابيض وكاد ينتزعها منهم واستولى على جزيرتى قبرص ورودس

تلك هى الادوار الخمسة التى مرت بها الحرب بين دولة الخلفاء الراشدين والامبراطورية الرومية وانتهت بطرد الروم طردا ابديا نهائيا من بلدان الشرق

الادنى ، ولم يوفقوا لانتزاعها من العرب مع كل ما بذلوه من جهد ، ومع كل ما حاولوه من محاولات

قوات العرب فى هذا الميدان

بدأ العرب حملتهم الاولى على الامبراطورية الرومية بالف محارب قادهم مؤسس الدولة الاسلامية فى السنة الخامسة ، ثم كانت حملة مؤتة و بلغ عدد الذين اشتركوا فيها ثلاثة آلاف . وكانت غزوة تبوك آخر حملة جهزها الرسول لغزو الروم وقدر عدد رجالها بالالوف . وقد عادت الى مقرها بالمدينة من دون ان تشتبك معهم بقتال

و وقفت الاعمال العسكرية على حدود الشام بعد موته وشغل المسلمون بفتنة الردة وما كادت تنتهى حتى عادوا فجمعوا جموعهم وأشعلوا الحرب فى مناطق الحدود فهاجموا فلسطين و بلاد الاردن وحوران وظلوا يتقدمون فى هذا الدور حتى حمص فاستولوا عليها ثم تراجعوا الى اليرموك حينما نهض الروم لقتالهم و يقدر عدد العرب الذين اشتركوا فى هذه المعركة بستة وثلاثين الفا منهم ٢٦ الفا هم مجموع جيش الشام والعشرة الآلاف الباقون من جيش العراق . وقد اعيدوا الى العراق بعد اليرموك و بعد فتح دمشق فعاد جيش الشام الى ما كان عليه وهو ٢٦ الف مقاتل هم الذين تم على يدهم تقويض الامبراطورية الرومية فى الشرق الادنى وانتزاع هذه الاقطار الواسعة منها

و رب قائل يقول ان عمر كان يمد جيش الشام بنجدات من آونة الى اخرى فنجيب بان عمر شغل فى اول خلافته بحرب الفرس فارسل الى ميدان القادسية كل ما كان لديه من قوى وان المؤرخين لم يرووا ان نجدات ارسلت الى هذا الميدان بعد معركة اليرموك لان الحرب الحقيقية انتهت بانتهائها وما حدث بعدها كان معارك ثانوية بالنسبة اليها

ولو فرضنا ان هنالك نجدات كانت ترسل ـ ولا نظن ان الامر كان يخلو من ذلك ـ لما كانت الا لملء الفراغ الذى يحدث عادة فى الصفوف بسبب الامراض والاوبئة والقتلى الذين يسقطون فى المعارك . وقد لانعدو الصواب اذا قدرنا مجموع الجند الذى جهزه العرب لقتال الروم فى تلك الفترة بخمسين الف مقاتل ما كانوا يملكون من المعدات العسكرية ما يستحق ان يذكر فى جانب معدات الروم العظمى

قوات الروم فى هذا الميدان

هذا بيان تقريبى لعدد العرب الذين قاتلوا الروم فى مختلف الميادين سحابة ٢٨ سنة . اما عدد جيش الروم فى هذه المناطق فما كان ينقص عن ٣٥٠ الفا على اقل تقدير كانت موزعة فى شتى المناطق وهذا بيان تقريبى عنها :

١٥٠،٠٠٠	سورية ولبنان وكيليكية
٣٠،٠٠٠	فلسطين
١٠٠،٠٠٠	مصر
٢٠،٠٠٠	برقة وطرابلس الغرب
٥٠،٠٠٠	شمالى افريقية (تونس والجزائر والمغرب)
٣٥٠،٠٠٠	المجموع العام

ولا بد لنا من القول بان الروم لم يحشدوا للعرب هذا العدد فى معركة من المعارك وان قواهم كانت فى ابتداء الحرب مشتتة هنا وهنالك اى فى سورية وفلسطين والاردن ومصر والمغرب بعكس قوات العرب فقد اجتمعت كلها فى مكان واحد ونازلت الروم فلما تغلبت عليهم وهزمت قواهم الكبرى اوغلت فى البلاد تقتل ، وتأسر ، وتفتتح فلم يقو الروم على وقف زحفها ، ولا على عرقلة حركاتها

وقد يرى بعضهم مبالغة فى هذا الرقم وهو تقريبى ولا يخفى ان الامبراطورية الرومية كانت تملك اقطارا واسعة ، وما كان عدد نفوسها يقل عن ٥٠ مليونا

فاعداد ثلث مليون مقاتل وانزالهم الى ميادين الحرب فى خلال ٢٨ سنة امر بسيط بالنسبة لها وكانت تعد اعظم دول العالم فى عصرها . وكانت تملك عدا المقاطعات التى انتزعها منها العرب : الاناضول ، ومقدونية ، واليونان ، وارمينية ، وقفقاسيا ومعظم شرقى او ربا اى الجزء المعروف من العالم كما كان جيشها اعظم الجيوش على الاطلاق سواء من جهة العدد او من جهة العدد . ويبالغ مؤرخو العرب القدماء فى تقدير الروم الذين قاتلوا العرب ويقولون ان عددهم فى معركة اليرموك وحدها بلغ مئتين وخمسين الفا ، وان عدد الذين احتشدوا فى قيسارية بلغ مئتين وثمانين الفا . ويقولون ان قواتهم بمصر ما كانت تقل فى مجموعها عن ٣٠٠ الف وان قوات غريغوار فى افريقية وهى التى نازلها عبد الله بن ابى سرح فى سبيطلة ما كانت تقل عن ١٥٠ الف جندى ويبلغ مجموع ذلك نحو مليون جندى فضلا عن القوات التى كانت فى المراكز الاخرى

المعدات الحربية

وما كان هنالك اى نسبة بين المعدات الحربية عند الروم وعند العرب فقد كان لدى الجيش الرومى افضل المعدات المعروفة فى ذلك العصر واكملها . اما العرب فما كانوا يملكون سوى معدات بسيطة جاءوا بها من جزيرتهم وقد ورثوها عن اسلافهم الاولين وهى السيف والرمح والقوس والحربة . وكان نظام التعبئة عندهم قديما ايضا . وقد عدلوه يوم اليرموك وتشبهوا بالروم فى تعبئتهم لانها كانت اكمل وافضل

الحصون والخنادق والقلاع

وما كان تفوق الروم على العرب بقاصر على عدد الجند وعدده بل كانوا يتفوقون ايضا بالحصون والمعاقل والقلاع وقد اكثروا منها فى سورية وفلسطين ومصر

وافريقيــة فازعجت العرب وعاقت تقدمهم وعرقلت حركاتهم حول بصرى وحمص ودمشق وقيسارية واجنادين وفحل و بيت المقدس وبابليون والاسكندرية و بنطابولس واطرابلس بيد انهــم تغلبوا عليها واحــدا بعد واحــد واسروا رجالها ولم يعجزهم حصن منها

التفوق البحرى

وكذلك كان الروم يتفوقون على العرب باسطولهم البحرى العظيم ، سيد البحر الابيض وكان يملأه بسفنه و يتجول بلا انقطاع بين الدردنيل وقرطاجنة حاملا الجند والقوى والقواد ، فأدى لقومه اعظم الخدمات فى ذلك النضال العنيف . وظل يسيطر عــلى البحر حتى انشأ العرب اسطولهم فى طرابلس الشام وفى الاسكندرية سنة ٢٨ فاشترك فى الاعمال العسكرية التى عملت بعــد ذلك ونافس الروم وانتزع منهــم الجزر المتاوحة للشواطىء السورية والاناضولية وهى ارواد وقبرص و رودس

ميزات اخرى

وكان ثمة ميزات اخرى امتاز بها الروم على العرب هذا بعضها :

١ ــ كان العرب فى حروبهم كلها مهاجمين لامدافعين . ومن البديهيات فى فن الحرب ان مهمة المهاجم اصعب من مهمة المدافع واشق ، ففى استطاعة مئات من الجند يرابطون فى مضيق او قلعة او فى مكان مرتفع ان يصدوا آلافا من المهاجمين و يتغلبوا عليهم بل و يهزموهم وكان يضاعف فى صعوبة المهمة التى اخــذها العرب على عاتقهم انهــم كانوا يقاتلون فى مناطق حصينة محكمة اعــدت اعدادا فنيا وشحنت بالجنود والضباط المدربين المجربين . فكان ذلك من جملــة الاسباب التى عاقت الفتح لان العرب ما كانوا يملكون الوسائل الكافية لتدمير الحصون بل كانوا يلجأون

الى الطريقة البسيطة « طريقة الحصار والتضييق بقطع الزاد »

٢ ـ كان الروم يقاتلون فى داخل بلادهم وممالكهم ، وفى اراض درسوها وخبروها ، وعرفوا مداخلها ومخارجها ، وسهلها ووعرها ، بعكس العرب الذين كانوا يقاتلون فى بلاد يعدون غرباء فيها ، ولولا افراد منهم كانوا يترددون عليها فى الجاهلية للتجارة او لاغراض اخرى ، لما كان هنالك احد يعرفها منهم ومعرفة جغرافية الاراضى وطبيعتها وطرقها ومسالكها من اشد الضرورات فى الحروب للجيوش

٣ ـ كان العرب يقاتلون فى بلاد دينها غير دينهم وعاداتها غير عاداتهم وجوها غير جوهم واذا استثنينا مناطق صغيرة على الحدود فعدد الذين كانوا يتكلمون العربية فى سورية ومصر وافريقية الشمالية قليل جدا ، لانه ما كان هنالك عامل يغرى سكان هذه البلاد بدراسة هذه اللغة واتقانها

٤ ـ وفرة المصادر المادية وتعددها عند الروم وضعفها وقلتها عند العرب ، فقد كانت هنالك امبراطورية واسعة شاسعة مترامية الاطراف غزيرة الثروة نامية الموارد ، تشد ازر الجيش الرومى فى الشام وتمده بالاموال والرجال تسوقها من جميع اطراف الامبراطورية ولئن استطاع الخليفة ان يمد العرب بطوائف من الجند يجمعها بين الفترة والفترة بطريق التطوع ويرسلها اليهم فان موارد بلاد العرب المالية ما كانت تساعد على ارسال مساعدات مالية الى الجيش المحارب بل كان عليه ان يكفى نفسه

هذا بعض ما يحضرنا من الميزات التى كان الروم يمتازون بها على العرب فى حربهم تلك وهى ميزات عظيمة الشأن لا يستهان بها ولا يغفل شأنها ، ولولا اتفاق جميع المصادر التاريخية من عربية وقبطية ورومية على صحتها لتردد الباحث فى التسليم بها لانه من غير المعقول ان يتفوق جيش صغير قليل العدد والعدد كالجيش العربى لايزيد عدد رجاله على خمسين الفا على جيش عظيم كالجيش الرومى ويسحقه

سحقا و ينتزع منه اقطارا واسعة انتزاعا ابديا فلم ترتفع للروم راية فى بلاد الشام ومصر وافريقية بعد ان طويت فى زمن الفتح العربى ولم يوفق الروم الى استرداد هذه البلاد وانتزاعها من ايدى فاتحيها كما كانوا يفعلون مع الفرس والفنداليين وغيرهم من الامم التى حاربتهم وتغلبت عليهم فلم يلبثوا ان تغلبوا عليها وانقذوا بلادهم من ايديها

عوامل تفوق العرب

لاجرم ان هنالك عوامل ادبية ضمنت للعرب التفوق والفوز واكسبتهم النصر وهى متعددة بعضها ايجابى و بعضها سلبي ونحن نسرد العوامل الايجابية ثم نقفى عليها بالعوامل السلبية :

ان العوامل الايجابية هى :

١ ـ تفانى العرب فى نصرة دينهم وتسابقهم الى الموت فى سبيل تأييده ونشره وترفعهم عن تطلب العرض الدنيوى الزائل واعراضهم عن الزخارف الكاذبة وعن طلب المال والسعى اليه

٢ ـ الوحدة العنصرية فى صفوفهم ، فقد كانوا كلهم من عنصر واحد ومن بلاد واحدة . بعكس الجيش الرومى فكان مزيجا من امشاج شتى ومن عناصر مختلفة متعددة

٣ ـ اختلاف المثل العليا عند الجيشين : فقد كان العربى يقاتل فى سبيل غايتين معينتين : فاما ان يفوز فينال اجر المجاهد واما ان يموت فيفوز بأجر الشهيد وفى كلتيهما الغنم وما كان رجال الجيش الرومى يعتقدون مثل هذه العقيدة

٤ ـ نشاط افراد الجيش العربى و بسالتهم وتعودهم على شظف العيش وقناعتهم بالقليل

٥ ـ كفاءة القيادة عند العرب ومهارة القواد الذين اداروا المعارك و براعتهم فى

وضع الخطط وتنفيذها فقد رفعت الاعمال العسكرية التى عملت فى هـذه الميادين خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص الى مرتبة الخالدين من القواد العسكريين

٦ ـ المساواة التامة التى كانت شعار العرب فلم يكن هنالك سيد ولا مسود ولا كبير ولا صغير ولا امير ولا حقير بل كان الكل سواء لافضل لأحد على آخر الا بالتقوى والاخلاص

تلك هى فى نظرنا العوامل الايجابيـة التى ضمنت للعرب النصر ومكنتهم من هزيمـة الروم والتغلب عليهم ، مع انهم كانوا يحاربون الفرس فى الشرق ويفتحون اقطارهم

بقى علينا ان نذكر العوامل السلبية التى نرى انهـا ساعدت عـلى فوز العرب ونحن نجملها فيما يأتى :

١ ـ تعدد العناصر فى البلاد التى هاجمها العرب ونقمة هذه العناصر على الروم ومقتهـم وتمنى زوال دولتهم ، فقـد كـان القبط فى مصر يمقتونهـا لاضطهادها زعمائهم ورؤساء دينهم ولاقصائها ابنـاء ملتهم عن دور الحكومة ، مقت اليهود فى فلسطين لهـا ، وكرههم اياها ، وكان الروم يذبحون اليهود ويضطهدونهـم ويعملون على استئصالهم . وآخر مذابحهم تلك التى حدثت فى سنة ٦٢٨ اى حين زيارة هركليوس لبيت المقدس

وكانت سورية نفسها مؤلفـة من عناصر وقوميات كما هى اليوم فكان سكان المناطق الشرقيـة والجنوبية من العرب الخلص وسكان السواحل من الآراميين والاشوريين وكان سكان الشمال من اليونان والارمن لارابطة تربطهـم ولا تجمع بينهم سوى جامعة الخضوع للقوة المسيطرة عليهم

اما سكان افريقية الشماليـة فكانوا من البربر وكانت هنالك جالية روميـة واخرى يهودية

وتنفس سكان هذه البلاد الصعداء . وكانوا ناقمين على حكامهم اشد نقمة ـ

حينما جاءهم العـرب ، يحملون مصباح العدالة والمساواة فأقبلوا عليهـم والتفوا حولهم وايدوهم ونصروهم ، ولولا ذلك لما تسنى لهم احتلال هذه الاقطار والتغلب على جيوش الروم الكبرى التى كانت تدافع عنها وما استطاعوا توطيد سلطانهم فى ربوعها

٢ ـ الاختلاف الشديد الذى كان سائدا بين قواد الامبراطورية سواء فى الشام وفى فلسطين او مصر فقـد كان كل منهم يكيد للآخر ويعمل لقهره واذلاله . لا تهمه مصلحة بلاده وقومه . وقد سجل مؤرخو الدولة الرومية هذه الحقيقة واعترفوا بها

٣ ـ اضطراب حال الامبراطورية بسبب الحروب المتتابعـة وتشتت رجالها وانقسامهم الى احزاب وشيع بعد وفاة الامبراطور هركليوس فهذا يؤيد ابنـه وهذا يؤيد زوجته مما زاد فى مصائبهم وانتج زيادة الخلف والشقاق بينهم

٤ ـ الانقسامات الدينية بين سكان الامبراطورية ومحاولة الامبراطور فرض مذهب الدولة على الطوائف الاخرى وحملها على تغيير عقائدها الدينية

٥ ـ عدم وجود خطة حربيـة مشتركة يسير عليها قواد الروم فى حروبهم مع العرب فقد كان قائد كل منطقة يعمل منفردا عن زملائه بعكس قواد العرب

٦ ـ استهانة قواد الروم ورجالهم العسكريين والملكيين بالعرب وعدم سلوكهم سبيل الجـد فى قتالهم عند ابتـداء هجومهم ، واعتقادهم بان غارتهم من الغارات التى يسهل قمعها والقضاء عليها ان لم يكن بالقوة فبالمال او بوسائل اخرى

٧ ـ اضطراب الحالة الاقتصادية وسوءها فى معظم البلاد التى هاجمها العرب

تلك هى جملة العوامل السلبية التى ساعـدت العـرب فى نضالهم فتغلبوا على الروم وظلوا يسوقونهم امامهم حتى جبال طوروس شمالا بعـد ما انتزعوا منهم جميع الاقطار الواقعة جنوبى هـذه الجبال . ولولا الفتنة الداخلية التى شبت فى زمن عثمان وقد شغل العرب بهـا عن الفتوحات والحروب الخارجيـة ، لما وقفت خيولهم الا فى القسطنطينية ولافتتحوها كما افتتحوا المداين من قبل

الفرق بين الفتح العربى وفتوحات الامم الاخرى

وهنالك فرق كبير بين الفتح العربى وغيره من فتوحات الامم الاخرى ، فقد تغلب على الاقطار التى انتزعها العرب من الروم كثير من الفاتحين فلم يستطيعوا الاحتفاظ بها ، وكان الفرس آخر هؤلاء فوثب عليهم الروم وظلوا يضربون فى اقفيتهم حتى اوصلوهم الى المداين وهناك املوا عليهم شروط صلح قاسية ، وقعوها مكرهين ، ونفذوها مرغمين

وحاول الروم تطبيق هذه الخطة مع العرب فكروا على الشام وهاجموا الاسكندرية واحتلوها وظلوا يتقدمون حتى بلغوا نقيوس فنهض عمرو لقتالهم واجلاهم عن مصر كما اجلاهم خالد عن الشام فعادوا الى الاسكندرية بحرا فى سنة ٣٣ فهزموا ايضا ولم يستطيعوا ان يطأوا اليابسة . واذا استثنينا مقاطعة كيليكية وقد تم للروم فى بعض الادوار احتلالها والسيطرة عليها فالاقطار الاخرى ظلت للعرب ولا تزال فى ايديهم حتى الآن مع تبدل الادوار ومرور العصور والايام

ومن تحصيل الحاصل القول بانه كان للخطة التى جرى عليها العرب فى حكم البلاد التى افتتحوها تأثير لا ينكر فى تعربها وفى دخولها فى دينهم فقد اقروا فى ابتداء احتلالهم الانظمة القائمة ولم يلغوا منها الا ما لا يتفق مع قواعد دينهم وفتحوا باب الدخول فى هذا الدين على مصراعيه فدخله الناس افواجا افواجا . وكان فى مقدمة المزايا التى ينالها من يدخل فيه : ان توضع عنه الجزية (الضريبة السنوية) وان يمنح كل ما للعرب الفاتحين من حقوق ويجلس معهم على بساط المساواة . وما كان الروم يعاملون ابناء البلاد الاصليين بمثل هذه المعاملة يضاف الى ذلك اختلاط العرب الفاتحين بأهل البلاد اختلاطا كبيرا واتصالهم بهم اتصالا وثيقا نشأ فى الغالب عن طريق الزواج والمصاهرة

ولقد ادى رخاء العيش فى البلاد المفتتحة ، وحاجة الحكومة الجديدة الى

جيش قوى تعتمد عليه فى دمد الغارات الخارجية وتوطيد الامن الداخلى ، الى نزوح
كثير من القبائل العربيـة من الحجاز واليمن ونجـد الى البلاد المفتتحة واستيطانها
فنزل بعضها الشام ونزل الآخر مصر ونزل غيرها فى شمالى افريقية واستبدلهـا بالوطن
القديم ، بعد ما صارت جزءا من اجزاء الوطن العربى العام وقسما من اراضيه و بلاده

القبائل النازحة

ويؤخذ مما رواه المؤرخون ان قبائل العرب انتشرت من سواحل الفرات حتى
شواطىء الاطلس فاختلطت بسكان البـلاد الاصليين وامتزجت بهم امتزاج المـاء بالراح
وطبعتهم بالطابع العـربى سواء بادخالهم فى الدين الجـديد او بنشر اللغـة العربيـة
بينهم ، وسواء بطريق المصاهرة والاشتراك فى الاعمـال الاقتصادية والزراعية وغيرها
وهو ما لم يكن الروم ولا غـيرهم من الفاتحين الآخرين يفعلونه ، وكان من
نتيجة هـذا التفاعل ان تغلبت العروبة عـلى هـذه الاقطار اجتماعيا كما تغلبت عليها
سياسيا وعسكريا فتوطد نفوذ العرب واستقر ملكهم . ورب قائل يقول انه كانت
هنالك فتن تحدث من آونة الى اخرى ، ودول تسقط واخرى تقوم مقامها ، فنجيب بان
هذا كان من الحوادث الداخلية الخاصة . والمرة الوحيدة التى حاول فيها الاجانب انتزاع
هذه الاقطار من الاسلام كانت فى اثناء الحروب الصليبية وقد دامت نحو قرنين وانتهت
بهزيمة الصليبيين وعودتهم من حيث جاءوا . واستقر الاسلام نهائيا بعد ذلك فى هذه
الربوع حتى كانت النهضة الحديثة فجاءت اوربا تغزو الشرق بخيلها ورجلها مغتنمة
فرصـة انحطاطه الاجتماعى فاستولت عـلى بعض الاقطار و بسطت عليها نفوذها وتلق
مقاومة فى كل مكان

وخلاصة القول ان الفتح العربى فى الشام ومصر وافريقية سيظل من الاعمال
العسكرية التى يصعب ابتكار تعليل معقول لها فلم يرو التاريخ الحربى منذ عرفه الناس
حتى يومهم هـذا ان جيشا صغيرا فقيرا ، قليل العدد والعدد ، يهاجم اقطارا عظيمة ،

محصنة يدافع عنها جيش قوى ، منظم ، كامل العـدد يفوقه اضعافا مضاعفة ، فيتغلب عليه ويهزمه ويستولى على حصونه الواحد بعـد الآخر ، وعلى اقطاره قطرا بعد قطر ويستقر فيهـا ويصهرها فى بوتقة قوميته ، ويوطد اقدامه فيها . لا جرم ان هنالك قوى روحيـة اخرى ساعدت العـرب ومكنت لهم فى الارض وهى قوة الايمـان الصحيح فبها اعتزوا وفازوا ، والفوز دائما وابدا لاصحاب العقائد الصحيحة ، والتوفيق حليفهم فى كل آن و زمان


تقويم الكتاب

هـذا الكتاب

مصادر الكتاب

الغارات فى العهد النبوى

التعبئة فى عهد ابى بكر

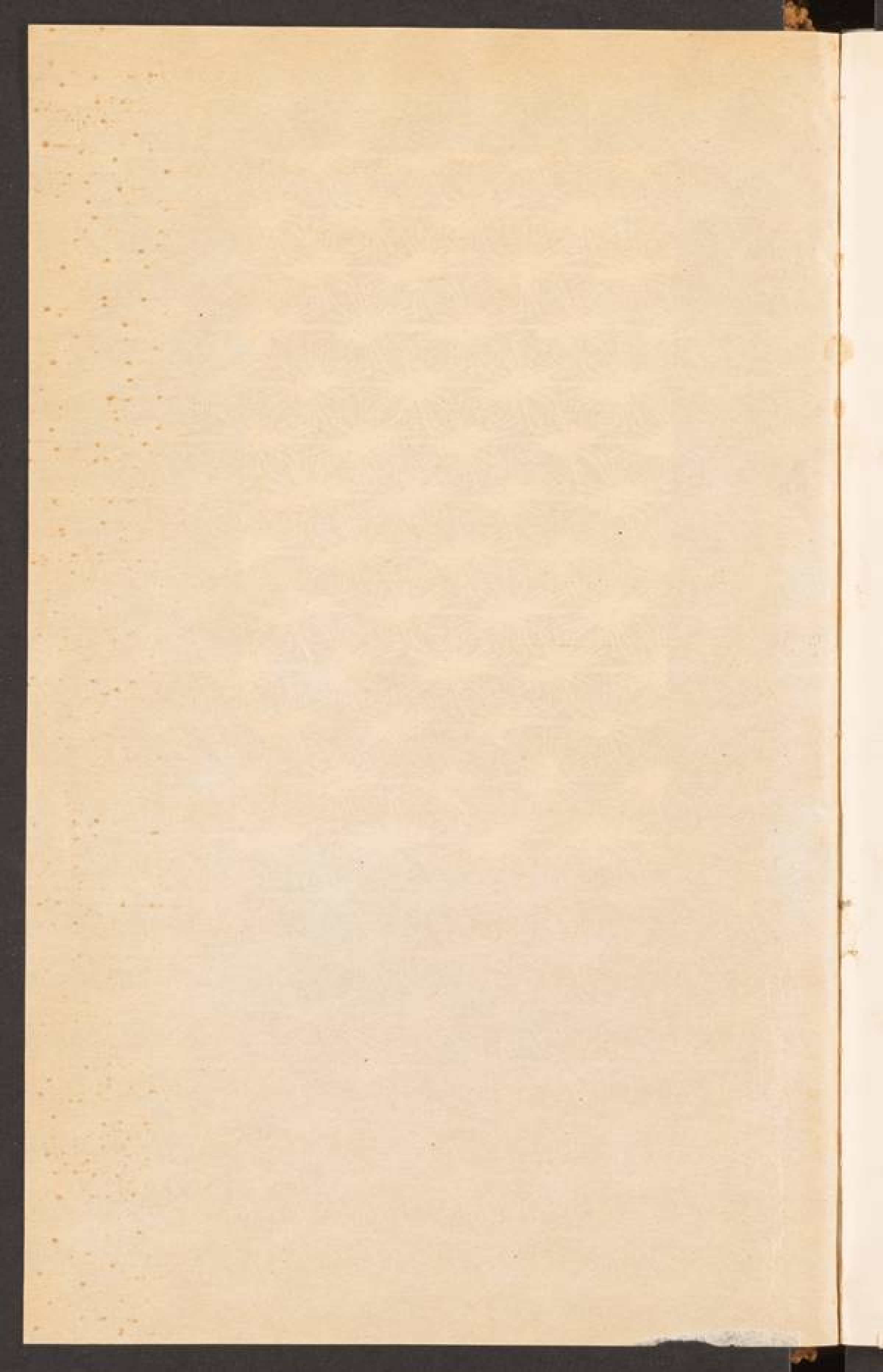
فتح فلسطين

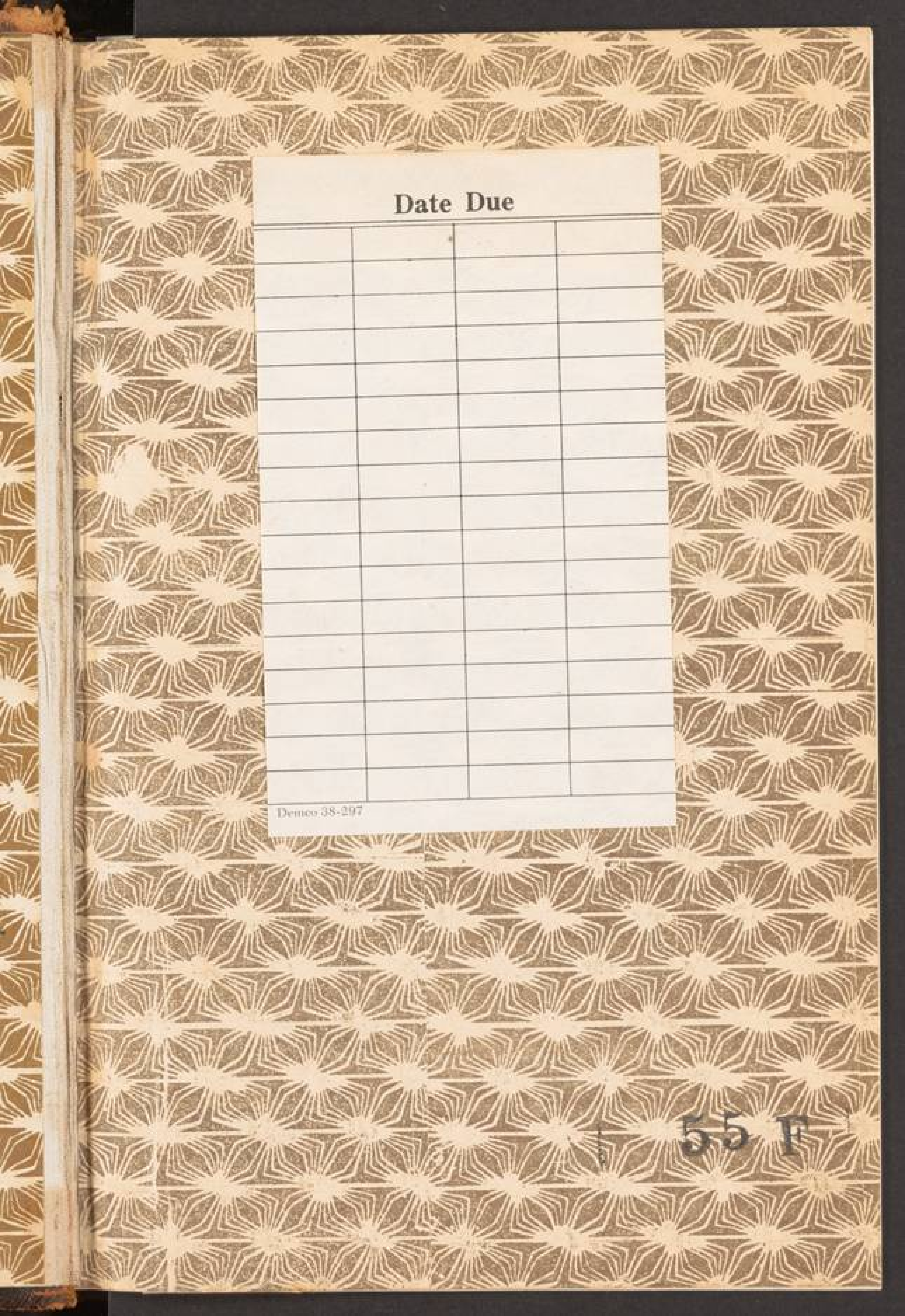
فتح سورية

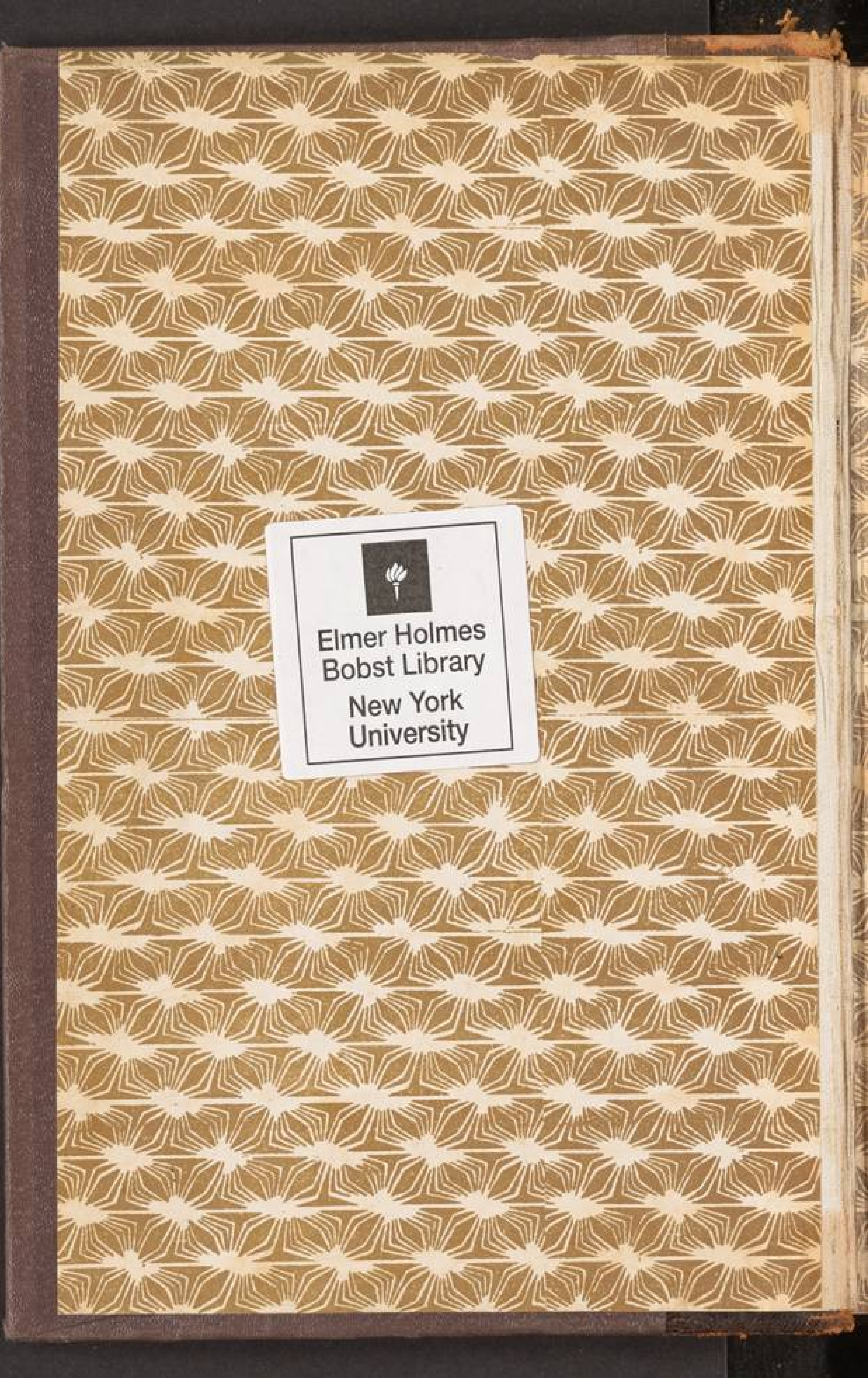
فتح كيليكية

فتح مصر والسودان

فتح شمالى افريقية




Date Due
Demco 38-297
55 F



Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University


NYU - BOBST
31142 01912 6559
DS38 .S3 1935
ʿurub al-Islam wa-a